د. محمد حسين أبو العلا

حديث التاريخ للمستقبل

47 حوارًا مع رموز الفكر والثقافة

المحروسة

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق -متميزون-

انضم الى الجروب
انضم الى القناة

حديث التاريخ للمستقبل
(٤٧) حوارًا مع رموز الفكر والثقافة..

د. محمد حسين أبو العلا

عن الكتاب..

بين دفتي هذا الكتاب 47 حوارًا مع شخصيات أثْرت الحياة الفكرية على الصعيدين العربي والعالمي، مثل زكي نجيب محمود، بيير غارتون، نجيب محفوظ، لويس عوض، ثروت عكاشة، أليكس هيلي، سهير القلماوي، جورج قنواتي، روبرت يانغ، كريستيسان باروش، بطرس غالي، سعد مصلوح، وحسين مؤنس.

وهي حوارات أدارها المؤلف بمستوى من العمق والمهارة جعلها بمثابة ملف مكثف عن هؤلاء المفكرين، الأمر الذي يجعل هذا الكتاب لا غنى عنه لقارئ يتطلع لمعرفة الأفكار الرئيسية والتوجهات الأساسية لهؤلاء الأعلام، وبالذات عندما لا يكون قد تمكّن من قراءة هذه الأفكار والتوجهات من قبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة

إنها كلماتٌ قديمةٌ بحُكْمِ التاريخ، حاضرة بحكم المعنى والجوهر والقيمة، شامخةٌ بحِدَّةِ الوَعْى، متألِّقةٌ بنفاذ البصيرة ودِقَّةِ الرؤية وثبات الموقف.. كلماتٌ نَسَفَت الفَجْوَةَ الزمنية بين لحظةٍ ما قِيلَتْ ولحظةِ تَجَلِّيهَا اليوم؛ فلا يزال استحضارُها يمثِّل معايشةً للتوهُّج الذهنى، بعد أن خمدت جذوة الإرادة الذاتية للأجيال المُعَاصِرَة، التى آثَرَتْ عُزْلَةَ العقل واحتجابَه عن الاشتباك مع مفردات الواقع، ساعية نحو الاسْتِمْسَاكِ بالعقل البديل؛ باعتباره القائدَ التاريخى للمَسِيرَة الإنسانية التى لا ترتَضِى مطلقًا بذلك الغَثِّ القديم المتهالك!!

نعم.. إنها كلماتٌ قديمة، لكنها لا تزال حَيَّةً نابضةً تحمل إيحاءاتٍ عِدَّة، وتُطْلِقُ العقلَ نحو فضاءاتٍ آسِرَةٍ تجذبُه نحو المُسْتَقْبَل الذى لا تَتَفَوَّضُ أو تَنْدَكُّ أركانُه؛ لأنه مؤسَّس على المعرفة، لا ذلك المُسْتَقْبَل المؤسَّس على الخيال، والقائم على تَنْمِيطِ الكينونة البشرية، المُمَثِّل بالضرورة لضِدِّيَّةِ الوجود.

هى ليست كلماتٍ فاضَتْ بها عقولٌ واعيةٌ، لكنها دُرَرٌ فِكْرِيَّة تَتَحَلَّى بها النفس والرُّوحُ والمَلَكَاتُ فى مَوَاطِنِ الأزمةِ والتَّصَارُع والاحتدام، لتُعْلِنَ طغيانَ سُلْطَةِ الثَّقَافَة فى التَّوَاجُهِ مع سُلْطَانِ الظلام.. ذلك المُتَآمِرِ الأكبر على جملة البشر.

ولعلَّ الشواهد التاريخية لإحداثِ الصَّحْوَةِ إنما قد جاءتْ من كلماتٍ كتلك، بغَضِّ النَّظَرِ عن كونها تنتمى لأعماق الماضى السحيق أو الماضى القريب أو الحاضر الضَّنِينِ على رَوْضَةِ الفِكْرِ، لكن القياس الموضوعى هو المعتمِد دومًا على مدى الفاعلية والتأثير وزَحْزَحَةِ الثَّوَابِتِ والتَّمَاهِى مع المتغيِّرات، ومن هنا يَجْدُرُ اسْتِلْهَامُ تلك الخواطر على اختلاف الجولات الزمنية وتحوُّرَاتها؛ لأنها تُعَدُّ مُحَقِّقَةً لوجودِ رصيدٍ هائلٍ من العطاء المُسْتَقْبَلِىّ الذى يكون شفيعًا فعليًّا لاحترام الماضى بما حفل من ثراءٍ وخصوبةٍ كان مَصْدَرُهَا اقتحامَ بؤرةِ الإدراكِ والتَّسَامِى على المَحْدُودِيَّة بالإطلالةِ العلوية على القضايا الشائكة، التى لا نزال نَسْتَوْضِحُ أسرارَها وأَغْوَارَهَا ومعانيها الخفية، التى يُظَنُّ حتى اللحظة أنها من الوضوح على درجةٍ، بينما هى النَّقِيضُ بعينه، وإلا فلماذا لم نَقِفْ على حلولٍ تَنْسِفُ هذه القضايا من جذورها، وتهدمُ معاناة الإنسان المُعَاصِر إثر جَرَائِرِهَا الكبرى.

ولعل هذا الكتاب قد جاء ليحتضنَ بين دفتيه ملحمة حِوَارِيَّةً أقامها شابٌّ طَامِحٌ جَسُورٌ له عقلٌ مَسْكُونٌ بالمعرفة، مَشْغُوفٌ بتَلافِيفِهَا وتَشَعُّبَاتِهَا، ونَفْسٌ بَاتَتْ أَحْقَابًا يُرَاقِصُهَا الأملُ فى الوقوف على كُنْهِ هذه المعرفة؛ لتَتَعَلَّمَ كيف تقرأ العالمَ بالسؤال، ورُوحٌ يَلُفُّهَا الشَّجَنُ المُقَدَّسُ لكنها تَوَّاقَةٌ للجديدِ عاشقةٌ

للتغيير... فآثَرَ أن يختبئ من أهوال تلك المعرفة وعذاباتها، فاكتوى بنارها فى عقول أولئك الذين أُوتُوا العلمَ درجاتٍ وصاروا على بصيرة، فكان له ما كان من صدماتٍ وصِدَامَاتٍ وشَغَبٍ وجَدَلٍ وتَنَاقُضٍ وقَنَاعَةٍ ورفضٍ واستعلاءٍ وخُضُوعٍ ومراجعة وتصويب وغيرها من المعانى التى أشعلتْ بذاتها داخله حربًا شعواءَ لم تَضَعْ أوزارها إلا حين الْتَقَى المُنْحَنَى الزمنىُّ لديه بالمنحنى التاريخى لهذا العصر وما يليه، فوجد نفسه ذاتًا مَأْخُوذَةً بمسئولية جسيمة تقتضى ظهورَ وإشاعةَ كلماتٍ أرادَ بها تحقيق معنى الفعل التَّوَاصُلِىّ الرافض لفِكْرَة تَفَاصُلِ المَحَاوِرِ الزمنية، والقائم على جوهر تواليها واتِّسَاقِهَا وإحكام تَرَابُطِهَا.
فكان أن قَدَّمَ عبرَ صفحات كتابه هذا وثيقة فِكْرية طموحة تَتَّسِمُ بالمُرُونَةِ والعُمْقِ واحْتِشَادِ الأطياف الزمنية.. تطرح أشياء وأشياء عن جدليات الخطاب الثَّقَافِىّ وما يَشِفُّ عنه من مساراتٍ فِكْرية تمثِّل الآن إعصارًا تَقَدُّميًّا عاتيًا يتصدَّى لرَجْعِيَّة هذا القَرْنِ، التى تَسْتَبِيحُ التعاملَ مع المعرفة كسِلْعَةٍ وليس قيمة عقلية، فرغم أن الأفكار قد تغيرت فى أُطُرِهَا وهياكلها، لكنها لم تغادر محتواها، فالمرجعيات ثابتة؛ لأن مصدرها العقل، والعقل قوامه المنطق، والمنطق فى أسسه ومعاييره لا يتغير، لكن منطق المعلوماتية قد أحال الثَّقَافَة إلى فِكْرَة بالية تُعَدُّ من رُكَامِ الماضى التليد، ولا بُدَّ لها أن تتلاشى اسمًا ومعنى؛ لأنها لا تَتَّسِقُ بحال مع مفهومات الحداثة السائلةِ، تلك المُطَوِّقَةِ للمحيطِ الكونى، فالغابة الرقمية -التى أَنْشَأَتْ ثَقَافَةَ "الويكى" القائمة فى أساسها على القص واللصق وانتهاك حقوق الملكية الفِكْرية- هى التى أطاحت برونق الحياة العقلية والثَّقَافِيَّة، وهو ما يُناضل من أجله العديدُ من المُفَكِّرين، أمثال "نيكولاس كار" فى تحليلاته للرِّدَّةِ المعرفية، وكذلك "أندروكين" فى رؤاه حول التلويث الممنهج للمعرفة ونقل سُلْطَةِ إنتاجِها إلى هواه، ومن هنا فقد تحولت القوة الناعمة بما تحمله من ثَقَافَة وقيم وفنون إلى قوة صلبة تُمَثِّلُها القوة العسكرية والاقتصادية ليس غير، وليست خطيئة أن يصير التَّقَدُّم الرقمى حتميةً تاريخية للحراك الإنسانى، لكن ذلك لا يعنى هَجْرَ واستهجانَ الخلفيةِ التى دعمتْ هذا الحراك، وبلغت به ذروة التناقض والتَّصَارُع والاحتداد مع أبيه الأزلى.
وحين يحرِّك العالمُ الافتراضىُّ العالمَ الواقعىَّ فلا عودة للقلم، ولا حاجة لأَرَقِ الذاكرة، ولا ضرورة لتجربة الوَعْى، لكن من يرتضى بهذا الانسحاق التاريخى للإنسان؛ حين يصير مُتَحَلِّلًا من ذاته وصفاته، بل عقله، ويصبح دمية للتكنولوجيا التى اسْتَحْدَثَتْ مُعْضِلَةً أبديةً أَهْوَنُ مُذْهِلَاتِهَا أنْ صار الصوابُ مَعْنًى مجهولًا فى الحياة!!

د.محمد حسين أبو العلا
2019

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

ذكريات مُسْتَقْبَلِيَّة لدولة الفِكْر

زكى نجيب محمود.. التَّقَدُّم فِكْرَة أشعلتنى ثمانية عقود

كان الثلاثاء هو موعدى الأثير مع مقالاته الملحمية المثيرة الباعثة على الورع العقلى والدافعة نحو إحياء عاطفة جياشة نحوه، وهو من كان لا يأنس مطلقًا إلى العواطف والشعوريات، وقد خشيت أن تطوحنى هذه العاطفة فتحيد بى عن طبيعة منهجه الصارم الذى أسسه فى رؤوس أجيالنا من الشباب الطامح إلى مثاليات التكوين المعرفى.

عاشرتُ شيخ الفلاسفة سنوات طوالًا، أقرأه قراءة الواعى المحب الوامق، أحفظ كلماته وأستوحى أفكاره وأدرك مراميه، أعشق حميميته مع الثَّقَافَة ودفاعاته عن سبل الارتقاء الحضارى. أخذنى الشوق يومًا للتأهب لرؤيته وسؤاله فيما أشكل على شاب العشرينيات، وقد تحسستُ الفرصة فى معرض القاهرة الدولى للكتاب، وقد أخذت أشق الصفوف بعد ان أنهى محاضرته العصماء.. اقتربت من وجه الشيخ لأرى وجه الزمن ماثلًا قد رسم على أخاديده كل أفكار الفلاسفة، وأنهك بصرَه الذى دار بين ملايين السطور ليمنحه من معانى المصداقية العليا ما يحقق له الوجود بعد الفناء!! سألته: كيف تصبح الفلسفة علمية؟ أفاض بالكثير فى لحظات عابرة، طلبت منه التواصل الدائم.. فرحب.

وذات مرة قادَنِى جموحى لأن أعرض عليه فِكْرَة طالما ألحَّت علىَّ كثيرًا، وكانت رؤية نقدية لبعض أفكار الشيخ الشعراوى، تلك التى يسفِّه بها الحضارة الغربية، ولم يكن منطلقى الدفاع عن هذه الحضارة، ولكن مواجهة تلك التناقضية الصارخة فى تلك الأفكار، فلم يكن من الفيلسوف إلا أن هَبَّ سائلًا: تريد أن تهدم نفسك ومُسْتَقْبَلك الكتابى والفِكْرِىّ، فأنا زكى نجيب محمود.. انظر ماذا حدث معى ومع توفيق الحكيم حين هَمَمْنَا بالتصدى لبعض هذه الأفكار.. نصحنى: لا تَعْدِل عن فِكْرتك، تشبَّع بها، سجِّل عناصرها وانتظر الزمن الأمثل لطرحها، وقد عبرت سنوات أكدت فى مجملها أننا لا نزال نعيش فى الزمن الخطأ.

إن الدكتور "زكى نجيب محمود" قيمة تنويرية فى عالمنا العربى المُعَاصِر تؤمن بالعلم والحرية وكل القيم الحضارية، ولا يزال عطاؤه الفِكْرِىّ يثرى حياتنا الثَّقَافِيَّة ترسيخًا لمجموعة من المعارف والمفاهيم والقيم التى قد تكون ذات أثر فى تغيير صورة الحياة الراهنة وخلق مجتمع جديد، من خلال دعوته للثَّوْرَة على الجمود والتخلف والعناد الحضارى الذى يقتضينا أن نتعامل مع المشكلات بنفس الطريقة التى أدَّت إليها.

من ثَمَّ فالحديث معه دائمًا ما يفتح مساحات واسعة للتفكير والتأمل، فهو كعادته متفجر بالحماس، وهو غير راضٍ عن الكثير من نواحى حياتنا، ثائر عليها، ويود أن تكون أمتنا بين الأمم التى لها قيادة العالم... فهو يستثير فيها الشوق إلى سوابق أيامها؛ حتى لا يظل وجودها فى طور الوهم والخيال ما لم تَقَدُّم للحياة شيئًا ينقلها لطور الحقيقة المؤكدة.
ولقد كانت الدافعية الأولى نحو ضرورة تحديث الثَّقَافَة العربية واعتماد التفكير العلمى كحتمية عصرية ومعيار للتَقَدُّم منبثقة من تلك الصدمة العنيفة التى انتابته أثر الجدل الفِكْرِىّ الدائر بين رموز الثَّقَافَة والعلم حول قصة الذبابة... إذا سقطت فى الطعام... يؤكل أم يُرمى؟ قال أحدهم: يرمى، وقال الآخر إذا سقطت بجناح واحد وجب غمرها بجناحيها لأن الفائدة فى واحد منهما، أما الثالث فقد اتجهت رؤيته نحو أكلها؛ لأنه ليس من الممكن تحديد مواضع الفائدة فى جسمها. ولقد أحدث ذلك تداعيات لحالة من الغرابة والدهشة والعجب والاستنكار والفزع؛ إذ ظل شيخ الفلاسفة يضرب رأسه فى الجدار يأسًا ويردّ: إذا كان هذا يجرى فى العام 1977 فكيف كان الأمر عام 1877 أو 1777، أو حتى السنة صفر؟!!
تلك كانت إحدى اللحظات الظلامية التى عاشها الفيلسوف، والتى خرج بعدها لينحت مسارًا رائدًا يستجمع خلاله طرائق تغيير تلك الذهنية الصدئة التى استأثرت بها كتائب إبداع الجهالات!!
• تُرى ما هى الفِكْرَة المحورية التى شغلتكم منذ بدايات حياتكم الفِكْرية وما أعقب ذلك من أفكار فى المراحل المختلفة؟
فى البداية وجدتُنى أميل بكل عقلى وقلبى نحو فِكْرَة التَّقَدُّم، وهذه الفِكْرَة من الأفكار المركَّبة التى تحتوى على أبعاد كثيرة، والآخذ بها لا بُدَّ أن يجعل لنفسه اعتقادًا راسخًا بأن الحاضر قد هضم الماضى ثم أضاف جديدًا تلو جديد فيما أنتجته السنون، ومعنى ذلك ألا يكون العصر الذهبى وراء ظهورنا؛ بل يكون موضعه الصحيح هو فى المُسْتَقْبَل الذى يعمل الناس لبلوغه، وهنا تكون فِكْرَة التَّقَدُّم محتوية على وجوب التغير مع متغيرات الحضارات المتعاقبة والتطور الذى ينقل صور الحياة نحو ما هو أعلى... ومعنى ذلك وجوب الاهتمام بالمصير، ولا ينفى ذلك الاهتمام أن تجىء قوائمه مستندة إلى تُرَاثنا الذى تركه لنا السلف، على ألا يكون فى حياتنا الحاضرة بمثابة النهاية التى نقف عندها؛ بل يكون بين أيدينا نقطة ابتداء نتجاوزها إلى مستلزمات حاضر حى.
إن فِكْرَة التَّقَدُّم كانت ثروة عظيمة تركت أثرها فى نفسى وكانت تصاحبها بالضرورة كتابات طويلة عريضة عن القيم الكبرى التى بغيرها لا تتَقَدُّم حياة الإنسان خطوة واحدة، كالحرية والعدالة والمسئولية الخلقية للفرد، لكم ربما شغلتنى فِكْرَة الحرية أكثر من سواها ضمن قائمة حقوق الإنسان المعلنة فى ذلك الوقت بعد الحرب العالمية الثانية؛ لأنها أصل، ومعظم حقوق الإنسان

الأخرى فروع لها، أو ربما لأننى نظرت إلى التاريخ الثّقَافِىّ الحديث فى مصر فوجدتُ فِكْرَة الحرية توشك أن تكون محورًا أساسيًّا للحركة الثَّقَافِيَّة كلها، وإن كنت قد وجدت هذه الفِكْرَة عند أكثر المثقفين فى بلادنا ضاقت حدودها بحيث كادوا يقصرونها على التخلص من قيود الطاغية بالمعنى السياسى فى أغلب الأحيان، ومثل هذه النظرة الضيقة تضعهم فى وهم كبير إذ تجعلهم يتوهمون أنهم قد باتوا أحرارًا وما هم فى حقيقة أمرهم بأحرار!! لأنك إن تفك عنهم قيود المستبد لا يعنى ذلك أنه قد توفرت الظروف التى تمكنهم من أن يكونوا كما أرادوا؛ لأن الحرية فى صميم معناها هى القدرة على العمل فى الميدان الذى تريد أن تكون حرًّا فيه، أو أنها صفة تدور مع العلم وجودًا وعدمًا، فحينما يكون للإنسان علم بشىء تكون له بالنسبة إلى ذلك الشىء حرية، بقصد علمه به، فمن عرف كانت له السِيَادَة وعلى من جهل أن يتبع صاحب المعرفة.

وإذا كانت الرغبة فى الحرية جزءًا من نظرة الإنسان، فجزء آخر من فطرته كذلك يخاف من الحرية؛ لثقل أعبائها. لكن كيف تكون النجاة من ذلك الخوف الذى يخشى عواقب الحرية بحكم الفطرة؟؟ لا شك أن التربية وحدها هى السبيل، فالشعوب التى نراها حرة بأوسع معانى هذه الكلمة لم تلتقط حريتها التقاطًا هيِّنًا من قارعة الطريق، بل تولّت تربية أبنائها على حَمْل تبعة الحرية بكل أثقالها، وهى تبعة تشمل عناء البحث عن المجهول من سر الكون الذى يضن بنفسه إلا لمن سعى.

• ما هى النقيصة التى صدمتك فى ملامح الحياة الثَّقَافِيَّة عبر رحلتك العاصفة، وهل من إشارة إلى ازدواجيات المعايير التى كانت محل نظر منكم؟؟

إننى أعترف بفضل أعلامنا فيما كتبوه ونشروه خلال فترة العشرينيات والثلاثينيات، لكن ذلك لا يمنع من أذكر لهؤلاء الأعلام أنفسهم نقيصةً تركت بدورها أثرًا عميقًا فى نفسى، وهى أن هؤلاء الأعلام قد نشروا ما نشروه فى سبيل القيم الإنسانية العليا، ولكنهم لم يستطيعوا هم أنفسهم أن يقيموا حياتهم الاجتماعية على أسسها، فكأنما أرادوا الحرية لأنفسهم دون سائر من يتعاملون معهم من عباد الله، فصاحب الدعوة إلى التَّقَدُّم إذا لم يُخضع حياته الشخصية لما يدعو إليه فإن دعوته تجىء ضعيفة الأثر فى حياة الآخرين.

كذلك حين أتيح لى أن أكون عضوًا فى لجنة التأليف والترجمة والنشر)وهى أعلى لجنة ثَقَافِيَّة فى تلك الفترة الزمنية، وكانت تضم صفوة العقول وأئمة المبدعين(لم ألبث أن رأيت أمرًا عجبًا، وهو أن تلك الصفوة الثَّقَافِيَّة الممتازة لم تستطع أن تجعل معيارَ الرفع والخفض ثقافيًّا خالصًا ما داموا جمعية ثَقَافِيَّة فى أساسها، بل لازمتْهم عُقْدَة السُّلْطَة التى هى داؤنا التاريخى العتيد، فمن كان ذا منصب أعلى بمقاييس الدواوين الحكومية كان عندهم أعلى مرتبة فى جماعة المثقفين، حتى ولو لم يحمل قلمه مرة واحدة ليخطَّ به كلمة واحدة

مما تعرَّف الناس على أنه ثَقَافَة بأى معنى من معانيها!! وعلى الصغير بمقياسهم ذاك أن يظل صغيرًا حتى لو ملأ الدنيا فِكْرًا وأدبًا!!
وشىء آخر صادفته حين أخذتنى رغبة شديدة فى السفر للقدس فى ثلاثينيات القرن العشرين، وقد سألنى شاب فلسطينى: ما أخبار القضية فى مصر؟ فقلت: أية قضية تعنى؟ وتعجب قائلًا: القضية العربية!! أو قضية أهل فلسطين؛ فهى تسبب لهم مشكلات مع الأقلية اليهودية فى فلسطين، ورغم أنى كنت قارئًا يتابع كل ما ينشره أعلام القلم، فلم تقع عينى على شىء يشد انتباهى إلى القضية التى اكتفى الفلسطينى بأداة التعريف للإشارة إليها! عندئذٍ أخذت تضطرب فى صدرى أسئلة غامضة عما يَعْتَوِرُ حياتنا الثَّقَافِيَّة من أوجُه النقص، وكذلك كانت لحظة راجعت فيها الحساب لأرى أن حَمَلَةَ الأقلام من كبار الرواد رغم شموخهم العظيم قد تعرضوا -فيما بذلوه وقدموه- لضَرْبٍ من المفارقات التى ربما ألزمتهم بها طبيعة المرحلة التاريخية التى أحاطت بهم، وعلى ذلك أخذت أتبين ضروب الازدواج التى تظهر فى أعمالهم وفى حياتهم كما نقرأ عنها فى تراجمهم، مما يصعب تَفْسِيره -من جهة- ويقلل من أثر رسالتهم الثَّقَافِيَّة -من جهة أخرى-.
ويتساءل د. زكى نجيب محمود قائلًا: هل استطاع روادنا فى الجيل الماضى -الذين أخذوا أنفسهم بعرض خلاصات من تُرَاثنا ومن نوابغ الغرب- أن يجعلوا فى ثنايا معاملاتهم ما يقدمونه من تلك القيم العليا؟ هل استطاعوا أن يحيوا مع مواطنيهم على أساس ما يبشِّرون به.. أم غلبتهم العنجهية الموروثة فى طبائعنا منذ اللحظة الأولى التى يرون أنفسهم فيها وقد كسبوا شيئًا من السلطان أو من الثراء أو القوة بأية صورة من صورها الكثيرة؟
إنها شهادة صدق أبنيها على خبرة مباشرة، بأن روادنا رغم ما يعرضونه وما يكتبونه من قيم الحرية والمساواة كانوا أحرص الناس على أن تبقى مسافات بعيدة بينهم وبين من يتعاملون معهم من عامة الناس، ومعنى ذلك أنه إذا لم تكن رسالة الكاتب قد أحدثت أثرها فى شخصه.. فهل يُتوقع لها أن تُحدث أثرها فى الآخرين؟! خاصة أن ذلك الفارق الكبير ظل قائمًا بين أن تجرى أقلام هؤلاء الرواد بحق الحرية ووجوبه لكل إنسان، وبين أن يحيا هؤلاء على نحو ما يكتبون، فبينما نرى الواحد منهم وقد أوشكت حروف كلماته أن تشتعل بحرارتها دفاعًا عن الحرية والمساواة والعدالة.. ثم تنظر إليه فى مساحات التعامل الفعلى فتراه قد ذُلَّ للكبار بقدر ما يستبد بالصغار، وقد رأيت وسمعت كيف لا يطيق حماة الحرية الفِكْرية أن يروا من هم دونهم، وقد استباحوا لأنفسهم ذلك الحق نفسه! ومن ذلك فحرية القول لهم وليس لمن هم دونهم، وبالتالى فلا عدالة ولا مساواة ولا كرامة، فهى مجرد حبر على ورق.
• وعلى ذلك، هل كنت ترى أن حياتنا الفِكْرية بكل ما كانت تدور به إنما كانت تدور فى فلك الحياة الفِكْرية الغربية دون انجذاب نحو مسارات الخصوصية

العربية؟
كنت على يقين حقيقى يومئذٍ بأن الحياة الفِكْرية فى مصر كانت بحاجة إلى مراجعة تتناولها من الأساس؛ لأن أقل ما يقال فيها إنها على فقر شديد فى الإبداع الفِكْرِىّ، فالفِكْر الذى من شأنه أن يفرز تصورات عقلية مجردة تكون فى حقيقتها بمثابة خرائط ترسم أمام الناس طرق السلوك العلمى الناضج فى ميادين الحياة، فكلما كان هناك إبداع من صنع المواطن العربى المُعَاصِر -الذى هو مجهول فى حياته الشخصية والاجتماعية- انتظمت جوانب الحياة، وما يتعلق بها من أفكار ومذاهب ونظم التعليم وتيارات الفِكْر المتعلقة بالأوضاع الحضارية الجديدة.
أما عن هذا كله، فكان الأرجح أن ينقل المُفَكِّر العربى عن الغرب نقلًا مباشرًا، لكنها محاولات لم تكن لتؤثر تأثيرًا ظاهرًا تتغير به الأوضاع كما هى قائمة، فأين ما أبدعه الفِكْر العربى فى أى شىء من ذلك، إذ إن معظم الأفكار الأساسية التى كانت تدور حولها أوجه نشاط الفِكْر منا يومئذٍ من إبداعنا العقلى، ومن تلك الأفكار وأقواها ظهورًا فِكْرَة الحرية والعدالة، فمن أين جاءت معانيها وأبعادها؟! لمن تناولوها من أعلام روادنا فى عالم الفِكْر تجد مصادرها هناك فى الغرب، وهى حقيقة قد تثير الدهشة للوَهْلَة الأولى؛ لأنها ألفاظ من لغتنا العربية، أما معانيها الجديدة التى على أساسها احتدم اللهب الفِكْرِىّ على أقلام روادنا، فهى مأخوذة عن أصحابها فى الغرب؛ لأن هذه المفاهيم وأمثالها لا تتحدد معانيها على صورة ثابتة منذ تولد، بل هى تنمو مع النمو الحضارى والثَّقَافِىّ نموًا يضيف إليها أبعادًا من المعنى لم تكن لها فى تاريخها الماضى.
• وَجَّهْتَ سهام الاتِّهَام لحياتنا الفِكْرية فى أواخر الأربعينيات ورميتها بالفقر فى لإبداع، فما الذى أدى إلى هذا الفقر فى رؤيتكم؟
الذى أحدث ذلك هو الطريقة الغامضة التى تُستخدم بها اللغة، والقول هنا ليس مقصورًا على عامة الناس، بل يشمل رجال الفِكْر، كما يشمل معهم كثيرًا من رجال العلوم. فى مرحلة الانتقال من عصر إلى عصر، لم تكن لتحدث إن لم يكن قد ظهر فى الناس من يلفت أنظارهم إلى ما توقعهم فيه اللغة من سقطات عقلية لا ينقذهم منها إلا التدقيق فى استخدامهم للغة، بحيث يستوجب أن تكون الفِكْرَة المنقولة والمحمولة فى أصلاب التركيب اللغوى الذى ينقلها فِكْرَةً واضحة الدلالة فى المرحلة الزمنية والرقعة المكانية التى استُخدمت فيها، فمثلًا كم إجابة تأتيك إذا سألت عددًا من المواطنين: ما الذى يفهمونه من كلمة مثل الاشتراكية أو الديمقراطية أو المواطن الصالح؟؟ إنك لا شك ستجد نفسك أمام إجابات تتعدد بتعدد الأفراد، وثانيًا أن أحدًا ممن أجابوك لا يعلم على وجه الدقة والوضوح ما الذى يعنيه بجوابه، ومن مثل هذه الحالة المضطربة فى استخدام الناس للغتهم -مفردات وتراكيب- تستطيع أن تستكشف الكثير.

وهناك ضرورة للفت الأنظار إزاء كل مصطلح له أهمية، بحيث يكون فى تحديده ودقته بمثابة التعريف المنطقى الذى يقيمه العقل لذلك المصطلح، وليست هذه الدقة وما يلازمها من وضوح الفِكْر نوعًا من الترف الذى يمكن حذفه عند الضرورة، بل هو شرط أساسى لمن أراد حياةً فيها مقومات التَّقَدُّم والازدهار، وإلا فلماذا اشتملت الخطوة العلمية الأولى فى مَسِيرَة الفِكْر الإسلامى على العناية باللغة عناية يقام البحث فيها على أسس علمية دقيقة؟؟ كان ذلك لأن كتابًا كريمًا قد نزل بدين الإسلام، ولا بُدَّ أن تقام على ذلك الكتاب حضارة إسلامية وثَقَافَة إسلامية وذلك يستوجب أن يحيط المسلم بلغته إحاطة العلم الدقيق الواضح؛ لكى يتاح له فهم الكتاب فهمًا يعوّل على صحته، ثم لماذا حين أرادت أوروبا أن تنهض من ظلام عصورها الوسطى قام فيها "ديكارت" فى فرنسا، و"بيكون" فى إنجلترا ليرفعا لواء اللغة الواضحة، وللمرة الثالثة ماذا كان من أوائل ما صنعه رجال الثَّوْرَة الفرنسية إلا إقامة مجمع للبحوث العلمية وجعلوا أحد أقسامه مختصًّا بما أسموه للمرة الأولى فى تاريخ المصطلح الأوروبى "أيديولوجيا"، وقصدوا به علم الأفكار الذى يهتم بدراسة اللغة دراسةً تهدى إلى طريقة استخدامها فى دقة ووضوح كلما اقتضى الموقف فِكْرًا واضحًا ودقيقًا. ولا شك أن كل ذلك يبين لنا كيف أن الانتقال بالفِكْر من عصر إلى عصر مشروط بنظرة جديدة إلى اللغة، فالمألوف بين الناس أن ينظروا إلى العبارة اللغوية نظرتهم إلى وعاء يُملأ بما يُملأ به، أى النظر إلى العبارة اللغوية نظرة تجعلها شيئًا آخر غير المعنى الذى جاءت لتؤديه، وإن كانت العبارة اللغوية هى نفسها الفِكْرَة.

• ولو تحدثنا عن تشخيصكم للواقع الثَّقَافِىّ المُعَاصِر.. ماذا أنت قائل؟

يكفى أن أقول إن كلمة العلم فى استعمالنا لها إنما يصيبها من التشويه ما يصيب أخوات لها كثيرًات يقعن جميعًا فى صميم الحياة الفِكْرية والثَّقَافِيَّة بصفة عامة، فتتَقَدّم تلك الحياة بتَقَدُّمها وتتأخر بتأخرها، ولما كان تَقَدُّمها مرهونًا بدرجة وضوحها فى الأذهان، أدركنا كم تتعثر حياتنا الثَّقَافِيَّة بسبب الغموض المعتم الذى يلف مجموعة من المعانى المحورية الخطيرة. إنه بلا شك داء من أفلتت منه حقيقة عصره، وهى حقيقة أوضح مما تتمثل فى الكشف العلمى عن قوانين الكون، ثم تغيير واقع الحياة بناءً على أساس الرؤية العلمية؛ فأمتنا أمة يغلب الوجدان على رؤيتها، ولا تفرق بين ما قد خُلق ليرضى عنه القلب والعاطفة وما خُلق للعقل وإرادة التغيير، فإذا كنت قد أصبت فى تحديد موضع الداء، فإن أول السير على طريق النهوض دعوة مفصلة نحو علمية عصرنا.

• ولو تحدثنا عن الفلسفة والعصر وأثر الفِكْر الفلسفى فى تحويل الواقع وتغيير نمطيته.. ترى ما هى الشفرة المطلوب استحداثها؟

كثيرًا ما حرصت على أن تكون طبيعة الفِكْر الفلسفى واضحة للقارئ المثقف؛ لأنه ضرب من المحال أن تبلغ الحياة الثَّقَافِيَّة مداها ما لم تستطع أن

تستقطب أوجه النشاط الكثيرة وتكشف عما تغمره تلك الكثرة من مبدأ واحد مشترك ومن هدف واحد مشترك، فلا بُدَّ للأمة الواحدة أن تستهدف -برغم ما يبدو على سطح حياتها من متضادات ومتناقضات- غايةً واحدة، لكن ذلك المبدأ وهذه الغاية الواحدة لا يؤمن بهما المواطنون ليسمعوا ويطيعوا، بل هى الظروف الحضارية تنسج مناخًا بخيوطها، فتظل هذه الخيوط تتوازى وتتقاطع وتنساب حتى ينتج عنها المناخ الثَّقَافِىّ الذى يعيشه الناس فى حياتهم اليومية.
فمن الذى يستخرج لهم من بحر الحياة العملية ما عساه أن يكون غارقًا فى قاعه من مبادئ دفينة وغايات مضمرة على أساسها يقيم الإنسان نشاطه العلمى أو الفِكْرِىّ والفنى؟ إنه الفِكْر الفلسفى بأهم وجه من وجوهه. وهنا تجىء الدعوة لأن تكون الفلسفة منهجًا بغير موضوع، للتحليل الذى يرد الفروع إلى جذوعها، ويرد الجذوع إلى الجذور فى ميادين العلم وغير العلم من مقومات الحياة الثَّقَافِيَّة، وذلك يفسر لماذا أُطلق على عصرنا عصر التحليل؛ ففهم الإنسان لشىء أو لفِكْرَة أو لنظام لا يكون إلا بتحليله أولًا إلى عناصره الأولية، ثم معرفة على أى صورة تتركب تلك العناصر بعضها مع بعض، فلقد أصبح المُثَقَّف فى حساب هذا العصر هو ذلك الذى يقف من الأفكار السائدة وقفة ناقدة.
لكن الإيمان فى جميع حالاته هو قبول بغير تحليل ومراجعة، وهو قبول ينبض به القلب بغَضِّ النظر عما يُقيمه العقل أو لا يقيمه من برهان عقلى، والصدق حين نصف به حالة الإيمان نعنى به كونه حالة داخلية فى صدر صاحبها لا سبيل لأحد أن يراها ولا أن يسمعها، وأنه لا يكفى دليل على صدق المؤمن ما ينبئنا به، وإنما الذى يكفى هو أن نرى ذلك الإيمان الداخلى المزعوم منعكسًا على المواقف السلوكية لصاحبه كلما استحدثت له الحياة العملية موقفًا يتطلب منه الرد أو يكف به عن فعل شىء، وعلى ذلك فالطرفان اللذان نتوقع لهما أن يتطابقا فى حالة الإيمان الصادق هما المضمون الإيمانى من جهة، وضروب العمل التى تظهر للناس فى سلوكه إزاء مثيرات السلوك. وإن اقتران الإيمان بالعمل الصالح اقترانًا مُطَّرِدًا فى الكتاب الكريم لدليلٌ على معنى الإيمان أقطع دليل، ولكى نقترب من التصور الصحيح فإن ذلك يستدعى نظرة فاحصة متأنية فى التفصيلات التى يشتمل عليها المضمون الإيمانى عند مسلم آمن بالله وشهد بألَّا إله إلا الله، ويكفينا هنا أن نذكر جانبًا واحدًا مما يقتضيه ذلك الإيمان؛ وهو ما يُطلب من المؤمن بأن يتخلَّق بأخلاق المؤمن بالله سبحانه وتعالى تخلُّقًا يقف عند حدود القدرة البشرية، بمعنى أن يروّض الإنسان نفسه حتى تصبح عليمة بالحق ما مكنتها حدودها البشرية، وأن تكون مريدة فعالة لما أرادت أى أن تكون كريمة حكيمة خبيرة مبدعة، وهى تلك الصفات التى وردت فى الكتاب الكريم. وتأمَّل ما يتلوه المؤمن بلسانه ألف ألف مرة بعد ألف ألف حين يتلو وهو يقرأ الفاتحة إياك نعبد وإياك نستعِين... حاول أن تُترجم فى ضميرك هذا القول الكريم إلى سلوك عملى،

وهو ألا تعبد إلا إياه، ولا تستعين إلا به، فلا عبادة لمال ولا عبادة لسلطان. إن ما أعلنتَ إيمانك به وما تسلك فى حياتك ليس هنةً يسيرة، وإنما هو هدف أسمى لا سبيل إلى تحقيقه إلا برياضة النفس وجهادها.

• لو تحدثنا عن القضية الرتيبة التى تتناقلها الأجيال وتعتبرها قضية شائكة يتشيع فيها البعض للعلم والآخر للدين باعتبارهما نقيضان، فما تعقيبك؟

العلوم بكل صنوفها قائمة على أساس منطق العقل، وهذا المنطق تمثله حركة استدلالية انتقالية يتحرك بها الفِكْر من مقدمات أو شواهد إلى نتائج تكون هى نَظَرِيَّات العلم والقوانين،

أى أن العقل ينتهى إلى ما ينتهى إليه بطريق غير مباشر، أما العقيدة الدينية فعمادها الإيمان، والإيمان بطريقة مباشرة، لا وساطة فيه بين المسموع من جهة وقبوله من جهة أخرى، شأنه فى ذلك شأن العملية الذوقية، وقد يحدث بعد ذلك لمن آمن أن يتناول بالعقل ما قد آمن به ليستدل منه ما يمكن استدلاله، فمن أخص خصائص الدين أنه مع الإيمان بالله ورسله وكتب واليوم الآخر يُعِدُّ المؤمنين بمجموعة ضخمة من قوانين السلوك الصحيح، وهذه القوانين تجىء قبل السلوك ذاته، مما يلفت النظر إلى فارق واضح بين علم ودين، فبينما قوانين العلم تأتى قبل أن ينشأ السلوك، فهل يجوز لنا بعد ذلك أن نخلط بين علم ودين خلطًا يذهب بنا إلى حد أن نبحث عن العلوم فى كتاب الله الكريم؛ مرة عن علم الطب ومرة عن علم الاقتصاد وثالثة عن العلوم الهندسية؟!

أقول إنه إذا وردت حقائق معينة فى الكتاب الكريم عن هذا المجال أو ذاك فهى حقائق وليست علومًا؛ لأن جوهر العلم ليس مجموعة معينة من حقائق، بل جوهره منهج خاص يؤدى إلى الكشف عن تلك الحقائق، فإذا حدث أن تبين شىء من القصور أو الخطأ فى تلك النتائج التى وصل إليها العلم بمنهجه جاء من العلماء بعد ذلك من عرف كيف يسد وجه القصور، ومن هنا يجدر بنا أن نذكر أنه عندما كان للفلسفة اليونانية التى نقلها العرب المسلمون فى القرون الأولى من تاريخ الإسلام نوعٌ من ارتفاع المنزلة عند رجال الفِكْر يومئذٍ فقد أحسوا بشىء من الغيرة على دينهم، فاتجهوا بجهدهم نحو أن يبينوا أن ما قد أنتجته حكمة الفلاسفة وارد فى القرآن الكريم.

وهناك نفر من أئمة الفِكْر الإسلامى قد أخذهم القلق من ذلك الموقف الذى ربما دلَّ على شعورٍ بالنقص إزاء وافد عليهم من خارج دينهم، ثم تمضى القرون وإذا بوافد آخر يأتينا من خارجنا، وهو هذه المرة علوم لا فلسفة، فنرى الغيرة القديمة قد أخذت علماءنا المحدثين فاتجهوا بجهدهم ليقولوا إن ما قد جاءت به العلوم الحديثة وارد فى القرآن. وفى رأيى أن الدافع النفسى فى كلتا الحالتين لم يكن له ما يبرره؛ فالدين والعلم يتكاملان فى الإنسان كما يتكامل السمع والبصر، وعلى هذا لا يكون الصواب هو أن يقول المؤمن إن لى دينًا فيه العلم، وإنما يقول إن لى دينًا وعلمًا محكومًا بقيم الدين.

• ترجمات القرآن الكريم قضية ذات عمق معرفى وعَقَدِى ولغوى، قضية عمرها مئات السنين.. باعْتِبَارك فيلسوفَ لغة فى المقام الأول.. هل يمكن العبور باللغة -أية لغة- إلى مصافِّ سُمُوِّ العربية فى النهج القرآنى؟
ترجمة القرآن خاصة لى فيها رأى قديم، وهو أن تُترجم أفكار القرآن، بمعنى أن المترجم ليس ملزَمًا بالنص خشية أن يقع فى سقطات أو مستحيلات أو صعوبات تَحُول بينه وبين حقيقة المعنى المراد، وحين كنت أستاذًا زائرًا ومستشارًا ثقافيًّا فى أمريكا جاءنا خطاب من مصر يطلب من سفارتنا هناك تحديد الموقف إزاء مُفَكِّر قام بترجمة القرآن وأرسلوا قوائم بما رأوه من أخطاء وملاحظات، إلا أنها كانت ملاحظات متعنتٍ متجبرٍ لا يعرف صعوبات ومشكلات الترجمة، فنحن كمسلمين حفظنا القرآن وسمعناه وقدسناه وآمنا به، وهناك أشياء كثيرة جدًّا عرفناها فى ثوبها العربى، لكن لما نقلت إلى الإنجليزية أخذت شكلًا لا تقبله الأذن، وبالتالى يأتى إلينا الانطباع بأن الترجمة خاطئة وتُهاجم الإسلام!!
يجب أن نفهم أن القرآن معجزته عربية، فكيف أنقل هذه المعجزة إلى الإنجليزية أو إلى أية لغة أخرى؟ ورغم ذلك فالتحدى المطرُوح لكل من يعيب على هذه الترجمات أن يثبت جدارة واستحقاقًا وينهض هو لترجمة القرآن.
• أنت كمتعمق فى رُوح اللغة الإنجليزية والعربية هل يمكن أن تنهض بمهمة ترجمة القرآن لو أسندت إليك؟
أنا لا أستطيع ذلك، ولا تسعفنى قدراتى، ونحن نعلم جيدًا أن الأذن العربية تقلق دائمًا من الكلمات الإنجليزية، وأن المترجم يجب أن يراعى أثر وقع الكلمات الذى يجب أن يكون متشابهًا، وهذه مسألة مُجهدة وتحتاج إلى قدرة خاصة وفذة لا يملكها إلا أصحاب المواهب النادرة، كالأديب "فيتز جيرالد" الذى ترجم رباعيات الخيام -وكانت اكتشافًا بالنسبة لى- فى عدة طبعات، وكان يغيِّر فى كل طبعة لدرجة يُهَيَّأ لك أنها رباعية أخرى، ولكنها إعادة ترجمة، فجاءت ترجمته رائعة جدًّا بمقدار بُعدها عن النص وقربها من الواقع، وفى هذا الصدد –أيضًا- أذكر أننى حين كنت عضوًا فى لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب أسندوا إلىَّ ترجمة مختارات من الشعر العربى الحديث، ورغم ما عندى من حاسة لرُوح النص فقد قلت إننى لا أحبذ أن أقوم بالترجمة أنا أو غيرى؛ لأنك حين تترجم الشعر فإن تسعة أعشار الترجمة تكون مسيئة إلى الشعر والشاعر، فتظهر قبيحة؛ ذلك لأن الشعر لا يُترجم إلا على وجه التقريب ومن واحد يعرف ماذا يترجم وكيف يترجم؟ المهم اقترحت عليهم أن أترجم الشعر ترجمة نثرية فيها المضمون كاملًا، وبعد ذلك لا بُدَّ من الاستعانة بشاعر إنجليزى يصوغ هذه المادة فيما يقبله الشعر الإنجليزى، وبالفعل اتصلت بالكاتب "أزرا باوند"، وسرعان ما جاء رده بقبول التعاون معى فى الترجمة، بشرط أن الشعر المراد ترجمته لا بُدَّ أن يُسَجَّلَ بصوت شخص يجيد قراءة الشعر.

إن من عظمة طه حسين فى رأيى أنه كان لا يعادى المستشرقين... ولماذا يعاديهم؟! وهل ينهض المسلمون الآن لما يقوم به هؤلاء المستشرقون الذين حققوا معجزات بل ما هو فوق المعجزات فى الثَّقَافَة العربية وفى القرآن نفسه وفى دراسات القرآن والحديث؟!

• ما هى المؤشرات التى يعتمد عليها زكى نجيب محمود فى تحديد موقفه من بعض علماء الإسلام المُعَاصِرين؟

أقرب مثل يجول بخاطرى الآن هو كتاب أصدرته الجامعة العربية يحمل مجموعة آراء لرموز وأعلام مسلمين وكلها خاصة بالقرآن للرد على ما يقوله المستشرقون، وقد أسعدنى ذلك كثيرًا، فاتجهت وكُلِّى إقبال لأسمع علماء المسلمين بماذا يردون وكيف؟ لا لأتبين فرق العقلية ولكن لأستفيد أنا من هذه الردود، فأَسْقِطَ فى يدى!

ولى ألف حق؛ فمثلًا حين تسمع رأيهم فى مسألة الوزر أو الخطأ الذى أخطأه الرسول) (وذكرته الآيات أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)1(وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ)2(الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ)3(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَك)4( )1(.. فلو سألت عن الوزر الذى أنقض ظهره وسبحانه وتعالى أزاحه عنه؟ ترى المُعَلَّقَ المسلم وقد جُنَّ جنونُه يقول: لا.. الرسول مطهَّر ومُنَزَّه عن الخطأ ولا وزر... إنه يقول كلامًا لا يقبله إلا طفل فى الخامسة، رغم أن القرآن تحدَّث بصراحة الصراحة، وأتى الخطاب موجَّهًا إلى الرسول) (بمعنى لا يهمك وإلا فلماذا الكفاح والجهاد؟

وانظر رأيهم فى آيات مثل فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ)2(... هم يقولون مِمَّ يستغفره؟ بينما أجد المستشرق يمسك هذه الفقرات ويحاول أن يأتى بما يقابلها من حياة الرسول مما يتناسب مع معانى القرآن، ونجد العالِم المسلم يرد وكأن واحدًا قد ذبحه... كيف يظن هذا المستشرق الملعون أن الرسول أخطأ بحيث إنه يتوب ويستغفر، فليس هذا هو المقصود!

وهكذا ترانا نخوض دائمًا فى انفعال مجنون مصدره الحرص على الدين شكلًا... ثم أتذكر وقت أن كتب "توفيق الحكيم" "حديث مع الله"، وهاجت الدنيا وماجت، وكتب إليه "الطيب النجار" عن آية: "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا"، وقال إن الأنبياء لا يخطئون، وأن المقصود بـ"همت" الأولى معنى غير "هم" الثانية، كل هذا من أجل أن ينقذ النبى "يوسف" من مجرد خطأ وقع فيه.

إن كل هذا لا شك يُفسد عليهم الوقفة العالمة الجادة.

• فى إطار موقفك من فِكْر بعض العلماء المسلمين حدثت معركة كان الشيخ الشعراوى طرفها الآخر.. ماذا أنت قائل عنها وقد اكتملت ملامحها بعد سنوات طوال؟!

على مدار السنوات الماضية كانت الجمعية الفلسفية تدعونى لألقى محاضرة الافتتاح التى ستكون مدار بحث المؤتمر، وكانت مسألة علم الكلام فى عصرنا هى محل المناقشة، وتحدثت فى صراحة ووضوح شديدين عن التجديد فى الفِكْر الدينى، بمعنى أن علماء الكلام قالوا فِكْرًا دينيًّا خاصًّا بمشكلات

نشأت لهم، فقلت إنه ليس من الضرورى أن تظل هذه المشكلات هى هى؛ لأنه قد استحدثت عندنا إشكالات نريد أن نعرف رأى الدين فيها أو الموضوعات التى يجب على علماء الدين أن يبحثوها بحثًا نزيهًا عالى المستوى. بعد ذلك فوجئت بهجمة شرسة من جانب جريدة اللواء الإسلامى، وتساءلت ماذا أخذوا علىَّ؟ فوجدت أنهم قالوا ما لا أقوله عقلًا ومذهبًا، فأنا لم أزد عن التعرض لموقفنا من الغرب وثقافته أو الفجوة بين ثقافتنا وثقافتهم، التى بلغ عمرها نحو مائتى سنة؛ منذ تلك الصدمة الحضارية بين علماء الأزهر والحملة الفرنسية، هم فى أيديهم العلم ونحن فى أيدينا مجموعة كتب قديمة، وهنا ضربت مثلين لنوع من الحِقْد فى الغرب، وأول هذين المثلين كان خاصًّا بوزير أوقاف سابق قدَّم ورقة عمل للمجالس المتخصصة عن دور المسجد فى تقويم الشباب، وجاء فيها أن هناك ثَقَافَة جديدة وافدة علينا تحتاج أن نحصِّن شبابنا منها بمزيد من حفظ القرآن لكى يرفضها!

وهناك حضارة جديدة من هذا العصر لا تتفق مع إسلام المسلمين، وكان السؤال لصاحب الورقة، هل استطاع هو أن يقاوم ثَقَافَة الغرب؟؟ فنحن أمام ورق مطبوع على مطبعة من عمل الغرب، وقرأناها على ضوء كهربائى، وأمامنا مكبرات صوت، وكل هذا من عمل الغرب وليس من عملنا... أليس كذلك؟!

ثم جاء المثل الثانى تنويهًا عن الشيخ الشعراوى، وتحدثت عن حِقْدنا على العالم لأننا عجزة، والعاجز لا بُدَّ أن يحقد، وأشرت لدرسه التليفزيونى الشهير حين مد يده فى نوع من السخرية بالعلم الغربى، وقال عن الغرب إنهم فرحون بصعودهم القمر، فما قيمة ذلك؟! ثم أخذ من علبة المناديل الورقية واحدًا وهزَّه فى الهواء وقال: هذه الورقة أنفع –وكررها مرتين– من الوصول إلى القمر! وهذا غير صحيح؛ لأنه أول من استفاد فينا من الصعود إلى القمر؛ لأن إحدى النتائج الفرعية لهذا الصعود هى الأقمار الصناعية، ومن الجائز وهو يُلقى هذا الدرس بالذات أنه كان هناك قمر صناعى ينشره فى العالم كله دفعة واحدة، فمن الذى استفاد؟ وهل المنديل الورقى ينهض لهذه الخدمة؟

يا شيخ شعراوى.. أنت تجلس أمام كاميرات التليفزيون فتدخل ملايين البيوت، فاحمد الله الذى أعطى القوة لهؤلاء الغربيين أن يصلوا من العلم للدرجة التى تمكِّنك من أن تنشر كلامك، وإلا لو كنت جادًّا فارفض أن تجلس أمام الكاميرا.

إننى أذكر أن الناس قد نقلوا له عنى مقولة أن القرآن يجب أن نفهمه بالعقل، فتهكم منى وقال: عقله أم عقلى أو عقل جورباتشوف وبوش! بينما أنا لم أقل هذا ولا أقوله؛ لأن القرآن إيمان، وأنا بُح صوتى منذ أكثر من خمسين عامًا فى أن مفتاح التفكير ينحصر فى أن نفرق بين قناتين من الإدراك هما الإدراك الِانطباعى المباشر، وهذا للفن والدين رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي

لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا)3(، وهذا هو طريق اَلإيمان لا يُطلب عليه برهان، وأنا لا أقول أبدًا إن الإيمان يأتى عن طريق العقل.
كم كنت أتمنى من شيخنا الشعراوى أن يتحرى الأمانة والإخلاص والصدق فى أن يسمع أو يقرأ ما كتبته ثم يكون له الرد، لكن لا يتهمنى فيما لم أقلْه، فأنا وغيرى نرفض ذلك تمامًا، بل نرفض موقف علماء الإسلام من الحضارة؛ لأنه موقف عجز يجب أن يخجلوا منه ولا يدافعوا عنه، وأنا ما دعوت إلى شىء بعنف قدر ما دعوت لضرورة المشاركة فى إنتاج العلم؛ لسَدِّ الفجوة بيننا وبين العلم الغربى عن طريق الفِكْر الدينى الذى يسوى هذه المشكلة؛ حتى لا يضحك الشيخ الشعراوى على الجماهير العريضة.
وعن الاغتراب الثَّقَافِىّ فى فِكْر الدكتور زكى نجيب محمود، منحت جامعة "السوربون" الباحثة اللبنانية "نجوى حمادة" درجة الدكتوراه، على أطروحتها التى تدور حول تأثير الوضعية المنطقية على الفِكْر العربى من خلال الفيلسوف د. زكى نجيب محمود، وقد شارك فى المناقشة البروفيسور الفرنسى "بيير تييه" رئيس قسم الفلسفة بالجامعة، و"جورج لابيكا" و"جورج قرم" و"روبير ميسراجى" والأب الدكتور "يواكيم مبارك". وقد أكدت الباحثة أن مؤلفات الدكتور زكى التى صدرت تحت عناوين تجديد الفِكْر العربى، المعقول واللا معقول فى تُرَاثنا الفِكْرِىّ، مجتمع جديد أو الكارثة، ثقافتنا فى مواجهة العصر، كلها تتمحور حول قضية الأصالة والمُعَاصَرَة، وتُعتبر أهم ما أنتج الرجل فى حياته العلمية الطويلة، وقد يرجع ذلك إلى أنها تنقل إلينا -بأمانة شديدة- فِكْرَ الرجل الذى لا يخفى انتماءه للفِكْر الوضعى، الذى يرمى من ورائه إلى إحداث ثَوْرَة علمية عربية شبيهة بثَوْرَة "بيكون"، كما تُترجم لنا فى صدق مدى الحسرة التى انتابته بعدما عاش سنوات طويلة مع فلاسفة المنطق الوضعى ليجد نفسه أخيرًا أمام السؤال: كيف الطريق إلى مواءمة الوافد والموروث؟
وهو السؤال الذى يؤرِّق عقل كل مُثَقَّف عربى يستشعر أزمتنا الثَّقَافِيَّة الراهنة.
ولعل أبرز ما أشارت إليه من ملاحظات هو زعمها أن الدكتور زكى نجيب قد فوجئ بعد عدة سنوات بأن مقولاته الوضعية لم تَلْقَ الاستجابة التى كان ينتظرها، فوجد نفسه مضطرًّا إلى توجيه اهتمامه فى المرحلة الأخيرة من تطوره الفِكْرِىّ إلى جانب التأصيل، باحثًا عن كيفية التوفيق بين التُّرَاث العربى والفِكْر الغربى، وهذا الشعور بالاغتراب عند زكى نجيب أفاضت فيه الباحثة، وجعلته السبب الوحيد الذى جعله يتحول من معجب شديد الإعجاب بالفِكْر الغربى إلى أحد أنصار المدرسة التوفيقية المعروفة فى تاريخ الثَّقَافَة الإسلامية، وذلك تأكيدًا لما صرح به فى كتابه تجديد الفِكْر العربى بقوله إنه من أولئك الذين فتحت عيونهم على فِكْر أوروبى قديم أو جديد حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفِكْر الإنسانى ولا فِكْر سواه.

وتؤكد صاحبة الرسالة أن الخط التوفيقى عند "زكى نجيب محمود" بدأ بعد أن أدرك متأخرًا فى بداية السبعينيات أن فِكْره كان يدور فى فلك الغرب، وبعد أن أخذتْه صحوة قلقة؛ فلقد فوجئ وهو فى أنضج سنواته بأن مشكلة المشكلات فى حياتنا الثَّقَافِيَّة ليست كم أخذنا من الغرب وكم ينبغى لنا أن نزيد؛ وإنما المشكلة الحقيقية فى كيف نوائم بين الفِكْر الوافد -الذى بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه- وبين تُرَاثنا -الذى بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها-؟... استيقظ بعد أن فات أوانه أو أوشك، فإذا هو يحس الحيرة تؤرقه، فأخذ فى أعوامه الأخيرة يزدرد تُرَاث آبائه ويعبّ صحائفه عَبًّا سريعًا، والسؤال ملء سمعه وبصره: كيف السبيل إلى ثَقَافَة موحدة متسقة يعيشها مُثَقَّف حى فى عصرنا بحيث يدمج فيها المنقول والأصيل فى نظرة واحدة؟
وبصفة عامة، فإن توفيقية زكى نجيب تسعى إلى تجاوز الهوَّة الفاصلة بين عالمين مختلفين حضاريًّا ونفسيًّا، ووصل الشرق بالغرب.
وقد أردف الفيلسوف بكلمات عن ذلك منحتنا الانطباع العام: الحقيقة أننى كونت فِكْرَة جيدة عن هذه الرسالة التى عرضتها الباحثة والتى نالت بها الدكتوراه من السوربون، وفِكْرتها أننى أحاول الجمع أو التوفيق بين ثقافتنا العربية الأصيلة وثَقَافَة الغرب لعَلَى أصل من هذا التوفيق إلى صورة موحدة تجعلنى عربيًّا أصيلًا ثم تجعلنى فى الوقت نفسه مسلَّحًا أعيش هذا العصر بكل عناصره ومكوناته، والحقيقة أنها لم تخطئ فى أن هذا هو منهجى العام على طول حياتى الثَّقَافِيَّة الإيجابية التى شاركت بها مشاركة فعالة فى حركتنا الثَّقَافِيَّة منذ العشرينيات وإلى الآن، أى منذ أكثر من ستين عامًا وأنا أكتب فى هذا المنَّجَه بصورة تختلف باختلاف مراحل العمر، وبالطبع فهى تظن أننى عندما أشعر بقلق فى عالم الثَّقَافَة الغربية من كونى عربيًّا وأننى عندما أكون فى مجال الثَّقَافَة العربية أشعر بقلق لأننى معبأ بالثَّقَافَة الغربية وأحاول التوحيد بين الثقافتين على وجهٍ ما، المهم أنها -كما يبدو لى- أجادت التحليل وأخرجت رسالتها هذه فى أكثر من ألف صفحة، استندت فيها إلى نصوص كثيرة من كتبى.
وبالمناسبة، أقول إنه قد صدر عنى نحو خمس عشرة رسالة فى العالم العربى وفى أجزاء من أوروبا وبصفة خاصة إيطاليا، وسويسرا، وروسيا، وهولندا، كل هؤلاء كتبوا عنى من زوايا مختلفة، آخرها كان من السوربون أيضًا تحت عنوان المنهج التحليلى عند فلان مقارنًا بالمنهج التحليلى عند الفلاسفة الأوروبيين المُعَاصِرين.
• أى كلمة يمكن أن تُقَدّمها عن فِكْرَة الاغتراب بين الثقافتين باعْتِبَارها تمثل جوهر الرسالة؟
والله لا أدرى إن كان هذا الاغتراب وليدَ نوع من الثقة بالنفس أم أنه نوع من الضياع أم الاثنين معًا فى وقت واحد، وبالمناسبة فمن ظروف حياتى ونشأتها أننى تعلمت فى مدرسة إنجليزية وأخذت الدكتوراه من إنجِلترا، وعلى هذا

فثقافتى إنجليزية، وإن كان المصدر العربى موجودًا منذ نشأت قارئًا وباحثًا، غير أنه لم يكن ممنهَجًا، وكنت ألتقطه من كتب معينة ومقالات معينة أيضًا، إلى أن غزرت حصيلتى منه؛ فمنذ عام 1960 بدأت بنشر فِكْرَة طارئة وردت على عقلي، وهى أن الثَّقَافَة العربية حقيقةً متميزةٌ وحدها ببعض الصفات؛ فهنالك الثَّقَافَة الأصيلة فى الشرق الأقصى ومدارها الوحيد كان الرؤية الصوفية أو الفنية، وهنالك الثَّقَافَة الغربية التى بدأت فى اليونان ومحورها الوحيد هو منطقة العقل الذى يعتمدون عليه فى التفكير الفلسفى وفى العلوم على حد سواء، وكان هذا التزاوج بين الثقافتين.

والتاريخ الثَّقَافِىّ لمن يفهمه سيرى بوضوح تام أن الثَّقَافَة العربية خصوصًا كما ظهرت بعد الإسلام كونت ركنًا ثالثًا أو رؤية ثالثة تجمع التُّرَاثين فى وقفة واحدة، لا لأنها نقلت هذا أو نقلت ذاك؛ بل لأن الطبع العربى مكنها من أن يكون صاحبها ذا معدة تهضم العلم إذا أراد، وتهضم الصوفية أو الفنية إذا أراد، أو تهضم الاثنين معًا؛ فلو حلِّلت اللغة العربية ستجد مبادئ الأخلاق كما يراها العربى مدسوسة فى الكلمات نفسها، إذن فالاسم ليس إشارة للمسمى بل يحمل بين جناحيه المبدأ الخلقى الذى ينظم السلوك البشرى، فمثلًا الأمة تنطوى على مبدأ خلقى هو أن أبناء الأمة يعتبرون أن الوطن هو بمثابة الأم، فينبغى أن تكون درجة الإخلاص واحدة.

• وفى إطار ما جاء بالرسالة.. كيف ترى أثر الوضعية المنطقية على الفِكْر العربى الحديث؟

إنها ليست مذهبًا فلسفيًّا يقول رأيًا فى هذا أو ذاك، بل هى منهج للتحليل، إما أن نأخذ كل مؤداه، وإما أن نأخذ بعضه، كما فعلت أنا؛ حين أخذت منها بعض المبادئ التحليلية وأضفتها للمبادئ التى عُرفت عند بعض الفلاسفة، وكونت لنفسى رؤية تحليلية ومنهجًا تحليليًّا بغير موضوع معين وبغير رأى معين، وأنا أستخدم هذا المنهج حين أكتب عن التُّرَاث، العروبة، الوطنية، الانتماء، العدالة، أو عن أى مفهوم من المفاهيم، فأسلط عليه الضوء لأرى العناصر الفِكْرية التى يتألف منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

)1((الشرح: 1-4)
)2((النصر: 3)
)3((آل عمران: 193)

محمود أمين.. العالم إهدار رُوح العقل رَجْعِيَّة مُعَاصِرَة

لم تخمدْ أبدًا تلك الثَّوْرَة العارمة وهذا الصخب الفِكْرِىّ الهائل فى عقل المُفَكِّر الكبير محمود أمين العالم، يثور ويثور ويُثير ويحرِّك ويدفع نحو الأمام بطاقته الإبداعية المتجددة بل المتفردة، ينادى بتحديث الثَّقَافَة العربية رغم أصالتها الضاربة فى أعماق التاريخ، لكنه كالملَّاح يبحث فى ماضيها عن الجذوة المتقدة ولا يكتفى منها بالرماد، ذلك أنه يمثِّل -وبصورة حية- عصارة طيبة لعصر نهضة ثَقَافِيَّة قال عنها "نجيب محفوظ": "إن العقاد هو روحها، وطه حسين عقلها، وسلامة موسى إرادتها"، وبالتالى لا يزال مشروعه الفِكْرِىّ والكتابى -وإن اختزلناه فى ألفاظ قليلة- هو فعل تغيير؛ لأنه يؤمن بأن صرير القلم اليوم هو نفير الإصلاح غدًا كما قال توفيق الحكيم، وكأنه أيضًا يستدعى فينا مأثورات مثالية عن المُثَقَّف الحقيقى الذى تحتاجه الساحة الثَّقَافِيَّة المحلية والعالمية على السواء، فى عصر يسمّونه عصر العولمة، ومن هنا فقد انعطف بنا الحديث نحو بؤرة خطرة جوهرها شيوع هالات التشكيك فى المحيط المصرى والعربى حول عقود التنوير التى مرت بها مصر.

لم يكن أحد من رموز التنوير الثَّقَافِىّ الذين أشعلوا ثَوْرَة الفِكْر فى بدايات هذا القرن وأسسوا لنهضة واعية تجلت آثارها فى أجيال متعاقبة يتوقع -مهما جمح خياله- أن تشتد عليه موجات التشكيك والنقد اللاذع معربة عن اتِّهَاماتها السافرة فى محاكمة عنيفة للماضى، بكل ما حمل من نَظَرِيَّات وأفكار وطرائف ومناوشات وخصومات مثلت خصوبة ثَقَافِيَّة تعلو على واقع متعثر، يحاول أن يحبو نحو أبجديات الارتقاء الكونى المُعَاصِر!

فظهور بعض الكتابات المتحفزة مثل "التنوير الزائف" للدكتور جلال أمين، و"حركة الاستنارة" للدكتور عبد الوهاب المسيرى، و"التنوير عبر ثقب إبرة" للدكتور رفعت السعيد، وقد سبقتها آراء حادة لمراد وهبة، كلها مسَّت من قرب مساحة من التاريخ الحى، لكنها فى النهاية ليست إلا نوعًا من المضاربات الخاسرة على قضايا الثَّقَافَة.

ومن هنا انطلق هذا الحوار مع "محمود أمين العالم" كأبرز الكتاب والمُفَكِّرين الذين كانوا بحق حصاد الجهد التنويرى لأقطاب الثَّقَافَة والفِكْر، ليحدد لنا مسارات ورؤًى جديدة تشف عن إجابات تسحق كم التساؤلات الهشة التى تعلو بين آنٍ وآنٍ معلنة أن التنوير لم تكن له دعائم تحميه أو ملامح تميِّزه، وإنما قام على قضايا ملفقة ومبادئ غربية وقيم مطلقة!

ترى كيف اقتحم العقل الهادئ ذلك البركان الأجوف، وكيف حلل -وفى إيجاز- قضية التنوير فى ذاتها ممتدًّا إلى أغوارها وقضاياها الفرعية.

• العقلانية هى الصفة اللصيقة بشخص محمود العالم.. كيف تفسِّر هذه العقلانيةُ فوضوية الاتجاه الدولى المتسارع نحو العولمة؟

إن إثارة قضية العقلانية عندى كانت فى مواجهة مع محاولة إهدار رُوح العقل وسِيَادَة ما يمكن أن نسميه بالفِكْر الأسطورى أو الفِكْر الخرافى.. فما هى العقلانية مثلًا؟ هى دائمًا إعادة اكتشاف العلاقات السببية والعلمية بين الأشياء، وبالتالى لا بُدَّ أن ندرك قوانين واقعنا المحلى إضافة إلى الواقع الاجتماعى الذى أصبحت له قوانينه الجديدة، وعلينا أن نحدد معرفتنا بالقوانين السائدة فى العالم من قبيل القوانين العلمية والقوانين الاجتماعية والسياسية أيضًا، فمعرفة مثل تلك معرفة عقلية وليست معرفة هشة تقوم على "الفهلوة" أو على التلقائية أو على الرؤية الجزئية، فالفِكْر العقلانى يتيح لى حرية الفعل، بل حرية السيطرة على واقعى فى مواجهة الآخر. وفى رأيى أنك لو تحديت أمريكا فإنها ستتراجع على الفور؛ لأنها فى أزمة، بل فى أزمات، وهى تدير أزمتها تلك على حساب دول العالم الثالث بأكمله. إذن لو أدركت أدوات هذا الواقع فإننى سأتفهم جيدًا معنى العولمة، فأنا مع العولمة ولكن لست مع عولمةٍ مليئة بالتناقضات، عولمةٍ فى ظل النظام الرأسمالى الذى تحول إلى نظام تنافسى ثم إلى نظام صراعى توسعى على حساب العالم الفقير، بل تحول إلى احتكار، وبصفة عامة فإن الرأسمالية التى توحشت تحققت لديها وحدة العالم بأسره؛ فمن وحدة مكانية عن طريق وسائل الاتصال إلى وحدة معرفية وأيضًا وحدة معلوماتية، ولكنها للأسف الشديد أصبحت وحدات مُهَيْمَنًا عليها من شركة مكونة من سبع دول كبار على رأسها أمريكا، التى هى المجلس الأعلى للسيطرة على العالم، فأنا أؤكد ثانية أننى مع العولمة ومع وحدة العالم، لكن دون هيمنة، ودون إلغاء للخصوصية أو إلغاء للمركزية أو إلغاء للقومية بحجة أنها تحد من وحدة العالم. نريد عولمة بداخلها تعددية قومية وتعددية ثَقَافِيَّة.. عولمة لا تلغى الحدود الثَّقَافِيَّة أو الحدود القومية أو الحدود التَّماسية.

إننا فى حاجة مُلِحَّة إلى فِكْر استراتيجى عاقل وليس جزئيًّا أو جانبيًّا أو خرافيًّا.. نحتاج لهذا الفِكْر لنواجه التكتلات فى عالم اليوم، فضلًا عن كيفية استطاعتنا أن نحقق تكتلًا اقتصاديًّا فى مواجهة الكتلة الأوروبية والأمريكية، ولن يقوم هذا الفِكْر إلا على محور العقلانية التى تنطوى على التحليل والرؤية الشاملة، وليس على الرؤية الجزئية أو الرؤية الجانبية أو حتى الرؤية العامة.

• من هنا.. ما هى الوحدة العضوية التى تقوم عليها علاقة الحداثة بما أكدْتَه من قبل؟

الحداثة تقوم على العقل والعلم والرؤية الكلية للأشياء والنظرة التاريخية والتسامح، والآن يقال إن الحداثة قد انتهت؛ فلقد ربطوها بعصر الصناعة، وبروز العديد من المُفَكِّرين والأوروبيين الذين أكدوا أننا نعيش عصر ما بعد الصناعة، أى ما بعد الحداثة، فالعالم قد أصبح جزئيات، والرؤية الجزئية أصبحت هى الرؤية الثابتة، وأصبح العقل يُتَّهَم بأنه سلطوى وفيه مركزية، وهو سبب الشمولية التى تَسُود العالم. إذن فينبغى أن نلغى كل المركزيات بما

فيها العقل وبما فيها الكليات، وبالتالى نحن لسنا فى مرحلة ما بعد الحداثة ولا فى مرحلة حداثة؛ لأننا فى مرحلة ما قبل الحداثة، فنحن لا نزال نستهلك ما ينتجه الآخرون، فكيف ينقلوننا لما بعد الحداثة؟ هم يريدون إلغاء المركزية فى العالم الثالث فقط، بمعنى أنهم يحاولون إلغاء الدولة وإلغاء الإنتاجية والخدماتية وإقامة نظام الخصخصة الذى يقوم بدوره بإلغاء قيام الدولة بالإنتاج ليسود رأس المال الأجنبى محل رأس المال المحلى، فأمريكا قوية وألمانيا قوية أيضًا، والشركات متعددة الجنسيات أصبحت تكون دولة واحدة، وكل ذلك يؤكد أن لديهم مركزية، بينما نحن نفكِّك مركزيتنا.

هناك النزعة التفكيكية فى الأدب، وأنا لست من المتحمسين لأن أفكك الأدب، وإنما أبحث عن النظرة الشاملة أو النظرة العقلانية، أبحث عن الإنسان، عن المبادئ، عن القيم، وفى الأدب الآن تنطلق الابحاث النَّظَرِيَّة فى "ما بعد الحداثة" إلى أنه ينبغى إلغاء الدلالة فى الأدب، بل إلغاء المعنى؛ لتكون هناك انطباعات دون أن تكون هناك علاقات بين الأشياء، وإنما هى فى مجملها رؤية تجاوُرية دون وجود تشابه أو تفاعل أو كلية، وبالتالى هناك ميل إلى إلغاء الوحدة بين الأشياء، وبالتالى إلغاء الدلالة يعنى إلغاء القيمة.. إلغاء المفاهيم.. إلغاء المبادئ.. إلغاء المعيار، وبالتالى فالكتابة فى دفاعها عن العقلانية إنما تمثل دفاعًا عن المضمون والدلالة الإنسانية، وإلا فكيف نُنتج دون عقلانية؟ أو دون رؤية شاملة؟ أو دون فِكْر استراتيجى؟ بل كيف أواجه إسرائيل دون أن يكون عندى فِكْر تخطيطى يقوم على العِلِّيَّة وإدراك الأسباب؟

• ألسْنا -إذن- فى حاجة ماسة لحركة تنويرية نقدية للواقع؟

مع كل احترامى لدعوات التنوير التى نحاول استلهامها بإعادة طبع كتب طه حسين وعلى عبد الرازق والطهطاوى، والتى حققت تنويرًا ثقافيًّا علويًّا، فإننا بذلك نكرِّر ماضينا، بينما التنوير الحقيقى فى رأيى هو تنوير القاعدة المجتمعية، ومن أجل ذلك فأنا أُصر على ضرورة الارتباط بفِكْرَة التنمية فى أبعادها المختلفة، وأنا أضرب مثلًا بعبد الناصر؛ ورغم ما يشوب جسدى من آثار التعذيب، فإننى أكرِّر أن المرحلة الناصرية تُعد من أرقى المراحل التاريخية، فلقد تحققت فيها معانى التنوير الحقيقى؛ فمثلًا السد العالى مشروع تعميرى، لكننى أراه مشروعًا تنويريًّا، لماذا؟ لأننى أتيت بالفلاح الذى يصلح الأرض والعامل الذى يغير شكل الجبل، ورغم الرفض الكامل لهذا المشروع من أمريكا، فإنه كان هناك نوع من الإرادة القومية والرؤية الشاملة وتغيير الواقع، فالتنوير ليس حديثًا عن كتاب، ولكن السؤال هو كيف أغيِّر واقعى لكى أغيِّر عقولَ الناس؟ وأعنى أن التغيير الحقيقى هو تنوير مرتبط بخطة تنمية لتغيير المجتمع ولا يكون تكرارًا لكتب الغرب باسم التنوير أيضًا.

• هل مثلت العاطفة لديكم معيارًا للحكم أم أن ذلك يمثِّل نوعًا خاصًّا من لباقة الحس والذوق المعنوى؟

من الممكن أن يكون ذلك صحيحًا× لأننى دائمًا ما أحس بأن نجيب محفوظ هو ضمير مصر التاريخى، فحين تقرأه تقرأ تاريخ مصر الاجتماعى والسياسى وتضاريس القيم والمشاعر والحب والكراهية والصراع والتنافس، ولأجل ذلك استشعرت فيه ذلك الرفيف الإنسانى العميق. أما توفيق الحكم فهو فى تقديرى يغلب عليه الجانب العقلانى، لكن لديه التباس من خلال تلك الثنائيات التى أقامها بين العقل والعاطفة، الجسد والرُّوح، وتجده أقرب إلى الجانب المعنوى منه إلى الجانب الموضوَعْى، إلا فى استثناءات قليلة تمثِّل أعماله الأخيرة التى تميزت بمساحة حسم، وفى رأيى أن الالتباس لا يمثِّل إدانة؛ بل بالعكس يدلُّ على مُفَكِّر قلق، وإذا كان محفوظ قد استطاع أن يعبِّر عن الرُوح التاريخية لمصر بصراعاتها المختلفة وتطورها الزمنى، فإن الحكيم قد عبَّر عن الرُّوح المزاجية، والنكتة الظريفة والشخصيات المرحة والساخرة. لذلك كثيرًا ما يطلق على توفيق الحكيم أنه فنان تشع دواخله بالرُوح الشعبية المصرية الفياضة.

• هل تعتبر أن غلبة الرؤية الأحادية فى الفِكْر العربى المُعَاصِر تجاه العديد من القضايا تمثل أحد معوقات هذا الفِكْر على خلاف الفِكْر الغربى الذى يتميز بقيم التعددية وقبول الآخر؟

نحن لا نملك رؤية أحادية ولا رؤية متعددة، ولكن لدينا رؤية توفيقية، فنحن متخلفون وإن كان وراءنا تُرَاث عظيم، فهل نحن مع تُرَاثنا أو مع هذا العلم الجديد؟ لا بُدَّ أن يكون هناك نوع من القراءة النقدية لهذا التُّرَاث، وفى الوقت ذاته لا بُدَّ من أن نتعلم من الغرب؛ فأوروبا صعدت بإنتاجية السلع والخدمات وإنتاجية الفِكْر والمعرفة، أما نحن فما زلنا نمثِّل عالة عليهم؛ لأننا غير منتجين، رغم وجود طاقات إبداعية متناثرة، فكيف يتحول تعليمنا وعلاقتنا إلى علاقات تفسح مجالًا للإبداع، فالإبداع ليس إلا الخروج مما هو سائد ومألوف ومسلم به لنتجاوزه إلى ما هو أرقى وإلى ما هو جديد. إذن ينبغى أن ننمى الإبداع لا التلقين، ونرتقى بالحوار الفِكْرِىّ لا أن نقوم بالتسليم بما هو ثابت، وشرط هذا أن تكون هناك خطة تنمية اقتصادية مرتبطة بخطة إعلامية تتواكب معها خطة ثَقَافِيَّة فى التعليم والتربية وفى السينما والفن، بمعنى أنه لا بُدَّ أن يكون هناك مشروع تنموى عام اقتصادى، إعلامى، ثَقَافِىّ، تعليمى، تربوى.. أى مشروع فِكْرِىّ عام يقوم على سِيَادَة رُوح الحوار المجتمعى الذى يقوم على النقد الصريح من أجل أن نتجاوز نقائصنا، وعلى سِيَادَة رُوح النقد ورُوح العقلانية ورُوح الديمقراطية وحرية التعبير وحرية الإبداع بل حرية الاعتقاد واحترام الاختلاف كذلك؛ لأننا قد وصلنا الآن إلى مرحلة مصادرة قصيدة شعر فى مجلة أدبية!!

• هناك ملاحظة تؤكد الفرق الكبير بين الرؤية الشرقية والرؤية الغربية لفِكْرَة الزمن.. فالمُثَقَّف المصرى يقول نحن على مشارف القرن الحادى والعشرين

بينما المُثَقَّف الغربى يقول فى الوقت ذاته إن القرن الحادى والعشرين قد بدأ منذ سنوات.. ما رأيك؟
نعم هذا صحيح، فهناك فرق واضح بين الرؤيتين، فرق يعكس مستوى الوَعْى بحسابات اللحظة المُعَاصِرَة وبباقى المعادلات الكونية الكبرى، فنحن نستخدم أرقى إنجازات الغرب لنمارس حياة بدائية متدنية جدًّا.. حياة استمتاعية بذخية، ولهذا أقول دائمًا إن الثَّقَافَة هى المحرك الفعلى الدافع نحو نهضة الشعوب فى اتجاه الحضارة، فلقد أصبحت الثَّقَافَة تمثِّل قوةَ إنتاج فى العالم كله، وفى هذا الإطار فأنا أتفق مع مقولة الدكتور زكى نجيب محمود: "نحن نرفض الحضارة ونقبل نتائجها"، ولعل تلك العبارة تسجِل وتعكس ازدواجية خطيرة داخل العقل العربى الذى أتمنى دائمًا أن ينتصر على كل قيوده الفِكْرية ليتسامى على الواقع كما كان من قبل.
• ما هو تشخيصك لرؤية د. مراد وهبة، أن مصر لم تمرَّ بمائة عام من التنوير كما يُشاع فى الأوساط الثَّقَافِيَّة، استنادًا إلى أنه كان هناك مُفَكِّرُون متنورون لكن لم يكن هناك تيار تنويرى.. هل هو الغَضّ من جهد الرموز التنويرية دفاعًا عن الذات إزاء تقصيرها أم هو الجحود لجولات النضال الثَّقَافِىّ التى خاضتها مصر؟
لا شك أننا قد مررنا بأكثر من مائة عام من التنوير، لكن إلى أى حد وإلى أى مستوى يصل هذا التنوير؟ فلو قارنَّا بين الفِكْر والوَعْى المصرى من منتصف القرن الماضى وحتى الآن، وتأملنا مسار هذا الفِكْر فى المجال السياسى والاجتماعى والأدبى، فلا شك أننا سنجد تَقَدُّمًا وتطوُّرًا، لكن هل هذا التغير والتطور يتواكب بحق مع احتياجنا ويتفق معها؟!
الحقيقة لا.. فلا يزال الكثير من أهداف التنوير فى مرحلة نَظَرِيَّة لم يتحقَّق لها تطبيق، ثم هناك تحديث فى كيان المجتمع، لكنه بعيد عن مستوى العصر، فما هو جوهر هذا التنوير الذى نتساءل عنه؟ إنه الرؤية العقلانية للحياة، والمعالجة التى تمكِن الإنسان من السيطرة على قوانين الواقع اعتمادًا على إدراك موضوعْى وليس على إدراك وهمى أو عاطفى، وفى رأيى أنه ليس بالوَعْى وحده يتحقق التغيير، ولكن أن يتحول هذا الوَعْى إلى قوة فعل أو قوة تغيير حقيقية، أقول لا جدال فى أنه كان هناك تنوير عقلانى وثَقَافِىّ وسياسى بالمعنى الإيديولوجى العام فى قيم وتصورات سياسية جديدة وتوجهات عقلانية، لكن ما العلاقة بين هذه التوجهات والرؤى والأفكار والتصورات وواقع التغيير؟
فى تقديرى أن وضع القضية فى شكل أبيض وأسود يُعَدُّ فى ذاته رؤية غير تنويرية؛ لأن الرؤية التنويرية الحقيقية هى أن نكتشف ما حققناه موضوعيًّا وما ينقصنا تحقيقه موضوعيًّا أيضًا، وإلا أصبحنا فى موقف ظلامى معكوس.
أقول إن التنوير هو عملية نضالية ضد القوى الرَّجْعِيَّة.. هو عملية تغيرية لمجتمع الأبنية والهياكل الاجتماعية أكثر من كونه عملية تثقيفية فِكْرية،

وبالتالى محاكمة التنوير بمعايير العصر تُعَدُّ خطيئة فِكّرية كبرى.
• لكن.. هل ترى تحديدًا أنه كان هناك ما يمكن أن يُطْلَقَ عليه بحق أنه تيار تنويرى أم لا؟
بالضرورة من الصعب الموافقة على ما يقوله د. مراد وهبة؛ لأنه كانت هناك مدارس فِكْرية، فلا استطيع مثلًا القول إن محمد عبده كان نسيجَ وحده، بل إنه تيار استمرَّ حتى الآن فى كثير من التوجهات الفِكْرية العقلانية المستنيرة، وفى الأدب نجد مدرسة الديوان، وتستطيع أن تجد امتدادها وتأثيرها بل تجد تطورها فى مدرسة أبوللو التى مثلت الحركة الرومانتيكية، وطه حسين من مدرسة تميزت بالرؤية العقلانية للنص الأدبى، ومدرسة شبلى شميل الخاصة بالتطور تستطيع أن تجد صورتها المُعَاصِرَة فى سلامة موسى ثم فى لويس عوض، وعلى ذلك لا أستطيع القول بأن هناك جزرًا معزولة، بالعكس هناك تيارات متصارعة بدليل وجود تيار وضعى كان على رأسه د. زكى نجيب محمود، كل ذلك إضافةً إلى تيار قومى له اتجاهاته، ومن هنا فلا يمكن أن نقول إنه يوجد مجرد أفراد متناثرين، ولكن هناك تيارات نضجت أكثر من غيرها.
• فى إطار طرحكم المتميز لقضية الإبداع وآفاقها المعرفية وتساؤلكم: أين المفهوم العام للإبداع من ثقافتنا الراهنة.. وما ترتَّب على ذلك من ترصُّدكم للقصور الإبداعى فى العديد من الظواهر الثَّقَافِيَّة.. هل من الممكن أن نقدِّم طرحًا إبداعيًّا فِكْريًّا نتجاوز به أزمة الفِكْر العربى المُعَاصِر؟
قد تظن أننى أقصد الأدب، ولكنى أقصد الفِكْر بشكل عام، فنحن لا نملك الرؤية النَّظَرِيَّة العميقة؛ لأن لدينا هشاشة فِكْرية تعبِّر عنها رؤية تجزيئية أفقدتنا الرؤية العامة، وبالتالى فليس لدينا الإبداعية الصارخة التى تنعكس ظلالها على الفن أو الرواية أو الفِكْر أو الشعر، نحن فى حاجة مُلِحَّة لنوع من الجسارة الحضارية التى تنبع من خبرات مصر الأصيلة.
فنحن مع الإبداع ضد ما هو قائم.. الإبداع سلطة تغييرية، ولا ينبغى أن يكون الدين سُلْطَةً على الإبداع ولا القانون رقيبًا عليه ولا حتى السياسة؛ لأن الإبداع بطبيعته تجاوز كل هذه المسائل وأصبح المُثَقَّف هو رُوح النقد فى المجتمع، وهو رُوح الرفض دفاعًا عن رؤية مُسْتَقْبَلِيَّة تسودها سلطة الثَّقَافَة الرافضة لتغذية الفِكْر القَدَرِى أو الأسطورى.
• كيف اعتبر مُفَكِّرنا محمود أمين العالم أن رواية "أولاد حارتنا" لنجيب محفوظ لم تكن تمثِّل إلا نوعًا من رد الفعل الأدبى والإبداعى والنقدى للواقع السياسى والاجتماعى الذى كانت تسعى ثَوْرَة يوليو إلى تحقيقه.. بينما لم يصرِّح محفوظ ذاته بهذا التَفْسِير أو يدلنا عليه ناقد استطاع ان يقرأ خوافى النص وبواطنه؟!
قيمة العمل الفنى دائمًا تكمن فى تعدد دلالاته.. إنه يقبل أكثر من تَفْسِير، فبعض الناس يرون أن هذا العمل هو مجرد تَفْسِير أو رؤية للدين بشكل

واقعى، وحتى لو كان هذا صحيحًا فكل عمل أدبى -أراد أو لم يُرِدْ- يعكس موقف الواقع. ولنجيب محفوظ مقولة شهيرة هى "إن الرواية فن خبيث"، وبالتالى كانت كل كتاباته تحمل رُوح النقد وليس الجهارة، فضلًا عن التوازن؛ ففى رواياته النموذج الشيوعى والإخوان المسلمون والأبيض والأسود. إنه أقرب إلى الاستكانة منه إلى الجرأة لكى يمرِّرَ ما يكتبه، لكن فى رأيى أنها كانت تمثل نقدًا للسُّلْطَة المطلقة؛ فالصراع فيها كان بين العلم والجانب الرُوحِىّ، وحاول فيه أن يوقف نهر الاشتراكية الصوفى أو التصوف الاشتراكى.

أقول.. لا تحكموا على العمل الفنى بآخر نتيجة له، ولكن احكموا على الرؤية الشاملة والقيمة المضافة، وأنا فى تقديرى أنه كان يبحث عن المعنى العام دفاعًا عن القيم.. قيم الإنسان.. حرية الإنسان، تلك الحرية التى يمثلها بدرجات مختلفة الأنبياء فى مواجهة سلطة الفتوات الذين انتزعوا السُّلْطَة من الشعب. وعمومًا أرى أن قضية نجيب محفوظ فى أولاد حارتنا هى أَنْسَنَة القيم الدينية، لذا كان تسلسل الأنبياء عنده هو تسلسل القيم الحقيقية.

• أعلم أن لعميد الأدب العربى د. طه حسين منزلة رفيعة عندكم قد تصل لحد الفتون بشخصه وفِكْره وتاريخه.. ترى ما هى طرائف أخطر لقاء معه؟!

اللقاء الذى هزنى هزة عنيفة كان فى الأربعينيات، فقد ذهبت إليه مع صديقين هما مصطفى سويف ويوسف الشارونى، وقد أخذنا فى الحديث معه كعادتنا، لكنه قال: اتركوا الأدب -لأنه قد استشعر من كلامنا أننا نمثل اليسار- وقولوا لى ما رأيكم فى الواقع المظلم.. إنكم تدركون بلا شك أوضاع بلدكم وتدركون أهدافكم السياسية والتَّقَدُّمية بشكل جيد ولكن ينقصكم شئ واحد هو التكتيك والاستراتيجية.. ينقصكم علم الثَّوْرَة، هذا ما قاله لنا نحن الذين كنا نزعم أننا نشتغل بالعمل السياسى!

واعتبرته أعظم درس فى حياتى من طه حسين، الذى لم يكن مُفَكِّرا عاديًّا، بل هو مُفَكِّر عملى ترتبط كل فِكْرَة عنده بخط إجرائى على مستوى الممارسة الحياتية.

• ما هو تقييمكم لوضعية الساحة الثَّقَافِيَّة وما تَمُوجُ به من إخفاقات ومآثر؟

الحقيقة أننا لا نزال فى حاجة إلى سِيَادَة رُوح التنوير للتغلب على الفِكْر الماضوى والاتجاهات الابتذالية أو التسطيحية بالفِكْر الاجتهادى الإبداعى، وخلق الرؤية الشاملة فى ظل استراتيجية عامة تحرِّك الجزئيات حركة جماعية مشتركة واعية تسعى لتجاوز الواقع إلى ما هو أفضل، وأن نتجنب النظرة التقديسية للتُرَاث دون أن نتفهمه تفهُّمًا عقليًّا بوضعه فى ظروفه التاريخية وتأمله بنظرة عقلانية نقدية.

إن التنمية الثَّقَافِيَّة فى العالم العربى هى الأساس الراسخ مهما اختلفت السياسات، فالواقع العربى هو واقع مجروح بقضاياه الصراعية التى لا تقوم على أسس مبدئية، بل على العكس تمامًا تقوم على سِيَادَة رُوح القبلية دون

احترام لقيم الديمقراطية وحقوق الإنسان، بل بلغ بنا الحد أن تكون هناك محاولات لأن يفرض بعضنا القوة على بعض، واللجوء لحل المشاكل الخاصة على حساب الآخرين، وإذا كنتُ من المؤمنين بالوحدة العربية والقومية، لكن لا وحدة دون احترام التمايز، ولا علاقة صداقة دون احترام الخصوصية، ولن نتلاقى إلا حين نحترم الاختلاف، وبدلًا من أن نتفرغ لعدوِّنا الأكبر)وهو التخلف والتبعية وإسرائيل وحل القضية الفلسطينية(نتفرغ لصراعات داخلية تقوّى شوكة أعدائنا وتضاعف من تخلُّفنا!

• عيد الميلاد السابع والثمانين لصاحب عطر الأحباب... يحيى حقى الذى أضاء لنا قنديل أم هاشم ليستكشف نفوسنا ويقف على حقيقة مسرى الخرافة فى العقل الجمعى... فى رؤيتك ما هى القيمة الحقيقية له كمبدع فى الثَّقَافَة المصرية؟

أنا سعيد بالحديث عن يحيى حقى وعن إبداعه العميق؛ لأننى أعتبر يحيى حقى قصيدة ممتدة من ثَوْرَة 1919، فإذا كانت هذه هى أول ثَوْرَة تقريبًا فى عصرنا الحديث كثَوْرَة استقلال وتحرير لهويتنا المصرية وعمقنا المصرى، تسعى إلى تحرير ملامح مصر الحقيقية فى مواجهة التخلف والاحتلال البريطانى ومحاولة نزع شخصيتها، فإن كتابات وشخصية يحيى حقى وحياته هى استمرار لهذه القيمة الكبرى التى عبَّرت عنها ثَوْرَة 1919، فيحيى حقى استمرار لهذه الثَّوْرَة فى الأدب والفن وأساليب التعبير، بل لعلنا نقول إن هذه الثَّوْرَة قد فشلت من الناحية السياسية، ولكنها انتصرت من الناحية الثَّقَافِيَّة والفنية فى أمثال كتابات يحيى حقى الذى واصل حملة ملامح شخصية مصر، فلم يحدد ملامح نهائية ثابتة، ولكنه أبرزها كملامح متطورة متجددة بتطور الحياة المصرية وبتطور إحساس يحيى حقى نفسه بحقيقة مصر والشعب المصرى، وهو فى هذا لم يعبِّر عن حقيقة مصر تعبيرًا وصفيًّا تقريريًّا، ولم يكن أيضًا مؤرخًا، ولكنه كان فنانًا، ولعل هذا ما ضاعف من إحساسه العميق بقلب مصر، فلم يقف موقفًا بعيدًا من تاريخ وواقع مصر ليصف موقف المُفَكِّر النَظَرِىّ التجريدى ليحدد بعض التصورات العامة، ولكنه غاص فى قلب الشعب المصرى، وعبَّر عن أحاسيسه العميقة، ومشاعره الداخلية الباطنية، وأكاد أقول إنه كان متصوفًا عاشقًا، المتصوف الذى يذوب محبة فى شعبه المصرى، ويعبِّر عن الخلجات الدقيقة الرهيفة فى داخل قلب مصر، ثم يحسن الإنصات لهذا الواقع، لا فى مظاهره العلوية أو أبنيته الإسمنتية الخارجية -سواء كانت ممثلة فى أشخاص أو مؤسسات-، ولكن فى أبنيته الإنسانية العميقة، وفى شخص إنسانه البسيط، سواء كان فلاحًا أو عاملًا أو مواطنًا شعبيًّا، فهو المعبِّر حقيقةً عما يمكن أن نسميه بالأدب الشعبى، وإن كان أدبًا شعبيًّا يرتفع بلاغيًّا إلى مستوى الأدب الرفيع؛ لأن مادته كانت الشعب وأشواقه وابتساماته وآلامه وأحزانه ومباهجه، بل أساطير هذا الشعب وحكمته وطقوسه.. هذه هى كتاباته وهذه هى مادته التى احتفظ فيها بالإيقاع

الحقيقى للواقع المصرى، وبلغة هذا الواقع، وإن كان قد ظل بعيدًا عن هذا الواقع سنوات طويلة، لكن ظلت لغته فصيحة أشد ما تكون الفصاحة، وبسيطة أشد ما تكون البساطة، إنها تكاد تكون عامية، وهى ليست عامية، تكاد تكون لغة الحياة اليومية، ولكنها لغة الحياة اليومية المضفَّرة تضفيرًا فنيًّا رقيقًا لا يبعدها عن الواقع، بل يجعلها تتعمق فيه ليكشف ما هو وراء الواقع الظاهر لما هو أعمق من الواقع الفنى.. هو فعلًا القصيدة الجميلة لمصر الشعب، لمصر البسطاء، لمصر المعاناة والتطلع والشوق للجديد، لمصر العذبة، لمصر الصبورة الطيبة.. إنه بالفعل شاعر النفس الإنسانية المصرى البسيط الذى استطاع أن يدرك هذه المكنونات الداخلية الخاصة جدًّا، والذى استطاع أيضًا بقدرته على التعبير الخاص أن يقدِّم أدبًا لا أقول إنه مجرد أدب إنسانى، بل هو أدب يرقى إلى مستوى العالمية بمقدار ما فيه من عبقرية التعبير عما هو خاص بمصر.

• وما هى أهم قضية أثارتها مؤلفات يحيـى حقى وحياته؟

فى تقديرى أن أبرز شىء هو الخصوصية، وأقصد خصوصية الواقع المصرى؛ فثقافتنا الحقيقية ينبغى أن تكون فى إطار الارتباط الحميم بواقع شعبنا؛ لنتبين بالفعل خصائصها، ليس تبينًا نظريًّا مجردًا، ومن هنا فقد استطاع يحيى حقى أن يتبين هذا من خلال تقدير الملامح الخاصة للشعب من عادات وأساليب ومنهج تناول للأشياء ومنهج ردود الفعل. وكذلك العلاقات الإنسانية فى الأحياء الشعبية، وحتى الأساطير أو ما يسمى بالطقوس الأسطورية التى قد تبدو فى حقيقتها متخلفة لا تتفق مع رُوح العصر.. دائمًا كان هذا الرجل قادرًا على أن يوجِّه ويركز كل طاقاته الإبداعية لاكتشاف الخصوصية المصرية بتحديده ملامح عديدة من الخصائص المتنوعة المتحركة المختلفة ذات الخصوبة والحيوية.. وفى تقديرى أن غوصه فى أعماق وجدان الشعب المصرى واكتشافه لحقيقة نبضه الخاص جعلا أحدهم يسأله -ذات يوم- عما يعرفه من نداءات البائعين الجائلين، وهل يستطيع أن يغنى بعضًا من هذه النداءات.. وبالفعل وجد تجاوبًا صريحًا من يحيى حقى الذى استطاع أن يعرف العام فى الشعب المصرى من خلال الخاص.

يحيى حقى فى الرواية وفى القصة القصيرة هو سيد درويش فى أغانيه المتصلة بالمسائل الشعبية والعادات والطقوس الحياتية.. إنها الخصوصية المصرية لثَوْرَة 1919، فحينما أقرأ يحيى حقى فإننى استمع إلى سيد درويش، كأننى استمع إلى موسيقى واحدة أو قصة واحدة، فقراءة هذا الأدب واستبطانه ضرورة، لأنك ترى نفسك فيه، كمصرى، وكإنسان؛ فعند قراءة أدب يحيى حقى وما يتركه من انطباعات الابتئاس والابتسام طول الوقت أحس برفيف إنسانى، عطر إنسانى، وليس غريبًا أن تحمل مجموعته "عطر الأحباب" معالم كثيرة من المحبة وشفافية الإنسان وحب الخير والتعاطف والحميمية.. وهذه كلها تكاد تكون ملامح الشعب المصرى البسيط الذى ذاق

ألوانًا من القمع والاستعمارات المختلفة، ورغم ذلك فهو مبتسم دائمًا، ذو حكمة ونكتة وأصالة، تداخلت عليه شعوب من الخارج، وامتزجت به، ومع ذلك فطبيعته قائمة ومستمرة وليس عنده موقف برفض الآخر، بل إن هذا الآخر يدخل فى مصر فإذا به ابنك، تفتح له بابك، تمامًا كما يفتح يحيى حقى باب قصصه لكل الناس، تدخل قصته فتحس أنك تجلس فى بيتك، تلتقى بشخص، فإذا به يفتح لك قلبه.. وهذا التعبير هو سمة كبيرة من سمات يحيى حقى، سواء فى أحداث قصصه أو بنية هذه القصص.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لويس عوض.. عبد الناصر قتل أمى

لم يكن دكتور لويس عوض، طيلة خمسة عقود فى تاريخ الثَّقَافَة المصرية والعربية، سوى أحد أهم فرسان الرأى وحراس الكلمة ومبدعى النَّظَرِيَّات... جَسُورًا كان هو، مقدامًا عملاقًا فى ثورته على السائد والمألوف والقديم... أقام الدنيا وأقعدها بأفكاره المؤسسة على خلفية معرفية عتيدة، استحدث خلالها العديد من المفاهيم الثَّقَافِيَّة والسياسية والاجتماعية التى حققت شموخًا خاصًّا للتاريخ الثَّقَافِىّ، بما انطوت عليه من جدليات، ذلك حين استهدفت كسر آلية الجمود العقلى، فى محاولة للانطلاق بتيار الوَعْى من التقليد والرتابة إلى المغايرة والخصوبة والديناميكية، لذا فقد خاض العديد والعديد من المعارك الفِكْرية الطاحنة مع أقطاب عصره، والتى لم يكن ضجيجها ليخفت إلا حين انطلقت صيحات الأسى معلنة تغير مسار البوصلة، لكن فى اتجاه آفاق رحلة الصمت الأبدى، تلك التى تختلف مفرداتها لغة وفِكْرًا وحسًّا ونفسًا، من ثَمَّ فلقد جاءت هذه الكلمات مع لويس عوض داخل حيز زمنى حرج يتمحور ما بين نهايات مشوار الحياة وتحسُّس أعتاب الموت لكنها، وفى كل الأحوال، يظل انتماؤها لذلك الثائر الفِكْرِىّ الذى بات يُعايش ثَقَافَة السكون!!

• ترى من كان صاحب الأثر المهيب على عقل لويس عوض.. لا سيما وأنتم كجيل قد ترنح كثيرًا بين رؤى وتوجهات عاصفة لأرباب الفِكْر العربى والأوروبى التى قد تبدَّت فى لحظات وكأنها متناقضة متضاربة وفى أخرى وكأنها متلاقية متكاملة.. فمن هذا الشتات عند من تقف؟

سلامة موسى فتح لى آفاقًا جديدة، واقتربت بسببه من العلوم على اختلاف طبيعتها، قرأت وتابعت كل ما يكتبه فى نَظَرِيَّة التطوير والعقل الباطنى والاشتراكية. والنظرة الاجتماعية التى نبهتنا إلى ضرورة وأهمية التغيير الاجتماعى، فتح لى عالمًا جديدًا من الأفكار وطرق التفكير، وقد علمنى الشىء الكثير. وأعتقد أنه علَّم جيلًا كاملًا من الراديكاليين المصريين، وأن أثره فيهم لا يمحى، بمحاضراته ومقالاته ومواقفه وكفاحه. كان نموذجًا فريدًا بين قادة الفِكْر المصرى.

• للدكتور لويس عوض موقف موضوَعْى من ثَوْرَة يوليو استفاض فى سرده خلال كتابه "أقنعة الناصرية السبعة".. كيف تسنى لك أن تكون موضوعيًّا بينما ممارسات القهر الثورى كانت تستوجب تحريك ما لديك من نوازع سلبية وتحيد بك عن أية موضوعية، لا سيما وأنت رمز ثَقَافِىّ كنت وغيرك ضحية لسُلْطَة غاشمة؟

حين قامت ثَوْرَة يوليو 1952، وكنت فى الولايات المتحدة، شعرت بأن رأسى محلِّقة فى السماء؛ لأن الأمريكيين فى أعماقهم يحتقرون مصر والمصريين. ومن جهة أخرى وفى الوقت نفسه شككت فى هوية الثَّوْرَة لقدومها من

الجيش، وأحسست بأنها جاءت لإجهاض الثّوْرَة الحقيقية. وقد زادت شكوكى بحكم الإعدام الذى أصدرته على العاملين خميس والبقرى فى كفر الدوار. ثم وصلت هذه الشكوك إلى الذروة بسبب أحداث مارس 1954 حين وقع الانقسام الكبير بين العمال والمثقفين. وخرجت المظاهرات العمالية لتأييد عبد الناصر ضد نجيب وخالد محيى الدين، وهتفت "لتسقط الحرية"، وكان ذلك أمرًا غريبًا ومأساويًّا إلى أبعد الحدود، فقد ضربوا قاضى القضاة)رئيس مجلس الدولة(عبد الرازق السنهورى. وكنا تقريبًا على شفا الحرب الأهلية وانقسام القوات المسلحة. ولدىَّ تساؤلات تستطيع خلالها أن تحدد موقفى من الثَّوْرَة؛ إذ كيف تقوم ثَوْرَة وتطالب بتصفية المصالح الأجنبية فى مصر وتبدأ بمصادرة أملاك الأجانب وتؤممها أو تمصِّرها، وتؤمم قناة السويس، وما تلاها من تأميم البنوك والشركات الأجنبية، أقول كيف تفعل كل هذا، وتحاول فى الوقت نفسه أن تقنع الغرب بأن يأتى للاستثمار فى مصر؟! هذا بالطبع يدلّك على أن جرثومة هذا التناقض كانت موجودة مع نظام عبد الناصر منذ البداية. وجود هذا التناقض كان من عورات النظام الناصرى، وقد اكتشف عبد الناصر أنه لا بُدَّ أن يختار فاختار طريقًا قوميًّا، عندما عرف أن الغرب لم يأتِ برؤوس الأموال لحل مشاكله اتجه نحو الشرق، مع الاتجاه أيضًا إلى تأميم رؤوس الأموال المصرية!!. ولقد تجسد الكثير من ذلك حين التقيت بعبد الناصر ثلاث مرات، أولها فى قصر عابدين حيث كنت مقررًا للجنة الثَّقَافِيَّة فى مؤتمر التضامن الأفريقى الأسيوى، والثانية حيث تسلمت وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى. والثالثة كانت فى "الأهرام" حين قام بزيارته المعروفة عام 1969. وكان هيكل قد اختار مكتبى ليكون مكانًا للقاء كتاب وأدباء الأهرام بالرئيس. كان هناك نجيب محفوظ وحسين فوزى وعائشة عبد الرحمن وصلاح طاهر وصلاح جاهين. وعندما دخل عبد الناصر أراد هيكل أن يمزح معه وهو يقدمنا له قائلًا: هنا جميع التيارات الفِكْرية ممثلة؛ فالدكتورة بنت الشاطئ تمثل مصر الإسلامية، ود. لويس عوض يمثل مصر الفرعونية، ونجيب محفوظ... فأكمل عبد الناصر "ويمثِّل السيدة زينب"، فعلَّق نجيب "بل سيدنا الحسين ياسِيَادَة الرئيس".. وضحك ناصر، وجاء دور حسين فوزى فقال هيكل إنه يمثل البحر المتوسط، وحينئذٍ قال عبد الناصر لفوزى: أنت لا تحب القومية العربية، فقال فوزى: بل لقد كتبت يا سِيَادَة الرئيس فى كتاب السندباد أن العرب انتصروا على الروم بواسطة الأسطول المصرى... فعلق عبد الناصر بأنه يمزح لا أكثر. ولكن حسين فوزى استطرد: ياسيدى الرئيس لقد كانوا يعلموننا أن مصر أعظم أمة، والآن نحن دولة متخلفة. ولن نستطيع استعادة مكانتنا إلا إذا اتجهنا بأبصارنا نحو الشاطئ الآخر للبحر المتوسط؛ لنرى ماذا يفعلون ونفعل مثلهم.

• ماذا لو عدنا بالذاكرة فى دعوة لاستحضار مشهد ذاتى لا يزال قابع فى بؤرة الوَعْى والشعور ولم تزحزحْه العقود الطوال؟

فى مارس 1959 طرقت الشرطة السرية بابى.. دخلوا وفتشوا البيت والمكتبة. وتناول الضابط بعض الكتب. وقبل أن يخرج بقليل فتح الدولاب وإذا به يجد مخطوطًا كتب عليه "العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح"، فسألنى: ما هذا. وقلت له: "إنها رواية"، سألنى: "هل هى رواية شيوعية"؟، قلت له "اقرأها"، وأخذها بالفعل، ولكنى طلبت منه أن يضعها فى "حِرْز" حتى أستطيع أن أطالب بها فيما بعد، ثم أخذونى فى سيارة إلى سجن القلعة. وكان يركب معى الكاتب شوقى عبد الحكيم. وبعد فترة رُحِّلْنا إلى سجن "أبو زعبل" الشهير. وهو السجن الذى يقضى فيه عتاة المجرمين فترة "الأشغال الشاقة"؛ حيث يقطعون الحجر من الجبل. وفى هذا المعتقل مُورس التعذيب، سواء بالضرب الفردى والجماعى، بالسياط أو "بالشوم"، أو بتقطيع الحجر.
وكان قد سبقنا إلى المعتقل الكثير من المثقفين والعمال، أغلبيتهم من الشيوعيين وأقليتهم مثلى من الديمقراطيين، ولكنى لم أتصور قط أن المعاملة ستكون على هذا النحو البشع، وخاصة مع فريق من الوطنيين الذين يؤيد بعضهم الثَّوْرَة، ويؤيدها البعض الآخر بشروط وينقدها البعض الأخير فى تجاوز لحدود العمل السلمى... فالشيوعيون المصريون، بعكس التيارات الإسلامية، لا يحملون السلاح، وكل مضبوطاتهم هى الكتب والنشرات.
وبالنسبة لى، فإنى أظن أن موقفى من "الوحدة العربية" ومن "الديمقراطية" هو سبب اعتقالى، وهو موقف عبَّرتُ عنه فى القليل مما سمح بنشره، ولم أستطع التعبير عنه فى الكثير مما لم يُسمح بنشره. وقد أمضيت وقتى فى المعتقل بين التعليم والتعذيب، أى أننى حاضرت فى زملائى المعتقلين، وألقيت عدة محاضرات فى الأدب والثَّقَافَة. وتعرضت كغيرى، وربما أقل، لصنوف شتى من الإهانات وقطع الحجر والضرب، وقد ساعدنى البعض فى تقطيع الحجر.
ولسوء حظى أننى عشت اللحظات التعسة الأليمة التى تعرض فيها شهدى عطية الشافعى للقتل، وكأن الأقدار التى أتاحت أيضًا لى بداية معرفة مع هذا الرجل النبيل على ظهر الباخرة من إنجلترا إلى مصر، ثم أتاحت لى معرفته أثناء الهرب من مطاردة الشرطة فى العصر الملكى، قد أتاحت لى أن أشهد نهايته المأسوية فى أحد معتقلات الثَّوْرَة التى كان يؤمن بها!
إنها بالطبع تجربة مهمة، ولكنها تعبِّر عن المَسِيرَة الغريبة لثَوْرَة يوليو؛ فلقد كان من المفهوم أن تصطدم بمن أشهروا فى وجهها السلاح، ولكن لم يكن مفهومًا هذا الصدام مع قوى تنادى بالشعارات ذاتها تقريبًا، وليس من تَفْسِير لذلك سوى غياب الديمقراطية الذى كرسته الوحدة المصرية – السورية بقيامها على أساس غياب الأحزاب، أو على أساس ما دُعى بالاتحاد القومى.
وبصفة عامة لدىَّ اعتقاد راسخ أن جمال عبد الناصر قتل أمى، أو على الأصح عجَّل بوفاتها؛ لأن مجلس قيادة الثَّوْرَة طردنى من الجامعة مع أكثر من خمسين أستاذًا ومدرسًا آخرين فى سبتمبر 1954، وبعد أن تلقيت خطاب

الفصل من الجامعة سافرت على المنيا لإشاعة الخبر السعيد. ونزل الخبر على أمى نزول الصاعقة فتحجرت الدموع فى عينيها. وحاولت أن تخفى مشاعرها ما أمكنها ذلك، وكان تعليقها: "ربنا يجازيهم". وبالطبع حاولت أن أهوِّن الأمر عليها بالتظاهر بعدم الاهتمام. ولكنى كنت أقرأ كل خالج يمرّ بنفسها: إذن فقد ضاعت فى لحظة واحدة خمسة وثلاثون سنة من سهر الليالى فى تعب التربية.

• لكن ألا تتجلى دموية الثَّوْرَة، وبشكل قاطع، فى نموذج وَطَنِىّ رائد يُدعى شهدى عطية... ذلك الاسم الذى بُهِتَ "ناصر" حين أعلمه الصحفيون بأنه قد مات فى المعتقل إثر طوفان التعذيب بينما كان يتحدث فى يوغسلافيا عن نظامه الديمقراطى؟

كنت أراقب الشرطى السرى وأرصد حركاته وأخبر بها شهدى حتى لا يغامر بالخروج. وقد أحببت هذا الرجل من رحلة المركب وإقامة البنسيون، على الرغم من اختلافى السياسى معه. وأشهد أنه رجل مُثَقَّف ومؤمن بما يقوله. والغريب أن زوجتى حين شاهدته فى اليوم الأول سألتنى: هل هذا الرجل زعيم؟ كانت هذه الملاحظة غريبة لأنها سيدة فرنسية ترى مصر للمرة الأولى.

• الهزيمة الساحقة فى 5 يونيو هى إحدى كارثيات ثَوْرَة يوليو التى مثلث فى صفحات التاريخ الحديث والمُعَاصِر أبدع الهزائم -إن صح التعبير-.. ما هو التوصيف الثَّقَافِىّ الدقيق فى رؤيتك؟

رأيى أن العار من هزيمة 1967 كان قد وصل بالمصرى العادى إلى أن يفضل الموت على الحياة فى ظل هذا العار الوَطَنِىّ، وأن مرارة الإحساس بالهزيمة بلغت مبلغ الانتحار أو الرغبة فى الانتحار. لكن هيكل وجد فى مثل هذا الوصف أو التحليل قسوة أو قتامة لا تناسب الموقف. وما زال هذا هو تَفْسِيرىّ إلى الآن، فلست أجد تبريرًا آخر للضراوة التى قاتل بها المصريون إلا أنهم ألقوا بأنفسهم فى النيران باعْتِبَارها أهون مما هم فيه.

وأذكر أنه فى اليوم الثانى أو الثالث من الحرب كان فى مكتبى غالى شكرى، ودخل علينا عبد الحليم حافظ وهو شبه باكٍ يقول لى: "ماذا نقول للناس؟ هل نبيعهم أوهامًا؟ فهمت أننا هُزمنا". كان عبد الحليم واحدًا من المصريين الذين أفقدتهم الهزيمة توازنهم. وكنت أيضًا واحدًا من هؤلاء، كنت شديد التعاسة. وهنا اجتاحتنى العاصفة التى تدفعنى لكتابة الشعر أو الرواية. إنه "الانفجار" الذى يزلزلنى ما لم أحوِّله إلى كتابة إبداعية. لذلك كتبت "مراثى أرميا"، ولكنى شعرت بأن ما جرى يحتاج إلى الفِكْر، البحث عن الجذور، جذور الشخصية المصرية. ومن هنا بدأت "تاريخ الفِكْر المصرى الحديث".

إن هزيمة 1967 كانت نهاية جيل وربما أكثر فى تاريخ الثَّقَافَة المصرية، وربما العربية؛ أقصد أن توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وأنا أيضًا، قد أصبحنا فى الماضى ولم يعد لدينا أى جديد. وقد عبَّر كل منا عن هذه "النهاية"

تعبيرًا يتناسب مع شخصيته وتكوينه، يوسف إدريس مثلًا اتجه إلى كتابة المقالات، ولكنه ليس يوسف إدريس الذى عرفناه فى "أرخص ليالى" أو فى "بيت من لحم"، أين هو؟ توفيق الحكيم توقف أيضًا عند "بنك القلق" التى كتبها عام 1966 ولم يضف جديدًا سوى المقالات كمقاله "عودة الوَعْى"، نجيب محفوظ باستثناء "ملحمة الحرافيش" توقف عند "ميرامار" التى نشرها عام 1966. وتوصل كل منهم إلى تَفْسير للهزيمة وصيغة، هى فى خاتمة المطاف نقطة النهاية "الموضوعية"، أما الوجود أو البقاء الذاتى للأفراد فشىء آخر... فلا أحد يستطيع أن يقول إن محفوظ أو الحكيم أو إدريس هو هذه المربعات أو المستطيلات النثرية الأقرب إلى الانطباعات السريعة منها إلى المقالات الأدبية.

وقد اتجهت أنا إلى استئناف كتابة "تاريخ الفِكْر المصرى الحديث" و"ثَوْرَة الفِكْر فى النهضة الأوروبية"؛ ربما لأن تكوينى كأستاذ جامعى يساعدنى على هذا النوع من الأبحاث، ولكن المؤكد أننى مثلهم جميعًا توقفت جوهريًّا فى هزيمة 1967. هذا يعنى أن للهزيمة وجهًا حضاريًّا، أى أنه لم يكن فى الحرب "خيانة" بالمعنى العسكرى أو السياسى، إلا إذا أثبتت الوثائق ذلك.

وأذكر أنه أثناء المفاوضات الدائرة بين عبد الحكيم عامر وشمس بدران من جهة، وعبد الناصر من جهة أخرى، كان ثروت عكاشة هو الذى يقوم بدور الوساطة. وقد روى لى أن شمس بدران قال له، والهزيمة لا يكاد يستوعبها العقل حينذاك: لماذا أنت حزين هكذا؟ هل نحضر قهوة سادة؟!!! هذا الرجل كان وزير الحربية عام 1967 ولا يدرك حجم الذى حدث، أو يدرك ولا يشعر ضميره الوَطَنِىّ بأى وخز أو ألم، وكأننا لسنا فعلًا فى مأتم قومى.

• "مقدمة فى فقه اللغة العربية" كتاب أثار العديد من الزوابع الثَّقَافِيَّة ودعم نوازع الاشتباك الفِكْرِىّ والعقائدى مع قضاياه وأطروحاته... الكثير يزعمون أن منطلقاتك وبواعثَك لم تكن علمية وإنما كان مصدرها كراهية الثَّقَافَة العربية والحِقْد الأسود على لغتها؟

صُودر هذا الكتاب الذى انكببت عليه عشرين عامًا متصلة أبحث وأنقب وأقارن وأراجع حتى توصلت إلى مجموعة من النتائج الأساسية، كان أهمها: أن العلاقة بين العربية ومجموعة اللغات الهندية – الأوروبية ليست علاقة ألفاظ مستعارة كما كنا نتعلم عن الألفاظ الأعجمية فى القرآن الكريم. وقد اهتديت إلى أن السبب ليس هو الاستعارة بل وحدة فى الأصل بين المجموعة السامية والمجموعة الهندية الأوروبية. والمجموعة السامية ممثلة فى أصغر بناتها وهى اللغة العربية، لاحظت أن فى الكثير من الألفاظ الأساسية فى اللغة -والتى يستحيل استعارتها- تتوفر فيها وحدة الأصل كأسماء الأعداد والقرابة، ووحدة الأصل هذه سابقة على عصور الهجرات من الموطن الأسيوى للمجموعة السامية والمجموعة الهندية – الأوروبية. وأن اللغة

العربية مبنية على طبقات جيولوجية أى سبيكة من تراكمات أربعة آلاف سنة، حتى فيما قبل استيطان العرب لشبه الجزيرة.
كان الكتاب قد صدر فى أوائل عام 1981 عن الهيئة العامة للكتاب فى مصر، أى دار النشر التابعة للدولة. وقد بيع منه حتى يوم مصادرته فى آخر العام نفسه تسعمائة نسخة. وكان مطبوعًا منه ثلاثة آلاف نسخة. فى هذه الأثناء كتب د. البدراوى زهران ثلاثة عشر مقالًا فى مجلة "الإذاعة والتليفزيون" -حين كان يرأس تحريرها أحمد بهجت- ضد الكتاب من وجهة نظر دينية. هذا على الرغم من أن نَظَرِيَّة "خلق القرآن" من صميم علم الكلام فى تاريخ الفلسفة الإسلامية، وليست من اختراعى الشخصى. وكتب المعتزلة مطبوعة على نفقة الدولة المصرية كمؤلفات القاضى عبد الجبار، وقد نشرته الدولة.
وفى 1981 فوجئت بضابط من مباحث أمن الدولة يتصل بى قائلًا: إن الجمعية الشرعية يا دكتور تنادى بقتلك فى اجتماعاتها، فإذا كنت تحتاج إلى حراسة خاصة فنحن على استعداد. أجبته بالشكر والاعتذار عن الحراسة؛ لأننى لم أعتقد أن الموضوع يستحق.
ثم تَقَدَّم مجمع البحوث الإسلامية بمذكرة إلى مباحث أمن الدولة تطالب بالتحفظ على الكتاب ومساءلة مؤلفه. ومن جانبها تَقَدَّمت المباحث بالطلب إلى هيئة الكتاب أن تمنعه من التداول حتى يفصل فى أمره قاضى الأمور المستعجلة.
كتابى "مقدمة فى فقه اللغة العربية" لم يتناوله مستشرق واحد بالتعليق قبل أن يصادر، لم يعلق واحد منهم على الكتاب بكلمة واحدة، لأنه يحتوى نَظَرِيَّة من أخطر النَّظَرِيَّات. هل هناك شىء أهم من أن تقول له إن اللغة العربية تنتمى إلى نفس المجموعة الهندوأوروبية التى ينتمون إليها، هذا اكتشاف قارة بأكملها ولم يحظَ باهتمام أحد منهم. وفى كتبى الأخرى عندما درست ابن خلدون وحاولت الربط بينه وبين دانتى وغيره من المُفَكِّرين الغربيين هل اهتم أحد منهم بذلك، كتبت عن المعرى وفِكْرَة العالم الآخر، وحاولت أن أربط بينها وبين بعض مُفَكِّرِى أوروبا هل اهتم أحد منهم بما فعلت؟!.
• وعلى النقيض ما هو تصورك عن شيوع ظاهرة الألفاظ العامية الهابطة والمبتذلة التى جرَت اللغة العربية إلى الوراء قرونًا وقرونًا؟
إن انتشار مثل هذه الألفاظ كان نتيجة تغير اجتماعى واقتصادى حدث فى مصر، مما جعل الطبقات غير المتعلمة هى صاحبة القوة الاقتصادية، وبالتالى لغتها غير منضبطة، واعتادت على هذا الكلام البذىء حتى أصبح جزءًا من القاموس اليومى للحياة! وفترة انتشار هذه الألفاظ بدأت منذ سنوات الانفتاح، وقد استفحلت هذه الظاهرة ثم انتقلت العدوى للمثقفين وأصبح لها نظائر فى البلاد العربية والأجنبية.
وقد مرَّت فترات كنوع من الاحتجاج على التزمت البرجوازى، وحدثت هذه الثَّوْرَة بين الطبقات المترفة وطبقات المثقفين، كما أن هناك فترات معينة

استخدمت فيها تلك الألفاظ فى البيوت بين المثقفين على سبيل الموضة وليس الانحطاط، فهذا نوع من الابتذال، ويسمى بابتذال الذوات! وهناك أنواع من الابتذال ناتجة عن سوء التربية والتعليم، فمثلًا المسرح؛ من كان يتصور أن المسرح المصرى يتحول لمسرح تجارى؟ والتليفزيون يعرض مسرحيات تجارية ليست ذات مضمون اجتماعى ولا مشغولة بقضايا الإنسان أو هموم المصريين وإنما تقوم على التسلية فقط.

أعتقد أن اللغة العامية الراقية تسود بانتشار التعليم والثَّقَافَة، خاصة أن أجهزة الإعلام لها دور خطير، ومُسْتَقْبَل اللغة العربية مرهون ببنية اللغة من ناحية والتطور الاجتماعى من ناحية أخرى، أما ظاهرة فَرْنَجَة الأسماء فما هى إلا "فقاقيع"؛ بمعنى أن الذى يغيِّر بنية اللغة هو ترجمة العادات الفِكْرية والتعبيرات، وهذه المشكلة قد واجهتها اللغة العربية منذ رفاعة الطهطاوى، فهى ظاهرة ممتدة، وإن رجلًا مثل طه حسين حين نقل إحدى الكلمات الفرنسية إلى العربية فى هذا الشكل -مهما يكن من شىء- فهو يجد صيغًا موجودة فى اللغات الأوروبية ويحاول أن ينهيها إلى اللغة العربية بنجاح عظيم، يتوقف ذلك على تمكُّن الكاتب من اللغتين، وعلى ذلك فالناس تقبل هذا التعبير، وهناك محاولات تنقل التعبيرات نقلًا حرفيًّا لدرجة أنها تكون غير مفهومة للقارئ العادى.

حسن حنفى.. فى معركة الوَعْى مصر تمر بعلامة استفهام كبيرة

لعل اللحظة الحضارية التى يعيشها الشرق العربى الآن قد أخذت تستلزم شروطًا عديدة نحو مواكبة متغيراتها والاندماج فيها ومعرفة وضعيتها، ورغم كثرة العلوم المستحدثة التى دفعت بمَسِيرَة التَّقَدُّم أشواطًا غير مسبوقة على مستوى التاريخ بأسره، فإن هناك إرهاصات جديدة تشير إلى ضرورة وجود علوم أخرى تشكِّل وَعْى هذه اللحظة الحضارية، ومن أبرز تلك العلوم المؤهلة لتتبوأ مركز الصدارة بين العلوم المُعَاصِرَة هو ما يسمى)علم الاستغراب(فى مقابل علوم الحركة الاستشراقية ذات التاريخ القديم، والمتأمل الآن لوضع الشرق العربى يتساءل فى دهشة حادة: ما الذى جعلنا بعيدين كل هذا البعد عن أن نرسى دعائم وأصول علم جديد يقوم على دراسة القوى الكونية الأخرى؟ ما هى؟ وكيف هى؟ وما هو مُسْتَقْبَلها؟ موقفها منا؟ وما يجب أن تكون عليه؟ حقيقة موقفنا منها ورؤيتنا لها؟ ولعلنا بذلك نستطيع أن نستحضر -عن علم ووَعْى- الطرفَ الآخر فى المنظومة الإنسانية ذاتها، ونصبح ذاتًا دارسة له بعد أن كان هو -طيلة مئات السنين- ذاتًا دارسة لنا! من ثَمَّ تتبلور القضية فى تساؤل دالٍّ: ما هى أبعاد المشروع الحضارى الذى ينبع من إحساسنا باستقلاليتنا تجاه الآخر ويمثِّل نافذة على حركة الوَعْى المُعَاصِر.

• إلى أين تتجه تصوراتك عن فاعلية الثَّقَافَة فى تغيير الواقع، وهل تستعصى تعقيداته أحيانًا على المفتاح السحرى الذى هو المعرفة؟

باعْتِبَارى مهمومًا بالثّقَافَة والفِكْر، فمن الصعب أن أميِّز بين ما هو فِكْرِىّ وما هو واقعى؛ لأن الثَّقَافَة واقع والواقع ثَقَافَة، والهم الرئيسى كما أتصوره فى مصر يتطلب بالفعل جهدًا كبيرًا من المُفَكِّرِين؛ لأننا نمرُّ بعلامة استفهام كبيرة، ولا ندرى إلى أين نحن ذاهبون؟ وهنا يكفى أن نشير إلى بدايات التاريخ الحديث حينما كان الاتجاه معروفًا، وكنا نعرف إلى أين نحن ذاهبون فِكْرِيًّا وواقعيًّا وزراعيًّا وصناعيًّا، وبعد ضرب مشروع النهضة الحديثة من قِبَلِ الغرب ظلت الرؤية واضحة، وظلت كذلك بعد تعاليم الأفغانى ومحمد عبده، وكل هذا كان جديرًا بمصر كمركز للعالم الإسلامى ووحدة وادى النيل والوحدة العربية والإسلامية، بل حتى ثَوْرَة 19 كان الخط واضحًا جدًّا فى مصر كدولة مستقلة ناهضة، ثم بعد عام 52 كان الخط واضحًا أيضًا فى تأسيس مصر الدولة القومية الاشتراكية العربية: التصنيع... مجانية التعليم... الإصلاح الزراعى... ولكن الناس حاليًّا أصبحوا يتساءلون من نحن؟ هل نحن الأمة العربية أم الأمة الإسلامية؟ لقد غابت الرؤية وغاب السؤال، وانعكس ذلك على الوضع السياسى، والثَّقَافِىّ والتعليمى. فلو سألت الطالب من هو؟ لصعبت الإجابة، ولو سألت عن أهم توجه للثَقَافَة لصعبت الإجابة أيضًا، ولو سألت الشاب عن رؤيته للمُسْتَقْبَل لقال: الهجرة لأستراليا أو الخليج... ومن هنا أصبح الوضع الثَّقَافِىّ الآن -وكذلك الوضع العام- علامة استفهام كبيرة، ويبدو أننا جربنا أشياء عديدة، ولما انتهينا إلى الصفر لم يعدْ هناك شىء نجربه، وهذا ما يجعل الناس يهربون من الواقع المُتَأَزِّم باللجوء إلى الذات... وإذا أفلست التجارب فإن الإنسان عليه أن يعود ليبحث فى دفاتره القديمة فلا يجد إلا تُرَاثه؛ فالواقع مُتَأَزِّم، ولا توجد رؤية، ولا يوجد تخطيط ولا خيال، مع أن العالم يتغير. ومن هنا، فلأى حدٍّ ينتسب الشاب إلى هذا البلد؟ ولأى حدٍّ يدين له بولائه؟ ولأى حد له الحق فى التغيير والحق فى الاختلاف مع الآخرين؟ بل إلى أى حد تستطيع مصر -على الرغم من هذه التغييرات الهائلة التى تحدث فى العالم- أن يكون لديها اعتماد على الخيال السياسى والتحرك الواسع نحو إيجاد التوازنات خلال ما يحدث فى العالم؟ فلقد أصبحت أمريكا هى القطب الواحد بعد انهيار المعسكر الاشتراكى وظهور تكتلات جديدة فى وسط آسيا والجمهوريات الإسلامية.

على مصر فى هذه الآونة أن تلعب دورًا كبيرًا فى المنطقة، وإن لم تفعل ستقوم دولة أخرى بهذا الدور، وعليها أن تصوغ مشروعًا جديدًا يعبِّر عن ثقلها التاريخى واحتياجات المنطقة أيضًا، فيجب الالتفات إلى قضايا التنمية الشاملة، بل الاهتمام بها؛ إذ إن 70% من الغذاء يأتينا من الخارج، ونحن نزيد أكثر من مليون فى السنة، وبالتالى إن لم نلتفت إلى قضية الاعتماد على الذات فى التنمية فى ظل الإمكانيات الموجودة، فالعاقبة لن تكون محمودة.

وهناك ضرورة لوجود مشروع قومى فى إطار عالم متغير، لكن المهم أن يأتى المتخصصون ويتعاملون مع الدولة كما هو الحال فى اليابان، فهناك

ضرورة للتعاون من أجل إنقاذ المركب الغريق حتى يمكن ترشيد الدولة وتنشيط الجماهير، فمصر ما زالت تعمل تقريبًا بحوالى 10% من قواها، أى ساعة من ثَمَّانية ساعات، وربما كان تنشيط الحركة الجماهيرية ضرورة لتقليل المسافة بين الركود الذى تسير فيه المؤسسات وعزلة الجماهير عنها.

• أليست هذه التغييرات كلها على المستويَيْن القومى والعالمى تمثل حتمية تاريخية كفيلة بدفع هذا الواقع وتحريكه وإعادة بَلْوَرَةِ مفرداته؟!

نعم، فلحسن الحظ أن مصر مليئة بالقوى الفِكْرية والإبداعية والثَّقَافِيَّة والسياسية، ويظهر ذلك فى العديد من التيارات الطلابية والثَّقَافِيَّة والاجتماعية، إضافة إلى ما بدأت الصحافة القومية تأخذه من خط نقدى واضح، كما نشطت الصحافة الحزبية نشاطًا ملحوظًا، إننا فى بداية مخاض جديد لكن ليس بطريقة الخمسينيات والستينيات؛ لأننا بدأنا عصر الحرية والديمقراطية وحق الاختلاف واحترام المثقفين ومراجعة الدولة ورفض القوانين الاستثنائية والإيمان بالتعددية؛ فليس كل شىء بالأمن المركزى ولا بالشرطة، ولكن هناك الأمن الثَّقَافِىّ والفِكْرِىّ والاطمئنان الحضارى وإمكانية الاتفاق على مشروع وَطَنِىّ موحد، بصرف النظر عن اختلاف الرؤية النَّظَرِيَّة، فالمشاكل معقدة جدًّا، لكن البوادر مشجعة جدًّا، فيجب أن نواجه بهذا المشروع ما تُتهم به مصر من أنها تعيش لحظات إفلاس تاريخى وركود سياسى؛ فالحركة فى الأعماق ومصر عالم ملىء بالاحتمالات، خاصة ونحن على أعتاب نظام جديد قادم.

والمهم ألا نتوقف، وأن يكون هناك خيال سياسى قادر على انتهاز الفرص التاريخية من أجل صياغة مشروع ورؤية، أما الوقوف والخوف والاعتماد على الآخرين فى التحرر والتبعية لهذا أو لذاك فهذا يسبب نوعًا من المخاطر على الشخصية المصرية القادرة على أن تعيد النظر فى علاقات العالم وتوازن القوى، وأن تفرض نفسها على الساحة، وهذا هو الذى جعل مصر تبقى سبعة آلاف عام مؤثرة فى المنطقة... ومن هنا فالانتظار مرفوض، ولا بُدَّ أن نعمل على بناء مصر الوطن، والاعتزاز بالحريات والديمقراطية، والعودة إلى الانتماء، فلا الذين هاجروا سعداء ولا الذين بقوا سعداء، ولذلك لا بُدَّ من أن تكون هناك محاولة لرَدِّ الاعْتِبَار لبناء مصر ولتاريخ مصر نحو حركة المُسْتَقْبَل. المهم هو إبعاد التكفير والتخوين فوطننا واحد... ولقد قالها الطهطاوى منذ أكثر من مائة وخمسين سنة)فليكن هذا الوطن مكانًا لسعادتنا أجمعين، نبنيه بالحرية والفِكْر والمصنع(، لا بُدَّ أن نستلهم هذا الشعار ونسعى إليه. فكل ما نحن فيه من مآسٍ إنما يرجع لغياب المشروع القومى المصرى الذى يجد فيه المواطن هويته، فإذا غابت القضية العامة انتهينا وتفتَّتنا إلى قضايا جزئية صغيرة.

• الحرية... الفِكْر... المصنع... ثلاثة محاور طرحها الطهطاوى فى عبارته لبناء المجتمع المصرى، فأى محور يمكن أن يمثل بداية الانطلاق؟

نحن فى حاجة إلى تشجيع القدرات الإبداعية المصرية، فما زال النقل والتقليد يغلبان علينا، وما دمت ترى أن القدماء هم الذين أبدعوا وأنك ناقل لهم، فإن التحرك سيكون بعيدًا، فنحن رجال نتعلم منهم ونقتدى بهم، فالظروف متغيرة والعالم متغير أيضًا، لكن أستطيع أن أكون شافعيًّا جديدًا أو حنفيًّا جديدًا، وإذا كان الظرف التاريخى قد تغير فإن مبدأ الإبداع لا بُدَّ أن يكون ثابتًا، ومن هنا نجد أن أول خطر يواجهنا أو يجب أن نتصدى له هو أبعاد النقل والتكرار، فالخَلَف ليس أسوأ من السلف كما هو معروف، لأن الذين يجاهدون فى جنوب لبنان ليسوا أقل من عمار بن ياسر أو غيره من المجاهدين الأوائل أما مسألة النقل عن الغرب واستيراد الحلول الجاهزة، فانظر إلى أى مُثَقَّف مصرى أو عالم تجده يقول ذلك:)قال فلان أو قال علان(، لكن ماذا قال؟ لا شىء!

لا بُدَّ أن تعرف كيف تنظِّر للواقع تنظيرًا مباشرًا، بل كيف تفكِّر وكيف تبدع؟ فالقدماء كان لديهم واقع وتُرَاث ورجحوا هذا على ذاك، وكذلك الغربيون، وأنت تملك واقعًا، فحاول أن تفِكْر فيه تفكيرًا مباشرًا مستقلًّا، وأنا هناك أؤكد ثانية أن البداية هى تشجيع الإبداع المصرى، فلم يكن نصر أكتوبر إلا نوعًا من هذا الإبداع لفلاح من القرية شاهد وتعلَّم وعرف أثر المياه على التراب، فاخترق أكبر ساتر ترابى، وخلق نصرًا حضاريًّا... ماذا -إذن- لو امتد هذا الإبداع إلى العمل والمصنع والجامعة والإدارة والأسرة والشارع والصحافة؟ ساعتها بالتأكيد ستعود مصر من جديد لدورها القديم.

• وتأسيسًا على هذه الرؤية... من أين يبدأ مشروعنا الحضارى؟

المشروع كما أراه وأتصوره يبدأ بمحاور ثلاثة؛ أولها إعادة بناء التُّرَاث القديم، فهذا التُّرَاث ما زال مؤثرًا فينا تأثيرًا بالغًا، لكن هناك اختيارات قديمة لم تعد لها فاعلية، وبالتالى فلا بُدَّ أن نعيد الاختيار بين البدائل القديمة اهتمامًا؛ حتى نستطيع أن نجدد أنفسنا، ولا بُدَّ أن نلفظ العبارات والشعارات القديمة وننطلق لأرض الواقع بخطى ثابتة وفِكْر مستنير، فماذا يمكننا مثلًا أن نقوله أو نفعله إزاء مشكلات الغذاء والصناعة والاعتماد على الأجنبى، بل ماذا نقول فى التعليم والجامعة والنظام العالمى الجديد، لا بُدَّ لنا من إعادة بناء هذا التُّرَاث بحيث يخدم قضية التَّقَدُّم. والمحور الثانى هو الموقف من الغرب، فالذى يجب أن نعلمه أن الغرب ليس فقط مصدرًا للعلم، بل إنه موضوع للعلم، وأن الغرب حضارة تراكمت فيها كل الحضارات. أما المحور الثالث والأخير الذى يجب أن أتعامل معه فهو الواقع المباشر الذى نعيشه، بل الذى يجب أن ننظر إليه ونقدِّم تنظيرًا مباشرًا من أحكام وأفكار اعتمادًا على التُّرَاث القديم والتُّرَاث الغربى، بدءًا من الصفر؛ حتى أنشئ تُرَاثًا جديدًا قادرًا على أن يكون على مستوى التحديات العصرية، فهذا هو المشروع الحضارى الوارد عند كل الناس، فلو استطاعت أجهزة تعليمنا وصحافتنا وإعلامنا إعادة صياغة هذا المشروع الحضارى، آخذين كل التحديات الرئيسية السابقة)التى

ما زالت هى وحرية المواطن والعدالة الاجتماعية ووحدة الأمة والتنمية المستقلة والدفاع عن الأصالة ضد التغريب(يمكننى أن أحشد الناس لهذا المشروع نحو حلول جديدة للتحديات المُعَاصِرَة، ولو استطعت أن أفعل ذلك لوجدت الثَّقَافَة فى إطار من الإحساس بمسئولية التعددية، فكما قيل: الحق النَظَرِىّ متعدد والحق العملى واحد، نقول إن المشروع الحضارى عمل ممكن لمن يريد، فمثلًا، أن تُحرر فلسطين باسم الليبرالية هذا ممكن، وكذلك باسم حرية الشعب، والقومية العربية، وحركة العمال، والجهاد الإسلامى كل هذا ممكن، لكن المهم هو تحقيق الهدف الأساسى.

• ما هى الوسائل والميكانيزمات التى يمكن تفعيلها تحقيقًا لهذا المشروع؟

البداية والمنطلق -فى رأيى- يجب أن يكون من الثَّقَافَة، فالثَّقَافَة قضية مهمة للغاية، ونحن أمة مرتبطة بتُرَاث، وتعيش بالثَّقَافَة أكثر مما تعيش بالخبز، وبالتالى فهناك ضرورة لأن تقوم الهيئات والأجهزة القائمة على أمور الثَّقَافَة فى مصر بأدوار تتفق مع حركة الزمن، أو أن تُترك هكذا لشئونها البيروقراطية والإدارية وتحل بدلًا منها هيئات ومؤسسات وأجهزة أخرى ذات مستوى رفيع وذات كوادر فِكْرية تُدرك معنى الثَّقَافَة وأهميتهما ومغزاها وأبعادها، وتكون لديها استراتيجية واضحة، فنحن فى وقت أصبحت الحروب فيه ثَقَافَة لا سياسة وتسلُّحًا، وأصبحت الثَّقَافَة قضية حيوية ومسألة مصير، بل لقد أصبح التسلح نفسه فى العالم الغربى الآن يؤدى دورًا أيديولوجيًّا؛ فهو يستخدم كوسيلة يصطنعها هذا العالم لكى يتغلب على الكثير من أزماته الداخلية.

والمهم –فى رأيى– هو أن تقوم الأجهزة التى نرى ضرورة إنشائها بتبديد ما استقرَّ فى عقول ونفوس الناس من ثَقَافَة يشوبها الاضطراب والخلط والهبوط والإسفاف وضيق الأفق. فكيف نتعامل مع الثَّقَافَة باعْتِبَارها ترفًا وليست حقًّا لكل مواطن، وفى رأيى أيضًا أن هذه الأجهزة يجب أن تعمل على إطلاق القوى لجميع المؤسسات الثَّقَافِيَّة والجمعيات العلمية والأدبية واتحادات الكتاب والنقابات من أجل أن تعيد بناء نفسها بطريقة ديمقراطية، فأهم شىء هو إعادة الحيوية إليها؛ من أجل تشجيع القواعد على التعبير عن نفسها... ويجب أن تعمل هذه الأجهزة على إيجاد حوار خلاق بين هذه المؤسسات، بحيث يمكن أن ننتهى يومًا ما إلى نوع من الاتفاق على أهداف قومية مشتركة، وهنا ستكون الفرصة سانحة لإيجاد وحدة الثَّقَافَة ووحدة الهدف والرؤية والاتفاق على ما يسمَّى بالبرنامج، حتى يمكن إقامة جهة وطنية ممتدة نحو تحقيق المشروع القومى الموحد، ويكون فى يدها بالفعل ترشيد القرار السياسى والثَّقَافِىّ والاجتماعى؛ حتى تحقق مصر حياتها، وأقصد وجودها الشعبى، بدلًا من اللامبالاة ومظاهر السلبية المتعددة التى لا يمكن أن تساعد بحال من الأحوال على خلق الشخصية الوطنية التى نطمح إليها... إذاِ كانت مؤسساتنا القومية -على اختلافها- تجاهد وتكافح من أجل

التنمية الثَّقَافِيَّة -التى تساهم بل تقوم بشكل أو بآخر بتشكيل العقل المصرى-، فإن هذا الدور لا يمكن أن يُترك للمصادفات، فحماية العقول من كل المؤثرات السلبية واجب قومى ينبغى أن نحشد له كل طاقاتنا؛ حتى تتحقق لدينا عقلية نقدية مستقلة ذات رؤية فاحصة تساعد على الاتصال الفِكْرِىّ وتبادل الخبرات والتجارب.
إن الثَّقَافَة -قبل كل شىء- معركة، ومن المُحال أن نحصِّن أنفسنا ضد خطر ثَقَافِىّ خارجى ما لم نَقُمْ نحن بهجومنا المضاد الذى نسعى فيه إلى التخلص من الثَّقَافَة الفاسدة، فالتحدى الحقيقى الذى نواجهه فى رأيى ليس اختيارًا بين الرجوع إلى الأصل ومسايرة العصر، وإنما هو إثبات لاستقلالنا إزاء الآخرين، سواء كان هؤلاء الآخرون مُعَاصِرين أو قدماء، وابتداع حلول من صنعنا نحن.. حلول تعمل حسابًا لتاريخنا وواقعنا، وتكفل لنا مكانًا فى عالم لا يعترف إلا بالمبدعين.
• الاستغراب كمفهوم صَكَّهُ حسن حنفى ويمثِّل ظاهرة جديدة فى جذور الأرضية الثَّقَافِيَّة العربية.. هل حتمت الإشْكَالِيَّة الحضارية بروز هذا المفهوم؟
الاستغراب ليس ظاهرة، ولكنه حركة نشأت مع حركات التحرر فى العالم الثالث كله عندما بدأ فى مواجهة الغرب، وبالتالى بدأ أفراده يحاولون الدفاع عن شخصيتهم الوطنية وأصالتهم الفِكْرية تجاه الغزو، ليس فقط العسكرى والاقتصادى؛ بل الثَّقَافِىّ أيضًا، فبدأ زعماء العالم الثالث يحاولون إيجاد صياغة إيديولوجية أو مفهوم جديد سميناه نحن "الاشتراكية العربية والأفريقية" فى مقابل أيديولوجيات الغرب الرأسمالية والاشتراكية، وبعد انحسار حركة التحرر العربى وتحوُّلها إلى ثَوْرَة مضادة من داخلها بدأ الغزو الفِكْرِىّ والثَّقَافِىّ والعلمى يعود من جديد، وازدادت ظاهرة التغريب فى العالَم العربى، حتى أصبح الإنسان لا يكون عقلانيًّا إلا إذا قيل هذا ديكارتى، ولا يستطيع أن يكون اشتراكيًّا إلا إذا قيل "ماركسى"، أو ليبراليًّا يدافع عن الحرية إلا إذا كان من أتباع "جون ميل"، ومن هنا أصبح الغرب هو الإطار المرجعى الوحيد لكل الثقافات، وبالتالى فعلم الاستغراب إذن هو محاولة لإعادة صياغة كل محاولات البحث عن الأصالة، وفى الوقت نفسه الوقوف أمام ظاهرة التغريب؛ لإيقافها من أساسها.
وأساس هذه الظاهرة هو تصوُّرنا للغرب؛ فنحن نتصور هذا الغرب باعْتِبَاره مصدرًا للعلم، وربما كان هذا صحيحًا فى مرحلة انتقال المعارف والترجمة، وقد مررنا بهذه المرحلة فى القرن الماضى، لكن هل يمكن بعد ذلك أن يكون الغرب موضوعًا للعلم؟ وبالتالى لا بُدَّ أن نتساءل كيف نشأ هذا العلم لديه؟ وما هى الظروف التى أدت إليه حتى نقضى على أسطورة الثَّقَافَة العالمية؛ لأن الحضارة التى بيَدِهَا أجهزة الإعلام والأقمار الصناعية والأساطير التى تُنشر من خلال هذه الأجهزة هو ما تسميه بثقافتها، ونعتبر أنها نموذج

للتحديث، وأن كل الثقافات الأخرى هى ثقافات محلية فى طريقها إلى الاندثار؛ لأنها لا تقوم على العقل أو العلم.
إذن علم الاستغراب يحاول قدر الإمكان أن يبيِّن أن هذا الغرب له أصول وله نشأة وتكوين، وله أيضًا عقلية ومصير، وبالتالى إذا حولت الآخر إلى موضوع للعلم فإننى أستطيع أن أكون مصدرًا للعلم، وبالتالى أيضًا تكون هناك مساهمة فى عملية التحرر، بمعنى أن أقضى على التبعية الممثلة فى القول عن القدماء أو الغربيين، وكلاهما تبعية. وانطلاقًا من ذلك، فعلم الاستغراب يريد أن يحوِّل الذات العربية الوطنية الإسلامية بدلًا من أن تكون فقط موضوعًا للدراسة إلى أن تصبح هى الذات الدارسة، ويكون الوَعْى الأوروبى الذى لعب دور الذات الدارس فى الاستشراق يكون هو أيضًا موضوع الدراسة فى الاستغراب، لكن هل هذه الذات قادرة على أن تقوم بدور الذات العارفة أم أنها ستكون باستمرار موضوع ملاحظة ولا تعتمد على نفسها فى المعارف والتحليل؟
• ضمن التوجهات المجتاحة للعقل العربى اعتماد شرطية تاريخية فحواها أنه إذا كانت الحضارة قد انتقلت من الشرق إلى الغرب فهل تعود الحضارة من الغرب إلى الشرق؟ ما رأيك؟
بداية لا يوجد تحليل للثَقَافَة بدون بعد تاريخى، والذى ينظر إلى الثَّقَافَة وتاريخها الطويل يجد أنها بدأت فى الشرق القديم، وربما كان المصبّ الأخير للثَقَافَة فى الغرب، ولكن الآن بدأت أزمة حادة فى هذا الغرب بين الوجودية والعدمية، واللامعقول والتناقض، وما يُسمى بالثقافات المضادة وحيرة الشباب وانعدام المثل وتفسخ المجتمع الرأسمالى ونهاية المجتمع الاشتراكى، حتى فى البلاد الإسكندنافية التى هى أرقى دول، نجد فيها أعلى معدلات الانتحار والجريمة والشذوذ الجنسى، وقد لاحظ ذلك كثير من المُفَكِّرين الغربيين، بينما نجد فى الوقت ذاته أن الشرق يعيش بدايات نهضة مثلتها ثَوْرَة الصين الكبرى والثَّوْرَة الإسلامية فى إيران وحركة التحرر العربى والجمهوريات الإسلامية وثَوْرَة الفلبين، نهاية الحكم العنصرى فى جنوب أفريقيا، الانتفاضة الفلسطينية... إنها بدايات لرُوح جديدة تسرى فيها مُثُل جديدة فى الحرية والتَّقَدُّم وحق الشعوب والمساواة ورفض العنصرية والعدالة الاجتماعية وتوزيع الثروات بين الأغنياء والفقراء والحوار بين الشمال والجنوب وضد الحرب من أجل السلام، وبالتالى فالسؤال: هو إذا كان الغرب فى أفول والشرق فى صعود، وإذا كانت الحضارات قد بدأت فى الشرق وانتهت إلى الغرب، وبعد هذه الظواهر -أقصد ظواهر الأمل فى العالم الثالث- ألا يمكن أن نقول: قد تنتقل الحضارات من جديد أو تنتقل الريادة من الغرب إلى الشرق؟ هذا تساؤل لفيلسوف تاريخ يضع تاريخ العالم كله أمامه وتاريخ الثقافات، ولديه شواهد على أن مركز القيادة الثَّقَافِيَّة فى العالم قد يتغير، وطبعًا إيقاع التاريخ لا يُعَدُّ بالأيام ولا بالسنوات؛ فقد يحتاج إلى عدة أجيال

حتى تنتقل هذه الريادة، وما يؤيد ذلك هو أن هناك الكثير من النَّظَرِيَّات المسماة بريح الشرق.
إن عدم الاستغراب فى حاجة إلى وَعْى وثقة بالنفس ورفض للتقليد، ولكن للأسف ما زال التكوين العام للناس يؤكد أن الآخر على حق، وأنا على باطل، فنحن نعطى الآخر أكثر مما يستحق ونعطى للمواطن أقل ما يستحق!
وانظر حين يأتينا عالِم أو مستشرق أو سياسى، وانظر أيضًا إلى رجل من الشرق حين يذهب إلى أوروبا وما يُقابَل به من فتور.. أقول: لقد آن الأوان لأن نتغير نفسيًّا وذهنيًّا؛ فأنا أجوب العالم كله فلا أرى إبداعًا ولا جهدًا ولا ذكاءً ولا حماسًا قدر ما أرى عند المصرى الذى يعيش مناخًا لا يسمح إلا بوجود الأحقاد والإحباط!! وهنا يكفى أن أقول إن ثلاثين بالمائة من رؤساء مراكز الأبحاث العلمية فى أمريكا خاصةً من المصريين، لذلك نتمنى أن يكون النظر إلى الآخر بمنظار النقد دون الرفض، وقد يكون فى هذا السبيل إعادة التوازن فى حياتنا.
• ولكن ماذا وراء العدمية التى تستحوذ على الذات العربية؟
السبب هو عدم الوَعْى بالتاريخ وبإمكانياته، وبالتالى عدم الوَعْى بتاريخ الآخرين، مما أوقعنا ضحية لأسطورة الإعلام الأوروبى التى تؤكد أن الغرب هو العبقرى صاحب التكنولوجيا الذى صعد إلى القمر، ونحن الذين قُمْنا بالدعاية، وهنا أقول إنه لا بُدَّ من إدراك هذه اللحظة التاريخية التى نعيشها، ولا بُدَّ أن نؤمن بأنفسنا، ونؤمن أيضًا بأنه لا يوجد إنسان ليس لديه قدرة على الإبداع.
• هناك مقولة تؤكد أن الحضارة الغربية أفلستْ بقدر ما أنجزتْ.. كيف ترى ذلك؟
نعم.. لأن الغرب الآن بدأ ينقد ما أنجزه، فلقد أنجز العقلانية والعلم، وبدأ ينقدهما، وكذلك أنجز حقوق الإنسان والآن يطعن فيها، أبدع الفن والأدب والآن هناك نوع من الرِّدَّة فى اللامعقول، الكتابة فى مرحلة الصفر، إلى آخر ما يقال، لكن إذا كان هناك خوف الآن من أن أمريكا قد أصبحت قطب العالم دون منافس، فإننى أقول إن كل من يلوِّح بالقوة العسكرية لديه قوة معنوية مماثلة!
• فى إطار هواجس وأطياف كتاب الشرق المتخيّل لـ"تييرى هينيش".. كيف ترى صورة الشرق والغرب فى وَعْى الأنا والآخر؟
إن الذى يحرِّك مسار التاريخ هو الصورة الذهنية المتبادلة التى تكوِّنها الشعوب والحضارات عن بعضها البعض، حتى تتحول إلى صورة نمطية توجِّه السلوك الفردى والجماعى للقيادات والجماهير إقدامًا وإحجامًا نحو بعضها البعض، وصورة الشرق فى وَعْى الغرب هى أنه يمثِّل بدايات الوَعْى الإنسانى؛ فالإنسانية فى مرحلة الميلاد بلا وَعْى ولا إرادة ولا عقل، مجرد كائن عنصرى أشبه بالكائنات الطبيعية الجامدة أو الحية على أقصى تقدير، ليس به فِكْر أو علم، إنسانيةٍ مجردة مثل الأحجار، وهو موطن السحر والدين

والخرافات والأوهام، أما صورة الغرب فى وَعْى الشرق فتكاد تكون عكسية؛ فالغرب فى وَعْى الشرق نموذج التَّقَدُّم والنهضة العلمية وتطبيقاتها فى الصناعة، وما نتج عن ذلك الغرب من تكنولوجيا مُتَقَدِّمة، وبصفة عامة إنه نموذج لحضارة الإنسان وحقوق الإنسان والمواطن الديمقراطى، كما أصبحت العقلانية الأوروبية نموذجًا يُحتذى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نجيب محفوظ.. الزمن بطل أعمالى

من أحضان التاريخ، وبقاع الجغرافيا، وتيارات الفِكْر، وجدليات الفلسفة، وهَيْبة العلم، وجلال الأديان، وتجليات التصوف، وجوهر الأصالة، وشذرات الحداثة، وعواصف التجارب، وتحديات الزمن، ووحى سكينة الكون، أتى نجيب محفوظ ليظل هو الراوى الأصيل الذى يسكنه الألم والحيرة والخبرة العتيدة والفِكْر الرصين والحرية المسئولة وإبداعية اللغة وعشق القيم ورفعة المبادئ وفريضة التأمل وعمق المعرفة وصحوة الضمير وألفة الحياة.

نعم.. هو الراوى الذى ارتضى مغامرة الوجود وخاض شعابها.. مغامرة الكشف عن المكنونات والخوافى والأسرار، واستقصاء مَسِيرَة الشقاء الإنسانى، فحصًا ودراسة واستشهادًا، ليطرح المبهم فى رحلة النفس والعقل بعفوية الرُوح الهادئة.

السؤال لديه يشق غياهب الظلام والإجابة تجدد حيوية الذهن.. السؤال لديه هو العاصم الأوحد من مجاهل الخرافة؛ لأنه يتوِّج حركة العقل.. السؤال لديه هو الساحر المعجز الذى يفتح آفاقًا خطرة يتجنبها البشر.. السؤال لديه هو المِعْوَل الذى ينسف الهواجس ويقيم المعقولات.

رأيته ناسكًا فى محراب الوَعْى، يجوب العلاقات بين الأشياء والأحداث والأفكار مفنِّدًا أو مؤكدًا فى تحفُّظ، لكن لا تغادر وجهَه تلك البشاشةُ التى تُوهم بسكون داخلى هو فى حقيقته بركان ثائر، تتوزع شظاياه باحثة عن ومضات الحقيقة التى أهلك بلوغها ما يتجاوز الإحصاء من البشر.

يألف الحكى ويسرد المرويات، ويتفكَّه بالطرائف والذكريات فى اقتضاب يطاول حكمة الزمن. أبطاله هم الذات الأخرى التى يتوحد معها ويدير ملحمته التاريخية، لا يطوعهم ولا يستقطبهم؛ وإنما يدعهم لانسيابية مفرطة عاملة على التجسيد الذاتى للنهايات.

ظلت الأخوة الإنسانية هى عقيدته وفلسفته وميثاقه الذى تحرَّر به من طغيان النوازع الشريرة المؤصلة لصنوف الكراهية التى تَشْمَئِزُّ من أناشيد السلام مع النفس والعالم. له تواضع يهزم الكبرياء، وقناعة تردع الهوى، وبساطة تكتمل بالعمق. وهكذا يظل رمزًا خالدًا عبر إلى عالم المثل بعيدًا عن الأرض البائسة التى يتزاحم أصحابها على حفنة من وهم!!

• لو تحدثنا عن تنويعات الزمن النفسى، الميكانيكى، الإلهى، كفِكْرَة محورية فى الكثير من رواياتك.. ماذا تقول؟

أعتقد أن الزمن يلعب دورًا كبيرًا فى رواياتى، لكن لست أنا الذى أتكلم عنه؛ فالمفروض أن الذى يعيه ويستطيع أن يعبِّر عنه هو القارئ العادى أو الناقد... أما أنا فاعتقد أن الحياة والزمن كفيلان بتغيير كل شىء حتى التقاليد والعادات الراسخة التى لم يستطع الأفراد معالجتها ووقفوا حيالها عاجزين أو مترددين... وإذا خصصت كلامى عن الثلاثية مثلًا فعنصر الزمن يصاحبه عنصر

آخر له دوره وتأثيره فى الحياة، وهو القدر، وإيمان الكاتب به يأتى من فاعليته ورسوخ الإيمان به فى البيئة المصرية التى يصورها هذا العمل الفنى، وهو يتجلى تمامًا إذا تأملنا طريقة دوران المجتمع مع دوران الحركة السياسية التى تتكون من عناصر وتيارات متضاربة، وفى الوقت نفسه تنعكس على شخصيات وتوجّهها، فيبدو الزمن موجهًا لمَسِيرَة الحركة وقوة اندفاعها وتحديد غايتها ومصيرها.
وربما كان من أبرز ملامح تأثير الزمن أيضًا هو تجلية ملامح الشخصية فى عملية التحول سواء كان هذا التحول ظاهريًّا فى الجسم، أو فِكْريًّا فى المبادئ والمعتقدات، أو سلوكيًّا فى الممارسة والتصرفات.
• ما دمنا قد أخذنا فى الحديث عن الثلاثية.. فبعض النقاد يرى أنها تمثل اتجاهًا واقعيًّا يعتمد على الوثائق المدونة والمشاهدة، وهى تاريخ مصر السياسى والاجتماعى من 1919 حتى 1944، كما أنها انطوت على تأريخ ما أهمله التاريخ... فكيف ترى ذلك؟
والله هى لا شك تعرضت لهذا، ولكنها قبل كل شىء حياة أناس واجهوا الظروف المختلفة جيلًا بعد جيل فى ظل تطورات اجتماعية وسياسية هم يحملونها معهم. أما هذا الاتجاه الواقعى الذى يشير إليه النقاد فهو يبدو من أول وَهْلَة فى عناوين الأجزاء التى مزجت بين الواقع المادى والواقع التاريخى، فهى إسناد لأماكن كائنة بالفعل فى أحد أحياء القاهرة، وفى الوقت نفسه لها واقعها التاريخى لارتباطها بوقائع وأحداث معينة، كما أن واقعية الثلاثية تتفق مع واقعية الرواية الانسيابية فى استخدامها الرموز الأخلاقية؛ حيث عمدت إلى تصوير الجوانب السلبية فى بعض الشخصيات لكى تدينها وتدين حولها الأوضاع الاجتماعية والغرائز البشرية والرموز السياسية أيضًا... وما يشير إليه النقاد بأنها انطوت على تاريخ ما أهمله التاريخ فذلك لأن التاريخ يهتم بالمسائل العامة وليس بحياة الأفراد وخصوصياتهم.
• بعض الباحثين الفرنسيين يرون أنكم قد تأثرتم فى الثلاثية بنموذج فرنسى هو "روجيه مارتان" فى روايته)آل تيبو(، وذلك بحكم وجود مواطن تلاقٍ كثيرة، كما أن كلًّا من الأثرين الأدبيين يُعَدُّ وصف حياة وتسجيلًا صادقًا لمعالم بيئة اجتماعية فى لحظة معينة من التاريخ فما تعليقكم؟
طبعًا قصص الأجيال أنا لم أبتكرها، وكان أول من كتبها فى الأدب العربى هو د. طه حسين في روايته شجرة البؤس، التى استجابت لها نفسى وأُعجبت بها كثيرًا، خاصة بفِكْرَة الأجيال المتتالية ومتابعتها، فلو لم يَكُ هذا الشكل موجودًا فى الآداب الأخرى لأخذته من طه حسين، لذلك لن أنسى أنه هو الذى نبهنى لهذا النوع من الأدب. ثم قمت بعد ذلك بدراسته فى تاريخ الفن الروائى وقرأت آثاره الكبرى مثل)الحرب والسلام(لـ"تولستوى"، وأيضًا روايات "توماس مان".

فى أدب كل أمة لا بُدَّ أنك واجد رواية الأجيال. لكن الغريب ورغم شهرة روجيه مارتان ككاتب فرنسى متميز له إنتاجه الغزير، فضلًا عن حصوله على جائزة نوبل فى الأدب 1937، فإننى لم أقرأ له هذه الرواية)آل تيبو(؛ لأنها لم تترجم، وإن كانت تدخل فى إطار الروايات التى حاولت إحداث التقارب من التاريخ فى مظاهرها الإجمالية والتفصيلية، والفِكْرَة كما أراها أنه ما لم أبتكر مثل هذا الشكل الروائى فليست قضية أن يؤخذ من هنا أو من هناك.

• مراحل كتابة العمل الفنى عند نجيب محفوظ من أين تبدأ ومتى تنتهى؟

الحقيقة هذا السؤال موضع بحث، فنحن نعيش ونتلقى من حياتنا الأسرية والبيئية والاجتماعية والسياسية والنفسية... بل الكونية أيضًا، كلها تترك آثارًا مختلفة تُختزن وتتفاعل فى ظروف غامضة فتنبثق فِكْرَة ربما أستجيب لها، على عكس فِكْرَة أخرى ربما لا أستجيب لها. وذلك مرجعه للمزاج والتفكير، فالحياة مليئة بالأحداث والموضوعات، ورغم ذلك أستطيع أن أقول لك ليس لدىَّ ما أكتبه!!! لكن هناك حادثة أو شخصًا يحرِّك شيئًا فى أعماقى، فأعرف أننى أحتاج للكتابة فورًا.

• هناك رؤية خاصة للكاتب جلال كشك تتعلق برواية أولاد حارتنا يقول فيها: إن المسلم الذى يتعرف على الله تعالى من شخصية الجبلاوى هو الذى يستحقُّ الاستتابةَ وعليه أن يعيد تثقيف نفسه فى علم التوحيد لأنه مسلم ظن بالله الظنون ولم يقدر الله حق قدره؟!

أنا أتفق تمامًا مع هذه الرؤية... جلال كشك فى ذاته ليس شيئًا بسيطًا، ولا شك فى دينه ولا عقيدته والحمد لله. والحقيقة أن هذه الرواية ظُلمت كثيرًا؛ لأنها لم تجد من أعدائها من يُحسن قراءتها فتتبدل الإساءة إلى الإحسان، والمعنى من ذلك أنهم خلطوا فيها بين الرمز والمرموز. والروايات الرمزية لا تُقرأ هكذا، وإنما تُقرأ أولًا وكأنها رواية واقعية، وبعد ذلك يتساءل الإنسان: لماذا توازى هذه الحياة الواقعية حياة أخرى مثالية فى الماضى لخير أو لشر؟ ومن هذا يبدأ التفاهم والتجاوب... وأؤكد لك بكل الصدق والموضوعية أنها ليست رواية إلحادية ولا فيها شىء من السخرية الفجة، وإنما تبجيل شديد للدين بقدر ما فيها تبجيل للعلم، ولكن للأسف!! ولقد دعوت كل الذين اتهموا الرواية للمناقشة المعتدلة ولا مجيب.

• هناك مقولة لأحد الكتاب مؤداها أنه كيف نصنع حضارة ونحن نرفض العقل الذى يصنع الحضارات.. فما رأيكم؟

ليس هناك إنسان يُنكر قيمة العقل، فالإنسان حيوان ناطق، أى عاقل، وميزته الكبرى هى العقل، فإذا أهمله لا يقيم حضارة ولا حياة خاصة ولا أى شىء، بل يُهَمَّش ويحيد ويصبح منفصلًا عن عصره بل عن ذاته... لكن العقل ليس الوحيد الذى يبنى الحضارة، وإن كان فى مقدمة الطاقات البشرية التى تقيم هذا البناء، والحضارة الغربية الآن أرى أنها قد ارتقت بالإنسان كما ارتقت بكل الوسائل من تكنولوجيا واتصالاتِ، ولقد اعتمدت فى ذلك على أشياء كثيرة،

منها أخلاقية الأديان والعلم والثّقَافَة، وأثرت فى مجالات عديدة من ألوان النشاط الإنسانى غيَّرت بها وجه الحياة.
• لو تحدثنا عن جيل الرواد وعطائه الغزير ورؤاه التَّقَدُّمية المبثوثة فى كتاباته ومعاركه، ماذا تقول؟
الرواد كانوا بحق روادًا وأساتذة، وكانت كتاباتهم بالنسبة لنا دستورًا للتنوير على المستوى الثَّقَافِىّ والفِكْرِىّ والسياسى والاجتماعى، فلقد قدّموا لنا أجمل ما فى التُّرَاث العربى وأروع ما فى الأدب العالمى، فضلًا عما قدموه من إنجازاتهم الخاصة ومعاركهم الفِكْرية التى أثرتْ حياتنا الأدبية بدرجة كبيرة جدًّا، فلم يخلُ الميدان من مناقشة على امتداد مساحات واسعة من الزمن، مما كان له أثره فى خلق حوارية نفتقد إليها الآن... إن آثارهم فينا تفوق كل وصف؛ فلقد كانوا جيلًا يغلب عليه الفِكْر والنقد والموسوعية؛ لأنه كان يمهد الطريق لكل شىء.
• ما رأيك فى كاتبة جنوب أفريقيا "نادين جورديمر" الحائزة على جائزة نوبل؟
الذى أعرفه عنها قليل مع الأسف، ما أعرفه أنها كاتبة ملتزمة من جنوب افريقيا تعارض التفرقة العنصرية، وتعمل على استكشاف أثر نظام هذا الفصل. أما كتاباتها الأدبية فغالبًا ما تَلقى تجاوبًا وقراءة ونقدًا محمَّلًا بالمواقف والأطروحات الفِكْرية والأحاديث السياسية إلى الوضعية المنتهية التى تعيشها بلادها منذ ما يزيد على أربعين عامًا هى العمر الأدبى لـ"نادين"، وفى هذا العمر كانت هى الراصدة للتاريخ الاجتماعى والضمير الحى لعصرها كشهادة لا يمكن أن تُستبدل.
• الحياة فى أبسط وأعمق معانيها لها توصيفات عديدة فى أعمالك.. فهل هناك من مفهوم جديد يمكن أن تضيفه؟
ليست الحياة عندى هى الطاقة الذاتية التى لها أوصاف عامة مثل الحركة والنمو والفِكْر وغير ذلك، لكنها هبة كبيرة من الله للإنسان يتفاعل معها ويعطى خير ما عنده.
• أستاذ نجيب.. وأنت فى هذا الطور من أطوار الحياة.. وبعد أن اكتملت لديك أبعاد وزوايا البانوراما المصرية، ماذا تتمنى لنفسك ولمصر وللأدب؟
لا أتمنى لنفسى إلا حُسْنَ الختام، ولمصر أن تنتصر على تحدياتها وتخرج من أزمتها سالمة ويزدهر بها كل شىء، وضِمْنًا الثَّقَافَة والأدب.
• أثارت شطحات "آيات شيطانية" التى خطَّها الهندى البريطانى "سلمان رشدى" ردود فعل واسعة النطاق فى مختلف الدوائر والأوساط الدينية والسياسية... وعلى الرغم من أن الكتاب يمس ناحية عَقَدِيَّة، فإنه أصبح يمثِّل بعدًا سياسيًّا له إثارة خاصة من جانب الغرب المتظاهر بكونه راعى حقوق الإنسان وكرامته فى الوقت الذى لا يحترم مشاعر ألف مليون مسلم، من هنا تصور بعض النقاد والجمهور أن آرائك أو دفاعاتك عن "سلمان رشدى" هى نمط مقنع للدفاع عن نفسك فيما يرتبط برواية أولادِ حارتنا؟

إن الكتاب لا يستحق كل هذه الضجة؛ لأنه ليس بفِكْر، وإن من يؤلَف مثل هذا الكتاب لا يفِكْر؛ بل يتعمد أن يهين ويجرح... ولهذا لا يستحق الرد عليه.
الحقيقة أننى لم أقرأ الكتاب، وقد أُجريت معى أحاديث كثيرة لإذاعات وصحف وكان الكلام عن مبادئ عامة من نوع ما رأيك فى إنسان يُهدر دم واحد لأنه ألف كتابًا معارضًا.. وأشياء من هذا النوع.. فكل كلامى الأول كان كلامًا نَظَرِيًّا. والآن، ولو أننى لم أقرأ الكتاب ولا أستطيع أن أحكم عليه حكمًا شخصيًّا، فهناك دلالات تشير إلى ما فيه؛ فمثلًا رؤية أحمد بهاء الدين -وأنا أثق فى حكمه-، واعتراف وزير خارجية إنجلترا ورئيسة الوزراء بأن هناك تهجمًا واضحًا على مشاعر المسلمين، ومثل هذا لا يقال عن كتاب فِكْر؛ لأن الفِكْر إما تأويل للتاريخ أو اكتشاف أساليب أو رؤيا تخاطب العقل، إنما الكتاب عبارة عن تشويه أو إساءة سمعة، فهذا بطبيعة الحال ليس للمناقشة، إنما هو للمحاكمة، فلا بُدَّ من الاحتكام للعدالة؛ لإصدار حكم على الجانى أو اتخاذ إجراءات على مستوى الدول تحفظ كرامة الإسلام والمسلمين. والواضح أنها مسألة فردية ممثلة فى أن رجلًا تمرد على عقيدته، ولا يمكن أن يهين مقدساتنا أى شىء مثلما أهاننا هذا الكتاب... إذن لا تستطيع أن تقول إن له موقفًا من عقيدتنا؛ لأنه ليس له موقف من عقيدته! فأنا لا أتصور أن هناك تعصبًا ضد الإسلام من الغرب ككل؛ لأن هذا لا يأتى إلا من أناس متعصبين لدينهم. والذى أعرفه من الغرب أن سياسته تتبع المصلحة أولًا، وقد تقف دولة موقفًا عدائيًّا من دولة إسلامية، والدولة نفسها تقف موقف تأييد لدولة إسلامية أخرى، والدليل تراجُع رئيسة وزراء إنجلترا بعد تصريحها الأول الذى جاء على ضوء مصالحها مع إيران؛ فالمصلحة عندهم تغطى على كل شىء، وبمجرد الإحساس أن السياسة العليا سوف تُمَسُّ اقترحَتْ مصادرة الكتاب، رغم أن إنجلترا لم تعرف مصادرة الكتب منذ مئات السنين. وتنازلت عن حرية الرأى!! ولما كان الرأى العام معبأ ضد الإسلام.. فلم لا يُصَدَّق ما قيل عن الكتاب؟!

إن كثيرًا من الذين ناقشونى فى العلاقة بين هذا الكتاب ورواية "أولاد حارتنا" قلت لهم وأقول لك إن الرواية ليست ضد الأديان ولا الأنبياء، وكل ما فى الأمر أن هناك سوء فهم أرجو أن أزيله بالمناقشة فلو كانت "أولاد حارتنا" مثل "آيات شيطانية" فلماذا لم تقاطعه الدول العربية والإسلامية ولماذا لم تقمْ ضده المظاهرات ولماذا لم أُقَدَّمْ للمحاكمة؟ فهو كتاب أقصى ما يمكن تسميته بالنسبة لمصر أنه موضع خلاف، فهناك أناس يرون فيه مساسًا بالأديان وآخرون يرونه غير ذلك، ولكنه لم يُناقش ولم يُحاكم، لذا فالمتهم برئ حتى تثبت إدانته!

ومنذ ثلاثين عامًا حاول "صبرى الحولى" أن يختبر استعدادى لمناقشة الرواية مع العلماء الأزهريين وأبديت ترحيبًا، وقال سيكون ذلك خلال أسبوع، ومرَّ على الأسبوع ثلاثون سنة حتى نسيتِ الموضوع!

• بمناسبة صدور السيرة الذاتية)أوراق العمر.. سنوات التكوين(للدكتور "لويس عوض".. التى أثارت ما أثارت من شجون.. وكشف كاتبها عن أعماق لم تكن متصوَّرة، ما هو تقييمكم لدور الدكتور لويس عوض فى الثَّقَافَة العربية؟

لويس عوض أستاذ كبير له إنجازات متعددة وبارزة فى الثَّقَافَة العربية، فمثلًا له منهجه الخاص الذى التزم به من أول حياته النقدية إلى آخر كتاب له، وله أيضًا ديوان شعر ومسرحية ورواية، فضلًا عن دخوله مجال التاريخ الفِكْرِىّ؛ حيث أرَّخ للفِكْر المصرى بتوسع وشمول من وجهة نظر خاصة، كما أنه له تلاميذه الذين يعترفون بفضله أيًّا كانت توجهاتهم.

وأعتقد أن أغلب أعماله وإنجازاته من النوع الذى يبقى ويرجع إليه المتأدِّب والمُثَقَّف مهما طال الزمن، فكل أعماله إضافة، وهى أيضًا دعاية شريفة للاستنارة والعصر؛ فقد كان لويس عوض لا يكفّ عن دعوته إلى التجديد، وهذا أمر طبيعى عند نهاية أى عصر أو جيل؛ تأتى بتلقائية الثَّوْرَة على العصر السابق. حقيقى أن الجيل الجديد وليد الجيل القديم، لكن إنجازه يتلخص فى أنه يستوعب القديم ويتجاوزه بإضافات جديدة.. ولويس عوض كان يرصد الحركة ككل من موقعه؛ لأنه مراقب أجيال ومطَّلع على تاريخ الحضارة الإنسانية وتاريخ الفِكْر أيضًا.

وأنا قرأت إنجازاته الفِكْرية وأعجبت بها وأخذت ببعضها، ولى اعتراضات على بعضها الآخر، ولكنها بصفة عامة فى حدود المناقشة لا أكثر ولا أقل. ولكن لى رأيًا خاصًّا فيما يطرحه لويس عوض من ضرورة تعلم الشعب حتى يستطيع حكم نفسه بنفسه، وأرى أن الشعب هو الذى يأتى بالحاكم فيجب أن يكون على درجة من الوَعْى، ونحن نفترض أن الوَعْى لا يوجد إلا عند المتعلم، وعلى ذلك فكمال المجتمع الديمقراطى يقتضى ألا يكون فيه أمية، لكن لو انتظرنا الشعب حتى يتعلم لكى يصبح ديمقراطيًّا فإلى متى؟ فنحن ننظر للديمقراطية على أنها وسيلة لتعليم الشعب، فالثَّوْرَة الفرنسية حين قامت -وهى ثَوْرَة الديمقراطية والليبرالية- كان عدد الفرنسيين أربعة وعشرين مليونًا، وكان هناك مليونَا متعلمٍ فقط، فكيف أنتظر حتى أعلِّم الشعب لكى أحقق الديمقراطية؟ بالطبع لا يمكن، وهذه حجة الديكتاتوريين، ولا أدرى كيف وقع فيها لويس عوض!

وبنظرة شاملة تستطيع أن تقتنع أن التعاون والتضامن العربى يعطى قوة للتطور والنهضة والدخول فى العصر، فظروف العصر أصبحت تقتضى ذلك وسواء سميتها العروبة أو القومية العربية فهى حتمية تاريخية؛ من أجل نهضتنا، وهذا ما اتفق عليه طه حسين واختلف عليه لويس عوض!

• ماذا عن وضعية اللغة الآن بكل ما طالها من إسفاف وابتذال وترهُّل وربما احتقار من قِبَلِ أكثرية لا يُستهان بها؟

إن الفترة الأخيرة تشهد -وللأسف الشديد- شهوة عامة من ضعف التعليم، وهذا الضعف يتجلى بصفة خاصة فى اللغة العربية، فالمسألة تحتاج لعلاج، ويجب أن يكون العلاج جوهريًّا؛ بمعنى أن يشمل إعداد المدرس ونشر الثَّقَافَة الأدبية، فجيلنا كان يحسن اللغة، فأنا والدكتور المفتى -وهو الطبيب العظيم- كنا نتسابق فى قراءة الروايات، فاللغة ليست مسألة تعليم، لكنها مسألة قومية وعقلية من جميع النواحى، ومحورها الأول هو التعليم الجيد، والثانى هو وسائل الإعلام، فعلى الرغم مما يُبذل فيها من جهد، فإن ذلك لا يكفى. وكذلك هناك ظاهرات غريبة منها فرنجة الأسماء بدون داعٍ؛ فكل أسماء المحلات إفرنجية، ولا ينقصنا سوى أن تكون المساجد بأسماءٍ إفرنجية. والخوف على اللغة المكتوبة أكثر من اللغة المسموعة؛ لأن هناك الكثير ممن يكتبون بالعامية، وهناك أيضًا العديد من الأخطاء البسيطة موجودة، وأحيانًا ما أُصدم حينما أقرأ جريدة وأجد فيها أخطاءً نحوية، لذا وجب على الكاتب العناية أكثر؛ لأن أساس مهنته اللغة، فمثلًا الفنان التشكيلى يهتم بالخطوط والألوان، والموسيقِى يهتم بالنوتة، فكلنا كنا نُعجب بطه حسين والعقاد والمنفلوطى؛ لأن الصلة المباشرة بيننا وبينهم هى اللغة، أما الطريقة التى نسير عليها الآن فهى خطرة جدًّا، ويجب أن تكون موضع العناية الكاملة فى التربية والتعليم والإعلام، ولا بُدَّ من أن نعتبرها قضية قومية من الدرجة الأولى، وإلا... فوسيلة التعبير والتفكير تخرج من بين أيدينا!

إن المجمع اللغوى حقَّق إنجازات كبيرة على المستوى الأكاديمى، تتمثل فى عمل المعاجم والبحث فى الاصطلاحات العلمية، وعلى ذلك يجب أن نأخذ بما يقدِّمه المخلِصون للغة العربية، ورحم الله زمانًا كان المُثَقَّف دراسته كلها لغوية، والطالب من دار العلوم أو الأزهر كأنه معصوم من الخطأ فى اللغة العربية، حتى قيل "إن الذى لا يعلم اللغة العربية لا يعايش العصر".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رجاء النقاش.. حق الخطأ مبدأ فِكْرِىّ

سنوات طوال عبرتْ منذ أن هاتفنى ناقدنا وكاتبنا الكبير رجاء النقاش، مبديًا ضرورة إرجاء نشر ذلك الحوار، إثر تلك الزوابع والمهاترات الثَّقَافِيَّة المجتاحة للعقول والأنفس، وقد غالبتنى دوافع الحب والعشق الخاص، فكان احترام الرغبة إدراكًا لمغزى ما يرمى إليه من درء طاقات الغضب الطائش والمتفجر على ألسنة المثقفين.

وها هو الحوار يُنشر لفظًا ونصًّا ليظل محفورًا فى ذاكرة جيل بكلمات نابضة بدفقات الوَعْى، وأفكار منسابة تطوِّق الأجواء، ورؤية منطلقة من آفاق ملهمة... ها هو يُنشر أيضًا ليقرأه القاصى والدانى بعد أن كان رجاء هو قارئه الوحيد!

لم يكن ما حدث من شَدٍّ وجذبٍ وأخْذٍ ورَدٍّ بين المثقفين حول ما أثارته اعترافات "نجيب محفوظ"، خاصة منها ما ارتبط بثَوْرَة يوليو وزعيمها ورجالها، إلا أصداءً باهتة على هامش مساحات الحرية التى تجاوزت لديهم كل حدٍّ، فتحولت إلى رُعُونَةٍ ثَقَافِيَّة وفوضى فِكْرية بدلًا من كونها قيمة عليا يدافع عنها المُثَقَّف الحق، لا أن يسعى نحو هدمها!

وربما لا تقف أبعاد القضية عندى عند مجرد آراء صدرت وأفكار أذيعت ثم وجدت موجات عاتية من الصدود والمعارضة الجوفاء، بل إن طرح القضية على وجهها الحقيقى له إيجابيات ودلالات تتجاوز الحصر، لكنها لا تخلو من عمق خطير؛ وهى أن المُثَقَّف المصرى -فى لحظاته التاريخية هذه- لا تزال تحكمُه العواطف والانفعالات، ولا تزال لغته وأدواته فى التقييم والتحليل هى المهادنة أو الهجوم الصارخ، بل لا يزال يُترجم العالم بمنطق أحادى يذكِّرنا بمشاهد مثيرة فى تاريخ القرون الوسطى!! غير مكترث نهائيًّا بآليات تعامل وتفكير ذلك المُثَقَّف الغربى الذى يطرح أية قضية على وجهها وبرؤية متعددة؛ أملًا فى الخروج منها بنتائج تُرضى طموحاته العقلية دون أن ترضى جموحه النفسى!

وبعد هذه الجولة التى خاضتها بعض الصحف المصرية، ساعية سعيًا دؤوبًا نحو توجيه اللطمات لـ"نجيب محفوظ"، سعينا نحن أيضًا إلى الناقد والكاتب "رجاء النقاش" لنستوضح آراءه فى قضية التنوير وطبيعة الفِكْر وأثره وعلاقة المُثَقَّف بالواقع بشكل عام، بعد أن طافت برأسى شكوك وهواجس كثيرة حول ما يسمى مائة عام من التنوير الثَّقَافِىّ، على أثر ما سمعنا وقرأنا من أحفاد رواد التنوير!

• قلت للناقد الكبير "رجاء نقاش": ما تعيشه الساحة الثَّقَافِيَّة الآن من أحداث ومواقف وأفكار يستدعى بالضرورة الإيمان برفض فِكْرَة أننا قد عشنا قرابة مائة عام من التنوير... ما رأيك؟

هناك حقائق تاريخية يجب أن نعترف بها، ونظرة إلى المُسْتَقْبَل يجب أن تكون أكثر طموحًا وأكثر عمقًا مما نحسه أو نعيش فيه، فلو نظرنا إلى مجتمعنا منذ أن بدأت حركة التنوير على يد "رفاعة الطهطاوى" وحتى الآن نجد أننا قفزنا قفزات هائلة، فقبل مائة عام أو أكثر لم نكن نعرف شيئًا عن التَّقَدُّم فى أوروبا، وكان مجتمعنا يعانى المرض والجهل والأمية والانكفاء على الذات والارتباط بمفهوم سيئ لتُرَاثنا كله، بما فيه الدين، أى أن تُرَاثنا تحوَّل فى الذهن -بسبب الجمود الفِكْرِىّ- إلى خرافات وأساطير وأشياء معطلة، بعد أن كان فى الأصل قوة دافعة إلى التَّقَدُّم والحضارة، لا يستطيع أحد أن ينظر إلى التاريخ وإلى جهود مُفَكِّرِى التنوير نظرة منصفة إلا ويقول إن المجتمع قد تطوَّر تطورًا كبيرًا فى هذه الفترة، وخُذْ مثلًا أية قضية جزئية لتقيس عليها وضع المرأة فى القرن الماضى، فبسبب دعوات التنوير القوية التى تبناها "رفاعة الطهطاوى" من أجل تعليم المرأة، ثم دعوات "قاسم أمين" من أجل تحريرها من الكثير من القيود الاجتماعية فى إطار مَسِيرَة الإصلاح الاجتماعى، ثم دور طه حسين فى معاركه الضخمة فى سبيل دخول المرأة الجامعة المصرية، أصبح مفهوم تعليم المرأة عند الطبقات الشعبية وغير الشعبية مفهومًا مقبولًا، وعلى سبيل آخر لو أخذنا الأزهر كمثل مع جهد معلم التنوير الأكبر الطهطاوى من أجل أن يصبح الأزهر جامعة عصرية يتخرج فيها الأطباء والمهندسون تأكيدًا لدورها كأقدم جامعة فى العالم، وكذلك الدور التنويرى لمحمد عبده من خلال دعوته العظيمة للإصلاح الدينى القائم على الاجتهاد العقلى وفك الاشتباك بين الدين والعصر أو بين المجتمع وقضايا الحضارة، فإنه رغم ذلك تعرَّض لمشاكل لا أول لها ولا آخر؛ من أجل تحقيق معنى التنوير وتحرير المجتمع.

إن حركة التنوير هى حركة ضخمة لا يمكن إنكارها؛ لأن الفِكْر مؤثر فى الحياة تأثيرًا كبيرًا جدًّا، ولكننا نحن اليوم ننظر إليه نظرة متشائمة، ومرجع ذلك إلى عدة أمور، أولها أننا لا نعرف تاريخنا جيدًا؛ فمائة عام من التنوير نحن لا نقرأها قراءة جيدة، فضلًا عن أن حركة التنوير يجب أن تصحبها دراسات موضوعية؛ حتى نعرف ما كنا فيه وما انتهينا إليه.

ونقطة أخرى هى أن كل الشعوب تتعرض لهذه الأزمة، فبعض اللحظات يكون فيها ضغط الواقع كبيرًا جدًّا حينما تكون المشكلات أكبر من الجهد المبذول للتغلب عليها، وبالتالى نحن نمرُّ بمرحلة من هذه المراحل، حين نقارب بين موقفنا الآن وبعد الآن، وما يعيشه العالم من قفزات ضخمة نستشعر على أثرها شكلًا من أشكال الأزمة النفسية. إن الانفعال الوقتى لا يكفى لمعالجة المشاكل، وبالتالى فالمطلوب -خاصة من المُفَكِّرِين والمثقفين وأصحاب الرأى- أن يدرسوا ويفهموا أصل وجذور المشكلة ويحاولوا حلها على ضوء ما حدث من قبل أو على ضوء أفكار جديدة من الممكن أن يتوصلوا إليها، فنحن لسنا بحاجة إلى إدانة الماضى ممثلًا فى حركة التنوير؛ لأن هذه الحركة كانت

تمثِّل إجابة حاسمة على مشكلات موجودة فى عصرها، بينما نحن اليوم نعانى مشكلات أخرى جديدة!

• إذن لماذا تعتبر أن جيل الرواد قد استطاع صياغة الفِكْر المصرى؟

نعم... وبكل تأكيد... فحركة التنوير المصرى أنا أزعم أنها من أخطر حركات التنوير الفِكْرِىّ فى العالم؛ لأنها استطاعت أن تخلق مجتمعا مؤهلًا لأن يتحمل مسئولية الاستقلال وبناء دولة حديثة، وأنا أتفق مع مقولة طه حسين فى أن الاستقلال الثَّقَافِىّ هو أساس الاستقلال السياسى والاقتصادى؛ لأنه إذا لم يكن لديك عقل متحرر وقادر على المناقشة والعلم والاستيعاب فإنك لا تصلح للاستقلال؛ لأن البداية من العقل والفِكْر، أقول إن جيل التنوير قد أدى دورًا فى منتهى القوة والخطورة، انعكس على تطور المجتمع فى كل المجالات، فالذى يقرأ مجلة الرسالة القديمة يجد أن معظم الأفكار والمبادئ التى جاءت ثَوْرَة يوليو لتنفيذها... على مدى عشرين عامًا كان شغلها الشاغل هو ترسيخ هذه المبادئ فى أذهان الناس، بل إن عبارة الأعداء الثلاثة: "الفقر والجهل المرض" هى عبارة مجلة الرسالة التى انتشرت فى الشعب كله دون أن يعرف أصلها، وهى عبارة أطلقها "أحمد حسن الزيات". وأكثر من ذلك أننى قرأت فى أحد مجلات الرسالة دعوة لإنشاء السد العالى... ما رأيك؟! فى مقال واضح الملامح والمعالم عن ضرورة إنشاء السد وفِكْرَة العروبة وأن مصر جزء حيوى من الأمة العربية لمهندس شاب. أقول إن عشرات المجلات الثَّقَافِيَّة التى ظهرت فى بدايات هذا القرن مثل الثَّقَافَة والرسالة والكاتب المصرى ساهمت فى خلق حركة تنويرية أكدت مبادئ عامة شاعت وأصبحت موجودة فى المجتمع، ولما جاءت الثَّوْرَة وبدأت تحقِّقها لم تجد صعوبة ما؛ لأن المجتمع أصبح مهيأ بذاته لاستقبالها، وهذا هو دور الفِكْر التنويرى الصحيح، ولو جاءت هذه الثَّوْرَة فى أى عصر وطالبت بما طالبت به دون أن يكون هناك تمهيد فِكْرِىّ لذلك لم تكن لتنجح إطلاقًا لولا الإعداد الذهنى والرُوحِىّ الدافع بالحركة لَلأمام، فالفِكْر ليس قرارًا أو قانونًا تصدره، إنما هو عملية تنوير بالمعنى المادى.

• كتاب "مُسْتَقْبَل الثَّقَافَة فى مصر" هل ما زال يحظى لديك بما كان يشعه من رؤية تنويرية خاصة أم أن الزمن قد تجاوزه انطلاقًا من كونه مؤلَّفًا قديمًا؟

الزمن لم يتجاوز أكثر كتابات طه حسين، وما يشعه هذا الكتاب من رؤية تنويرية لا تزال نستلهمها، فهذا الكتاب كان يناقش فِكْرَة مُسْتَقْبَل الثَّقَافَة بعد الاستقلال، لكنه أيضًا كان يمثِّل دعوة صريحة نحو التمسك بالعناصر الإيجابية فى الشخصية الأصيلة، مع الانفتاح على حضارة العالم والاستفادة منها، على عكس ما كان يطلب أعداء التنوير آنذاك.

وبصفة عامة، أجاب "طه حسين" عن أسئلة عصره إجابة مُسْتَقْبَلِيَّة رائدة يمكن أن يستفيد منها مثقفونا الآن، من حيث دراسةُ تاريخيةِ الظواهر بشكل عقلانى وإخضاع كل شىء للمنهج العلمى الدقيق والجرأة العقلية النادرة،

وفى هذا الإطار أعتقد أن "طه حسين" قد حقق نصرًا كبيرًا فى معركة كتابه "الشعر الجاهلى" الذى صدم به الحياة العقلية فى مصر، واستطاع أن يدير هذه المعركة متلافيًا زوابعها وعواصفها، حين اعتقدَ أن المواجهة والصدام غير مجديين، وفى رأيى أنه قد استخدم المنهج الفابى فى هذه المعركة، فكان يقرب ويبعد وينتظر ثم يبدأ مرة أخرى، إننى مهما أنسَ من "طه حسين" فلن أنسى مقالته المعجزة "حق الخطأ" إبان شهور الثَّوْرَة الأولى، حيث كان يكرر فيها أنه ليس كل من يخطئ تُكسر رقبتُه؛ فالوصول للنتيجة السليمة يستلزم حرية التجربة والخطأ!

• هناك مقولة مهمة للدكتور "مراد وهبة" تؤكد أن مصر كان بها مُفَكِّرُون متنورون وليس بها تيار تنويرى... فما رأيكم؟

بالطبع لا أوافق على هذه المقولة؛ لأنها تحمل نوعًا من التشاؤم لدى الدكتور مراد وهبة؛ نتيجة للكثير من الأحوال القائمة فى المجتمع، وهذا التشاؤم لا يعكسه على الواقع بل يعكسه على التاريخ، بدليل أن الكلام الذى قلناه عن قاسم أمين مثلًا يعبِّر عن أن دوره مستمر إلى الآن، ونحن فى حاجة إليه أكثر؛ لأن هناك رِدَّةً حضارية موجودة الآن وبشكل مفزع يدعونا إلى الرجوع لجذورنا التنويرية، وبالتالى كيف يقال إن حركة التنوير لم تُثمر شيئًا بينما هى حركة رهيبة ومؤثرة تطور فيها الأزهر وتحررت فيها المرأة وتم إقناع المجتمع بالحضارة الغربية وعدم الإحساس بأنها حضارة معادية لتُرَاثنا وتقاليدنا وقيمنا، وأنا على يقين من إخلاص وصدق الدكتور "مراد وهبة" وحسن نواياه نحو الثَّقَافَة والفِكْر، ولكن أقول له إن تاريخ التنوير عندنا يمكن أن يعطيه الكثير من التفاؤل، وأن الفِكْر لا يضيع، والفِكْرَة الجيدة ستظل معلَّقة فى الهواء إلى أن تتحقق بعد أن تطارد المجتمع، والتطور هو فِكْر يقدمه المستنيرون والمبدعون ثم يشيع فى المناخ العام فى المجتمع، ثم تأتى حركات التطوير والتجديد لتنفيذ ما شاع وما استقر فى الأذهان. وأى مُفَكِّر مستنير يدعو إلى آراء مُسْتَقْبَلِيَّة لا تتحقق فى عصره، ولكنها تتألق يومًا بعد يوم، لدرجة أننا نذكره، وكلما مر الزمن تذكرناه أكثر، مستوحين تاريخ حياته وأفكاره؛ لأن الأفكار الجيدة لا تموت والمُفَكِّر الذى يتصور أن الفِكْر رخاء ورفاهية هو تفكير قاصر لا يأتى من قِبَلِ المُفَكِّر الذى يحمل صورة للمُسْتَقْبَل ويحمل هَمَّ التغيير الاجتماعى والحضارى والفِكْرِىّ، فالأفكار تعيش فى عقول الناس وتجتمع وتنضج ويضاف إليها، وبعد ذلك تجدها فى لحظة انفجرت ثم أثمرت.

• تتعدد المنظورات حول النهوض والارتقاء بالساحة الثَّقَافِيَّة.. فماذا تحتاج من وجهة نظر ناقد فى قيمة رجاء النقاش؟

الساحة تحتاج إلى مُفَكِّرِين شجعان لهم رؤية فِكْرية مُسْتَقْبَلِيَّة تدفعهم بأمانة وصدق نحو إجابات جديدة قوية للأسئلة المطروحة، ولا بُدَّ أن يكون هناك وصل بين قوة الرأى العام وقوة المُفَكِّرِين. نريد فِكْرًا شجاعًا لديه القدرة على الاقتحام والتواجُه، وإلا فسوف يزداد الظلام فى العالم العربى حتى يتم

تصحيح المعادلات القائمة، وعلى رأسها معادلة وجود مُفَكِّرين مستنيرين ذوى رؤية مُسْتَقْبَلِيَّة قادرين على التأثير فى الرأى العام والدولة والكوادر المُسْتَقْبَلِيَّة، ودون ذلك أظن أن المُسْتَقْبَل العربى سيتأثر كثيرًا.
وأقول إنه لا ثَقَافَة ولا أدب ولا فن إلا إذا كانت هناك رؤية مُسْتَقْبَلِيَّة، فالثَّقَافَة هى ثمرة الاختلاف بين العقل الناضج والموهوب والواقع الممتلئ بأخطاء وفى حاجة مُلِحَّةٍ لتعديل، فتخرج الفِكْرَة الثَّقَافِيَّة، فِكْرَة الأديب والفنان والمُفَكِّر؛ لأن الثَّقَافَة هدفها الأوحد هو التغيير والتَّقَدُّم وتعديل أخطاء الواقع.
• تشهد الساحة حدثًا ثقافيًّا مهيبًا هو صدور كتاب)أوراق العمر... سنوات التكوين(ماذا يَسْتَلْفِتُكَ فيه كآخر كتاب للويس عوض؟
أعتقد أن كتاب أوراق العمر من أفضل كتب السيرة الذاتية التى ظهرت فى الأدب العربى على الإطلاق، لعدة أسباب؛ منها أن أسلوبه غاية فى الجمال والبساطة والسلاسة، كما أنه مكتوب بصراحة لا مثيل لها بين كتب السيرة الذاتية الأخرى، فالقيم الأساسية فى السير الذاتية هى الصراحة والوضوح، وكتاب أوراق العمر يذكِّرنى بالاعترافات الشهيرة لـ"جان جاك روسو"؛ لأنه يتميز بسرد كل التفاصيل بغير تحفُّظ أو خجل، لذلك فهو يمثِّل أعلى درجات الصدق الذى يمكن تسميتُه بالصدق الجارح فى أدب الاعترافات، كما أن هذا الكتاب قد جمع بين أمرين هما: الحياة الخاصة للويس عوض -التى قد يسىء بوصفها إليه أو إلى أسرته، لكنه لا يعنيه إلا الصدق-، والحياة العامة للمجتمع بكل أبعادها السياسية والفِكْرية والاقتصادية والاجتماعية، حتى إنه تعرَّض للجرائم التى هزت عصره، وأنا أعتقد أن لويس تأثر فى كتابه هذا بكتاب اسمه "تربية سلامة موسى"، لكنه رغم ذلك يُعد أول كاتب يشرح نفسه بقوة ويكتب عن عصره بتفصيل دقيق، ولا شك أن كل هذا أعطى للكتاب قيمته ووضعه كأول كتاب اعترافات فى الأدب العربى على غرار الاعترافات المعروفة فى الآداب العالمية. وسوف أصدر فى القريب كتابًا بعنوان)نقد أوراق العمر(تعليقًا على هذا الكتاب، أجمع فيه بين إعجابى الشديد واختلافى معه فى بعض ما أثار من آراء وأفكار.
• أدعوكم للثَّوْرَة على القديم حتى أنا!! هل تشارك د. لويس عوض حول مضمون هذه المقولة وما يتعلق بها من ملامح مُسْتَقْبَل الثَّقَافَة فى مصر؟
إن الثَّوْرَة على القديم لا تعنى أولًا الجهل بهذا القديم، ولكنها تكون بشروط، فالذى يثور على شىء لا بُدَّ أن يعرفه، ولكن يمكن القول بالثَّوْرَة على ما فى القديم من ضعف والتمسك بما فيه من قوة وأصالة والعمل على تجديده وإعطائه روحًا عصرية حديثة، فلا أستطيع أن أتصور شاعرًا مجددًا قادرًا على العطاء لم يقرأ المتنبى أو أبا العلاء قراءة جيدة.
• وهل تعتقد أن مقولة د. لويس عوض فيها استلهام لرُوح طه حسين؟
هناك فرق بين لويس عوض وطه حسين، يتمثل فى أن طه حسين ثَوْرَة داخل الثَّقَافَة العربية والفِكْر العربى، ولويس عوض ثَوْرَة على الثَّقَافَة العربية

والفِكْر العربى. أيضًا طه حسين يأخذ الأصيل من التَّرَاث ويقدمه ويضيف إليه ويرفض الضعيف فيه. ورغم أن لويس عوض صاحب فضل عن الثَّقَافَة العربية، فإنه ثائر عليها وعلى التُّرَاث دائمًا، وهذه نقطة خلاف أساسية بينى وبينه.

• وعلى ذلك ما هى نقاط اتفاقك مع لويس عوض؟

أولًا أتفق معه فى ليبراليته السياسية التى لا تعترف بحق الشعب فى حكم نفسه ما لم يكن متعلمًا، فلويس عوض تكلَّم كلامًا موضوعيًّا؛ لأن الشعب الجاهل لا يستطيع أن يحقق الديمقراطية بمفهومها الصحيح، وكيف يحقق الخيار بين عدة اتجاهات وأفكار يجهلها تمامًا؟

لكننى ضد ليبراليته الثَّقَافِيَّة على طول الخط، التى يقول فيها بتغليب العنصر المصرى على فِكْرَة القومية العربية.. كيف؟ والمصريون يشاركون فى صياغة معنى العروبة وفى صياغة القومية العربية، فالجهد المصرى نسبته عالية فى الثَّقَافَة العربية، والثَّقَافَة المصرية نسبة العربية كبيرة جدًّا فيها، إن التفرقة بين المصرية والعروبة بهذا الشكل غير المنطقى شىء لا يؤيده التاريخ الثَّقَافِىّ ولا تاريخ الأمة المصرية وبالمناسبة أذكر كلمة لأحد مُفَكِّرِى العرب تقول)تعريب مصر تمصير للعروبة(. وهناك نقطة خلاف أخرى مع لويس عوض، فأنا ضد كتابه)فقه اللغة العربية(؛ لأنه ينطلق فيه من نقطة عدائه للثَقَافَة العربية وعدائه أيضًا للعروبة وللقومية العربية، فهذا الكتاب يُعد من محاولاته الجبارة للبَرْهَنَة على موقفه الخاطئ، وإن كنت فى نفس الوقت ضد مصادرة الكتاب! ولكنى أعتقد أن للويس عوض فضيلتَه الكبرى التى يجب أن نحرص عليها؛ وهى إثارة الجدل والمناقشات والمعارك الفِكْرية لمن لديه الثَّقَافَة والعقل والجهد للرد عليه، وهذا ما افتقدناه برحيله.

• فى إطار موضوَعْى.. ما هى القيمة الحقيقية للويس عوض؟

قيمته كانت فى كونه رجلًا يجاهد من أجل أفكاره، فهو شخصية كبيرة وجبارة وعقل بالغ الذكاء وواسع المعرفة، أعطى حياته التى بلغت خمسة وسبعين عامًا للثَقَافَة، يقرأ ويفكِّر ويشارك، فأخلص لها إخلاصًا نادرًا، وله شجاعة متميزة فى إبداء رأيه ولو عرَّضه هذا للاعتقال أو طرده من الجامعة.

إن كتبه تنويرية من الطراز الأول، وتُعَدُّ مراجع لا غنى عنها لأى باحث أو دارس أو مثقف، كما أنه كان من أبرز المُفَكِّرِين الذين حركوا العقل العربى فى هذا العصر، فبدونه لم تكن لتحدث أكثر من نصف المعارك الأدبية خلال الثلاثين سنة الأخيرة.

• إذن هناك إضافات ولمسات وبصمات للويس عوض على الثَّقَافَة العربية كأحد رواد التنوير المُعَاصِر.. كيف تراها؟

لويس عوض طَرَقَ عدة مجالات، منها التنوير الذى فتح أمامنا آفاقًا جديدة من الثَّقَافَة الغربية، فأول معرفتى بالشاعر الإنجليزى "إليوت" كانت عن طريق مقالة له، كما أعتقد أنه أثَر فى حركة التجديد؛ فهو من أوائل الذين دعوا إلى

تجديد شكل الشعر العربى، فالرُوح الثّوْرِيَّة عنده خلقت وعيًا جديدًا عند الشعراء الذين استعملوها وطوروها، فهو صاحب فضل كبير جدًّا فى هذا المجال، ومع كونه شاعرًا ثائرًا فثَوْرَتُهُ أجمل وأهم من شعره!
وأيضًا لا يُنسى دوره كرائد من رواد توجيه النقد الأدبى المُعَاصِر إلى الواقعية والخروج من دائرة الرومانسية، وهذا معناه ربط الأدب بالمجتمع وقضايا الإنسان فيه، وتلك هى بعض إضافاته بشكل عام. أما هو كشخصية فيبقى منه صبره على الاختلاف معه وبعده عن الخصومات الحادة وطرحه لآرائه بصراحة ووضوح، وتلك إيجابيات كبرى لا تُنسى له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيير جارتون.. محفوظ إشعاع رُوحِىّ إنسانى

لم يكن لقائى بسكرتير الأكاديمية السويدية "بيير جارتون" لقاءً يحرِّكه الفضول بقدر ما كانت تحرِّكه بواعث الفرحة والسعادة التى غمرتنا إثر فوز أديبنا الكبير نجيب محفوظ بجائزة نوبل، لم يكن الزمان ولا المكان يتَّسع لتلك الفرحة، بل النشوة التى ردَّت إلينا أنفسنا وأشعرتنا أن نجيب محفوظ ما زال يُقرأ وما زال يُترجم، بل يمثِّل أدبه بُعدًا إنسانيًّا رائعًا فى المحيط الإنسانى... فلم يكن منى إلا أن أسعى لـ"جارتون"؛ لأتحسس جيدًا أفكاره عن أدبنا وأدبائنا وثقافتنا العربية وما يسود من انطباعات عالمية عن هذه الثَّقَافَة وأصحابها، وكنت أجدنى متحمسًا للقاء "جارتون" كرجل أوروبى، فضلًا عن كونه أحد المحكّمين الذين قرروا أن محفوظ هو نجم نوبل، كما تحمست من قبل للقاء أوروبيين مستشرقين درسوا أدب محفوظ واستوعبوه، من أمثال الأسبانى "مارسيلينو بيجبيس"، الذى أهدانى ترجمته لرواية "بداية ونهاية"، وكذلك المستشرقة "فاليريا كربتشينكو"، التى ترجمت "أولاد حارتنا"، وكذلك "بيير كاكيا" أستاذ الأدب العربى بجامعة كولومبيا، و"دنيس جونسون ديفيز"، وغيرهم من أولئك الذين انغمسوا فى رُوح الأدب العربى، وأسهموا بجهد مستحيل فى دفعه لتتجاذبه الحركة النقدية.

• نجيب محفوظ كروائى عربى هل ترتبط نظرتك إليه بنظرة الغرب إلى الشرق العربى أم باعْتِبَاره استثناءً ثَقَافِيًّا؟

الحقيقة أن محفوظ هو بؤرة إشعاع رُوحِىّ إنسانى شرقى أصيل، له ملكات عبقرية فى إيحاءاته وخيالاته، بل فى إشراقاته النفسية فى كل ما يضفيه على أعماله من رونق وجاذبية "آسرة، والحقيقة نحن نعتبر أن نجيب محفوظ روائى عالمى، حتى قبل حصوله على جائزة نوبل التى ربما أضافت لشهرته شهرة هو جدير بها، وهو فى شهرته هذه تتطاول قامته مع قامة الروائيين العالميين الكبار، وبالتالى لم يكن اختياره للجائزة من قبيل المفاجأة، بل من قبيل تأكيد مصداقية الجائزة نحو عدم إغفال من يستحقونها ولو بعد حين.

وفى هذا الموقف يطيب لى أن أؤكد أننا تناولنا كل أعمال محفوظ الروائية، فضلًا عن كل الكتابات النقدية التى تناولته، فوجدنا من الضرورى ألا تخطئه الجائزة أو تجاوزه إلى غيره من أدباء العالم فى ذلك الوقت، خاصة أنه قيمة نعتبرها مصدر إيحاء فى الرؤية إذا ما صوَّبنا أنظارنا نحو الشرق، ولعلك تعلم أن الأدب الآن قد أصبح أحد المصادر المهمة والحيوية عند الإطلال على الشخصية المصرية وتحوراتها القديمة والمُعَاصِرَة.

• بعد التنويه الخاص للأكاديمية السويدية فى حيثيات منحها جائزة نوبل لمحفوظ عن رواية)أولاد حارتنا(.. هل تعتبر أن هذه الرواية كما يعتبرها النقاد نقطة تحوُّل فى تاريخ الرواية العربية لما تتميز به من بُعْدٍ إنسانى رفيع؟

الحقيقة أننا نعتبر أن "أولاد حارتنا" رواية استثنائية فى مشوار محفوظ الروائى، رواية عبَّرت عن أعظم وأرقى وأبدع لحظات التوهج الفنى والإبداع الخلاق، ولسنا نرى هذه الرواية حربًا على الأديان أو المقدسات كما ترون أنتم؛ وذلك لأنها رواية رمزية ذات طابع إنسانى مميز، وأعتقد أن كل الذين يعارضون هذه الرواية ويشهِّرون بها لم يبلغوا مغزى الحقيقة الإيمانية بأبعادها المختلفة. وأيًّا كان الموقف، فلا ينبغى التعريض باتجاهات الكتاب ومواقفهم الفِكْرية أو العقائدية أو السياسية، وإنما ينبغى التواجه معها فى إطار المناقشة والحوار العقلانى بعيدًا عن الإدانة والاتِّهَام.
ونحن نتمنى على الرأى العام المصرى أن يكون أكثر تعاطفًا واستجابة ومساندة لهذه الرواية؛ لأنها الرواية التى ارتادت بالأدب العربى آفاق العالمية، وهذا يكفى... أليس كذلك؟!
• ولكن هل اقتصر الإعجاب على رواية "أولاد حارتنا" بينما لمحفوظ درر روائية أخرى؟
لا أقصد ذلك مطلقًا، فأعمال محفوظ كلها تمثل قيمة أدبية كبيرة، لكن كما قلت إن هذه الرواية ذات إيقاع مختلف، والحقيقة أن كل عمل لمحفوظ هو عمل يستوجب الوقفة المتأملة من كل قارئ وناقد، وعلى سبيل المثال روايات)الطريق(، و)زقاق المدق(، و)ميرامار(، و)الحرافيش(.
• هل تعتبر أن حصول محفوظ على الجائزة أصبح يمثِّل تحديًا للأدب العربى ذاته من حيث دخوله العالمية مرة أخرى.. أم سيكتفى بأنه سجَّل ريادته فى هذا الميدان الجديد مرة واحدة؟
أعتقد أن هذا العصر الذى نحياه هو عصر يتميز بحِدَّة الصراع الثَّقَافِىّ فى إطار كم الصراعات العالمية الأخرى، وجدير بالأدب العربى كأدب له تاريخ قديم أن يدخل حلبة الصراع الحديث ويؤكد وجوده على مستويات عديدة؛ اتساقًا مع ماضيه، وحفاظًا على مُسْتَقْبَله.
وما تجدر الإشارة إليه الآن هو أن دولًا أوروبية كثيرة قد أصبحت تشكو مما يسمى بالغزو الثَّقَافِىّ، فما بالنا بالثَّقَافَة العربية وهى تبدو فى هذه اللحظة كثَقَافَة منكمشة يمكن اختراقها من وجوه كثيرة؟! من هنا فلا بُدَّ من أن يجدد الأدب العربى نفسه ليسود الساحة بما ينتجه من تجليات وآثار يمكن أن تؤثِّر فى الحركة العالمية للأدب، وأعتقد أنه جدير بذلك إذا استوعب اللحظة الحضارية.
• "الثلاثية" كأشهر الأعمال المحفوظية... كيف تراها وأنت أحد المحكمين فى أكبر جائزة أدبية فى العالم؟
الحقيقة أن محفوظ قد دخل مرحلة جديدة فى الفن الروائى بعد الثلاثية، متوافقًا مع شروط اجتماعية جديدة، حيث كانت مصر وقتها تنتقل من زمن الملكية إلى زمن الثَّوْرَة والسُّلْطَة السياسية، والمعنى أن الثلاثية لم تكن إلا

نوعًا من العلاقة بين الوَعْى الروائى والحركة الاجتماعية التى تفرض على هذا الوَعْى أنماطًا جديدة تجوب آفاق هذا الواقع الحى.
وبصفة عامة فنحن نعتبر هذه الثلاثية سجلًّا اجتماعيًّا للواقع الفِكْرِىّ والأيديولوجى والسياسى والخلقى من التاريخ المصرى فى تلك الفترة التى كتب عنها محفوظ، وهو فى ذلك لم يبعد كثيرًا عن رواية "آل تيبو" للكاتب الفرنسى "روجيه مارتان"، التى حصل بها على جائزة نوبل عام 1937 على ما أذكر، والمعنى أن الثلاثية كانت جديرة وحدها أن يحصل محفوظ عن طريقها أيضًا على جائزة نوبل.
• يتردد الآن أن محفوظ لن يبدع بعد الجائزة مثلما أبدع قبلها... ما رأيك؟
أعتقد أن الطاقة الإبداعية عند محفوظ لن تتوقف عند حدود الجائزة؛ لأنه قد عاش عمره مبدعًا دون انتظار أو تلميح لأى تكريم عالمى، من هنا فلن يكون هذا التكريم سببًا فى قتل تلك الطاقة أو التخفيف من حِدَّتِها، ذلك إن لم يكن سببًا فى تألُّقها وتدفقها بشكل يثرى الساحة عمومًا، وسوف ترون فى إبداعاته ما يؤكد ويقطع بخصوبة هذه الطاقة فى عطائها المتجدد. فما أحوج الإنسان إلى أن يجد ذاته فى هذا الزمان!
• هل تعتقد أن المعيار الحضارى للشعوب يمثل إحدى حيثيات منح جائزة نوبل؟
غالبًا.
• نجيب محفوظ... فى كلمة؟
محفوظ الذى بينكم هو أديب مجدد ومُفَكِّر جرئ وصوفى نادر، وروائى مبدع، حمل بشجاعة وحسم رايات التجديد والإبداع فى الرواية العربية بشكل عام، ولن يُنسى له هذا الدور، بل أعتقد أن جائزة نوبل ما جاءت إلا تكليلًا لهذا الدور ولهذه المَسِيرَة المتميزة أيضًا، بل إن أخلاق محفوظ الشخصية -التى هى مصدر إعجاب ومحل تقدير منا جميعًا- لم تنفصل عن أخلاقه ككاتب، وتلك ميزة نادرة فى عالم الكتابة والكتاب الآن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثروت عكاشة.. الثّقَافَة ملتقى علوم الحياة

لم يَجُلْ بخاطرى يومًا أن ألتقيه، وإنما وجدت نفسى تحثّنى أن أراه، بل تلومنى وقد قطعت شوطًا زمنيًّا أقرأه وأعرفه وأغوص فى عالمه لكن دون أن ألقاه أو ألتقيه، رغم ما لدىَّ من بواعث قوية تحركنى، ذهبت ألتمس الأسباب وأجول بينها أختبر قوتها ومنطقها وأصداءها لأقدمها له وأنا مطمئن، أملك قناعة عقلية أتجادل بها مع من له من الصرامة والحِدَّة باع، ومَنْ له أيضًا من الرِقَّة والوداعة والألفة والوقار باع وباع، ذلك أنه الأب الرُوحِىّ للثَقَافَة المصرية الحديثة الذى يتضاءل أمامه أى سرد مهما تكن حنكته فى التوصيف والتخيل والاستشهاد وتعدد الملكات، لكن الشغف والحماس كانا هما الفضيلة التى دفعت بشاب أن يقتحم معبد الراهب مع تقديره البالغ لذلك الشموخ والأسطورية الذاتية التى تجعل مهابة لقائه أيسر كثيرًا من جفوته وهجره.

هاتفته وجاءنى صوته الرقيق الحانى يحمل رفضًا مقنعًا لأية حوارية حول أعماله، فلم أردَّ إلا بمقولة شكسبير "إذا لم أتكلم أنا... فمن؟ وإذا لم أتكلم الآن فمتى؟"، عندئذٍ، وتحت وطأة الحرج، لم يكن منه إلا أن ضرب لى موعدًا حفظتهْ ذاكرتى المشحونة، لكن المصادفة وحدها قد خلقت لى لقاءً آخر حدَّده شيخ الفلاسفة د. زكى نجيب محمود لأقرأ عليه مقدمة أولى كتبى فهرولت إليه أملًا فى لقاءٍ عابر لأتهيأ إلى لقاء آخر، لكن المصادفة الأخرى أن شيخ الفلاسفة قد اسْتَمْرَأَ الحديث معى ليمتد طويلًا على غير توقُّع وينسف الموعد الآخر، وقد توجَسْتُ من مهاتفة د. ثروت عكاشة، وآثرتُ أن يكون الاتصال من صديقى د. علاء طاهر، وقد اشترطت عليه أن يحادثه بالفرنسية التى يعشقها ويقدم من المعاذير ما يكفى وألححت عليه ألا يتركه إلا بموعد، وقد كانت العاصفة حين التقيته فكان منه ذلك الهدوء المبطن بالغضب والسعادة الخفية بالحرص على لقائه لكنه ثأرًا قد أصبح معاتبًا لائمًا مستنكرًا فى استحياءٍ عدمَ الاعْتِبَار بأقدار البشر والاستهانة بقيمة الوقت، وأفاض فى أن أجيالنا هى أجيال رخوة لم يكن لها مطلقًا أن تقوم عليها ثَوْرَة يوليو التى كان أحد رموزها إلى غير ذلك. وقد آثرتُ الصمت اعترافًا بالخطأ، واعتمدته استراتيجية تكفُّه عن الاسترسال فى اللوم والتأنيب، فقال أول ما قال: ماذا قرأت لى حتى تحاورنى؟ وقد عدَّدت له كل ما قرأت له وعنه، وقد أصاب ذلك رضا فى نفسه تجلَّى فى بِشاشة وجهه وانفراج أساريره، لكنى تحفظت لنفسى قبل إجراء الحوار قائلًا: إذا لم يكن الحوار على المستوى الذى ترتضيه فلك كل الحق فى مقاطعته، وقد تشعب بنا الحديث نحو منعطفات كثيرة، لكنه انتهى إلى ملاطفة منه وامتنان، وطلب إلىَّ السماح بإهدائى إحدى روائعه، فكان ذلك شرفًا رفيعًا لشاب يحظى بتكريم يتجاوز أية جائزة. وكانت هى البداية لصداقة حميمة تأكدت أواصرها حين دعانى لحضور حفل منحه

جائزة اليونسكو فى المتحف المصرى، وقد ظللت لصيقًا به لساعات طوال تخلَّلها حديث هامس ودعابات ثَقَافِيَّة.
• أنجزتَ العديد والعديد من الموسوعات التى اشتملت تاريخ الفن البشرى.. كالفن الإغريقى، الرومانى، البيزنطى، الإسلامى، الفرعونى، الصينى، الهندى، اليابانى، فنون عصر النهضة بجانب الكثير من الكتب القيمة الثرية.. وقد جاء معجم المصطلحات الثَّقَافِيَّة تتويجًا لهذه المَسِيرَة المضيئة الحافلة بالعطاء الفياض موجهًا رسالة صحوة للساحة الثَّقَافِيَّة يعرب خلالها عن مدى الطاقة وقناعة التفانى وعمق الإخلاص والاسترسال مع العلمية المفرطة واستكمال المحاور المنقوصة فى الثَّقَافَة العربية بشكل ربما يعجز كتائب أكاديمية للنهوض بعمل مماثل، لكنه لن يعدو أن يكون عملًا غير اعتيادى لا تغيب فيه رُوح الفنان الذى يستلهم من التفصيلات جلائل رُوحِيَّة قلَّما يسمو إليها الأدعياء، فى إطار ذلك.. ما هى رؤيتك لهذا العمل الرائد؟
ليس هناك معجم كامل، وأرانى منحازًا لصدق عبارة "صموئيل جونسون" التى يقول فيها:)لا نستطيع أن نبرئ أكمل المعاجم جودة من نقص يَعْتَوِرُهَا(. وحسب هذا المعجم أن يصطحب قارئه إلى روضات الخيال والحب والبطولة والجمال التى أبدعها العباقرة وتركوا لنا زادًا من متع الفِكْر والحس والروح، يرشف منها الإنسان ما يعينه على قسوة الحياة المُعَاصِرَة التى حجبته عن سحر الطبيعة وجلالها.
يتناول هذا المعجم كل المصطلحات الثَّقَافِيَّة، فى مجالات الفنون المرئية من تصوير ونحت وعمارة، والفنون التعبيرية، من مسرح وموسيقى وغناء أوبرالى والأساطير الدينية، والموضوعات الفنية، أسطورية أو حضارية، إضافة إلى لفظ التضاؤل النسبى الذى أفرزتْه قريحتى ولم يسبقنى إليه أحد، هذا المعنى يشرح كيف يتضاءل الجسم المصور كلما أمعنت عمقًا داخل الصورة، وإذ أضع هذا المعجم آمل أن يكون نافذة يُطَلُّ من خلالها على فرائد التُّرَاث الإنسانى وما يضمه من بدائع الإنجازات الفنية.
• لكن.. ما هى البواعث الموضوعية وراء إخراجكم هذا المعجم؟
لا شك أن للموسوعات دورًا خطيرًا فى ضبط المعارف والمصطلحات، وتلك هى أهم المشكلات فى حياتنا الثَّقَافِيَّة. لكن الدافع الأوحد هو عشقى الشديد وإيمانى التام بأهمية وجوده بين يد الشباب حتى يستوعب كل ما حوله من جمال سمعًا ورؤية وإحساسًا، فمنذ قرن لم يكن الناس يلقون بالًا للموضوعات التى تتناولها الصور والمنحوتات، وكذلك مؤرخو الفن كانوا أيضًا لا يعنون إلا بما كان يمس التكوين التشكيلى، ولم يكن هذا يسايرُ أصولَ النقد الفنى بحال، ولما كان لزامًا إدراكُ قيمة الأعمال الفنية -وكان من العسير على المشاهد إدراك قيمة أو مغزى أى عمل فنى لموضوع من هذه الموضوعات ما لم يكن على قدر من المعرفة لا بُدَّ من وجوده للمختلف إلى مشاهدة المنجزات الفنية-، من هنا كانت ضرورة أن يكون بين يديه مرجع

يتزود منه بما يحسُّ به من هذه الإبداعات، من قرب أو بعد، ولا شك أن الربط بين ما تقرأ وما تشاهد يزيد الإحساس بالمتعة الجماعية. وانطلاقًا من ذلك، فالفنون الكلاسيكية لما كان مرجعها أصلًا للعقائد الدينية، كان لزامًا الربطُ بين الأصل والفرع، والتعرضُ لتلك العقائد سواء كانت مصرية فرعونية أو فارسية أو هندوكية أو بوذية.
كل ذلك ليلقى الفرد ما يرى وما يسمع بلون من المعرفة، يروى بها ظمأ ذهنه، وحسه، إذ إنه لا نزاع فى أن عالم الأساطير الإغريقية والرومانية انبثق منه كثير من الأسماء والحكايات النابعة من آداب الغرب وآثاره الغنية، فوضع كثير من مؤلفى الأوبرات الخالدة والمعزوفات الكلاسيكية أعمالهم انطلاقًا من مواضيعها، كما اتَّخذها الكتاب وعاءً لأعمالهم الفِكْرية ومراميهم، حين تُلجئهم الظروف إلى نقد الحاضر محتمين بعراقة الماضى، وهذا هو السر فى أننا نرى بعض الأعمال القديمة والحديثة يشير مباشرة أو من طرف خفى إلى أحد الأسماء الأسطورية، أو التى تستشهد بخرافة يونانية، أو تشبه شخصية مُعَاصِرَة بإحدى الشخصيات الأسطورية.
• ترى إلى أى حد يمكن أن يربط مثل هذا النوع من الموسوعات المُثَقَّف العربى بحضارات غيره ويخلق آفاقًا من الحوار بين الثقافات؟
لم يخطر لى قط أن أضطلع بمهمة إعداد مثل هذا المعجم الثَّقَافِىّ، لكن تسلسل الأحداث كان أحد المؤشرات الداعية إلى ذلك، وقمت من قبل بإعداد موسوعة تاريخ الفن، تناولت فيها الفن منذ عهود ما قبل التاريخ، والفن المصرى القديم والفن الفارسى واليونانى والرومانى وفنون العصور الوسطى وعصر النهضة، فضلًا عن العمارة الإسلامية والتصوير الإسلامى، بكل فروعه الأربعة.
هذه الجولة بلا شك تَبَّتَتْ لدىَّ خلفية لا بأس بها فيما يتصل بالحضارات، افتراضًا أن القارئ الذى سيُقبل على مثل هذه الموسوعات عربى متفتح الذهن مولع بالثقافات العالمية، شرقًا وغربًا، إلى جانب ثقافته المتوارثة، غير متعصب لنزعة دون أخرى، بل يكون باحثًا عن الحقيقة، وغير مُبَالٍ بالتفرقة المغرضة بين الثقافات، فالحضارات متداخلة ومعبِّرة عن شتى تجارب الحياة، من دون تفوُّق حضارة على أخرى، فالفنون البشرية تستلهم من بعضها وتتخذ فى النهاية صياغة تعكس أصالتها، ألم يرتبط الفن الروسى بالفن البيزنطى، والفن اليابانى بالصينى، من دون أن يفقد أيهما طابعه الأصيل، ومن ثَمَّ فكل حضارة هى توأم للرؤية الفنية السابقة عليها، وإن كان لكل منهما شخصيته المستقلة. وعلى ذلك أعتبر أن هذه الموسوعة قد ربطت إلى حد بعيد بين المُثَقَّف العربى وحضارات غيره؛ لأنها تعصمه من أن يجد نفسه فجأة وقد وقع فى سمعه أحد الأسماء التى يجهلها، أو طالع مصطلحا فنيًّا غامضًا أو حين يخطو مغمض العينين بين ردهات متحف يزخر بروائع اللوحات والتماثيل، وكذلك حين يذهب إلى إحدى قاعات العرض المسرحى والأوبرالى، فإن

وخزة من وعيه الفضولى يمكن أن تعرِّضه لعودة جديدة إلى تساؤلات الذهن المتحفز إلى المعرفة، والذى بالضرورة لن يجد ضالته إلا فى معجم المصطلحات الثَّقَافِيَّة الذى عكفتُ عليه عِقْدَيْنِ.

• هل ترى أن الفنون والآداب العربية قد حظيت بالاهتمام الكافى كغيرها؟

هذا سؤال دقيق.. إن العقيدة الدينية كانت مرتبطة بالفنون التى هى انعكاس لهذه العقائد، على مر التاريخ، أما فيما يتصل بالآداب والفنون، فأوليت اهتمامى بفنون العمارة وبتفصيل شديد، وكذا كل ما يتصل بالتصوير الإسلامى، بالإضافة إلى فنون الزخرفة والخزف وغيرها، من الفنون المسموح بها فى العقيدة الإسلامية. وإذا كان المجال لا يتسع لأكثر من ذلك فلأن هناك محظورات وموانع تَحُولُ دون الخوض فى تفاصيل كثيرة. لكن أصدق الأدلة مصادرة الأزهر لكتابى عن التصوير الإسلامى العربى، وكتابى "المصوِّر المسلم والإلهيات،" وكذلك "معراج ناما" الذى هو تحقيق لأثر إسلامى مصور ومحفوظ فى دار الكتب القومية فى باريس، فهو ممنوع من التداول.

• أريد أن أستوضح طبيعة الصعوبات التى واجهتكم وأنتم بصدد القيام بهذا العمل؟

هذا العمل استنفد طاقتى، واستغرق أكثر من عشر سنوات متواصلة، رغم أننى استعنت بالكثير من الجهود المعجمية السابقة التى تتصل بتاريخ الفن، ولم تكن مطروحة. اقتضانى الأمر الرجوع إلى أمهات المراجع المتخصصة، إضافة إلى أننى توخَّيت فى قائمة الأسماء والأعلام أن تكون وفق منطوقها وفى لغاتها الأولى، مثل السنسكريتية والصينية، إذ يلاحظ أن لبعض كلمات اللغة الصينية نطقًا متفردًا لا نظير له فى لغات أخرى كثيرة. على رغم ذلك، لا أبرئ نفسى من أى نقص أو قصور قد يُلصق بهذا العمل. فليس ثمة عمل -مهما بذل فيه من عناء وحرص- يخرج سليمًا من دون شوائب أو هنات.

• رغم كون الثَّقَافَة مفهومًا انسيابيًّا تتعدد معانيه باختلاف المنظورات، فإنك كنت صاحب توجه استراتيجى حين دعمته نحو التحول إلى مفهوم واقعى مادى ينطوى على دلالات تتمثل فى وجود آليات تفعيل تصعد بالحركة الثَّقَافِيَّة نحو مسار جديد هو مسار الممارسة والاحتكاك مع القاعدة الجماهيرية وهو ما مثَّل باعثًا حيويًّا نحو إحياء الوَعْى العام.. كيف ترى ذلك؟

الثَّقَافَة ليست رداءً يرتديه المرء حيث يشاء ويَنْفضه حيث يشاء؛ وإنما هو منه دمه ولحمه معًا، وهى كذلك وقبل أى شىء ملتقى علوم الحياة؛ فالنظرة إلى الثَّقَافَة لا بُدَّ أن تكون نظرة إنسانية هدفها الإيمان بأنها حافز للبشر على التضامن من أجل الارتقاء برفاهيتهم العقلية والوجدانية. وإذا كانت قيمة الثَّقَافَة تتحدد بمدى إسهامها فى إحداث التغيير الجوهرى فى البيئة المحيطة، وكما أن الحياة فى تغير مستمر، كذا الثَّقَافَة هى الأخرى تقوم على الصراع الذى يُفضى إلى التغيير والتجديد. وبمعنى آخر، فإن الثَّقَافَة تنطوى على

عنصر حركى تحويلى؛ لأنها لا تصحُّ إلا إذا كان هدفها هو التطوير، وعلى ذلك إذا كان ارتباط الثَّقَافَة بعصرها لا ينفى احتواءها على قيم خالدة فإن ارتباطها أيضًا بمجتمعها لا ينفى احتواءها على قيم إنسانية تخاطب الإنسان أنَّى كان، وبقدر ما تتعمق جذور هذه الثَّقَافَة فى تربة مجتمعنا، وبقدر ما تحمل طابع هذا المجتمع، تتأتى قدراتها على صدق تمثيل الإنسان. وبصفة عامة فالدول الراسخة هى التى تدفع الحاضر إلى المُسْتَقْبَل، والمُسْتَقْبَل لا وجود له إلا فى الثَّقَافَة، وإذا أمكن لأمة أن تشمخ بين الدول العظمى فلن يكون ذلك إلا إذا تجاوزت قيمها الذاتية، لتجعل منها إسهامًا نزيهًا فى منظومة القيم الإنسانية.
وبصفة عامة أيضًا، فصفحات التاريخ حافلة تنطق بأن زمام الحياة فى أيدى المثقفين والمُفَكِّرين والفنانين، إذا نهضوا نهضت بهم الحياة، وإذا خملوا خملت بهم الحياة أيضًا، وعلى أى لون يكون المُثَقَّف أو الفنان تكون الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يحيى حقى.. ثقافتنا تخلو من المشروع الوَطَنِىّ للصعود

رُوح هادئة تجتاحها سكينة عُلوية، ونفس آمنة لأسرار الوجود، وعقل مستأنس بالحقائق يسكنه اليقين، لا تقبع فيه الأوهام أو تلفُّه الهواجس... انسجام وتآلف فطرى يسمح بتألق الملكات، تجربة إنسانية خالصة تماثل تجارب المتصوفة فى الشفافية والمكاشفة والتبسط والامتلاء والترفع والعزوف، وتشبه تجارب الفلاسفة فى عمق المحاولة، بلوغًا للحقيقة والوقوف على كُنْه الأشياء، وتطابق تجارب الأدباء فى ترجمة الذات الإنسانية وتفتيت ما يمكن من ألغاز الكون، لكن بفعل ما تحمل دواخله من كنوز الحكمة المستترة التى لا يبلغها إلا جبار. سعيت إليه كثيرًا وكان يتعذر باعتلال الصحة وتطاول العمر الذى أقعده لا يبرح مكانه، لكن كل هذا لم يمثِّل لدىَّ شفيعًا؛ إذ كنت ألتمس التواجه مع تلك الطاقة الذهنية الخلاقة التى تبدِّد لدىَّ شيئًا من غياهب القضايا ومتاهاتها، وظللت آملًا فى سراب، إلى أن حان الحين وطلب إلىَّ مساعده ضرورة حضورى إليه لأسباب لم يُبْدِهَا، وقد غمرتْنى فرحة لقائه.. فتح لى الباب متكئًا على عصاه، بدا لى وجهه كقرص الشمس الغاربة المودعة فى بشاشة، أصابنى ذهول المشهد وصرفنى نحو خواطر مؤلمة، أجلسنى وحيَّانى.. سألنى عن الحملة الضارية التى كنت أشنها فى الصحف حول عميد المستشرقين جاك بيرك، أجبته بكلمات مقتضبة لأشقَّ لنفسى مجالًا حواريًّا آخر أنهل فيه من ذلك النبع الفياض، وقد ظللت وقتًا سهوت فيه عن الوقت، إذ انهمرت على رأسى أفكار ورؤى وإحساسات مبثوثة عبر كلمات لاذعة منه تشخِّص مواقف وتقيِّم أشخاصًا وأعمالًا وتنظر لتيارات غائبة، وتنتقد تياراتٍ حاضرة، لكنها فى جملتها كانت تمثِّل إعلاءً لقيمة أو مبدأ؛ تساميًا بالواقع، وتسجيلًا لصفحات مشرقة لتاريخ الأدب والنقد والثَّقَافَة والفِكْر.

كنت أرقبه وقد تهلل وجهه الأحمر القانى إثر تحوُّل الكبت إلى بوح لشاب طلب إلى شيخه عونًا بكلمات فأهدى إليه أسرارًا غالية زادت حيرته وقلقه، بل طلب يسأله أى شىء أو أى رغبة يلبيها له بعد أن أثقل كاهله بأمانة للأجيال المقبلة، ولم يخطر لى إلا ضرورة لقاء العلَّامة محمود شاكر، وقد التقطت أذناى نبرات التبرُّم تَلُوحُ على لسانه، لكنه نهض لوعد قطعه حتى لو خالف هواه، وقد كانت مَكْرُمَةً كبيرة من شيخ شقَّت سفينة الزمن على وجهه أخاديد، وأنهكت قواه، لكنها لم تتسامح مع ذاتها إلا حين تركت على عقله بصمات خالدة يستلهمها كل من يقرأ معانى الزمان والمكان والبشر!

• فى إطار رؤية فِكْرية مَحْضَة تحمل تحليلك وتَفْسِيرك من واقع تجربة تاريخية لجوهر الفجوة الحضارية التى تتسع لحظيًّا... أريد حديثًا تكتمل به الإجابة عن: ماذا، لماذا، متى، كيف، أين، هل؟

سوف أروى لك طرائف من هذه القصة، فمثلًا من حسن حظ فرنسا أن أتاح لها تاريخها أن تكون فيها أشد ثَوْرَة لدَكِّ الظلم والمناداة بالحرية والإخاء والمساواة، ولو أن تاريخ هذه الثَّوْرَة لا يزال فى اعتقادى يخفى أسرارًا عديدة، لكن خط الاعتدال المتمثل فى الاتزان الرُّوحِىّ والعقلى، الفهم العميق للإنسان، الحدب على ضعفه، المناداة بالتسامح، كراهية الزيف والنفاق.. هذا الخط الممتد من موليير وجد امتداده من بعد فى فولتير، ووصل إلى جيلنا بفضل رينان ورومان رولان وأناتول فرانس، ومع ذلك فإنها هى وبقية شعوب البِيض لم تستبشعْ الاستعمار بكل جرائره وقسوته وتجرده من الإنسانية، هى بالأخص من بين الشعوب البيض وضعت الشعوب المظلومة فى مأزق حرج؛ إذ كيف تقتضيها كرامتها أن ترفض الرذائل وتثور عليها وتعمى عن الفضائل، لذا فإن هذا الطرح يحتِّم سؤالًا عن السر فى تفوُّق الجنس الأبيض على بقية الأجناس؟ أى شىء هو هذا الجنس الأبيض؟ وأى شىء هى حضارته؟ على أى شىء أسسها وأعْلَى من بنائها؟ لماذا يحتكرها الآن؟... ما سر تفوقه علينا؟... أين يكمن فيه الفضل وأين يكمن فينا العيب؟... وهل نستطيع أن نلحقه ثم نماشيه... وكيف؟ أسئلة ورثتها إرث الدم الذى يجرى فى عروقى، من الجيل الذى حضر حملة نابليون فاصطدم لأول مرة بالحضارة الغربية. أما الجيل الذى حضر الصدام مع الصليبيين فقد تردَّى فى هوة الماضى فخفتت فى قلوبنا دلالة تجربته ووقعها علينا وكان ينبغى ألا ننساها، ثم من جيل "رفاعة الطهطاوى"، ثم من جيل الشيخ محمد عبده وهو يحرر العروة الوثقى فى باريس، هذه الأجيال التى اكتوتْ بنار هذه الأسئلة، لم تنطفئ فى الأجيال التالية من رجال الفِكْر والسياسة، ولكنها خمدت، ثم بردت حتى كدنا ننساها الآن، مع أنها جديرة أشد الجدارة بأن تُستثار كل يوم إلى أن تهتدى إلى جواب.

بالفعل إننا لا نملك إلا أن نجد أنفسنا وجهًا لوجه أمام سؤالين يلحان علينا، أحدهما ينبع من الآخر، الأول: متى ولماذا تَضَعْضَعَت الحضارة العربية؟ والثانى: ماذا نصنع الآن فى مواجهة هذه الحضارة الغربية؟ كيف نحكم عليها باعتدال ليس فيه تضاؤل وانسحاق -أمام فضائلها- ولا استعلاء -بسبب نقائصها-؟

إن غزو أوروبا الاستعمارى لبلاد الشرق العربى أريد له ألَّا يَتَّخذ فحسب صورة انتصار جيوش على جيوش فى معارك حربية، بل أيضًا -وهذا هو الأهم- صورة انتصار، أو قُلْ: إجهاز حضارة على حضارة، تؤمن الأولى -بسبب توالى نجاح إنجازاتها- أنها قد بلغت ذروة التطور الإنسانى، فهى من ثَمَّ نافعة، صادقة، راقية، مُسْتَقْبَلِيَّة، يقينها مستمَد من مصباح العلم وتحرر العقل، فهى مجلبة للثراء والسعادة. وتوصف الثانية بأنها حضارة عاجزة، متخلفة، يقينها مستمد من الغيبيات، فهى مجلبة للفقر المادى والعقلى، من ثَمَّ كان لا بُدَّ من دعم نهب بلاد الحضارة الغربية لمجتمعات بلاد الشرق العربى بمبرر أخلاقى، فهذه

كلمة الاستعمار ذاتها تفيد أن القصد من الغزو العسكرى هو تعمير البلاد المهزومة بنقلها من الظلام إلى النور. وكان من الواجب علينا كشرقيين أن نستبدل كلمة الاستعمار ونجعلها كلمة الاستخراب؛ لتنطبق على المعنى الذى ينبغى لنا أن نفهمه لها، ولكننا لم نفعل، اكتفاءً بأن كلمة الاستعمار أصبحت من المصطلحات التى تنفصل دلالتها عن اللغة، فهذه الكلمة التى تنمُّ -لغةً- عن الخير صارت تنمُّ اصطلاحًا عن الشر.
المصيبة أن هذا المبرر الأخلاقى الذى اخترعه -غشًا وخداعًا- رجال السياسة فى خدمة أصحاب رؤوس الأموال فى أوروبا؛ من أجل نهب ثروات بلادنا، قد انطلى على شعوبهم وروِّج له بينها، فاستساغته هذه الشعوب فى غفلة منها، باعْتِبَار أنه بضاعة سليمة، ودخل هذا المبرر الأخلاقى الزائف إلى جحيم المعتقدات الراسخة عند هذه الشعوب. وأصبحت جدارة حضارتها بالإجهاز على حضارتنا من القضايا المفروغ منها، المسلم بها، تلك هى الحقيقة الأم التى تتفرع منها بقية الأحكام فى جميع المجالات.
ويسترسل يحيى حقى فى حديث شجى، مستعرِضًا جهود أهل الحضارة الغربية فى الإزراء بحضارتنا وزرع الشك فيها وفى نفوس أبنائها، بداية من تلك المواجهة بين الحضارتين وقت الحملة الفرنسية على مصر، قائلًا: دَعْ عنك أيام الصليبيين إذ وجدنا أنفسنا فى قفص الاتِّهَام. لا عجب فى محاولتنا لطلب البراءة أن سرنا فى طريقين: الأول هو الدفاع عن النفس، بالعمل على إبراز دعائم الأصالة والشرف فى حضارتنا، والدور الكبير الذى اضطلعت به للارتقاء بالإنسان وتحريره والمناداة بالأخوَّة بين البشر، والتكافل الاجتماعى. ولكن همنا الأول فى هذه السبيل كان الرد على التهم فُرَادَى، لا الوصول سريعًا إلى نظرة فلسفية شاملة متطورة تعطى لهذه الحضارة تَفْسِيرَاتها الصادقة عبر الجزئيات للوصول إلى الصميم، والسبب هو تَلَكُّؤ أو خوف أبناء هذه الحضارة من فتح باب الجهاد، إذ كان لا بُدَّ لهذه النَّظَرِيَّة أن تنبع أساسًا من الفِكْر الدينى إن أريد لها أن تكون ذات أثر وقادرة على التوجيه ولّم الشمل تحت راية واحدة، ولو حدث هذا لكانت هذه الحضارة وقد وجدت لها -من جديد- محركها الديناميكى الرئيسى وهو الجهاد فى سبيل نشر مبادئ هذه الحضارة، فالدين الإسلامى دين ديناميكى، إذا بطل الجهاد تراخت الروابط والعلاقات بين فضائله وانحدرت، والطريق الثانى هو مواجهة الهجوم بمثله، أى السعى للإزراء بالحضارة الغربية وكشف عوراتها، ولأن الهجوم علينا كان فيه غُلُوٌّ شديد فقد غالينا نحن أيضًا فى هجومنا، لكن اختلطت فى أذهاننا بعض الحقائق ببعض الأوهام التى ارتفعت مع الزمن إلى مرتبة اليقين.
• وأنا أجالِس يحيى حقى لا يجول بخاطرى سوى معنى واحد هو التصوف، ذلك المعنى الأوحد الذى يمكن أن يمثِّل هذه الشخصية متمايزًا على كل المعانى، أستشعر أن هذه السمة قد توزعت لمساتها على إبداعاتك دون استثناء... فإلى أى حد ترى اجتياح الطابع الصوفى فى فِكْرك ورُوحِك؟

فِكْرَة التصوف دائمًا ما تستحوذ على عقلى قبل وجدانى؛ لأنها تمثل نوعًا من معايشة الذات وتحقيق الاندماج مع مفردات وإحساسات وأفكار وروحانيات تقترب بها من معنى الحقيقة، فالنقلة الذهنية الخلَّاقة هى بلوغ الفِكْر الإنسانى طورًا أمثل نحو وحدة الكون ووحدة البشر. ولعل الطفرة المعرفية التى تشهدها حركة العلوم المُعَاصِرَة قد سَمَتْ إلى مقام الفرائض لتفتح آفاقًا رحبة أمام القوى العقلية لتتفجر وتنطلق وترسم خطًّا تتجه خلاله كل هذه العلوم نحو الوحدانية، وقد تجلَّى بعض هذه الإرهاصات، وسوف تشهد الأجيال القادمة أنعكاسات كل ذلك.
وفى رؤيتى أن "المشروع الثَّقَافِىّ" هو مشروع يؤمن أصحابه بأهمية التفاعل الرُوحِىّ والفِكْرِىّ بين البشر. وأنا من أنصار هذا التفاعل ومن مؤسسيه، فكلما استقرت الأرض بعد الزلازل والبراكين وانبثاق الجبال وتشكل القارات فتذللت وانفسح صدرها للجميع، فكذلك تسير الثَّقَافَة فى حركتها الجيولوجية إلى هذا التوحد والاستقرار، وتُفسح صدرها أيضًا للجميع. أما الآن فنحن لا نزال نعيش عصر الجزر الطافية على ماء واحد، ولكنها منفصلة الواحدة عن الأخرى، لكن بالضرورة ستلتحم هذه الجزر كلها فى يوم آتٍ لا شك، تلتقى فيه وتذوب وتلتحم كل الثقافات، أو قُلْ إن الحضارات تصعد الآن جبالًا لا يتبين بسبب القرب أنها مائلة، وأن قممها منتهية إلى قمة واحدة.
وهذا اليقين بأن مُسْتَقْبَل الثَّقَافَة الإنسانية هو التوحد الذى لا يتأتى إلا لمن توفرت فيهم بعض العلامات، كإيمانهم العميق بأن التمييز العنصرى -بسبب الجنس أو اللون أو الدين أو المذهب- هو نوع من الانحطاط بالكائن البشرى. ولعل من أهم الخصال التى يُعرف بها المؤمنون بوحدة الثَّقَافَة الإنسانية، أن الحقيقة العقلية أو الفِكْرية أو الوجدانية أو المادية ليست مطلقة، وأنها متعددة الزوايا، وأن المرء مهما بلغت به المعرفة لا يملك الادعاء بالاستحواذ على أطرافها جميعًا؛ فالوحدة الثَّقَافِيَّة المنشودة هى لقاء بين القمم لا بين السفوح وبعضها البعض ولا بين السفوح والقمم، إنه يشترط النِّدِّيَّة والمساواة. أما حين يختل ميزان القوة بين ثقافتين فإن المردود لن يكون وحدة ثَقَافِيَّة بين القمم، وإنما تَبَعِيَّة الأقزام للعمالقة، وهى التبعية التى تعطل النمو الإنسانى للجميع.
وعلى ذلك، فهناك إذن خطران يجب أن نحذَرهما غاية الحذر: الكلام عن الغزو الثَّقَافِىّ باعْتِبَار أن كل ثَقَافَة أجنبية أو انفتاح عقلى على العالم تهديد مباشر لهويتنا وأصالتنا، وهو كلام يتركنا عند السفوح أسرى الوهم العنصرى، والخطر الثانى هو فى خُلُوِّ ثقافتنا من المشروع الوَطَنِىّ للصعود، ومن ثَمَّ فإننا نترك ساحتنا لمشروعات الآخرين التى لا تساعدنا مطلقًا على النهوض، ولا تساعد الثَّقَافَة الإنسانية على التوحد. ما الحل إذن؟ الحل هو المشروع الوَطَنِىّ للثَقَافَة الذى يتفاعل مع الثقافات الأخرى من منطلق الحوار القائم على نسبية الحقيقة، وعلى أننا سائرون جميعًا نحو هدف واحد أسمى.

• فى دوائرنا العربية الإسلامية تتأصَّل داخلنا مفردات سلبية كثيرة يتصدرها التواكل والاستسهال والتعامل مع النتائج باعْتِبَارها قَدَريات، وهو ما يُعد أحد أهم الأسباب المباشرة التى تقوم عليها قضية التراجع الحضارى والتى تنطوى فى بُعد منها على طمس الفاصل الحاد بين الإرادة والخنوع والسكون والحركة... أتوجه لك بهذا لأن لك وقفة إيجابية مع مفردة شائعة تتردد فى اللحظة ملايين المرات على اللسان العربى هى... "معلش"؟
نعم.. لى وقفة إيجابية موضوعية مع هذه المفردة؛ لأن الذى قصدته من تناولها هو التعبير عن التباينات الحضارية، فرغم شيوعها فى كل لغة -ولا يُعد ذلك عيبًا ولا نقيصة-، لكن استخدامها فى الغرب ليس للمحقوق بل لصاحب الحق، من ثَمَّ فهى ليست للهرب من المسئولية بل لقبول المعاذير، أما فى شرقنا فهى عيب وتهمة؛ لأن الذى يستخدمها عادة هو المحقوق لا صاحب الحق. ولعلنى هنا أستعيد ما سجله الكاتب الفرنسى "جان كوكتو" فى كتابه "معليهش" الذى صوَّر فيه رحلته إلى مصر منتصف القرن العشرين، وساق خلاله مشاهد عديدة من الواقع المصرى، وكلها ذات دلالة، وأبسط ما أذكره منها أن كلمة "فورًا" تعنى "بعد ثلاثة أيام".
• رواية "قنديل أم هاشم" سجلت لحظة صراعية ممتدة بين جذور الخرافة المتأصلة فى خلايا العقل الإسلامى وتجليات العلم فى معالجة سقطات الواقع، وتلك إشْكَالِيَّة لا تزال تحتاج لألف رواية ومئات النَّظَرِيَّات، بل استلهام جوهر النص الدينى وشروحه فى إعلاء قيمة العلم، فضلًا عن عقد المقارنات بإبراز الفروق الحضارية بين مجتمعات بلغت مصاف التَّقَدُّم وأخرى تتراجع بمعدلات ونسب فائقة تتجاوز حدود المنطق... هل اتجهت إرادة يحيى حقى نحو استفزاز الوَعْى الجمعى وتجديد وإحياء القضية الحضارية وحتمية حلها بعد أن استفحلت مظاهرها فى المجتمع العربى بصفة عامة؟
بالطبع كانت لدىَّ أشواق فِكْرية نحو الإسهام بعمل فنى فى تلك القضية، ليس حسمًا لها وإنما لتجلية جوهرها باستدعاء مواقف وأفكار صدامية كاشفة لتقييم موقف الحضارة الإنسانية المُعَاصِرَة وتحديد بؤرة القصور فى كياناتها، إذ لا يزال الغرب المتحضر يحظى العلم فيه بقداسة الأديان فى الشرق، وهو المنقذ الأوحد من أهوال الحاضر والمُسْتَقْبَل مع التجاهل المطلق للطابع الرُوحِىّ والوجدانى، وهو ما سيؤول بالإنسان إلى مرحلة من التخبط الذهنى والنفسى، لحظتها يصبح العلم فى رؤيته أداة قاصرة لم تدخله مرحلة السواء.
وقل ما تشاء حول شرقنا العربى عاشق الخرافة مقنن خريطة الغيبيات، الذى لا يعتمد الواقع مرَجْعِيَّة؛ وإنما يتخذ الهوى منهجًا ويرفض أن يكون العلمُ ميثاقَ حياة، بينما يجهل أن يوظف دينه للارتقاء بواقعه، من ثَمَّ فقد تمت بلورة القضية على نحو يؤكد أنه لا غنى للعلم عن الدين، وكذلك لا يصح الدين بغير العلم، وذلك هو الصراع الذى سيمتد طويلًا، وربما يسحق المُسْتَقْبَل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

أليكس هيلى.. الكاتب ليس إلهًا

الكاتب الأمريكى الشهير "أليكس هيلى" صاحب ملحمة "جذور" ذات الثلاثين مليون مشاهد، والتى صور فيها أبشع جريمة ارتكبها البيض فى التاريخ الإنسانى ضد الجنس البشرى. وضمن ما سجله فى هذه الرواية من هزليات قصة استرقاق جده "كونتا كينتى" الذى قضى معه بواكير صباه؛ لانشغال أبيه وأمه بحياتهم عنه.

وفى حديثه روى لى -فى حزن وأسى- طرائف من مشواره الطويل كانت ذات أثر فى حياته، وكيف بدأ بحَّارًا فى خفر السواحل الأمريكية لمدة عشرين عامًا أتقن خلالها الكتابة الأدبية، ثم بدأ ينشر أعماله فى المجلات، وانتهى إلى كتابة السيرة الذاتية لـ"مالكوم إكس" ثم روايته)جذور(، وآخر أعماله "كريسماس من نوع جديد". فإذا كانت رواية)الطامة الكبرى(لـ"جيرالد جريف" تصوِّر اضطهاد النازية لليهود فإن "جذور" تمثِّل ثَوْرَة عارمة ضد العنصرية، وتلتقى مع صيحات وثورات "ريتشارد رايت" و"إيمى سيريز" و"جيمس بولدوين" و"مانديلا" و"مارتن لوثر كينج".

وفى لقائى به أكد مرارًا أنه يأمل أن تُثمر زيارته هذه عن لقاء مع كبار الكتاب المصريين، كما أكد أن خياله مهيَّأ أن تلهمه مصر وكل ما سيزوره فيها بعمل أدبى جديد.

• أسأل عن القضية المركزية التى تشغل العقل الأمريكى ممثَّلًا فى كتابة مُفَكِّريه؟

القضية الموحدة التى يدور حولها فِكْر الكتاب ليست موجودة؛ لأن لكل منهم قضاياه وهمومه وفِكْره الخاص، وعلى ذلك فهذه القضايا ترتبط بعددهم؛ وأنا مثلًا مهتم بالتاريخ والسلام، أما المُفَكِّرُون الآخرون فلهم شأن آخر؛ لأنهم مشغولون بإيجاد هدف واحد يعيش من أجله الناس، كما أنهم لا يزالون يغوصون ويتعمقون فى فِكْرَة الحرية التى هى مدار نشاطهم الفِكْرِىّ على المستوى السياسى والاجتماعى، فالتعطُّش للحرية والرغبة فى امتلاكها عنصران أزليان، وهما حافز لتطور البشرية وصلاحها؛ فالحرية ليس لها حدود، وعندما يتولد لدينا انطباع بأننا امتلكنا ما تبقى مع ذلك نتطلع إليها، والإنسان يستحيل عليه أن يعرف كيف يخدم حريته إن لم يتوافر فيه الإحساس بالمسئولية تجاهها.

• وما هى الدوافع الفعلية وراء قولكم بأن "نجيب محفوظ " لن يكتب بعد جائزة نوبل أفضل مما قبلها؟

نعم.. أنا قلت هذه المقولة حين كرم الرئيس المصرى الكاتب نجيب محفوظ وأعطاه قلادة النيل العظمى وسط لفيف من كبار الكتاب العالميين، وأكررها مرة أخرى.. وقد تسألنى لماذا؟ لأنه أصبح لا يملك ذلك الهدوء والصفاء اللذين يساعدانه على الإبداع؛ نظرًا لإقبال الصحفيين المصريين والعالميين وغير ذلك

من إذاعات وتليفزيونات لتسجيل اللقاءات والحوارات... إضافة لإنسانيته التى تمنعه من رفض أى حوار، مما لا يدع له الوقت للفِكْر والتأمل والاستغراق لينتهى إلى شىء أو يتبلور فى رأسه فِكْرَة يستطيع صياغتها وكتابتها. كل ذلك هو ما دفعنى إلى قولى هذا، أقول ذلك لأننى قد مررت بنفس التجربة عندما صدرت قصتى)جذور(التى حققت أصداءً قوية فتُرجمت إلى ثلاثين لغة حتى الآن، وحصلت بها على جائزة "بوليتزر".

• تصوراتك عن الأدب العربى باعْتِبَاره كان أدبًا مؤثرًا أكثر من كونه متأثرًا بالآداب العالمية؟

الأدب العربى له تاريخه الطويل بين الآداب، لكنه فى أمس الحاجة إلى المزيد... مثل المزيد من الترجمة؛ حتى ينتفح على الثقافات الأخرى، فأنا مثلًا لم أقرأ هذا الأدب إلا بعد أن ظهرت ترجمات لأعمال نجيب محفوظ؛ فالترجمة تُحدث نوعًا من تداول الأفكار والأخيلة بين الدول. أما قبل الترجمة فلم أعرف عن نجيب إلا الطرائف اليسيرة التى تكتبها عنه المجلات الأمريكية من أنه كاتب شعبى بسيط، إضافة إلى بعض أجزاء من رواياته التى أعطتنى انطباعًا عن قدراته الخاصة فى التعبير عن دقائق وتفاصيل الحياة المصرية، وبالأخص القاهرة، التى هى بؤرة اهتمامه. وعلى أى حال، فهو طاقة كبيرة فى وصف مشاكل بسطاء الناس الذين يعيشون فى مجتمعات تقليدية، فتراه يتحدث عن قوة هذه المجتمعات فى ترابطها مقارنة بالمجتمعات الحديثة التى تنبذ كل العادات والتقاليد القديمة وتقبل ما دون ذلك من المتغيرات

وعدم قراءتى لهذا الأدب لا يرجع فقط لعدم وجود ترجمات أستطيع الاعتماد عليها، بل أيضًا حتى لا تشغلنى عن أعمال أخرى أكتبها، مما يحتم علىَّ قراءة موضوعات معينة، ولا ألوم نفسى كثيرًا على ذلك، فإذا كنت لم أقرأ توفيق الحكيم فهو أيضًا لم يقرأ)جذور(.

• ما هى رؤيتك لدور الأدب إزاء التوترات التى يعيشها العالم حاليًّا؟

الكاتب ليس إلهًا، بل هو فرد مثل سائر البشر، ودوره يكمن فى تعبيره عن الأسباب الحقيقية وراء هذه التوترات، وهو بهذا المعنى أداة توصيل وتنوير، وبالنسبة لأزمة الخليج فتصورى أن لكل كاتب رؤيته الخاصة التى أعتبرها نوعًا من المشاركة إيجابًا أو سلبًا، وأذكر أن عددًا من الأمريكيين قدَّم أعمالًا مقنعة تتعلق بأزمة الشرق الأوسط.

• وعلى ذلك.. هل تعتقد أن الكاتب لا يزال له دوره فى بناء الحضارة الإنسانية رغم تعدد وسائل المعرفة الأخرى؟

رغم أننا نعيش عصر ثَوْرَة المعلومات، فإن الكتاب سيظل هو العمود الفقرى لبناء الحضارة، وسيظل هو ذاكرة البشر وأهم من التليفزيون أو أى وسيلة أخرى، ولو سأل سائل أين الحضارات القديمة؟ لكانت الإجابة فى الكتابات العملاقة المتعلقة بهذه الحضارة أو تلك. أنت لو لم تقرأ)جذور(لما كان بيننا

هذا الحوار وأقصد أن الكتاب بصفة عامة يحقق نوعًا من التواصل الفِكْرِىّ، وهناك العديد من الكتب التى لها تأثيرها فى تاريخ الإنسان وارتقائه.
• إذن ما هو دور أو رسالة الأدب فى عصر العلم وثَوْرَة المعلومات التى غيرت وجه الحياة؟
بداية أحذر من النظرة السطحية لدور الأدب والفن فى تغيير الحياة؛ فالأدب رسالة قومية تلعب دورًا مهمًّا فى حياة المجتمع، وما من كاتب جدير بهذا الاسم إلا كان لزامًا عليه أن يفكِّر فى حياة الناس من خلال كلمة كتبها يمكن أن ترتقى بمستواهم الأخلاقى، وتثرى ما لديهم فى إدراكٍ جمالى.
إن المعلومة قد وصلت للإنسان عن غير طريق الكتاب، فهى قراءة مسموعة أو مرئية، وأقصد أن كل الوسائل التكنولوجية الحديثة التى غيرت ايقاع الحياة أسهمت بقدر أو بآخر فى سرعة انتشار وتوصيل المعلومة. وعلى أى حال سيبقى الأدب هو فن تصوير الحقيقة بطريقة خاصة أيًّا كانت الوسيلة، وعلى الكاتب أن يكون فى قلب الأحداث وألَّا يُغفل عيوب المجتمع؛ حتى لا يكون ضد الإنسانية، بل عليه خلق النموذج الأمثل ليغذيه بأفكاره الخاصة وتعميماته الخاصة أيضًا.
• لو تحدثنا عن الفِكْرَة المطروحة فى روايتكم الشهيرة "جذور" ماذا نقول؟ وهل استقيت فيها بعضًا من أفكار "ريتشارد رايت" و"بولدوين" و"نادين جورديمر" أو غيرهم ممن ندَّدوا بالعنصرية؟
روايتى هذه التى أعرف بها بين الجمهور هى محاولة لإعطاء الناس فِكْرَة عن كلمة "عبد" التى تختلف من ثَقَافَة لأخرى؛ فمن الناس من لا يعلمون معناها حتى الآن، ومن هنا كانت هذه الرواية صرخة لإثارة ضمير الناس ضد الاضطهاد العنصرى وضرورة إقرار المساواة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ولما كان من الصعب على الناس أن يتخيلوا حياة العبيد، فكان لا بُدَّ من طرح معناها فى ملحمة؛ ليستقر هذا المعنى فى العقول والقلوب، من أجل توفير الظروف التى تليق بكرامة الإنسان، والتى لا يكون فيها الأفضل للأبيض والأسوأ للأسود. فالعبد من الممكن أن يكون أفضل من سيده؛ لأنه من الممكن أن يتحكم فى مقدرات سيده. وهناك نماذج عديدة ممن دعوا للمساواة بين البيض والسود، منهم الزعيم الزنجى "هيرندون"؛ حيث رد بالإيجاب على ما وُجِّه إليه من أسئلة تتعلق بحقوق وواجبات الزنوج، فوقف المدعى العام وقال،)أطالب بإعدام هذه الحشرة الدنيئة التى تطالب بالمساواة(، ولكن المحكمة رأفت بحال المتهم واكتفت بحبسه عشرين عامًا!! وهذا هو ما يلقاه دعاة الحرية فى أمريكا. وأنا لست بعيدًا عن هؤلاء؛ فقد جاهد ريتشارد رايت بكتابيه)الغلام الأسود(و)ابن البلد(، وهما يحتويان على كل المؤثرات الهائلة التى أفسدت على ملايين السود فى أمريكا حياتهم، وأغرقتهم فى صنوف وألوان من الذل والهوان... وهناك أيضًا الكاتبة "هارييت بيتشر" التى هزَّت المجتمع الأمريكى كله بقصتها "كوخ العم توم"، وأشعلت

الحرب الأهلية الأمريكية بين الشمال والجنوب، حيث جعلت من تحرير العبيد مطلبًا إنسانيًّا ضروريًّا، فأيقظت ضمير الكثير، وجسَّدت أمامهم الصورة الحية لمأساة الزنوج.

• ما هو الفرق بين الأدب فى دول العالم الثالث والأدب فى العالم المُتَقَدِّم؟ وأنت ككاتب مُنْتَمٍ للعالم الغربى ماذا تقول فى أدب أمريكا اللاتينية الذى أصبحت له مكانة مرموقة على خريطة الأدب العالمى؟

كل أدب يعكس حياة مجتمعه، وأعتقد أنه من الضرورى أن يكون للأدب أهمية خاصة فى الدول النامية؛ لأنه وسيلة تعليم وتنوير وتثقيف، فالناس فى هذه البلاد لا بُدَّ أن تكون متلهفة على الكتاب بدرجة أكبر. ومما لا شك فيه أن الأدب فى أمريكا اللاتينية بصفة عامة يمرُّ بمرحلة ازدهار لم يشهدها من قبل، وأقرب مثل لذلك هو ما تشهده البرازيل من نهضة ثَقَافِيَّة، فضلًا عن حصول الشاعر المكسيكى "أوكتافيو باث" على جائزة نوبل فى الآداب.

وأتمنى أن تتاح لى قراءة هذا الأدب يومًا ما، وإن كنت مشغولًا الآن ببعض القراءات الخاصة والمتصلة بعمل جديد لم تتبلور أفكاره بوضوح.

واستكمالًا للحديث عن الأدب فى العالم الثالث، فإن لمصر علاقة تاريخية بالأدب، ولقد جاءت جائزة نوبل تتويجًا لهذه العلاقة. ورغم أننى لا أعرف الكثير من الأدباء المصريين ولم أقرأ لهم، ولكنى أتمنى أن تكون معرفتى بالأدب المصرى معرفة عميقة ووثيقة إلى حد بعيد.

• أليكس هيلى ككاتب أمريكى... كيف يرى مصر ككتلة حضارية وكيان جغرافى وكبؤرة جاذبة لتحريك النوازع الاستعمارية؟

مصر صاحبة رسالة كبرى فى التاريخ الإنسانى، وهى من تلك الأمم ذات القوة الدافعة التى تحمل حضارتها إلى ما وراء الحدود، فحين أسمع اسمها وأفكر فيها يأخذنى شعور بالغموض وسحر الشرق. مصر هى القلوب الطيبة التى تُضفى طابع الإنسانية على هذا البلد، وما دمت أتحدث عنها فلا بُدَّ من أن أشير إلى عبارة رائعة لـ"هنرى بريستد"، حين قال:)هنا تعلّموا الفِكْر والفن والجمال... هنا وقبل كل شىء وُلد الضمير(. فمصر مشخّصة فى كتاب الموتى بعبارة حضارية.. هي: أكره الجهل وقصور الخيال والعين التى لا ترى أبعد من رموشها.. كل شىء ممكن.. أنت تستطيع فعل كل شىء إذا كانت لديك الرغبة.

إن أكثر شىء يتحفنى أن كل إنسان معتز بقوله:)أنا مصرى(، وأقصد من ذلك أن هذا إحساس بالانتماء، بغَضِّ النظر عن اللون، على عكس ما هو موجود فى أمريكا؛ فلونك يحدد طريقة معاملتك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

سهير القلماوى.. العميد سيظل ضمير مصر الأدبى

لم يَعْلُ صوت فى حياتها العلمية والفِكْرية قدر ما كان صوته هو، ولم تعرف الطريق نحو بوصلة الحياة إلا حين عرفت طريقه، ولم يكن لها أن تكون هى إلا به.

فكانت قراءتها الأولى فى شموخه الذى يطاول السماء وثقته المفرطة وعقله اللامع المتوقد الذى يتحرك فى سرعة خاطفة منقضًّا على الأفكار فى شتى مناحيها ليقدِّم قبساتٍ من إلهام يفيض عليه فيفيض به على كل نفس توَّاقة للعلم متوثبة نحو دروب المعرفة، حتى بلغ منزلة تعنو لها الجباهُ. فما أكثر عطاء العلماء والفلاسفة، لكن ما أقل أولئك الذين غيَّروا تاريخ العلم والفلسفة وحركة الثَّقَافَة والأدب وظلوا مشاعل تنوير وأقاموا حوارًا ممتدًا مع الأجيال.

نعم.. تجسدت فيها سمات التلمذة إخلاصًا ووفاءً وتقديرًا وعرفانًا وولاءً، فظلت هى الراوى المبدع والحادى لأنشودة عمرها يتجاوز ثمانية عقود، لكنها ستظل تُسمع لقرن قادم.

• لا بُدَّ أن ذكرى العميد لها الكثير من التداعيات على النفس والعقل بما تحركه من مشاعر وتثيره من خواطر.. لا سيما إذا ارتبطت هذه الذكرى بأنجب التلامذة الذين سجَّلوا وجودًا فعليًّا عنده، وكانوا ذوى تجربة نموذجية تُحتذى بين عملاق ومجتهد.. ماذا تقولين؟

ذكرى طه حسين بالنسبة لى ليست فى حاجة إلى توقيت زمنى؛ لأننى فى كل عمل أتذكره باستمرار، وأدين له بكل ما أملك من شعور بالدَّيْن، منذ أول لقاء به، وكان بسبب أزمة؛ حين أدخلنى الجامعة من باب الأزهر، عبر طريقة الشرط الذى وضعه فى قبول طلاب قسم اللغة العربية بالذات، من أنه يقبل فى هذا القسم الحاصل على البكالوريا أو ما يعادلها، وكان يقصد بما يعادلها ثانوية الأزهر؛ حتى لا يثير ثائرة أساتذته، ولولا هذا الشرط وغموضه ما وجدت بشهادتى الأجنبية منفذًا لدخول كلية الآداب، وكان الحل فى تصورى آنذاك أن أكون طبيبة مثل أبى، فحولنى طه حسين من طبيبة لأديبة، وكانت هذه نقلة كبيرة لن أنساها، ثم سرعان ما أرسلنى إلى باريس لأحصل على الماجستير فى وقت كانت تموج فيه بأخصب التيارات الثَّقَافِيَّة والفِكْرية. وما كان لى مع طه حسين ليس مواقف عابرة، وإنما مَسِيرَة حياة علمية وثَقَافِيَّة وشخصية.

وإذا كانت هذه هى البداية، فكيف ما يتصل بها من تفاصيل؟

أما مناخنا الثَّقَافِىّ الآن، والذى أرى أنه لا يُرضى رُوح طه حسين بأى شكل من الأشكال، فإنه يجب أن يستلهم ما تمليه حياة العميد من إيمان بكل ما نعمل، إيمان يجعلنا نقف بصلابة فى وجه كل اعتداء على هذا الإيمان، سواء كان إيمانًا بحرية الرأى والفِكْر أو حرية الإنسان بكل ما نادى به، ولكن مع الأسف الشديد لا يتوافر للمسئولين عن الثَّقَافَة رؤية وتخطيط.

• ماذا لو تحدَّثنا عما أثاره العميد من معارك فِكْرية ضارية كانت هى رُوح عصر بأكمله؟
طه حسين كان يتميز بين كل الرموز الفِكْرية والثَّقَافِيَّة بخاصية فريدة، لا تكمن فى شخصه؛ وإنما فى طبيعة الدور الرائد الذى قام به كأحد القلائل فى حياتنا الحديثة، الذين يستطيع الباحث فيهم وعنهم أن يختزل مجمل تناقضات الحركة الثَّقَافِيَّة والأدبية فى النصف الأول من هذا القرن عبرهم... ولقد كانت المعارك الفِكْرية بينه وبين خصومه تمثِّل بلورة كاملة وواضحة لكل المناهج الفِكْرية التى تصدر عنها فاعليات الأمة فى معالجاتها لمشكلاتها المستجدة وللرؤى والتصورات التى توجِّه مسارات البحث الأدبى والفِكْرِىّ، وللعقيدة الفلسفية أو الأيديولوجية التى تحكم إدارة الفعل الإبداعى والنقدى لدى المُفَكِّر والأديب على السواء، وعلى هذا كان الخلاف الذى ثار -وما زال- بين أنصار وخصوم طه حسين يمثِّل إضاءة مهمة تكشف عن اتجاهات فِكْرنا الحديث والمُعَاصِر، وأيضًا اتجاهات أدبنا الحديث والمُعَاصِر، بما فى ذلك العلل المزمنة فى مواقفنا الخلافية، تلك العلل التى تفوِّت على الأجيال الجديدة فرصةَ التبصُّر بحقائق المواقف وطبيعة الأزمة الفِكْرية، وأيضًا تحرمهم من إدارة التقييم الشخصى الحر المبنى على قناعة شخصية وليست مزورة.
ولقد أشار د. هيكل إلى ذلك حين قال: لم تكن ثَوْرَة الأدب ليغيب عن الأذهان خطرُها، ولم نكن أقل فى لفت نظر الغرب من الحركات السياسية التى دفعها الطابع القومى... إن جهود الرواد كانت تراقب وتحلِّل كأدق ما كانت جهود السياسيين تراقب وتحلل.
• يعتبر الكثير أن كتابه)مُسْتَقْبَل الثَّقَافَة فى مصر(وما أثير حوله دستورٌ للحياة التعليمية والثَّقَافِيَّة، وسوف يحقق امتدادًا تاريخيًّا وتواصلًا حميمًا مع الواقع المُسْتَقْبَلِىّ؟
أرى أنه من الخطأ الفادح أن ننظر لما كتبه طه حسين بمعزل عن المناخ الفِكْرِىّ العام الذى وُلد فيه طرحه الفِكْرِىّ والملابسات الاجتماعية التى صاحبت صدوره؛ لأن ذلك من شأنه أن يبتر الرؤية المتكاملة لأبعاد الكتاب دون النظر إلى الدوافع الإنسانية والاجتماعية التى تمثل القاعدة الموضوعية التى صدر عنها الرأى أو الفِكْر. واعتقادى الأساسى أن كتاب "مُسْتَقْبَل الثَّقَافَة فى مصر" هو أول رؤية فِكْرية متكاملة لمشروع إصلاح النظام الثَّقَافِىّ والتعليمى فى مصر، أو برامج ومشروعات عملية لإعادة صياغة مناهج التعليم واتجاهات الفعل الثَّقَافِىّ، وبالتالى كانت الأصول التصويرية التى بنى عليها طه حسين هذا البرنامج هى الأكثر خطورة من جزئيات البرنامج ذاته؛ لأنها تكشف عن الأبعاد الاستراتيجية للمشروع، إضافة لما نوضِّحه من طبيعة أفكار صاحبها وتصوراته نحو واقعه وانتمائه الحضارى.
وكانت هناك عبارة عن مُسْتَقْبَل الثَّقَافَة أشعلت المعركة من جديد بعد أن هدأ أثر كتاب الشعر الجاهلى، هذه العبارة فتحت باب حوار عنيف حول الانتماء

الحضارى لمصر: للشرق أم للغرب؟ ولقد أفصح طه حسين عن أننا يجب أن نسير على مَسِيرَة الأوروبيين ونسلك طريقهم؛ لنكون لهم أندادًا وشركاء فى الحضارة، خيرها وشرها حلوها ومرها، ما يُحَبّ منها وما يُكره، ما يُحمد منها وما يُعاب.
كما أكد أنه يرى أن مصر تنتمى حضاريًّا إلى أوروبا وليس إلى الشرق، مؤكدًا صحة الكلمة التى قالها الخديو إسماعيل وجعل بها مصر جزءًا من أوروبا فى كل ما يتصل بالحياة الثَّقَافِيَّة والعقلية؛ لأن البحر الأبيض الذى يفصل بيننا أضيق وأصغر من الصحراء التى تفصل بيننا وبين العراق!
إن مشروع طه حسين الثَّقَافِىّ الذى صدر منذ أكثر من خمسين عامًا لا يزال -فى رأيى- يتطلع إلى مُسْتَقْبَله المصرى والعربى، الذى لم يجئْ بعد؛ فهذا المشروع فى كثير من مفاهيمه وأسسه لا يزال دعوة صالحة ومعبِّرة عن بعض الاحتياجات الثَّقَافِيَّة، رغم تغيُّر الظروف واختلاف الأوضاع الوطنية والقومية والعالمية.
• زوال المجتمع التقليدى كان حلم الأحلام لدى د. طه، وكان يعتبره مهمة تاريخية تستوجب المغامرة والمجازفة والتضحية تحقيقًا لنقلة نوعية نحو مسارات الإحياء الثَّقَافِىّ.. فإلى أى حد ارتبط الحلم بالواقع؟
كان طه حسين فى دعوته لزوال المجتمع التقليدى وتأسيس الحضارة لا يكتفى بالمظهر، بل يعمل على أن تؤسس الحضارة على قواعد سليمة، بالاعتماد أولًا على أجيال من الشباب، وسبيله إلى ذلك هو بناء التعليم على أساس سليم متين، وما يتبع ذلك من بروز الكفاءات المصرية التى تحقق الاستقلال الاقتصادى والعلمى والفنى والأدبى. والمعنى أن استراتيجية طه حسين فى زوال هذا المجتمع ليست غاية فى ذاتها، ولكنها وسيلة من الوسائل العامة التى تنتهى إلى تحقيق الغاية القومية، ولهذا كانت دعوته للعدالة الاجتماعية والنظام الدستورى وخلق قوة للاستقلال السياسى والاقتصادى والثَّقَافِىّ، تأسيسًا على الحضارة الأوروبية؛ حتى تكون أسباب هذه الحضارة هى نفسها أسباب الحضارة المصرية.
واستراتيجية الاتصال فى هذا عند طه حسين إنما كانت تقوم على ما يسميه هو نفسه بالوسائل والغايات، أى الوسائل التى تؤدى لتحقيق الغايات وتجعل المصلحة القومية لمصر تكمن فى تحقيق المساواة لأبناء الوطن فى الحقوق والواجبات، وهو النظام ذاته الذى يجب أن نُقِرُّهُ فى حياتنا الخارجية... وإذا انطلقنا من كل هذا إلى الاتجاه الثَّقَافِىّ نجد أن طه حسين انطلق من ركيزة واضحة تقول إن المُثَقَّف ليس مسئولًا عن عقله فحسب، ولكنه مسئول عن أثر هذا العقل فى مُعَاصِريه من جهة، وفى الأجيال المقبلة من جهة أخرى، وبالتالى فالمُثَقَّف الذى يلعب دورًا تنويريًّا تثقيفيًّا مسئول عن التنشئة الاجتماعية أيضًا، ولهذا لا يجوز له أن ينعزل عن مجتمعه، بل هو يقوم بدور المعلم الذى يقوم بمهمة التنوير متسلحًا بالحرية والصراحة.

• طرح العميد رؤية تنويرية تتصل بالإشْكَالِيَّة التى يعتبرها البعض قائمة بين العلم والدين.. فما هى انطباعاتك عن ذلك؟
أنا بلا شك أؤيد ما ورد بكتابه)من بعيد(فيما يتصل بقضية العلم والدين، ولقد كان فى نظرته متأثرًا بفِكْره التنويرى، مؤكدًا الآثار الوخيمة للفِكْر الرجعى المتخلف، انطلاقًا من حرصه على الدفاع عن الجوانب الحضارية الكبرى حتى فى الدين، فمن يختلف مع التفكير المنطقى الذى يرى خطورة بالغة فى استخراج النَّظَرِيَّات العلمية من الآيات القرآنية؛ لأن المعروف أن الدين ينطوى على حقائق كبرى بل حقائق علمية لا سبيل إلى مقارنتها بطبيعة العلم المتغير حسب العديد من الاعْتِبَارات؛ فالعلم منهج وطرائق بحث آخذة فى التطور والارتقاء، وربما تصل هذه الطرائق أو الوسائل إلى حقائق، لكنها حقائق متغيرة تتلوها حقائق أكثر ثباتًا، وذلك يتفق تمامًا مع طبيعة الزمن والتكوين الإنسانى.
• يقال عن الفترة من العشرينيات وحتى السبعينيات إنها كانت عصر طه حسين... فما هو صدى هذه المقولة أو صحتها بالنسبة لك؟
حقيقةً إن طه حسين كان من المتابعين بمنتهى الدقة للإنتاج الثَّقَافِىّ والفِكْرِىّ والعلمى، ليس فى مصر فحسب؛ ولكنه تجاوز آفاقها منذ نشأته ككاتب وأستاذ خرجت رؤيته للأدب العربى خارج أسوار الجامعة ليتفاعل مع الجمهور، لذلك كان هو الضمير الأدبى الذى يقف عنده الكتاب عندما يكتبون، ويتساءلون ماذا سيكون صدى هذا العمل أو ذاك عند طه حسين؟ هل سيصادف منه قبولًا أم سخطًا؟ وبالمعنى أنه كان المعيار فى صدور هؤلاء الكتاب الذين هم تلامذته وأبناؤه، فلقد آمن بالتَّقَدُّم وتفاءل بمصير الإنسان وليس لدىَّ من كلمات أجسد بها حياته إلا تلك التى قالها الكاتب الفرنسى "أندريه جيد")لتكن حياتك ثائرة مثيرة ولا تجعلها هامدة راكدة(.
• طه حسين والعالمية.. هل يمكن أن تقترن هذه الصفة به.. وإلى أى حد قد اكتملت عناصرها، وإلى مدى قد غابت؟
بدون أدنى شك... طه حسين شخصية توافرت فيها كل عناصر العالمية، إلا أن هذه العالمية كانت صعبة جدًّا فى أيامه... لماذا؟ لأن حركة الترجمة كانت ضعيفة جدًّا، وأقصد الترجمة من العربية إلى غيرها، إضافة إلى هذا، فمعنى العالمية كان مختلفًا تمامًا عن معناه الآن، فقد كانت تقتصر على إنجلترا وفرنسا وأمريكا، لكنها الآن تدخل فى إطارها اليابان والصين والسويد وسويسرا... فلو تم عمل فيلم تسجيلى عن طه حسين الآن فأنت بمنتهى السهولة تستطيع ترويجه أكثر من أى وقت مضى. ورغم ذلك فقد كانت لطه حسين شهرة طاغية فى فرنسا من خلال الجامعة واتصالاتها ودور المستشرقين والكتَّاب فى تأسيس صيته العلمى الذى أهَّله لأن يحصل على العديد من درجات الدكتوراه الفخرية من أكثر من دولة، وعلى العديد أيضًا من

النياشين والأوسمة، وأن تجعل من طه حسين الآن كاتبًا عالميًّا فهذا شىء بسيط.
• المؤكد والمؤكد أنكِ قد تعلمتِ الكثير.. لكن ما هو أبرز حصاد لذلك؟
بكل فخر علّمنى الثَّوْرَة، لا لأثور عليه؛ بل لأثور مثله على كل ما يمكن أن يؤجل أو يؤخر ازدهار مصر المُسْتَقْبَل، علّمنى أن أختلف معه، وعلّمنى أن أقول لا، وأن أثق فى نفسى لدرجة الغرور، وأؤمن بها إيمانًا يدفعنى إلى الأمام، وهذا هو ما نفتقر إليه هذه الأيام؛ فأين هذا المعلم المؤدّب الذى يلقن تلميذه هذه الدروس، لذلك فأنا أستعيرها من أستاذى طه حسين، وأقول لشبابنا: اغترّوا بأنفسكم!
• طه حسين.. الإرث التاريخى والرصيد المُسْتَقْبَلِىّ.. لأى مدى يمكن إقامة التوازن بين طرفى المعادلة؟
يبقى منه الكثير والكثير، فلم يكن طه حسين مجرد عبقرية أدبية وثَقَافِيَّة أنتجت عشرات الأعمال الرائدة فيما يتصل بالعديد من الدراسات والبحوث الأدبية النقدية والقصة والسيرة الذاتية وتاريخ الأدب والثَّقَافَة العالمية، وإنما كان رجل مبادئ وفِكْر وسياسة بالدرجة الأولى، جعل من الأدب إحدى أدواته الأساسية للتعبير عن تلك المبادئ والأفكار، ولتقديم رؤيته الثَّقَافِيَّة والاجتماعية والسياسية، وقد أدرك منذ البداية أن وسيلته لتحقيق ذلك لن تكون مجموعة من الكتب فيطّلع عليها عدد محدود من القراء المتخصصين والدارسين، بل أيقن منذ البداية أهمية اتساع دائرة قراء إنتاجه من أجل تحقيق أهدافه، وسيظل طه حسين يُذكر لفترات طويلة كواضع لأساس المدرسة العقلانية فى الفِكْر المصرى الحديث، والأدب العربى الحديث، فقد أرسى أساس المنهج العلمى فى البحث، وكان أكبر داعية لحرية هذا البحث العلمى والدليل العقلى.
وسيظل يُذكر أيضًا ببعض ما نادى به من مبادئ وأسس ومفاهيم لها القدرة على أن تطاول الزمن، وأقربها إلى الآن اتخاذُ العقلانية منهجًا للتحليل، وسِيَادَة الرؤية التاريخية للظواهر المختلفة، سواء كانت مادية أو اجتماعية أو فِكْرية أو أدبية، وأن هناك عقلًا إنسانيًّا واحدًا وحضارة إنسانية واحدة لا تلغى الخصوصيات القومية والثَّقَافِيَّة، وأنه لا تحقيق للاستقلال السياسى والاقتصادى بغير الاستقلال الثَّقَافِىّ، ولا سبيل للإبداع الثَّقَافِىّ بغير توفير أكبر قدر من الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية واحترام إنسانية الإنسان. إن المبادئ لا تموت ولا ترحل برحيل صاحبها، لكن العبرة بمن هم فى أمسِّ الحاجة إليها ولا يأخذون بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

نُخبة المستشرقين.. العميد فولتير الثّقَافَة العربية

وجدتهم يتصايحون.. يتعاركون.. يتنازعون الرأى بينهم فى صحن جامعة القاهرة، التى شهدت مآثر فِكْرية وسياسية كبرى اخترقتهم، وجدتُه محفورا فى عقولهم، استقرَّ يقينى على يقين أعمق أنه ما زال صوتُ طه حسين عاليًا، وما زالت أصداؤه قوية واضحة ومترجمة لنداءاته حول التجديد والعقلانية وحرية الفِكْر والتحمس لتقويم اللسان العربى وإعلاء شأن الإنسان أينما كان. كان طه حسين لا يزال يثير فينا قلقًا عاشه طوال حياته، وهو القلق الذى أحدثته صدمة تعانقه مع الحضارة الغربية، والأصول الثَّقَافِيَّة العربية، وهو القلق الغائب فى تيارات الثَّقَافَة العربية المُعَاصِرَة، بينما كان المنطق يقتضى أن يكون أشد ضراوة؛ نظرًا لانفتاح الأفق الإنسانى على مجالات ومتغيرات لم تخطرْ لبشر فى أحلام اليقظة والنوم على السواء.

يقول "بيير كاكيا" أستاذ الأدب العربى المُعَاصِر بجامعة كولومبيا: كان دور طه حسين فى الأدب العربى المصرى هو موضوع رسالتى للدكتوراه فى جامعة أدنبرة عام 1951، ولم يكن هناك أحد فى الغرب –وقتها- مهتمًّا بالأدب العربى الحديث، بل لم تكن هناك دراسات أكاديمية عن أى جانب من جوانب هذا الأدب، فاخترت طه حسين؛ لأنه كان يمثِّل أهم تيار فى أيامه وكان شديد الإحساس بالمناخ، ولقد أحدثت رسالتى هذه أصداءً كبيرة بعد فترة من الزمن، فبدأ الاهتمام بهذا الأدب، انطلاقًا من أن طه حسين كان يمثِّل ثَوْرَة ثَقَافِيَّة بما أحدثه من وضع منهج للدراسة الأدبية ولدوره فى التنوير وإثراء الثَّقَافَة واهتمامه بالتعلم، وقد كان سابقًا لعصره فى استشعاره لأخصب التيارات وتشجيعه لها، وهو رائد بهذا المعنى، يعرف أن الناس تتحسَّس طريقًا جديدًا فينير الطريق... إنه شخصية عالمية لدى المثقفين والمهتمين، وله أصداءٌ قوية تحقِّقها الترجمات العديدة لأعماله. فعلى الرغم من أنه لم يكن الأول فى الإعجاب بالغرب -فقد سبقه أحمد لطفى السيد وأحمد فارس الشدياق- فإنهما لم يعبِّرا عنه كما عبَّر طه حسين الذى صاغ رؤيته عن الحضارة الغربية وانسجامه معها، وقد يقال إنه كان مبالغًا فى نظرته للتغريب، ولكنها كانت نظرة صادقة منه؛ لأنه كان متأثرًا بالتُّرَاث ومن دعاة التجديد، فجمع الأمرين فى بناء ثَقَافِىّ واحد.

ومن أبرز سمات أدب طه حسين -كما يقول "بيير كاكيا"- تجسيد جمال اللغة العربية، فمثلًا قصته شجرة البؤس التى تُلقى الضوء على ثلاثة أجيال لعائلة واحدة فى أسلوب ساحر، وإن كانت لا تتفق فى حجمها مع ما عُرف عنه من إسهاب، وكل القصص التى أنتجها الكتاب المُعَاصِرون تعبِّر عن مجتمعات عربية إلا قصته الحب الضائع؛ فهو الوحيد الذى كتب قصة لا علاقة لها بالعالم العربى، وهذه إضافة جيدة من إضافاته العديدة؛ فهو يبحث دائمًا عن الجديد بما يحفظ له الريادة على الفِكر المصرى، والتى استمرت نحو خمسين عامًا.

والذى يتبقى فى نفسى من طه حسين -وأنا تلميذ له- هى أمانته العلمية والتفتح والتجديد والأسلوب ودراسة التُّرَاث بمعايير غربية وتحمُّسه للغة الفصحى بقوله:)لا أدب إلا أدب الفصحى(، التى لا يجب التفريط فيها؛ لأنه حين نبذ الأتراك لغتهم القديمة ودخلوا فى لغة حديثة كانت النتيجة أنه بعد خمسين عامًا أصبح المتعلم لا يستطيع قراءة أدب بلاده القديم، ومن ذلك فلا بُدَّ من الحفاظ على سلامة الفصحى واللسان العربى، وزاد طه حسين على ذلك بعدم اعترافه بأى فائدة من الأدب الشعبى، الذى يمكن أن يشكل خطورة على الأدب الرفيع.
ولم يكد الصمت يجتاح لقاءنا إلا وأتبعْتُه بعاصفة كنت أتوجَّس نتائجها؛ إذ عرضتُ على "كاكيا" مقالة حول العميد سطرتُ كلماتها فى مقتبلِ الشباب، وكانت تحمل من الإعجاب والفتون والرعونة العاطفية الكثيرِ والكثير؛ لأستكشف رؤيته حولها باعْتِبَاره متخصصًا رفيعَ المستوى، لكنه آثر أن يضمّنها فى خطاب جاءت كلماته تحمل عبق الثناء، أما المقالة فقد امتازت عنده بالصدق والتوازن، لكنه خالفنى فى أن تأثير طه حسين لم يكن عن طريق أسلحته فحسب، ولكن لأن إخلاصه وأمانته وتفتحه أصبحت معايير يقيس المُفَكِّرُون أنفسهم بها.
وهكذا توَّجتنى كلماته، وأزاحت عن كاهلى كبوات نفسية وعقلية.
ويحدِّثنا المستشرق الفرنسى "بونفور" أستاذ البلاغة واللسانيات العربية بجامعة باريس قائلًا: طه حسين من الكتَّاب الذين أصبحوا عالميين منذ زمن، ولقد جاءت جائزة نوبل تكريمًا لنجيب محفوظ وتتويجًا لجهود العميد الذى جاء إلى حياة قلقة مضطربة، وكان لا بُدَّ أن ينعكس هذا القلق داخله بصيغ مختلفة غالبًا ما تصل إلى حد القلق المعرفى الذى يبحث عن شاطئ، مثل هذا القلق لا يتولد فى النفس من جراء قراءة أسلوب معين، وإنما يتولد عندما تنتقل رُوح العصر إليه، وهى حالة الشعور بأن المجتمع الراكد الساكن ينبغى له التعرض لهزة فعلية لاستقبال أنماط مغايرة ممكنة النقل، وهذه الحقيقة حول طبيعة طه حسين وقلقه المعرفى تقودنا لا شك إلى مواجهاته العديدة على الساحة الفِكْرية والسياسية. فمن شأن صاحب هذا القلق وصاحب هذا الحوار الذى ينقله من داخل الذهن إلى خارجه أن يدخل فى سلسلة من المحاورات تصبح بعد ذلك هى المعارك المحتومة؛ بسبب وجود نقاط التصادم والاغتراب فى المجتمع.
فمكونات التنوير، التى فجرها إصلاح وتجديد -من جانب- وإعلاء الحياة الإنسانية وحرية المبدع وسِيَادَة المبادئ العقلانية -من جانب آخر-، كل هذه المكونات عندما تُثار من قبل شخصية واحدة فلا بُدَّ لنا القول بأن هذه الشخصية أوجدت بذاتها ثَوْرَة أو انقلابًا فى الأفكار، خاصة إن كانت هذه الأفكار موجودة عند عدد من الناس، ولكنها غالبًا ما تتمحور حول شخصية أساسية قادرة ومؤثرة فى الآخرين.

إن طه حسين كان مُتَقَدِّمًا على عصره، بدليل الضجة التى أثيرت حوله فى الأوساط المختلفة؛ لأنه أوجد نزوعًا تنويريًّا لم يكن موجودًا بهذه الحِدَّةِ من قبل، وعندما نقارنه بأقرانه أمثال "سلامة موسى" فيمكننا أن نلحظ أوجُه شبه عديدة كالميل نحو العقلانية واحتضان العلم سبيلًا وأسلوبًا فى المجادلة والمناقشة، لكن مزاجه الأدبى من جانب آخر يختلف عن سلامة موسى الذى تتميز كتاباته بأنها مجموعة من المساجلات الأدبية التى تقوم على فِكْرَة واحدة يؤكدها صاحبها بالبراهين والأدلة والخلافات أيضًا، أما طه حسين فكتاباته تعتمد على وضع نَظَرِيَّة جديدة تطمح إلى الكمال، ويطرح خلالها منظومة أو أنساقًا مختلفة من المعلومات والمعارف والمبادئ بهدف وصوله لاستنتاجات معينة محددة وواضحة فى ذهنه، ولهذا كان أكثر تكاملًا فى منهجه، فتراه يدفع القارئ للاطمئنان إليه فى كثير من الحالات قبل أن يبدأ نزعته للميل إلى الهجوم، وحينما يبدأ بالتذمر فإنه سرعان ما يتبدى للقارئ أن هذا مسعى طه حسين لامتلاك الشخص الآخر، أى أنك -عادة- كمتلقى تستسيغ المجاملة أو الشعور بأن الرجل الذى أمامك ليس مواجهًا مقتحمًا، وعندئذٍ يبدأ هو هجماته التالية فى تقديم المعلومات وضخ البراهين وطرح مناقشاته لحين بلوغ استنتاجاته النهائية، ولا يقتصر هذا الجانب على مجرد تقديم المعلومات؛ بل يقدِّم منهجية معينة تتعدد داخلها الأساليب التى يمكن أن نختلف ونتفق معها، ولكنها فى مجملها تشكل إضافاتٍ مهمة فى تاريخ النقد الأدبى، وكذلك فى طبيعة نَظَرِيَّة الأدب.

أما "نوتاهارا" أستاذ الأدب العربى المُعَاصِر بجامعة طوكيو فيقول: عندما نواجه الأدب العربى الحديث ندخل من باب طه حسين الذى أقدِّره كصاحب موقف وكاتب وروائى ومُفَكِّر اجتماعى تجسدت فيه أسرار الصلابة والتحدى والإرادة والإصرار، فصار قيمة أدبية خالدة، جسَّم إشْكَالِيَّات عديدة للثَقَافَة العربية، منها الإشْكَالِيَّة المتصلة بالجانب الإنسانى الذى لا يعتقد البعض أنه يمكن أن يكون عُرْضَةً للقصور والفحص؛ وذلك للنظرة التقديسية إلى التُّرَاث، اعتمادًا على أنه قائم على اللغة التى لها عراقة تساوى عراقة الزمن، ومن هنا أضفت الأجيال المتعددة هذه النظرة على التُّرَاث الذى يصلح لكل زمان ومكان، ولا شك أن فى هذا قدرًا كبيرًا من الخطأ... ولقد حاول طه حسين أن يلغى رُوح القداسة؛ للاستفادة من الجوانب الإيجابية من خلال اللجوء إلى العقل واستخدام المنهج العلمى. وهناك إشْكَالِيَّة أخرى متصلة بالحضارة الغربية التى كانت مع قدوم الحملة الفرنسية لمصر، ومن وقتها ومصر فى حالة انبهار أمام الحضارة، وإن لم تستطعْ أن تواكبها حتى الآن أو تضع الأقدام على الطريق الصحيح فى محاولة الإفادة من هذه الحضارة، ومن هنا تَضَعْضَعَتْ شخصية مصر من جانبين: جانب التُّرَاث الذى لا تستطع أن تتمثله تمثيلًا حقيقيًّا لتستفيد من إيجابياته، وجانب الحضارة الغربية حيث لم تكن هناك نية حقيقية لخلق إنسان فاعل يمكنه الاعتماد على نفسه.

إن عالمية طه حسين كانت وراء ترجمة كتبه حتى الآن إلى ما يقرب من 20 لغة؛ فدوره بالنسبة للثَقَافَة العربية مثل دور "فولتير" و"ديدرو" فى الثَّقَافَة الأوروبية، واهتمام القارئ الفرنسى به يفوقُ اهتمامَه بأى كاتب عربى آخر؛ لأن الكتَّاب الفرنسيين لم يعرفهم القارئ العربى إلا عن طريقه فى ترجماته لهم وحواراته معهم، فمثلًا حيث أجرى مع "بول فاليرى" محاورة على لسان أبى العلاء، هذه قمة الإبداع، ولكن لماذا اختار هذين الشاعرين أبا العلاء وفاليرى؟ لأن كليهما لم يفهمه مجتمعه، بل إن لفظ المجتمع لهذين الشاعرين يُعتبر الوحدة التى جمعت بينهما!! ومن ناحية أخرى جمع بينهما طه حسين لأنه الوحيد الذى فهم هذين الشاعرين، فضلًا عن أنه هو الآخر لم يفهمه مجتمعه كما ينبغى!! وعلى ذلك فأعتقد أن طه حسين متشائم فى الصميم، وهذا التشاؤم جعله يدافع عن قضايا مصيرية ولو على حساب سعادته، وهذا هو أساس علاقته بأبى العلاء!

وارتباطى بطه حسين كان منذ الصغر، حين قرأت له)الأيام(، فشغلت حين ذهب لأقصى ما يمكن من أعماق الذاكرة الأولى، وإذا كانت اللغة هى الإنسان الذى يتكلمها، فطه حسين قدَّم نموذجًا للغة العربية كلغة حضارة وأدب وثَقَافَة، ومن هنا فإنه ليس كاتبًا يكتب لنفسه وعبقريته، ولكنه كاتب ساهم فى خلق مجتمع ثَقَافِىّ واجتماعى بأكمله.

إن افتقار المجتمع وقتها إلى وجود فِكْرَة الحرية والديمقراطية أوجد نقصًا عميقًا فى الحياة السياسية والاجتماعية والفِكْرية، وبطبيعة الحال هذا متَّصل بفِكْرَة النظام التربوى لتكوين الإنسان فى أى مجتمع، وعندما صب طه حسين اهتمامه على إصلاح النظام التعليمى والتربوى والثَّقَافِىّ قدم ما يمكن أن يقدمه الشخص الواعى النابه، فاهتمامه بهذا الجانب -فى هذا الوقت المبكر- يدلُّ على أهمية تطوير وتحديث هذا النظام الذى يضع الإنسان فى مجتمع يؤمن بضرورة أن تبقى التقاليد والأعراف والأنظمة دون تغيير، ومن هنا واجَه طه حسين دوامات متصارعة بدعوته لحرية التفكير وحرية الرأى وبالظهور الساطع لشخصيته بكل جوانبها كشخصية المعلم والأستاذ الأكاديمى والأديب المبدع والمُفَكِّر... حقيقةً إنه كان معلِّمًا عبقريًّا وواحدًا من النابهين الذين يظهرون على منعطفات التحوُّل فى حياة الأمم، فقد التقت فيه شخصيات كثيرة ليضع طاقاته فى خدمة أمته بشكل واضح. ويبقى فى نفسى منه الكثير والكثير من هذه الدعوات والآراء والأفكار، مضافًا إليها صوته القوى الذى ينادى العقل والحرية والضمير... وأعتقد أن الاستجابة لهذا الصوت تريح رُوح طه حسين فى الحياة الأخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

ثروت أباظة.. لم يخطَ قلمى اسمَ عبد الناصر فى حياته

لم أكن يومًا من دراويش اللاهوت الناصرى، ولا من شُرَّاح الشعارات الطنانة، وإنما كنت من عشاق قِبلة المبادئ والمثل والقيم تلك التى يفتقرها عالم الساسة والسياسة، فيقينى دائمًا أن القداسة قاصرة على العلم والفن والفِكْر، لكن مع كل هَبَّة للناصريين كانت تتفجر داخلى أشياء وأشياء تبدأ بالكره وتنتهى إلى ما لا أعرفه، فما كان لناصر أن يحظى بهذه الفتنة إلا حين يختل قوس التاريخ، وبالفعل كانت الحادثة التى أذهبتنى إليه لأستقصى آثارها، فإذا بطوفان الكلمات الحارقة يثلج صدرى وينعش نفسى ويدخلنى كهف الحقائق الغائبة؛ حين شكا إلىَّ أهوال وبشاعات النظام الديكتاتورى الناصرى، حدَّثنى عن سِيَادَة الجهالات الاستراتيجية وما انبثق عنها من سلبيات كبرى، أفاض فى الحديث عن مرارة الهزائم وانكساراتها وبصماتها على التاريخ المصرى المُعَاصِر، صوَّر وجسَّد لمخيلتى ساحة المعتقلات وشهداءها، روى لى قصة شهدى عطية وساعاته ولحظاته الأخيرة، أبرزَ مدى تخلُّف فِكْر السُّلْطَة واتصافه بالسَّفَهِ السياسى، استهزأ بالتبرير القَدَرِى لهزيمة يونيو، أشار إلى العشوائية المَقِيتَةِ فى اتخاذ القرارات العليا، تهكَّم من التصريحات العنترية التى كان يُطْلِقُهَا الفراغ الذاتى للسُّلْطَة، بكى كلَّ شباب مصر ضحايا حروب الثَّوْرَة، لم تغادر ذاكرته مذبحة القضاة أو سحق القانون بيد النظام واعتقال المثقفين والأكاديميين، أسرَّ إلىَّ بأنه لو لم يكتب روايته)شىء من الخوف(-التى لطمَ بها النظام- لمات كمدًا، تعجَّب وسخر من أولئك الذين ينزِّهون ناصر عن أية نقيصة، بينما هو ذاته قد اعترف فى بيان 30 مارس بأن الثَّوْرَة قد عجزت عن حماية مبادئها أو الانتصار لأفكارها بما يضمن استمرارية التواصل مع حلمها المُسْتَقْبَلِىّ.

كانت هذه هى أبسط وألين الكلمات التى جالت بخاطر ثروت أباظة حين قامت الدنيا ولم تقعد؛ لمجرد أن نجيب محفوظ ذاته قد أذاع رأيًا أو أشاع فِكْرَة عن ثَوْرَة يوليو وزعيمها جمال عبد الناصر، حتى إن بعض الناصريين قد اشتعل غضبهم مثل ثَوْرَة عارمة، وكأن محفوظ قد خرج عن طوره ولا بُدَّ أن يطلب الصفح ويعلن التوبة!

ولسنا نلوم نجيب محفوظ أو حتى نعتب عليه؛ فقد سجَّل رأيه للتاريخ، غير حافل بما سيثيره عليه من مواقف وزوابع بلغت حد الاتِّهَام؛ لأنه قد خرج على الخط الناصرى، وليست هذه هى المرة الأولى ولن تكون الأخيرة، تلك التى يحتدم حولها الصراع بين كتابات وآراء أثارت واستفزت، وكتابات أخرى هادنت واستقرت، لكننا سوف ننطلق إيمانًا واعتقادًا من مبدأ حرية الرأى والفِكْر التى ينادى بها المثقفون ولا يسعون إليها. وانطلاقا من ذلك، فقد أردْنا أن

نستوضحه إشْكَالِيَّة الموقف حول ثَوْرَة "محفوظ" على "عبد الناصر"، وثورات أباظة عليه أيضًا.
• قرأنا وسمعنا عن تلك الحملة الشرسة ضد أديبنا الكبير نجيب محفوظ.. هى بالضرورة تدفعنا للوقوف أمام قضية أخلاقيات الحوار بين المثقفين، وكيف يراها كاتب كبير فى وزن ثروت أباظة؟
بكل أسف لقد هبطت أخلاقيات المثقفين إلى درك أسفل بعد أن كانت فى أعلى عِلِّيِّينَ، وفى رأيى أن تلك الحملة المسعورة التى وُجهت لأديبنا الكبير نجيب محفوظ من قِبَلِ من يسمّون أنفسهم بالناصريين تخرج عن دائرة الحوار المتفاعل البناء -الذى يحترم أطرافه- وتدخل دائرة السباب، والسباب هو عجز كامل عن المواجهة الفِكْرية الحاسمة الوقورة، فماذا لو قال "محفوظ" رأيًا لا يُعجب أحدًا ولا يروق لفئة معينة؟ بينما ما قاله أو كل ما قاله عن عهد الثَّوْرَة هو عين الحقيقة التى يعرفها أكثرهم، ولكن تأبى أنفسهم أن تعلنها واضحة صريحة! وأذكِّرهم: ألم يقل ناصر فى جلسة مجلس الوزراء فى السادس والعشرين من شهر يوليو عام 1967)لقد سقط نظامنا يوم التاسع من يونيو(، وأنا لا أوافق من يقول إن المظاهرات الحاشدة التى خرجت كانت إعرابًا عن الثقة بالنظام.
وبالتالى هم ليسوا مثقفين، وإنما هو مصفِّقون للأكاذيب قبل الحقائق، ولذلك فأنا عندما أهاجمهم لا أدافع عن نفسى، وإنما أدافع عن مصر فى ذات أبنائها، وأتصدى لكل من يعرقل مسيرتها باسم أى شىء عن طريق تلك الصحافة العوراء، التى تحاول أن تطمس مكان ومكانة "نجيب محفوظ" فى قلب كل مصرى غيور.
• لماذا استنكر البعض أن يعلن كاتب روائى فى قيمة وعبقرية نجيب محفوظ رأيه فى زعيم ثَوْرَة يوليو.. هل لأنه لم يهادن الثَّوْرَة أم أنه أقل من أن يطرح رأيه فى الثَّوْرَة وزعيمها؟ أم هو بروز لتجليات الأزمة القابعة فى العقل العربى بصفة عامة؟
ليس نجيب محفوظ بأقل من أن يطرح رأيه فى أية قضية مهما تكن، لكن يتوقف الأمر على مستوى هذا الرأى الذى يعلنه، والذى ربما يحتاج إلى نقاش أو جدال ينتهى إلى حيث ينتهى، لكن بأى حال من الأحوال لن يصل إلى ما وصل إليه من ابتذال واضح لم يحترم وضعية نجيب محفوظ المحلية والعالمية، بل ماذا لو استخدم أى مصرى حقَّه فى التعبير وخاض مثلما خاض نجيب محفوظ فى أحداث وظروف ثَوْرَة يوليو؟ ماذا يفعلون به؟ إنهم يستنكرون أن يمس أحدهم الوهم الذى أقامه!
واسمح لى أن أقولها لأول مرة، فأنا الكاتب الوحيد الذى لم يكتب اسم جمال عبد الناصر ولو مرة واحدة طوال حياته، إن حروف جمال عبد الناصر لم تكتمل عندى على قلمى، وأتحدى من يجد لى مقالًا طيلة هذه الفترة عام 1952 حتى عام 1970 يحمل اسمه مطلقًا!

• يقول محفوظ فى عبارة شهيرة له: إن الثّوْرَة لم تُقَدِّم للشعب تعليمًا مجانيًّا، وإنما قدَّمت تجهيلًا باهظ المصروفات.. هل تشاركه هذا الرأى؟! أم هل تشارك الناصرية فى أن مجانية التعليم هى أحد إنجازات الثَّوْرَة؟
إذا كانت مجانية التعليم هى مفخرة الناصرية -كما يدَّعون-، فأنا أتفق مع نجيب محفوظ فى أن الثَّوْرَة لم تَقَدُّم للشعب تعليمًا مجانيًّا وإنما قدَّمت تجهيلًا باهظ المصروفات!
وليس جديدًا أن أؤكد لهم أن مجانية التعليم قد بدأت بالفعل أيام الدكتور طه حسين فى نهاية الأربعينيات، وأذكر أننى ذهبت إليه ذات مرة بعد أن تطورت الدعوة لمجانية التعليم، وحدَّثته عن مقال فيه إشادة بالغة بشخصه وبشعاره "التعليم كالماء والهواء"، فقال لى: لا أدرى يا ثروت هل أخطأتُ أم أصبتُ بهذا الشعار، ولعل ما سمعناه أخيرًا من رسوب أكثر من أربعمائة شخص تَقَدَّموا لامتحان وزارة الخارجية فى المعلومات العامة وكذلك من تَقَدَّموا للإذاعة كان مستواهم فى المعلومات العامة يساوى أن يقول أحدهم إن توفيق الحكيم كان ممثلًا قديمًا!! وتلك هى آثار مجانية التعليم بعد أن تَقَدَّم بها الزمن!
• روايتكم "شىء من الخوف" البعض لا يزال يعتبرها دُرَّةَ أعمالكم.. ذلك لأنها كانت تمثل صرخة جريئة فى وجه عصر كان من الصعب أن يقول فيه الأديب كلمته ورأيه صراحة، ولعل ما أوجزه "د. زكى نجيب محمود" عن هذا العصر إنما كان يحمل دلالة الصدق حين ردَد: كنت أكتب والشرطى فى صدرى، فما هى ذكرياتكم عن هذه الرواية؟ وما هى الأصداء التى حقَّقتها؟
بداية كان شعورى بأننى قد هاجمت الناصرية فى عنفوانها، وبعد أن انتهت كان شعورى هو شعور من أدَّى واجبه قولًا وفعلًا، أما ذلك الشعور الذى تملَّكنى وأنا أكتب رواية "شىء من الخوف" فهو الخوف من ألَّا تُنشر! فهذه الرواية ومعها "هارب من الأيام" يمثِّلان بالنسبة لى بصمتين سياسيتين قبل أن يكونا بصمتين أدبيتين، وأذكر أن شىء من الخوف عندما ظهرت تنبه الدكتور طه حسين لما أردتُ أن أبثه فيها، فأخبرنى أنه حين يلتفت أحد إلى ما فى الرواية فهناك ضرورة أن أؤكد لهم أننى لم أقصد ما فهموه.. وأقول كذلك: إذا كان طه حسين لم يفهم ذلك فكيف فهمتم أنتم هذا؟ ولذلك فأنا أعتبر أن هاتين الروايتين هما أقوى ما ظهر فى مواجهة ذلك النظام، دون التقليل من أية أعمال أخرى.
بتلك الكلمات الحية أكد الأديب الكبير ثروت أباظة تضامنه مع رفيق مشواره الروائى الطويل نجيب محفوظ، وبتلك الكلمات أيضًا نخلص إلى أن قبول الرأى الآخر واستيعابه فى أية قضية مهما تكن يُعَدُّ فضيلة كبرى فى الحياة الثَّقَافِيَّة والاجتماعية والسياسية أيضًا، وأن الأمم والشعوب لا تحقق طفرات فِكْرية فى حياتها إلا عندما تجتاز كل الحوائل التى تعوق مسيرتها نحو استكشاف الحقائق، ثم التعامل معها لا مع غيرها.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

د. ميلاد حنا.. ثَقَافَة الموزاييك.. أبجدية الوَعْى المُسْتَقْبَلِىّ

لعل المكتبة العربية لا تزال فى حاجة ماسّة ومُلِحَّة إلى الكتابات المُسْتَقْبَلِيَّة الجديدة التى تنير كثيرًا من الآفاق والدروب المختلفة فى هذه اللحظة الحضارية الحاسمة من تاريخ البشرية؛ ذلك لأن هذه الكتابات تتجه إلى معالجات شاملة ومستفيضة نحو تحليل الواقع الإنسانى العالمى بكل أبعاده وتغيراته، ولعل البانوراما الثَّقَافِيَّة والفِكْرية للدكتور ميلاد حنا لا تخرج عن طبيعة هذه الكتابات التى تحمل درجة عليا من الرأى والرؤية والأيديولوجيا والوَعْى الكونى، ففى كتابه "ما بعد عام 2000" انطلق د. ميلاد كعادته فى تناول ومناقشة وتَفْسِير العديد من القضايا الشائعة التى لا بُدَّ أن تشغف عقل كل مُثَقَّف يحيا هذا القرن ويتطلع إليه كقرن مغاير تمامًا لنبض ورُوح القرن العشرين، ولعل هذا الكتاب قد امتاز بأشياء مهمة، منها أن الدكتور ميلاد قد وضع يده على إحدى عِلَل حياتنا الثَّقَافِيَّة والاجتماعية؛ وهى ضرورة وجود قيم ومفاهيم مُعَاصِرَة يمكن أن نستلهم منها رُوح عصر جديد نحياه، دون أن يكون بيننا وبينه قيود وسدود من الصعب اجتيازها واختراقها، ويدخل أيضًا ضمن أهم هذه القيم الجديدة ضرورة التنوع كظاهرة كونية، والانتقال من القيم الذاتية إلى القيم الموضوعية، بل الانتقال أيضًا من ثَقَافَة التَّلْقِين -التى أكَّد كثيرٌ من المؤشرات ضمورَ مساحاتها على كل المستويات والأنحاء- إلى ثَقَافَة الحوار، التى ثبت أنها وسيلة حية للانتقاء والتقارب وتحجيم الفجوة الحضارية بين الأمم والشعوب.

وفى مقابل نَظَرِيَّة الصراع الحضارى للمُفَكِّر الأمريكى "هنتنجتون"، يُطلق ميلاد حنا مسمى "ثَقَافَة الموزاييك"، التى تعنى أول ما تعنى قبولَ الآخر واحتواءَه والتكيف معه، والتى تُعد من أهم الخصائص التى يجب الاعتماد عليها عند إرساء دعائم الفِكْر الحر، وبالتالى باتت مسألة عدم قبول الآخر على المستوى الثَّقَافِىّ والأيديولوجى والعقائدى والتكنولوجى تشكِل نوعًا من الأزمة الاجتماعية التى تشعَّبت جذورها وخيَّم ظلامها على الكثير من مفاهيم حياتنا، وتلك إحدى تجاربنا مع حصاد الفِكْر الأحادى الذى تعانى منه مجتمعاتنا الشرقية عامة، وبالتالى تعانى منه الصفوة المثقفة داخل هذه المجتمعات، ولا سبيل لنا إلى الخروج من دائرة الأحادية إلا حين نمتلك مقومات وآليات التصحيح الذاتى، أملًا فى تجديد فِكْرنا العربى والقومى بشكل عام.

• نَظَرِيَّة قبول الآخر هى قضية القضايا التى أخضعها د. ميلاد للتفكيك والتحليل والتَفْسِير باعْتِبَارها البؤرة الحيوية المُعَرْقِلَة لمسارات الحوار الحضارى والمؤكدة لحدوث ارتداد معرفى فى العقل المُعَاصِر... هل تعتقد أن هذه

القضية كانت بحاجة إلى بناء أيديولوجى أم أنها بحاجة فعلية إلى إبراز مخاطر غيابها فى ظل اصطدام مصالح كيانات المجتمع الإنسانى؟
رؤيتى هى أن المشاعر الإنسانية الجماعية هى أحد العوامل الرئيسية فى تحريك التاريخ، فقد يدفع الجوع شعبًا أو جماعة لغزو جماعة أخرى لديها خير وفير، وقد تنشأ حروب لأن المشاعر الجماعية للمنتمين لدينٍ أو مذهب تتصاعد وتنمو حاملةً الكراهية والبغض، فيشنون حربًا أو هجومًا خاطفًا، وقد يستمر لقرون وفق ما لديهم من إمكانات، فيكون المحرك الأول هو الكراهية الجماعية للآخر.
إن نَظَرِيَّة قبول الآخر -على الرغم من قُربها من الفطرة الإنسانية- لا تُمارس فى الحياة؛ بسبب أن المجتمع الإنسانى له انتماءات تتراكم لكل فرد - فى محيطه - بسبل شتى، وتؤدِّى هذه الانتماءات فى ظروف معينة لأن تكون مصدر كراهية الآخر أو رفضه بدلًا من قبوله، وقد تمتد الكراهية إلى الرفض ومحاولة النفى، وهنا يكون المناخ النفسى الجماعى مواتيًا لحرب أهلية، وما أكثرها!! ومن ثَمَّ نشأت التوجهات العالمية لمنع نشوء الصراعات الساخنة عن طريق نشر فِكْر وثَقَافَة قبول وفهم الآخر للمُعَايَشَة كبديل للحرب.
إن هذه الصراعات -فى الأغلب الأعم- هى نتيجة لمشاعر إنسانية عميقة الجذور، قد تعود لقرون تراكمت لدى مجموعات بشرية تحمل غالبًا صبغة فِكْرية وثَقَافِيَّة، فإذا استطعنا أن ننشر فِكْر وثَقَافَة "قبول الآخر" بينها، فإننا نكون قد قطعنا شوطًا من الطريق.
غير أن ثَقَافَة "قبول الآخر" سلاح ذو حدين، فإذا كان هدفنا هو إقناع الشعوب المقهورة بهذه الثَّقَافَة دون أن تقتنع شعوب)ثم حكومات(الدول القاهرة، فإننا نكون بهذه الثَّقَافَة قد ساعدنا القاهر على حساب المقهور، فثَقَافَة "قبول الآخر" فى مجملها هى محاولة لصياغة عقلية وجدانية ينبغى أن تسود دول العالم الأول قبل دول العالم الثالث، فالمفترض أن دول أوروبا وأمريكا أكثر ثَقَافَة وديمقراطية، ومع بدء هذه العملية ومع الزمن وتراكم الفِكْر الأرقى لقبول الآخر، يتكون رأى عام عالمى يتفهم حقوق الشعوب والمجموعات البشرية المناضلة من أجل استقلال أو كسب حقوق متساوية فى وطنها، أو الاعتراف بحق كل المنتمين لأقليات عرقية أو دينية أو مذهبية أو عقائدية فى أن يتمتعوا بحقوق متكافئة وفق نصوص ومواثيق الدول ذاتها، حسب ما جاء فى ميثاق حقوق الأقليات الذى تمَّ التصديق عليه من قِبَلِ الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ديسمبر عام 1991.
إن كل أملنا هو أن يقصر المدى الزمنى الذى ستعانى فيه البشرية من هذه الصراعات الدموية التى يزداد عددها ومداها عامًا بعد عام، فضلًا عن أن نشرَ ثَقَافَة "قبول الآخر" قد يكون المصل الواقى الذى يعالج بعض الحالات الحرجة، حيث توجد معاناة بين مجموعات بشرية، ولكنها معاناة "مكبوتة" لم تنفجر بعدِ، فتكونِ ثَقَافَة "قبول الآخر" عاملًا أساسيًّا فى منع قيام الصراعات

الدموية أصلًا، وكأنها إجراء "وقائى"، كما قد تتحوَّل ثَقَافَة "قبول الآخر" إلى أسلوب "للعلاج"، وكأنها نوع من الدواء أو البلسم عقب إيقاف الحرب بشكل أو بآخر.
وإن قضية "قبول الآخر" سوف تتعرض بين الحين والآخر لتفاصيل الانتماء الدينى، لأن قبول الآخر فى مجال الدين أصعب منه فى مجال قبول الآخر بين الأسر المتجاورة أو القبائل المتناحرة، بل حتى بين القوميات والسلالات المختلفة التى يجمعها وطن واحد، ذلك أن الصراعات غير الدينية قد تذوب مع الرُّقِىّ وثَوْرَة المعلومات والاتصالات وارتفاع المستوى الثَّقَافِىّ.
وتكون نقطة البداية غالبًا هى لقاء الآخر ثم الحوار معه، ويتحول الحوار إلى فهم قبل أن تتحول المشاعر الإنسانية إلى "قبول"، وقد يمتد الأمر فتتحول المشاعر إلى وفاق وتعاون لاكتشاف الأرضية المشتركة لانتماءاتٍ أرقى، مثل حقوق الإنسان والديمقراطية والبيئة وحب الفن والرياضة وما أشبه، لكن الصراع الدينى، وبعض الصراعات العرقية، تحتاج إلى مدى طويل وجهود شاقة.
• المكون التاريخى للشخصية المصرية يتمثل فى العديد من الانتماءات التى أبرزها د. حنا، هل يوجد تناقُض بين تلك الانتماءات أم أنه ثراء التعددية التى تمنح الأصالة والتفرد؟
بالضرورة لا يوجد تناقض، وإنما احتضنت مصر تنويعات تاريخية وحضارية حققت بها من التواصل والتناغم ما يمثل نموذجًا رائدًا فى مرَجْعِيَّة الهويات، فلقد أقامت جسرًا مشتركًا للأديان والحضارات والفلسفات والقوميات، وأفرزت خلالها نسيجًا ثقافيًّا مُسْتَقْبَلِيًّا يمكن أن يعمل على تحجيم مساحات التَّنَافُر والصراع، والمتأمل فى دعائم ومقومات هذه الشخصية المصرية يجد نوعًا من الانسيابية والمرونة؛ فمن الانتماء إلى الحضارة الفرعونية -كأول حضارة مكتوبة عرفها التاريخ- إلى انتمائها للحضارة اليونانية والرومانية، واستيعاب معدلات التأثير والتأثر، انتقالًا للانتماء القبطى المتمثِّل فى وجود المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية، إلى جانب صياغة قانون الإيمان المسيحى، ثم كانت النقلة لدورة حضارية جديدة تجلَّت فى انتمائها الإسلامى، ثم ما كان من الانتماء العربى وحضارات البحر المتوسط، وختامًا كان انتماؤها الإفريقى.
ومن كل ذلك تستطيع أن تستكشف عمق الصلابة والأصالة التاريخية التى بدأت بالتعددية الرُّوحِيَّة والتعايش الثَّقَافِىّ، وانتقلت إلى رسالة الحداثة.
• د. ميلاد حنا... هل نحن فى حاجة إلى ثَوْرَة إنتاج أم لثَوْرَة خدمات أم لثَوْرَة مفاهيم؟
حقيقة أنا ضد مصطلح الثَّوْرَة؛ لأننى ضد التغيير المفاجئ، وقد جرَّبنا هذا التغيير المفاجئ ولم ينفع، وبالتالى علينا أن نصلح المفاهيم؛ لكى يكون الانتقال تدريجيًّا فى كل شىء. انتقال بخطة واضحة لزيادة الإنتاج، وزيادة الإنتاج تأتى من زيادة المعرفة، وزيادة المعرفة تأتى بعد تحديث المفاهيم،

وبالتالي فهى مجموعة توجهات لا بُدَّ أن نسير فيها. لا بُدَّ أن نعزف لحنًا مشتركًا، سيمفونية متكاملة هى فى تقديرى النغمة الصحيحة.
• قلتم إن المصرى المُعَاصِر لا يحب أن يقف عند استلهام التُّرَاث والتاريخ والحضارات القديمة... ترى ماذا يقف المصرى عنده فى ظل ما تحدثتم عنه من الأعمدة السبعة للشخصية المصرية؟
قبل أى شىء فأنا معتزٌّ جدًّا بمصريتى، ولعل ذلك هو ما جعلنى أكتب عن الشخصية المصرية التى ستظل ملهمة للمُفَكِّرِين والمبدعين والكتاب على مرِّ العصور، ولهذا السبب جاءتنى الفِكْرَة فى أن المصرى توليفة متكاملة؛ إذ إنه متأثر بالتاريخ والجغرافيا، تراكمت لديه الحضارات الأربعة الشهيرة الفرعونية واليونانية الرومانية ثم القبطية المسيحية ثم الإسلامية، وبحكم الموقع والجغرافيا فمصر عربية، ثم مصر بحر أوسطية، ثم هى أفريقية، وإن كنت قد لاحظتُ فى الفترة الأخيرة أننا نعيش على الماضى، والتُّرَاث، نعيش على أننا أبناء الفراعنة وعلى أننا أول من نشر المسيحية والإسلام فى العالم أن الإنسان الواعى بعصره والمدرِك لمقدراته يجب أن يستلهم الماضى بقدر ما يبنى المُسْتَقْبَل ويرسمه، أما أن يستلهم الماضى لكى يعيش فيه فسوف يتخلَّف كثيرًا، لا بُدَّ أن ندرك أننا نعيش عصر التَّقَدُّم العلمى والتكنولوجى وليس عصر الشعر والعواطف والرومانسية، فإذا أتقنَّا لغة العصر، وعرفنا آلياته وأدواته، فقد قدَّمنا وساهمنا فى حضارته، وإذا توقفنا عند الماضى، فستتسع الهوة بيننا وبين الآخرين؛ إذ إن ربط المشروع الحضارى بالمشروع العالمى ومواكبته ضرورة عصرية.
إن المشروع الحضارى فى هذه الآونة أسمِّيه "البحث عن الهوية"، ومصر فى الوقت الحالى واقعة بين "شِقَّى الرحى"، وأقصد المشروع الحضارى الإسلامى والمشروع الحضارى الغربى، وأقول إنه إذا كانت مصر قد ساهمت مساهمة هائلة فى حضارة الإسلام، فالمشروع الغربى ليس بعيدًا عنها؛ لأنها دولة بحر أوسطية، ولكن أرى أن المخرج من هذا الصراع العالمى الذى يحتدم كل يوم هو البحث عن النموذج المصرى فى جملته، فهو شعب متديِّن ويقبل التعددية الدينية، ولهذا السبب عاش الإسلام والمسيحية جنبًا إلى جنب لقرون طويلة، ولكنه فى ذات الوقت يستشرف المُسْتَقْبَل، وهذه أيضًا إحدى سمات هذا النموذج المصرى، وسأظل أكتب وأردد أن هذا النموذج المصرى لم تُلْقَ عليه الأضواء بقدر كافٍ بين المُفَكِّرِين والباحثين بما يبرز ملامح هذا النموذج، حسمًا للصراع بين الغرب والإسلام.
إن سمة العالم فى العصر الحديث هى قبول مبدأ الاختلاف؛ فقد جاءت الأديان السماوية وكلها عاشت، ولم يَقْضِ دِينٌ على آخر، بل حتى فى العصور الحديثة، جاءت أيديولوجيات مختلفة، ولم تَقْضِ أيديولوجية على أخرى، ولهذا السبب فإن سمة أو شعار القرن القادم هو قبول مبدأ الاختلاف؛ لأنه لا أحد يملك الحكمة وحده، فدَعْ جميع أنماط الفِكر تتحاور فى مودة، فإن ذلك هو

سرُّ تَقَدُّم البشرية والإنسان، وعلى ذلك فأحد دعائم وأركان المشروع الحضارى المصرى هو قبول مبدأ الحوار والبُعد عن العنف، فالحوار هو سبيل التَّقَدُّم والعلم أيضًا.

• د. ميلاد حنا... كيف ترى الحوار الإسلامى المسيحى بصفة عامة وعناصر الشد والجذب فى الفترة الحالية والمُسْتَقْبَلِيَّة؟

الحوار الإسلامى المسيحى يتمُّ على مستويين؛ الأول فى أوروبا بين الكنيسة الكاثوليكية والتيارات الدينية فى العالم العربى، مثل الأزهر والمملكة العربية السعودية، وهذا أمر يتعلق بسياسات دولة، ولا علاقة له بالشعب المصرى، لكن الحوار القبطى الإسلامى فى مصر هو حوار قديم عمره ثلاثة عشر قرنًا، وهو متواصل شعبيًّا وإنسانيًّا دون صعوبة، وأود أن أشير تحديدًا إلى حوارين أخيرين؛ كنت فى مقدمة لجنة السلام الاجتماعى التى شُكِّلَتْ بقرار وزير الأوقاف، والتى جاءت معبِّرة عن قلق الجهات الرسمية مما يجرى من أحداث، أما الحوار الثانى فكان مع المرشد العام وقيادات جماعة الإخوان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نادين جورديمر.. نعيش عصر الجنون المنظّم

نادين جورديمر.. كاتبة جنوب أفريقيا صاحبة النضال الفِكْرِىّ ضد العنصرية البغيضة، صديقة "مانديلا" رمز النضال الإنسانى فى القرن العشرين. سجَّلت بصمة عريضة فى عالم الأدب بروايتها الشهيرة)شعب يوليو(، التى احتشد لها النقاد فدخلت بها دائرة الضوء، لكن ذات يوم أخطأت جائزة نوبل حين حادت عن مسارها العشوائى وارتبطت بمسار منطقى يحقِّق طموحات أصحاب المواهب الفذة، فباتت "نادين" ضمن كتاب وكاتبات نوبل، بعد شوط يتجاوز الوصف من المعاناة وانتصار الذات بقوة الإرادة والإيمان بقضية عادلة لتوكيدها والدفاع عنها وتسييدها فى العقول.

انطلق مشروعها الروائى من قناعات ثابتة، كان أبرزها أننا جميعًا -نحن البشر- نخوض بأقدامنا فى الوَحْل، لكن بعضنا يتطلع دائمًا نحو النجوم، هكذا كانت عبارة "أوسكار وايلد" ميثاقًا إنسانيًّا يعتمده كل من تعلَقت نفسه وعقله بمعانى السمو والارتقاء والحضارة، ومن أولئك كانت تلك العجوز الحدباء "نادين جورديمر".

• جائزة نوبل.. حلم العلماء والأدباء والساسة.. أى إضافة تستشعرها "نادين جورديمر" فى ظل بريق هذا الحلم ككاتبة متميزة؟

لا شك أن جائزة نوبل أضافت إلىَّ الكثير، بل إننى لا أتجاوز إن قلت إنها غيَّرت حياتى كلها وجعلت منى شخصية عامة تطرح وتناقش قضايا فِكْرها أينما ذهبت، وعلى ذلك فقد أصبحت قضايا وَطَنِى جنوب أفريقيا مطروحة على الساحة الدولية بشكل جديد ومباشر، ذلك حين أُدعى إلى المؤتمرات واللقاءات والمحافل ذات الأهمية.

أنا أستشعر من سؤالك تصريحًا خفيًّا بأننى كنت أكتب من أجل الجائزة، وهذا غير حقيقى؛ لأن هذه الجائزة بالذات وسيلة لمزيد من الإبداع، وليست غاية يتوقف عندها الإبداع.

• ترى ما هى الدوافع الظاهرة والخفية التى تحرِّك كاتبة نوبل نحو الكتابة؟

أفكار، مواقف، أشخاص، أعبِّر عن أىٍّ منها، حيث أحس أن هناك طرحًا جديدًا فى رؤيتى للحياة، وحين أمارس الإبداع أقوم بعملية تستغرق كل حواسى الوجدانية والعقلية والحسية، بمعنى أنه عند لحظة الإبداع ينشط الإنسان داخلى، ويكون توظيف الخيال من أجل الصدق الفنى.

• كيف أصبحت قضية التفرقة العنصرية هى القضية المحورية التى تمثَّلتها نادين جورديمر فى أغلب أعمالها الروائية؟

أكبر الظن أن هناك أسبابًا طريفة لذلك.. أسبابًا تركت بصماتها على ذاكرتى، فحتى الآن لم أنسَ مجىء البوليس للبحث عن مربيتى السوداء واتِّهَامها بتناول مشروبات كحولية كانت ممنوعة على الزنوج.

والمشهد الثانى كان فى المكتبة العامة التى لم يكن مسموحًا للسود بارتيادها رغم أهمية هذه المكتبة، من حيث أثرها الواضح على كل من يدخلها؛ فقد رأيت إحدى السيدات تُمنع بالقوة من الدخول، لا لشىء إلا لأنها سوداء، فكيف لا تصبح التفرقة العنصرية هى قضيتى الأولى بعد كل ما رأيته من الممارسات اللا إنسانية.
أما المشهد الثالث فهو وجود الكاتبة الأمريكية "هاربيت بيتشر ستو" فى البيت الأبيض بجانب الرئيس الأمريكى "إبراهام لنكولن" أثناء اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية، إذ قال لها مُمَازِحًا: هذه السيدة الصغيرة هى المسئولة عن تلك الحرب الكبيرة، فى إشارة إلى الأثر العظيم الذى أحدثتْه رواية "كوخ العم توم" فى تشكيل وَعْى شعبى رافض للعبودية.
• فى رؤية "نادين جورديمر".. ما هو الحل الجذرى لظاهرة العنف والصراع بين السود فى ظل العديد من المشكلات المتفاقمة فى هذه الآونة؟
الحل الديمقراطى هو الحل الوحيد؛ لأنه سيمنع استغلال السُّلْطَة من قبل الجميع ويحترم حقوق كل فرد وكل فئة سياسيًّا وثقافيًّا ودينيًّا، فحكومة وحدة وطنية تضم كل الأحزاب ستمنح الناس شعورًا قويًّا بالثقة، ليس فقط فى حكومة مركزية قوية، وإنما فى حكومات محلية قوية أيضًا، وبالتالى تكون كل المجموعات العرقية ممثلة فى العملية الديمقراطية؛ لأنه دون ديمقراطية لن يكون هناك نمو اقتصادى، وسيهرب المستثمرون من بلد مُسْتَقْبَله السياسى يكاد يكون غامضًا، بينما النمر الأفريقى الذى لا يقل عن نمور شرق آسيا فى حاجة إلى ساحة لرَكْضِهِ الاقتصادى، وفى حاجة إلى سوق عالمية عمومًا وسوق أفريقية متعطشة على حدوده لينطلق ويهدِّد النفوذ الغربى فى السوق الأفريقية.
• العلم والبانوراما السياسية العالمية.. هل ترى نادين أن التَّقَدُّم العلمى يسير فى اتجاه معكوس؛ بمعنى أن العلم أصبحت سلبياته تفوق إيجابياته فى أحيان كثيرة، وأنه قد تم استقطابه ليصبح عنصرًا مؤثرًا فى إعلاء طاقة الميكانيزم السياسى؟
نعم.. التَّقَدُّم العلمى والتكنولوجى يثير الآن تحديات واسعة النطاق وتتجاوز قدرة المجتمع الدولى الراهن على السيطرة، وقد نشأ ذلك من المفارقة بين القفزات التى تحققها البشرية فى قدرتها على السيطرة على نفسها وبيئتها، وتدهور قيمتها الاجتماعية وانهيار سيطرتها الذاتية، بل خوائها الرُوحِىّ وفقرها الثَّقَافِىّ.
وفى رأيى، إن الخواء الرُوحِىّ وانهيار القيم الاجتماعية -اللذين يمثلان الاتجاه الرئيسى للثَقَافَة الأمريكية- سيضعان حدًّا للتفوق الأمريكى، رغم عدم توافر البديل.. هل يملك الغرب رؤية أو مجموعة قيم أو أسلوب حياة يمكن أن تكون دليلًا ماديًّا لمُسْتَقْبَل البشرية؟

إن الديمقراطية التى تمثل المساهمة الرئيسية للغرب لا تَقَدَّم بنفسها الأجوبة ضمن معضلات الوجود الاجتماعى، ولا تملك مفهومًا للحياة الجديدة، ويعمِّق الأزمةَ ذلك التأثيرُ المعكوس للعلم الحديث على الوضع الإنسانى العالمى؛ ففى الأجزاء المُتَقَدِّمة من العالم يعزز العلم والتكنولوجيا فى شكل صارخ القدرةَ على تحصيل الملذات الفردية، وفى الأجزاء الأفقر من العالم ترهف وسائل الاتصال الحديثة الوَعْى بالظلم العالمى لدى الناس الذين يكافحون من أجل البقاء، وتتسع بسبب ذلك فجوة خطيرة فى الاهتمامات الأساسية تشق نسيج الألفة البشرية العامة.

إنه بلا أدنى شك قرنُ الجنون المنظَّم؛ فرغم أن البشرية قد دخلت هذا القرن برُوح التفاؤل والثقة التى تجاوز أى قرن سابق فى التاريخ، فقد قُتل خلاله أكثر من تسعين مليون إنسان! لكن هل تتعلم البشرية من التاريخ وعِبَرِه؟ وهل سيبدو المُسْتَقْبَل السياسى فى بداية القرن الحادى والعشرين أكثر رشدًا مقارنة بجنون هذا القرن العشرين؟

• الإسلام كعقيدة ما زال ينجذب إليه الكثير شرقًا وغربًا رغم القناعات السائدة فى الغرب عن تخلُّف العالم الإسلامى ورجعيته.. ماذا يعنى ذلك من وجهة نظرك؟

لا شك أن الإسلام من أعظم الديانات التى احتوت على الكثير من المبادئ الإنسانية الرفيعة والقواعد التشريعية الثابتة التى جعلت منه عقيدة تتفاعل مع كل لحظات الواقع، لكن ما يسوء كل ذلك هو استخدام هذا الدين لأغراض كثيرة بعيدة عن روحه كل البعد، وهنا يصير التدين كسلعة يمكن الترويج لها لتحقيق مكاسب هى فى ذاتها لا تساوى شيئًا، بينما الالتفات الحقيقى لجوهر هذا الدين من قِبَلِ الشرق أو الغرب يمكن أن يحقِّق قفزة نوعية فريدة غالبًا ما سيكون لها دور فى عصمة الإنسان فى هذا القرن من ويلات الحروب والدمار، كذلك عصمته من ويلات الابتزاز والاستلاب كلغة عالمية سائدة فى كل المجالات، سواء كانت سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو دينية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خوان غوتسيللو.. الإصلاح البراجماتى.. إجابة عن سؤال الديمقراطية

تثاقلت خطواته، تهاوت خواطره، تردد طويلًا بين حيرة المشاعر وصلابة الموقف... تساءل كثيرًا كيف تكون العودة وقد لفظَ واستنكرَ وطنَه عقودًا وعقودًا؟ كيف العودة وإسبانيا هى إسبانيا لم تتغير فى شىء من أفكارها ورؤيتها حين غابت عنها بوصلة الزمن؟ طرح على نفسه ذلك السؤال اللاشعورى... هل مقاطعة إسبانيا تساوى خيانة "سرفانتيس" الذى حظى بجائزته؟ أطاحت به الهواجس المريرة، لكن دفعته أشواقه وولاءاته لأبيه الروحى "سرفانتيس"، وفاء وأمانة وقناعة لا تزلزلها الأحداث أو تداهمها عاديات الزمن. ذهب للقائه أولًا وبعدها بدأ توجيه سهامه النارية إلى قلب أوروبا الجاحد، وأهدى جائزته -مكيدة- إلى أهل مراكش الذين حفلوا به طيلة سنوات وسنوات!!

كانت الثقافات هى واحته الخالدة التى يأنس إليها ويستلهم من خيوطها وتشابكاتها إيحاءات تاريخية وفيوضات ذاتية روحية، آمن إيمانًا مطلقًا بالتعدد الهُوِيَّاتِىّ، فكان دائمًا ما يردد)أكون إسبانيا فى كتالونيا، وفرنسيا فى إسبانيا، وإسبانيًّا فى فرنسا، ولاتينيًّا فى أمريكا، ونصرانيًّا فى المغرب، وعربيًّا فى كل الأزمنة!!(. ودائمًا ما عرفته الساحة الثقافية الدولية بكونه كاتبًا إشكاليًّا مثيرًا متفوقًا بخلفيته المعرفية التى لا ترفض مقدمات القضايا، بل تعمل على تجديد حيويتها، مستنبطًا مقدماتٍ أخرى يكتمل بها هيكل الحوارية، ثم ينطلق إلى فردوسه الإبداعى، ويعود إلى الأرض مزهوًّا برسالته الجديدة إلى عالم الفكر والأدب، آملًا أن يسير فى صفوف الخالدين.

• باعتبارك كاتبًا ثوريًّا تراقب أحداث الثورات وتترقب مساراتها ونتائجها وموقفها حاضرًا ومستقبلًا فى حركة التاريخ.. هل يُعَدُّ حضورك إلى مصر فى لحظة اندلاع ثورتها ضمن ممارسات آليات الفعل الفكرى التى تهواها؟

دائمًا ما كنت أتوق إلى لحظة الثورة هذه، وفى مصر تحديدًا؛ لتتخلص من نظام بائد فَقَدَ صوابَه وكَبَتَ شعبًا لا يستحق غير الحرية، وللحرية أثمان باهظة قد دفعها هذا الشعب كثيرًا، وآن له أن يتحرر من قيود الخيبة السياسية، لكن كانت سعادتى البالغة حين اعتبرتُ نفسى مشاركًا وسط الحشود الجماهيرية، ولو استطعت لردَّدت هتافهم الذى زلزل أركان النظام حتى توارى خلف الأفق.

إننى أحب أن أسجل شهادتى معك، وهى أننى قبل قيام هذه الثورة بنحو ثلاث سنوات كتبت فى جريدة)البايس(الإسبانية أن الأنظمة التسلطية العربية تجد سندها فى خوف زعمائها من تعبير شعوبهم عن استيائهم وإحباطهم بفعل التعارض الصارخ بين من يتمتعون بكل شىء ومن يفتقدون لأبسط الأشياء وبفعل انغلاق النظام وصلابته ونتيجة افتقاد النزعة الوطنية التى كانت وراء

الحركات الاستقلالية، وأمام لهو الأحزاب الفارغ أصبحت النزعة الإسلامية أفضل معبِّر عن مطالب التغيير، وأصبح الإصلاح البراجماتى هو السبيل للحدِّ من الانغلاق والظلم الذى يخيِّم على المجتمعات العربية.
ولكنى أقول إنه رغم كل التغييرات الباعثة على الأمل، التى حققتها ثورات الربيع العربى، فلا يزال الطريق طويلًا نحو الديمقراطية الحقة، ولعل الذين يعودون لأدبيات التراث العربى -وخاصة مقدمة ابن خلدون- يجدون ضالَّتهم فى تفسير هذه الثورات العربية؛ إذ إن ما حدث للعرب أثناء فترة ملوك الطوائف يدخل فى مقارنة بما يحدث للعرب الآن.
• أية حيثيات وأسباب يمكن أن تجعل الكاتب يتبرأ من وطنه ويطلق صيحته)أيتها البلاد الجاحدة البائسة القذرة لن أعود إليك أبدًا(.. وهل يمكن أن تتمتد الكراهية لتشيع فى الذات بسبب ممارسات نظام ديكتاتورى هو فى كل الأحوال زائل لا محالة؟ كيف استمرت الثوابت الشعورية والفكرية إزاء ما هو متغير بالضرورة؟
بالفعل إسبانيا هى الجرح الغائر الذى لا أمل فى أن يندمل ويصير ماضيًا قابلًا للنسيان، فلا أزال وسأظل أستحضر تفجير القنابل بجسد أمى إبان الحرب الأهلية الإسبانية، ومنذ ذلك الحين تحولت لطاقة معادية للجنرال فرانكو ونظامه، بل إننى قد بدأت فى انتقاد كل الأساطير المؤسِّسة للقومية الأسبانية، وانطلق النقد نحو إنكار التاريخ الإسبانى الرسمى للدور الفاعل للعرب والمسلمين فى صياغة الشخصية الحضارية لإسبانيا فى القرون الوسطى، وظللت أعتبر أن طرد الموريسكيين يُعَدُّ فصلًا أسود فى تاريخإأسبانيا. كما وجهت سهام النقد خلال روايتى)دون خوان(التى أثارت جدلًا فظيًّاع لسرد خرافات وأساطير التطرف العرقى الإسبانى، انطلاقًا إلى بؤرة اللغم، وتخيُّل غزو العرب لإسبانيا من جديد لينسفوا مجموعة القيم والتقاليد العتيقة التى أحياها فرانكو، وذلك ردًّا على الموقف التاريخى للكاردينال "ثيسنيروس" الذى أحرق المخطوطات العربية بعد أن استولى على غرناطة، وأتْبَعَ ذلك بحرق أصحابها، ونتيجة ذلك ظل الإسبان غارقين فى مستنقع الجهالات حتى بدايات القرن الثانى عشر، وبصفة عامة لدىَّ رؤية قديمة أكدت خلالها أن فهم تاريخ إسبانيا يمرُّ عبر فهم التاريخ والحضارة العربيتين، وإلا فمن أين يأتى عدم اهتمامنا بعالمٍ يقع على بُعْدِ أربعة عشر كيلومترًا من إسبانيا، عالمٍ تعايَش مع عالمنا عدة قرون ويُعَدُّ جزءًا مكملًا من مكتسباتنا الثقافية.
• للعالم العربى موقع خطير فى عقل "خوان غوتسيللو".. وتتمثل هذه الخطورة فى مدى الاندماج النفسى والروحى والذهنى مع ظرفه التاريخى بكل ما حمل من مفردات، ومع حضارته التليدة بكل ما أفاضت على البشرية من علوم وفنون ومعارف.. تُرى هل كانت منطلقات ذلك من عمق الضمير

الأخلاقى أم من نوازع الفتون بالهوية العربية أم كرد فعل للجَفْوَة أو للخصومة الوطنية مع بلدك الأم أسبانيا؟
أنا أحدِّثك عن أفكارى ومشاعرى ومواقفى تجاه هذا العالم -الذى سُئلت غير مرة من أين يأتى اهتمامك به-، ولك أن تميل لأى منهما بعد ما طرحتَه فى سؤالك، بداية إن الفضول الذى دفعنى فى ستينيات القرن الماضى نحو تيمة العرب كان أولًا وقبل كل شىء إنسانيًّا وليس ثقافيًّا، وذلك نظرًا لتعرُّض هذا العالم لحصار الحضارات على الصعيد الجغرافى، وتاريخيًّا حالة طرد وترحيل المورسيكيين أو ما يعانيه العرب على يد أنظمتهم المستبدة بالسياسة، أو جماعاتهم اللاهوتية المستبدة بالدين، من هنا فقد ظللت طويلًا فى قلب الأسئلة المفزعة التى تؤرِّق المجتمعات العربية، ويتقدمها بالطبع سؤال الديمقراطية، ومن هنا فقد ناصرتُ ثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسى فكرًا وممارسة؛ حين أخفيتُ المجاهدين الجزائريين فى شقتى بباريس، كما سخَّرت قلمى فى خدمة القضية الفلسطينية، وسافرت لأدعم ثورة الحجارة بصفتى رجلًا معنيًّا بالنضال الذى يخوضه شعب دفاعًا عن أرضه وذاكرته، ورفضت جائزة القذافى العالمية للآداب. كذلك كان دفاعى عن محورية الدور العربى الإسلامى فى تاريخ إسبانيا فى عهد "فرانكو" فى كتابى)وقائع إسلامية(، وأيضًا فى كتابى)ملوك الطوائف(بلورتُ دور الثقافة العربية الإسلامية فى تجربتى الأدبية التى بلغت مداها مع رواية)الأربعينية(، التى لُقِّبْتُ على أثرها بـ"دانتى الجديد"، وإننى أعترف بأن الثقافة الصوفية الشعبية والسرديات العربية القديمة قد برزت تجلياتها فى مشوارى الثقافى.
من ذلك أنبِّه دائمًا إلى أن أمثال ابن الفارض أو ابن عربى هم كُتَّاب أحياء لا يزالون قادرين على إلهام الكتاب المعاصرين، وأظن أن الشاعر "دانتى" لو تعرَّف على كتاب)الفتوحات المكية(ورؤيته الشاملة والمتفتحة حول الرحمة لكان التصور الأوروبى حول العالم الآخر قد تغيَّر تمامًا.
• تأثرتَ إلى حد بعيد بشخص الكاتب المزعج "جان جينيه"... تأثرتَ بفكره ومواقفه وفلسفته، لكن هل يمكن أن يكون الفتون بمثل أعلى قائدًا نحو استنساخ هذا المثل، من ثم يتمُّ تعطيل الإضافة والإثراء لمسيرة الثقافة؟
ليس استنساخًا كما تقول، وإنما هو بالفعل تواصل وتكامل، ثم إضافة تؤكد الاستقلالية والتفرد، لكن ذلك لا يمنع أن أؤكد أن "جينيه" هو صاحب التأثير الناضج الوحيد على المستوى الأخلاقى، فلقد علمنى أن أتخلص من غرورى ومن كل وصولية سياسية ومن رغبة الشهرة فى الحياة الأدبية؛ لأعكف على شىء هو أكثر جوهرية، وهو امتلاك تجربة أدبية خاصة، وتحقيق ذاتيتى، فلم يكن كل ذلك افتتانًا بـ"جينيه" قدر ما كان انجذابًا نحو تجربة مغايرة تتَّسم بالجرأة الإبداعية والأخلاقية المسكونة بالفضح والكشف عن الأعطاب التى تلحق بالإنسان فى زمن شرس. وعمومًا أعتبره رافدًا حيًّا فى تجربتى الكتابية؛ فلا أزال أتمثَّل نصوصه ومواقفه من قضايا الاستعمارِ والتضييق على

الحريات ومناهضة المؤسسات المُسْتَقْطِبَة، وسأظل متفاعلًا مع كل ما كان يدعو إليه فى ملحمة النقد، والتمرد، والثورة؛ لأنه كان فى البداية انعطافة كبرى فى مسيرتى، ومن النادر أن تجد مبدعًا كبيرًا له صيت عالمى يحتضن بهذا الوفاء مبدعًا آخر.

• يتعدد مفهوم المشروع الروائى بتعدُّد الأدباء شرقًا وغربًا.. فما هى تصوراتك عن هذا المشروع؟

فى رؤيتى أنه مغامرة حقة أن نقول ما لم يقلْه أحدٌ بعد، وأن نكتشف للغة إمكانات أخرى عبر مناطق لغوية جديدة، وأن تصبح كتابة رواية هى قفزة نحو المجهول، وأنه حين يستطيع الكاتب إجادة تقنية معينة أو يبلغ نهاية تجربة فعلية أن يهجرها بحثًا عن شىء آخر يجهله، وروايتى)الأربعينية(تحمل كل ملامح مشروعى الروائى، وهى تتأسس على مجموعة هائلة من الرحلات للعالم الأخروى، استطعت أن أحشد خلالها كل الأدب القيامى، بدءًا من لوحات "جيروم" وأبيات المعرى ومعراج ابن عربى، لكنى كنت أستهدف فى المقام الأول نقد التصور الانتقامى لجحيم "دانتى"؛ انحيازًا لمفهوم الرحمة الشاملة فى الثقافة العربية، وعمومًا فهذا المشروع فى كليته قد انحصر بين الفكر النقدى والنقد الأدبى.

• كثير من النقاد العالميين يعتبرونك بحق مثقفًا عضويًّا مشاركًا ملتحمًا متفاعلًا مهمومًا.. صاحب مسيرة نضالية مع الثقافة.. كيف ترى ذلك؟

أشكر كل من يمنحنى الثقة بكونى مثقفًا حقيقيًّا، فأنا بالفعل تصدَّيت لديكتاتورية "فرانكو" بجانب دفاعاتى عن تحرُّر الجزائر، ومساندتى للكفاح الفلسطينى، وموقفى من قضية الصحراء المغربية، ومؤازرة مُسْلِمِى الشيشان والبوسنة، ومقاومة العنصرية والاضطهاد فى أقطار الأرض، ومن دواعى اعتزازى أننى قد فضحت الأنا الأوروبية المنغلقة على أوهامها وأكاذيبها بروايات كانت أقوى كثيرًا من الخطابات السياسية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

آدونيس.. البحث عن الوَعْى البديل

أدونيس... ذلك المارد الذى يعرفه القاصى والدانى فى محيط الدائرة العربية العريضة وهوامش البقعة الغربية، لكن بأى صفة يُعرف إلا بكونه طاقة فِكْرية مذهلة لا تغادر صغيرة أو كبيرة إلا اقتحمتها وأخضعتها تحليلًا وتفتيتًا ومقارنة. يجوب أفق الفضاء الإنسانى فى إطلالة عابرة تكشف عن كُنْه الأشياء والظواهر والمفهومات ليقدِّم معادلته الذاتية التى تشف عن رُوح ثائرة مشبعة فياضة وعقل مناضل زاخر بالمعرفة يشق سراديب جديدة تدحر كافة الالتواءات والتعرجات التى تخترق الذات الثَّقَافِيَّة العربية، من ذلك كان شرسًا مع الأصوليات الفِكْرية.. لا تنهكه معاركها؛ لأنه يخوضها براية العصمة التى تنسف ذلك الوثن الذهنى الشامخ وتعصف بتلك التناقضية والازدواجية التى يحملها بعد أن باتت مكوِّنًا أصيلًا فيه، فبين هواية التساؤل وعشق الكلمة وصوفية الفِكْر وعلمية النَّظَرِيَّة وغواية الفن وإلهامات الشعر، كانت محاولة أدونيس من أهم المحاولات الرائدة فى التاريخ الثَّقَافِىّ العربى عبورًا نحو الحقيقة، لكن الحقيقة نسبية وانسيابية، بحيث تظل الفضيلة العليا هى البحث عنها وليس الإمساك بها، مهما تفاوتت مراتب السمو المعرفى، ولم يكن ذلك يمثِّل لديه مدعاة لليأس قدر ما زاده استبصارًا وتوهُّجًا وإقبالًا على صفحات الكتب والموسوعات، ليستقصى اللامكتوب واللامُفَكَّر فيه وليؤكد أن كنوز المعرفة تشق الضباب لأنها الحصانة المثلى التى تصمد لمتغيرات الأزمان.

• ثقافتنا العربية المُعَاصِرَة تَتَقَوْقَعُ فى بؤرة القطيعة المعرفية مع نفائس التُّرَاث وكذلك مع أحدث التيارات الفِكْرية التَّقَدُّمية فى الثَّقَافَة الغربية.. ما هو تشخيصك لهذه الوضعية الغرائبية؟

بداية لا بُدَّ أن نعترف بأن الثَّقَافَة العربية تتعرض لمأزق تاريخى وربما مُسْتَقْبَلِىّ؛ نظرًا لغياب مسار الأسئلة الكيانية واستحواذ المسار التقليدى. وما لم تنفصل عن هذا المسار فلن تستطيع أن تخوض جولات الإبداع والابتكار. فازدواجية المأزق تتمثل فى نبذ التُّرَاث وتجاهل إشعاعاته والقصور عن بلوغ الوقفة النقدية منه، وفى الآن ذاته لا ترانا نمتلك نوعًا من الإلمام بما تموج به الساحة الثَّقَافِيَّة الغربية، فرغم تحوُّل ولائنا نحو هذه الثَّقَافَة، فإننا لم نستطع أن نقتحم جوهرها ونستمسك بالأسس الموضوعية التى انطلقت منها.

والمتأمل فى حياة الإنسان العربى يجد فارقًا مروعًا بين النقلة الجذرية الحياتية ومستوى الثَّقَافَة والفِكْر، وفى رؤيتى أن مرَجْعِيَّة ذلك إنما تعود بالضرورة للتعايش السلبى مع الماضى وطغيان رقابة الوَعْى الدينى التى هى ضد الدين، إذ إنها تقلِّص أفق العالم الدينى وتحصره فى المحرم والمحلل، بينما هو ليس كذلك على الإطلاق. فضمن الآفات العقلية التى هى إحدى أبعاد المأزق الثَّقَافِىّ أن المال العربى هو مال معادٍ للثَقَافَة، من ثَمَّ لا علاقة له

بالبعد الحضارى، على عكس المال الأوروبى الذى أسس المتاحف والعديد من مراكز البحث العلمى والمعرفى.
• التُّرَاث كلمة تجرُّ وراءها قضايا وأفكار وأشخاص وتاريخ.. وما أكثر تداول هذه الكلمة فى المحيط العام والثَّقَافِىّ بشكل أخص.. فى رؤيتك هل يمثل استحضار التُّرَاث ميكانيزمًا نفسيًّا للذات العربية فى مواجهة التراجع والانسحاق البشع أمام الآخر؟
الساحة العربية منقسمة حول التُّرَاث كما تنقسم دومًا حول البداهات؛ ففريق فيها يتعامل معه باعْتِبَاره سبة أو نقيصة تاريخية؛ إذ يجسد الرَّجْعِيَّة ليس إلا باعْتِبَاره ماضيًا، والآخر يعتبره ذخرًا حضاريًّا يحمل رؤية تَقَدُّمية تتوازى مع ظلال المُسْتَقْبَل، ولعل أولئك وهؤلاء -على سبيل المثال- لا يعرفون أن كتاب النفرى "المخاطبات والمواقف" لو كان موجودًا فى فرنسا أو بريطانيا أو أى بلد أوروبى آخر لأحدث هذا النص لديهم ثَوْرَة كبرى فى الكتابة الشعرية، وكذلك تجهل الكثرة أن الشعر العربى هو أقدم شعر حديث أو أحدث شعر قديم فى كل التاريخ؛ فمنذ نحو ألفى عام ونحن نكتب باللغة ذاتها، وهذا لا وجود له فى كل شعوب العالم؛ إذ إن أحدث لغة فى العالم عمرها نحو سبعمائة عام.
وليس كل هذا غريبًا؛ فالعرب اليوم أقل البشر معرفة بالشعر وباللغة وبالتاريخ، فالأمريكيون والأوروبيون واليابانيون والروس أكثر معرفة بالشعر منهم، وإن موت الشعر عندهم هو موت اللغة العربية. بينما الطاقة الإبداعية الأولى عند العرب هى الطاقة الشعرية.
• الشعر هو الشرط الفردوسى للغة.. هكذا تحدث الشاعر الفرنسى "بول فاليرى".. فما هو الشعر عندك.. وكيف أدرت الجولة الكبرى مع ديوان الشعر العربى؟
الشعر هو الوحدة الوجدانية بين العابر التاريخى والأبدى الإنسانى، واللغة العربية هى لغة انبثاق وتفجُّر وليست لغة ترابط سببى، إنها لغة وميض وبصيرة، وهى امتداد إنسانى لسحر الطبيعة.
الجولة التى تتحدث عنها كانت خطيرة بالفعل، فقد أقمت منهجى فى مختارات الشعر العربى على اعْتِبَارات ثابتة؛ كان أولها القيمة الفنية الخالصة المنبثقة من جموح الموهبة المتجاوزة لحدود الزمان والمكان والمتخطية للاعْتِبَارات التاريخية والاجتماعية، دون أن يعنى ذلك نفيًا لأهميتها؛ لأن الشعر يكتسب قيمته من داخله ومن ثراء التجربة والتعبير وليس من كونه وثيقة تاريخية أو اجتماعية. إن دوافعى الأساسية فى خوض تلك الجولة العاصفة مع التُّرَاث الشعرى العربى لم تكن إلا لإعادة الاعْتِبَار إلى الشعر كفاعلية إبداعية أولى فى الحياة العربية. وبصفة عامة، لم أُرِدْ إلا إحداث انقلاب فى النظر إلى الشعر؛ إيمانًا بضرورة التحول وولادة قيم جديدة.

• أنت مشغوف دومًا بالحديث عن القضايا الوجودية.. هل مثَل ذلك دافعًا حيويًّا نحو النهوض لترجمة الملمحة الشعرية المسماة)التحولات(لـ"أوفيد"؟
قبل أى شىء هناك ترجمات عديدة لكتاب التحولات، لكنها كلها كانت محل وقفة منى؛ فالفرنسية تطغى عليها اللغة التقليدية، والألمانية تحقِّق نوعًا من التوازن بين اللغة الشعرية بجمالياتها والحرص على الدقة فى نقل المعنى. أما الإنجليزية فقد تحللت من أثقال كثيرة تتصل بالأسماء والأشخاص والأمكنة، أما الترجمة العربية فهى لا تتطابق مع نظرتى الخاصة إلى الشعر. وانطلاقًا من كل ذلك فقد قررت النهوض بالترجمة، لكن الغريب حقًّا أن هذه التباينات الكثيرة فى كل هذه الترجمات قد أفادتنى وبشكل ملحوظ فى بناء النص العربى، لكن قبل أى شىء بالفعل كنت منساقًا لترجمة هذا العمل لارتباطى بقضايا الوجود والمصير الإنسانى، فكتاب التحولات هو نوع من الكتابة الثابتة للأساطير اليونانية والرومانية، وقد أعاد "أوفيد" إحياء هذه الأساطير وأبطالها إلحاحًا على إبراز المضمون الإنسانى فى وصف دقيق للعواطف والأهواء والهواجس، وما ينبثق عنها من سلوك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كارمن رييرا.. تمنيت أن أكون شهرزاد

كغيرها من عُتَاةِ الفن الروائى، اقتربت الأديبة الإسبانية الشهيرة "كارمن رييرا" بأفكارها الجريئة الحرة المنسابة وإحساساتها الهادئة أحيانًا والثائرة دائمًا من معانى الخوف والفزع حين لا تُثير فيها سيمفونية الأشياء والأحداث ما يدفعها نحو التوجه الإبداعى والفِكْر المنطلق من جنبات عالمها صوب إيقاعات الواقع المُعَاصِر، فى محاولة دءوبة للارتقاء به، خلال صياغة جديدة لكل مفرداته بما يجسد أحلام الأدباء الكبار، لكن فى ظل وجود اختلافات وتحولات جذرية فى حركة هذا الواقع، وفى حركة التاريخ أيضًا. ترى ماذا قالت "كارمن" فى زيارتها الخاطفة لمصر، وفى إطار احتفالية المركز الثَّقَافِىّ الإسبانى بظهور روايتها الأخيرة)السماء وما وراءها(؟

• فى إسبانيا تحظى "كارمن رييرا" بشهرة عريضة.. شهرة مؤسَسة على قيم عليا اكتنزتها فى شخصها وفى كل جوانب مشروعها الأدبى والفِكْرِىّ، لكنى أريدك أن تطرحى ذلك على القارئ العربى؟

بدأت رحلتى الكتابية -سواء الأكاديمية أو الثَّقَافِيَّة- منذ أكثر من ربع قرن، قدَّمت خلالها العديد من الدراسات النقدية والأدبية بأدوات ومنظورات جديدة، وتخصصت فى دراسات فقه اللغة الإسبانية، أصدرت كمًا هائلًا من الروايات والقصص القصيرة التى أعتقد أنها كانت على مستوى من الثراء والخصوبة يتفق مع ثراء وخصوبة التيارات الثَّقَافِيَّة والأدبية المُعَاصِرَة فى أنحاء العالم، وأعتبر أن ذلك يتمثل فيما كتبتُ من روايات، وهى: "وقت الانتظار" و"فى آخر البحر" و)أتركك ياحبيبى فى رعاية البحر(و)السماء وما وراءها(، وبصفة عامة أهتم بالأدب الذى أستطيع أن أعبِّر خلاله عن الكثير من القيم المعنوية الغائبة عن عالمنا المُعَاصِر فى إطار طغيان التيارات المادية؛ تحقيقًا للتواصل الإيجابى مع القارئ، وتحقيقًا لدور المُثَقَّف فى إبراز ما ينقص الساحة الثَّقَافِيَّة.

• العمل الأدبى.. تتعدد المنظورات إليه باختلاف الأدباء.. بل إنها تتعدَّد لدى الأديب نفسه فى ظل الأطوار العمرية المختلفة، لكن ماذا يمثِّل بالنسبة لك؟

العمل الأدبى يمثِّل لى محاولة جادة نحو تنظيم العالم وتغييره وخلق عالم بديل، من خلال الكلمات والأفكار، وكم تمنيت طويلًا أن أكون "شهرزاد" التى حاولت مرارًا تأجيل وفاتها حتى تقول كلماتها الأخيرة، وأنا كذلك أتمنى أن يمتد بى الزمن ولا يدركنى الموت إلا يوم أن أستشعر العجز عن الكتابة وتوصيل الكلمة، أما مشروعى الذى أباشره فهو يتناول قضية تأثر الهويات القومية، وأعتقد أنه مهم إلى حد كبير، خصوصًا فى لحظات التَّأَزُّم الدولى المُعَاصِر.

• ونحن نقترب من نهايات قرن يتطاول على قرون التاريخ.. هل من قضية مركزية تشغل الأدب الإسبانى المُعَاصِر؟

الحقيقة أنه ليس هناك قضية محددة؛ لأن هناك تيارات متعددة، بعضها يأتى من قلب أوروبا والبعض الآخر من الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن بصفة عامة ليست هناك قضايا إسبانية بشكل محدد؛ إذ إن العولمة أحدثت نوعًا من التداخل والتشابك بين العديد من العناصر الأجنبية، وأصبح الجانب المهم فيها بالنسبة للكتاب هو الجانب التجارى المحقِّق لأعلى نسبة مبيعات، حتى لو كانت على حساب مستوى الأداء فى العمل الفنى.

• أشارت أحد الاستطلاعات الدولية مؤخرًا إلى أن رواية "دون كيشوت" هى أعظم رواية فى التاريخ الإنسانى... فهل تعتبرينها هى المثل الأعلى للرواية بغَضِّ النظر عن هيبة هذه الاستطلاعات؟

بدون تردد ما زال "سرفانتيس" هو المثل الأعلى لأى بانوراما فِكْرية أو ملحمة روائية، ونحن ككتاب إسبان نطمح دائمًا نحو تقليده؛ فقد كان بجانب الحوار وليس السلاح، وقد أكدت كل المؤشرات والتجارب أن استعمال السلاح هو أصدق دليل على الفشل.

• أى القضايا قد استحوذت على مساحة خاصة فى أعمالك؟

أهتمُّ كثيرًا بتحليل وتَفْسِير طبيعة العلاقات الإنسانية فى أبعادها المختلفة، وقد جاءت أعمالى الروائية فى معظمها ترجمة حية لذلك، وبطرائق وأساليب متعددة؛ فمثلًا فى الرواية التاريخية أركز فيها على نوعية العلاقات السائدة باعْتِبَارها كانت ممثلة للتاريخ الاجتماعى لتلك الفترة.

• وماذا تقولين عن هيكل العلاقات الإنسانية المُعَاصِرَة التى تشهد تفسُّخًا شديدًا سوف يؤدى بها إلى انهيار مؤكد؟

هى فى مجملها علاقات سيئة وغير متوازنة جاءت نتيجة لفشل الكلمة، وكذلك فشل معانى الحب والاندماج والتوحد والتآلف، فنحن نعيش فى الغرب نبحث عن مدى حاجاتنا إلى السلاح أكثر من بحثنا عن احترام الكلمة أو المبدأ أو القيمة، وكذلك فشلنا فى تصوُّر الآخر وفهم أفكاره وردود أفعاله، وهو ما لا بُدَّ أن نجنب أطفالنا إياه منذ الصغر، فعالم اليوم وما يشهده من تفاوتات صارخة بين دول غنية ودول فقيرة يجعلنا نؤكد بالضرورة أنه على الولايات المتحدة الأمريكية أن تترك التفكير فى ذاتها قليلًا وأن تنظر إلى العالم نظرة بعيدة عن أى ترفع واستعلاء، وبعيدة أيضًا عن جنون القوة وطيش السُّلْطَة، ويكفى أن نمثل لذلك بدولة كالمكسيك التى تقع على حدود الولايات المتحدة، ومدى الفقر الذى تعيشه هذه الدولة.

وعلى ذلك، فدائمًا ما أنادى بإذابة الحواجز بين الشعوب، وضرورة فهم الآخر والبعد عن التطرف، واعْتِبَار أن أمريكا ليست وحدها خريطة العالم، وعليها أن تؤجل التفكير فى ذاتها.

• ترى ما السبب الحقيقى فى تغيير منظومة العلاقات فى إطار هذه اللحظة الحضارية؟

• جانب كبير من المسئولية تجاه ذلك يقع على عاتق الغرب المتمتع بالتَّقَدُّم العلمى وإنتاج التكنولوجيا الرفيعة واستمرارية السِيَادَة الثَّقَافِيَّة وكل ذلك يجب أن يضطره بالضرورة إلى أن يكون أكثر مرونة نحو فهم الشرق ومساعدته وكيفية التعامل معه، ويعكس ذلك ما نراه واضحًا فى فارق الدخل بين الغرب والشرق، وكذلك لا يمكن تصوُّر أن يعيش الشعب الفلسطينى أكثر من ثلاثة وخمسين عامًا فى معسكر اعتقال ولا يكون ذلك مبررًا منطقيًّا نحو العنف الموجود.

• أتساءل عن موقع المرأة فى مشروعك الروائى؟

اتُّهِمْتُ كثيرًا بانحيازى للمرأة، وأننى غير قادرة على تركيب شخصيتها ورسمها بصورة أفضل من الرجل، لكن وبصفة عامة أعتبر نفسى امرأة تدافع عن حقوق المرأة وكرامتها، ولستُ كاتبة مجنَّدة للدفاع عن حقوقها؛ لأننى أودُ دائمًا أن أكون كاتبة حرة تهتم بالمرأة.. نعم.. لكن من منطلق ما يؤثر سلبًا على وضعيتها فى العالم؛ إذ إن أعلى نسبة للفقر والأمية توجد بين المرأة، من هنا، فالمرأة غير مستهدفة بالنسبة لى فى أن تكون بطلة لأعمالى الروائية على الإطلاق، وإنما هى مسألة المعيار فيها أو العامل الأساسى هو المزاج الأدبى والفلسفة التى يرمى إليها العمل، وطبيعة التقنية الروائية وظروفها.

• منذ أكثر من خمسة عشر عامًا أهدانى الروائى الإسبانى الكبير "مارسيللينو بجييس" ترجمته الرائعة لرواية)بداية ونهاية"(... هل قرأتْ "كارمن" شيئًا من أعمال نجيب محفوظ باعْتِبَاره رمزًا للرواية العربية؟

نعم قرأتُ له بعض أعماله، وأعتبره من طليعة كُتَّاب العربية، ولقد تُرجمت أعماله فى معظم اللغات ولا تزال تحظى بإقبال جماهيرى على المستوى الدولى، وكم وددت لقاءه أثناء زيارتى هذه لمصر، إلا أننى أعرف جيدًا أن لقاءاته الآن استثنائية.

• العولمة كمفهوم يغزو العقل المُعَاصِر.. ماذا تعنى بالنسبة لك؟

للعولمة مساحة من الإيجابيات تتمثل فى الوجود الفاعل للثَوْرَة المعلوماتية والمعرفية، ولكنها على مستوى آخر تشكِّل تهديدًا مباشرًا للهويات القومية، وإن كان ذلك لا يعنى بالضرورة رفض تكنولوجيا المعرفة. وأعتقد أن الحركات المتوالية ضد العولمة استطاعت أن تقيِّدَ مسيرتها ولو قليلًا، وأن الاحتجاج المدنى هو أفضل وسيلة لمواجهتها، ويحب أن يأخذ اتجاهين؛ الأول هو مساعدة الدول الفقيرة نحو تجاوزها أزمتها، والآخر هو الدفاع عن الأرض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

فالتر جروند.. صدام الحضارات أخطر النَّظَرِيَّات التآمريَّة فى التاريخ

الأديب والكاتب والمســـــــتشرق النمساوى الكبير "فالتر جروند" يمثِّل ظاهرة ثَقَافِيَّة متفردة فى الساحة الدولية استطاعت أن تقتحم -وبجسارة- عالم الفِكْر، محلِّقة برؤى ومنظورات نحو قضايا العولمة وصراع الحضارات ومسارات الإبداع الإنسانى وحرية الأديان -خاصة الإسلام- فى أوروبا وإنشاء جمهورية للكتاب عبر شبكات الإنترنت.

له الكثير من الأعمال الكتابية والروائية، ونراه عاشقًا لمصر بتاريخها وعمقها الحضارى ومسيرتها المُعَاصِرَة. ولعلها صدفة عبقرية كانت وراء هذا اللقاء الحميم؛ إذ مر بمصر على عَجَلٍ فى إطار رحلته حول الشرق الأوسط والشرق الأقصى؛ هروبًا وفرارًا من همومه وشواغله الفِكْرية، وبعثًا لرُوح جديدة يمكن أن يتواصل بها مع مشروعه الإبداعى.. نعم لم يمتدَّ الحوار معه ليغطى كل ما دار برأسى، لكنه جاء ممتدًا بعمق وكثافة معانيه وانسياب أفكاره وإطلاقه لبعض السهام فى قلب أوروبا وأمريكا معًا!!

• أثارت نَظَرِيَّة صِدام الحضارات لـ"هنتنجتون" كثيرًا من الهواجس والمخاوف والتقلبات الفِكْرية لدى نُخَبِ وشعوب العالم الاسلامى بشكل أخص... هل تعتقد بحق أنها تدخل ضمن النَّظَرِيَّات التآمرية من التاريخ؟

دون شك تنتمى نَظَرِيَّة صدام الحضارات إلى النَّظَرِيَّات التآمرية فى التاريخ، فبعد عام 1945 بدأت السياسة والفِكْر الأوروبى فى الدخول لمرحلة جديدة هى مرحلة الصراع مع العدو فى شكل ثنائى: الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية والكتلة الغربية، فأصبح الصراع على مستوى السطح، وكان كل التركيز هو كيف تستطيع أن تقيم هذه الفِكْرَة أو تجد لها السند فى إطار هذه الثنائية القطبية، لكن عندما انقرض الاتحاد السوفيتى بدأت المشكلة تظهر لأوروبا، وبرز فى أمريكا عالم اجتماع يدعى "فوكوياما" هو الذى قال بانهيار الاتحاد السوفيتى فى كتابه)نهاية التاريخ والإنسان الأخير(، والذى أخذ يركز فيه على هذه الفِكْرَة، إلا أنه لم يجد له كبير صدى، مما أعطى فرصة كبيرة لكتاب صراع الحضارات أن ينتشر ويحقق أعلى نسبة مبيعات فى العالم، خاصة أن السياسيين التقليديين فى أوروبا كانوا يدعمون فِكْرَة انفصال الحضارات، فبدأت هذه الفِكْرَة تنتشر فى إطار ما كان يريده الغرب بالفعل، خاصة أن الغرب بدأ يرى الإسلام أو -بمعنى أدق- يبحث فى الإسلام عن العدو البديل بعد سقوط السوفيتى... فبدأ الغرب يروِّج لهذه الفِكْرَة من خلال الصراع بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، خاصة أن العدو الذى يبحث عنه الغرب له مواصفات خاصة... عدو يجب أن يوفر للغرب ترويج ليبراليته، فالاتحاد السوفيتى يصنعها فى البداية، ثم بعد ذلك يصنعها الإسلام.

والشىء الطريف أن هذه النَّظَرِيَّة التى روَّج لها "هنتنجتون" قد لاقت من وزير داخلية النمسا ترحيبًا بالغًا، فقد دوَّنها كسياسة ومنهج رسمى للدولة فى كتيب صدر هناك، وتمَّ شرحها من زاوية تعكس بالدرجة الأولى تناقضًا وتضادًّا فى المجتمعات الغربية من الناحية السياسية والاجتماعية على حد سواء... لماذا؟
لأنه روَّج لفِكْرَة مضمونها أن هذه المجتمعات الغربية تستطيع أن تقول عن نفسها الآن إنها مجتمعات تعيش فى سلام، وإن برلماناتها إنما هى أندية للقاء، وإنه بين هذه البرلمانات وبعضها لا توجد خلافات وإنما توجد مواقف ودوافع وأغراض واتجاهات سلمية، ولكن القصة تتخذ اتجاهًا ساخرًا حين يبدأ الحديث عن العدو الذى يتربص بالغرب، وأن الحضارات الغربية تلتقى معًا فى تآلف مسالِم، من ثَمَّ فالذى يُعادى أو يهاجم الغرب فأولئك هم البرابرة، وطبقًا لنَظَرِيَّة)هنتنجتون(هم المسلمون والمسيحيون الأرثوذكس!
• يقال إن الحضارة الغربية لا تزال -رغم ما بلغت من الارتقاء التكنولوجى المعلوماتى والرفاه الاقتصادى- تحمل أحقادًا تاريخية سوداء ضد الإسلام والعالم الإسلامى.. هل تعتقد ذلك؟
إن كتاب "هنتنجتون" عمَّق هذه الأحقاد السوداء ضد الإسلام، خاصة أنه أحدث اضطرابًا فى فِكْر الناس، وخاصة فى فِكْر الصَّفْوَةِ، لكننا على الصعيد الآخر نستطيع أن نقول إن كل أولئك الذين روَّجوا فى البداية -من الساسة الكبار فى أوروبا وأمريكا- لفِكْرَة عولمة الرأسمالية هم أعينهم الذين يضجّون بالشكوى منها اليوم! وعلى ذلك فهذه المجتمعات الرأسمالية التى تضخمت على هذا النحو الشديد سارت لها احتياجات لم تستطع المجتمعات الأوروبية أن تلبيها، فظهرت إزاء القدوة الرأسمالية الجبارة المحتكرة كتلٌ أخرى من المهاجرين إلى الدول الأوروبية لا يفرضون أنفسهم، ولكن يَسْتَجْلِبُهُم الأوروبيون استجلابًا؛ لأنهم يقدّمون أنواعًا معينة من الخدمات لا يستطيع الأوربيون ذاتهم أن يعدوا أنفسهم لأدائها، ومن هذا المنطلق فقد تكونت فجأة داخل المجتمعات الأوروبية مجتمعات أخرى من المهاجرين، وهذه المجتمعات يتم إعداد أصحابها مبدئيًّا لمواجهة المجتمع الأوروبى، وكذلك لم يتمَّ إعداد المجتمعات الأوروبية لمواجهة هذه المجتمعات وحضاراتها، ولكن على أية حال، كانت النتيجة هى تكوُّن تجمعات مكثفة من حضارات متباينة مع أغراض واحدة، مما دفع إلى ضرورة الاعتراف بحضارات الآخر.
وأستطيع أن أؤكد أن هناك خوفًا شديدًا يسيطر على بعض الفئات والأحزاب السياسية فى أوروبا من الإسلام، ويرون فيه خطرًا داهمًا.
بصراحة، وللأسف الشديد، فى أوروبا قد تمَّ تطويع قضية سلمان رشدى بحيث تصبح أداة لفرض صورة معينة للإسلام ولحضارته، ولعلك لا تنسى أن روايته حظيت ببرنامج دعائى مكثف؛ من أجل إحداث بلبلة ونوع من التشكيك فى مقابل موجات المد الإسلامى المتوالية، والشىء الذى يُنْزَعَجُ له فى أوروبا هو أن ما يمنعه الغرب عن الأوروبيين يستبيحه لنفسه، فالذى يحدث

فى أوروبا هو إظهار الوجهات البراقة الخادعة لليبرالية، وأستطيع أن أعدِّد لك ما شئتَ من الموضوعات التى مُنِعْتُ من الكتابة عنها فى بلدى؛ لأن هذا كان سيكلفنى ببساطة شديدة رأسى!!! وهذا يؤكد أن الأوربيين يعيشون فيما تستطيع تسميته مجتمعات أوروبية مغلقة، لا يستطيعون أن يتقبَّلوا غير ما تفرزه مجتمعاتهم وحضاراتهم، وهذا ما يدهشنى كثيرًا.

• لكن ما هى حدود هذا الخوف من الإسلام وما هى حيثياته؟ وهل تتركز فى مناحى القواعد الفقهية أم لكونه يمثل منهجًا حضاريًّا؟

فى الحقيقة، ليس هناك فهمٌ حقيقى للإسلام فى أوروبا، ولكن ما يُعرف عن الإسلام أو التصور عن الإسلام هو نفس التصور عن المجتمع البطريركى. ونماذج عديدة يمكن أن تكشف عن تصور الأوروبيين عن الإسلام؛ أسُوق منها: النساء المحجبات المنقبات اللائى تتم طهارتهن أو اللص الذى تُبتر يداه، ومن خلال ذلك يتمُّ استنباطُ صورة الإسلام، وبالتالى ينشأ الخلط. وشىء آخر، هو أن الغرب يزعم أنه مجتمع ينعم بالتعددية فى الأحزاب والفِكْر، وأنه ليس هناك قسر ولا قهر ولا حجر، وفى الوقت ذاته الغرب لا يريد أن يتقبَّل فِكْرَة أن فى الإسلام تعدديةً ورؤى مختلفة. وبصراحة لا يوجد أحد فى الغرب يستطيع أن يعرف هل الإسلام له صورة واحدة أم عدة صور؟ وإن كنت أقطع أن الصورة المسيطرة على الفِكْر الغربى بأسره فيما يتعلق بالإسلام هى الصورة التى كانت سائدة فى مجتمعات القرن الثامن عشر! وعلى كل ذلك فقد قدَّمت المستشرقة "زيجريد هونكة" كتابها الشهير لتسحق به جميع المغالطات عن الإسلام.

• بصفتك أحد دعاة حرية الإبداع فى أوروبا... إلى أى حد ترى أن سُلْطَةَ الإبداع يمكن أن تتَّخِذ من المُقَدَّسَاتِ الدينية رموزًا؟

يُذكِّرنى سؤالك بنزهة كنت أقوم بها فى مدينة سراييفو مع أحد الكتاب الشرقيين الكبار، وكان معنا أحد أدباء الفرنسيس الذى تعرض فى مستعمرات الصرب لأبشع ألوان التعذيب الجسدى، لكن روحه ظلت بريئة من أن تمسها يد التشويه والتعذيب، ودار الحديث بيننا حول كتاب كان قد أصدره أحد المؤلفين المسلمين ونادى فيه -بالدرجة الأولى- بما تستطيع أن تسميه "أَوْرَبَة الإسلام" أو الإسلام الأوروبى، وكان يؤكد أن أوروبا عليها أن تنظر إلى الإسلام وتتعامل من خلاله باعتبارها حضارة سيادية، ولكن أن يُدار الإسلام فى داخلها -خاصة أنها تنادى بحقوق الإنسان- بينما نداءاتها تلك لا بُدَّ أن تجعلها قادرة على تقبُّل أفكار الآخرين والحضارات الأخرى، ومنح الآخرين فى داخلها كل حقوق الإنسان: وهنا ثار "كارحسن" ثَوْرَة عارمة قائلًا: بأى حق تجعلون من أنفسكم معيارًا لحقوق الإنسان؟ ومن الذى أعطاكم هذا الحق ورفعكم فوق الناس وجعلكم عليهم حاكمين؟ وبالتالى تطرَّق النقاش إلى قضية كيف يتعامل الكاتب مع ما يسمونه بالصناديق السوداء المقدسة التى لا يجب فتحها أو المساس بها فى الحضارات المختلفة، كما عرج الحديث أيضًا

على قضية "سلمان رشدى"، وهى قضية شائكة؛ فلقد دافعتُ وأدافع عنه؛ لأننى لا أستطيع أن أتقبَّل فِكْرَة أن يُحكم على إنسان بالموت لأنه كتب رأيًا أو أذاع فِكْرًا، ولكننى على الصعيد الآخر أيضًا لا أعتقد أن الكاتب يكون مُحِقًّا إذا لم يراعِ الإطار الحضارى الذى يكتب فيه ومن خلال أفكاره.

• فى إطار ما يسود الساحة العالمية من تجليات فِكْرية مبهرة حول العولمة، بما تحمله من مفهوم للثَّقَافَة الكونية... كيف ترى التحديات التى تواجِه الثَّقَافَة الإنسانية فى مرحلة الصعود العولمى؟

بداية أريد أن أؤكد أن العولمة ليست ظاهرة جديدة، ولكنها مُوغِلَةٌ فى القِدَم، فلم يكن أبدًا منذ بدء الحضارة الإنسانية أن كان هناك مجتمع إنسانى مغلق، ولكن الذى حدث أن التطور التقنى سمح بنقل المعلومات إلى أعلى مستوى، وتداولها بين الناس جميعًا، وعدم قَصْرِها -كما كان الموقف فى الماضى- على صفوة الناس، وهذا هو الذى غيَّر الواقع.

أقول إن الخوف الوهمى الذى لدينا من العولمة يجب أن نتخلى عنه ونلفظه، وحيثما تبحثْ عن العولمة تجدْ أنه فى الوقت الذى تنتشر فيه حضارة تقوم على العولمة تنشأ أيضًا مجموعة من الحضارات الخاصة بالمجتمعات التى تنشأ فيها هذه العولمة، ودائمًا ما يوجد هذا الازدواج، خاصة أن تيار العولمة المُعَاصِر تقوده الحضارة الأمريكية.

لكن بلا شك أتفق معك كل الاتفاق فى أن العولمة هى فعلًا يمكن النظر إليها من منظور معين على أنها لون جديد من ألوان الاستعمار، بل إنها ليست فقط استعمارًا جديدًا ولكنها مرحلة ما بعد الحقبة الاستعمارية، لسبب مهم جدًّا؛ هو أن أمريكا وهى تضم الدول ذات السطوة فى العولمة ستدخل فى أزمة قوية حول الهوية مع نفسها؛ لأنها لا تستطيع أن تأخذ من غير أن يُؤخذ منها فى ظل مفاهيم العولمة الجديدة وآلياتها، لذلك فهى ستواجَه بنفس المشكلة، مشكلة ضبط الهوية أو الهوية الذاتية. ومنذ فترة قريبة تحدَّث أحد أكبر الرأسماليين فى العالم قائلًا: إذا لم يعجل العالم بإيجاد قواعد لهذه العولمة نفسها فإنه لا محالة سوف تقضى العولمة على الدول الصناعية الكبيرة قضاءً مبرمًا، لذلك فإننى آمل جديًّا فى أن تكون هناك مساعٍ عالمية كونية من أجل تقنين العولمة ووضع قواعد معينة لها يمكن من خلالها القضاء نهائيًّا على ماكينة الحرب الدائرة وراء الاقتصاد الشمولى الذى يجتاح العالم.

• دائمًا ما تَسْتَأثِرُ مصر بمساحةٍ ما تتَّسع أو تضيق فى عقول الأدباء والمُفَكِّرين والساسة وربما العلماء... أين تكمن مصر فى عقل "جروند"؟

نعم.. لقد نشأت فى إحدى المدارس التابعة لأحد الأديرة، وكانت مصر بالنسبة لى دائمًا -من خلال الدراسة فى هذا المكان- هى رمز ومفتاح الحقيقة للحضارة، لذلك فإننى لم أتعجب على الإطلاق حينما يستبعد هنتنجتون اليونان من نظريته؛ نظرًا لأن اليونان هى الطريق المؤدى حتمًا إلى مصر، وقد قمتُ بريادة لمشروع أدبى على مستوى عالٍ جدًّا هو إعادة كتابة "الأوديسا"

لـ"هوميروس"، ويقوم هذا المشروع على فِكْرَة نابعة من أحد علماء الشعوب والسلالات، مؤداها أن أصل الأوديسا هو مصر ثم تطورت ورحلت إلى اليونان، ومن هنا فقد بعثت بأحد عشر كاتبًا ليجوبوا كل المحطات التى عساها أن يكون قد ضمها هذا العمل الفنى الرائع، ومنها مصر، وبالتالى تستطيع أن تستنتج ما الذى تلعبه مصر بالنسبة لى، بدءًا من تعليمى واهتماماتى، وأين تقع من حيث هى دولة ذات حضارة فى خريطة هذا القرن وما يليه وما يليه.

• فى رؤيتك ما هى البصمات الفعلية لمشروعك الإبداعى؟

فى الحقيقة إن هناك ميزة أتمتع بها، وهى أننى وقفت ذات يوم على قمة الحياة الثَّقَافِيَّة فى النمسا وتمتعت بهذه القمة، لكن فجأة سقطت على الأرض؛ لأننى دون غيرى من الكُتَّاب أستطيع أن أكتب عما أشاء وبحرية مطلقة، لا تهزمنى مصالح ولا تربيطات ولا علاقات خاصة، أكتب بدقة شديدة وبلا مبالاة متناهية، بغَضِّ النظر عما أكتب ومن أخاطب ومن أصف، أقول إننى أكتب عن نفسى وعن العالم وعن الآخرين بلا ضوابط أو قيود تخيفنى من أن أمدَّ قلمى لأصل بين الحضارات وبين الأجيال، فمن خلال شبكات الإنترنت أقيم مشروعات فِكرية تربط بين كُتَّاب العالم من أصدقائى.

• فى إطار السائد عن الحوار الثَّقَافِىّ والحضارى.. لا بُدَّ أن تستدعى فى ذاكرتك أطياف الأدب العربى الحديث باعْتِبَارك من دعاة إنشاء جمهورية للكتاب؟

بلا شك إن للأدب العربى تاريخًا طويلًا وله قيمة عالية حتى قبل حصوله على نوبل، ودون شك قرأت كثيرًا مما كتبه محفوظ وإدريس، لكن هناك ظاهرة مُعَاصِرَة فى هذا الأدب، هو الطاهر بن جلون، الذى أعتقد أنه يمثِّل قيمة أدبية رفيعة المستوى. وبصفة عامة لا بُدَّ لحركة الإبداع العربى أن تستمر وتؤكد ديناميكيتها وتنطلق، فنحن نعيش لحظات متغيرة فى هذا الزمن، وكل لحظة منها يمكن أن تحرِّك ألف عمل داخلنا، فإذا اشتعلت شرارة الإبداع فلا خوف على الثَّقَافَة العربية فى مُسْتَقْبَلها الذى تحيط به متغيرات كثيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هيلموت آرتسن.. حرب الكل ضــد الكل

اللغة هى أرشيف التاريخ، وهى أيضًا ذلك المخلوق العجيب الذى يفيض دائمًا كلما غاص فى أعماقه كاتب أو أديب أو ناقد فأضفى على معانيها معانىَ، ودفع بألفاظها نحو إقامة بانوراما فِكْرية، وأحكم تراكيبها، فأطلق العنان لنفسه، وسبح فى عالمها ليجذبها إلى عالمه، بما انطوى عليه من أفكاره وآرائه وإحساساته وخواطره وإلهاماته ووحى رُوحِه وقلمه، ومن أولئك كان المستشرق الألمانى الكبير "هيلموت آرتسن"، الذى عَبَرَ بالحركة النقدية للأدب نحو آفاقٍ جديدة، بما قدَّم من نَظَرِيَّات متميزة تحمل إضافاتٍ إبداعية، استطاعَ أن يسرد لنا -بوَعْى ناقد- مضمونَها ومحتواها، فكان لقاؤنا القصير مع البروفيسور بجامعة ميونخ، الذى اخترنا أن نتجه معه نحو استقصاء آرائه الساخنة على الساحة العالمية.

• لو تساءلنا عن طبيعة مشروعك النقدى.. هل تستشعر أنه قد اكتمل بالفعل؟ أم تعتقد أنه لا يزال بحاجة إلى مَسِيرَة جديدة بحكم طبيعة التحولات المتلاحقة التى تشهدها حركة الدراسات النقدية حول العالم؟

مشروَعْى الفِكْرِىّ الآن يتجه نحو التتبع التاريخى للأشكال الشعرية، بدءًا من عصر الباروك وتواصلًا مع عصور أخرى تالية، من ناحية العرض والتحليل والتعليق، وانتهاءً بعمل موسوَعْى يمكن أن يخدم حركة النقد الأدبى على المستوى الكونى؛ باعْتِبَاره يُعَدُّ تسجيلًا علميًّا دقيقًا لمدى التباين حول هذه الأشكال فى أطوارها المختلفة، أما مشروعى العلمى فإنه يسير ملاصقًا تمامًا لتلك التغيرات الحادثة التى جعلت العالم يعيش حالة خاصة من الفوضى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثَّقَافِيَّة والعسكرية، والتى جعلت هذا العالم وهو فى قمة تألقه الحضارى على حافة الهاوية؛ حيث أصبحت المصالح والأهداف الاستراتيجية على مستوى الأفراد والدول متضاربةً متصارِعَةً إلى الحد الذى تسعى فيه جميع الأطراف للإطاحة بجميع الأطراف!

وبالتالى فإنه فى هذه اللحظة التاريخية يصعب على أى مُفَكِّر أو باحث أكاديمى أن يطرح تلك المعادلة التى تترجم بوضوح مُسْتَقْبَلَ الأوضاع على الساحة العالمية، وإن كانت هناك محاولات للرصد والفهم الواعى، لكنها فى النهاية لا تستطيع أن تقيم هذه المعادلة ذات التحديات الكبرى على الفِكْر والواقع.

• مفهوم الثَّقَافَة الكونية فى مقابل مفهوم الخصوصية الثَّقَافِيَّة... كيف يرى "هيلموت آرتسن" التحديات التى يمكن أن تواجه الثَّقَافَة فى إطار تجليات المَدّ العولمى؟

لا شك أن العولمة باتت تمثِّل خطرًا حقيقيًّا على خصوصيات البلدان والشعوب، خاصة فيما يتَّصل بمقدَّرات الهوية الثَّقَافِيَّة ذات التُّرَاث والتاريخ والقيم والعمق الحضارى. فالسؤال هو: كيف صارت كل هذه التحولات التى

مرَّ بها العالم إلى تهديدات للثوابت كالهوية الثّقَافِيَّة واختراق الحدود الجغرافية، وأصبح تجاوز المحلية إلى الكونية هو القاعدة والقانون، لكن رغم ذلك هناك اتجاه جارف نحو المحلية، وعلى مستوى دول عديدة؛ وهو اتجاه مضاد يتمسك بالقيم والعادات والتقاليد والطقوس الاجتماعية، وبالتالى سيستمر الصراع طويلًا بين الاتجاه نحو قيم العولمة والاتجاه نحو القيم المحلية، ولكن لا أحد يختلف على أن طوفان العولمة تكمن خطورته فيما يمثِّله من القهر الاقتصادى للدول النامية التى تُطرح أمامها القضية باعْتِبَارها تحديًا حضاريًّا، بينما هى مخطَّط لاستنزاف الدول الساعية نحو فرض إرادتها، وإلا فمَنْ يقاوِم من؟ ومن يتحدَّى من؟ ومن ينتصر على من؟ وقد يتساءل الكثيرون ممن رصدوا سلبيات تلك العولمة المُعَاصِرَة: هل ستمسُّ هذه السلبيات -إلى حدٍّ ما- مصالح الدول الكبرى، أم أن هذه الدول ستجنى ثمارها وتترك أشواكها لباقى دول العالم؟

ومن المنطقى أن تكون الإجابة فى اتجاه متوافق مع طبيعة سياسات تلك الدول الرأسمالية، الرامية دائمًا إلى إحراز طموحات مادية هائلة على المستوى الكونى.

• صدام الحضارات ونهاية التاريخ.. نظريتان تتصدران المشهد العالمى المُعَاصِر.. إلى أى منهما يتشيَّع "هيلموت"؟ أم إنه يميل لكتيبة الرؤية القائلة بكونهما ليسا أكثر من فقاعات فِكْرية سوف تسحقها حركة التاريخ؟

أنا لا أتَّفق مطلقًا مع أى من النظريتين؛ فنَظَرِيَّة نهاية التاريخ لـ"فوكوياما" نشأت وتبلورت مع نهاية الشيوعية، وهى نَظَرِيَّة متعارضة بشكل واضح مع المَسِيرَة التاريخية؛ لأنها تَقَدُّم محاولة للوقوف ضد هذه المَسِيرَة، أعتقد أن أفكار فوكوياما تنطلق من هدف محورى لها؛ هو القضاء التام على ما كان يُسمى الماركسية، وإعلان نهاية التاريخ بانتصار النظام الرأسمالى، وبالتالى تترسخ المحاولة الضرورية لتكريس العولمة، أما فيما يتعلق بنَظَرِيَّة صدام الحضارات "لهنتنجتون" فقد دار حولها فى السنوات الماضية جدل عنيف أخذ منَّجهات عدة، كانت فى مجملها تعمل على تكريس الخصومة بين البشر، وتترك مساحات كبيرة لأصحاب المصلحة العليا ليتفرغوا لإدارة شئون العالم، وتنطوى على مبدأ قديم خطير هو "فرِّقْ تَسُدْ" وتتنبأ بحدوث صدام مؤكد بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، ومن هنا فهاتان النظريتان تعبِّران عن مرحلة تاريخية بعينها، وتخدمان مصلحة سياسية لدول بعينها أيضًا، ولا يمتدّ أى منهما لإقامة لغة حوارية للتعامل مع المُسْتَقْبَل، وإلا تغيَّرَ موقفُنا منهما.

• ما تصوُّرك للإسلام كعقيدة ومنهج فى ظل موجات المد الإسلامى التى يقال إنها تجتاح أوروبا؟ بجانب رأيك فى أطروحات الكاتبة الألمانية "زجريد هونكة" فى كتابها "الله ليس كذلك"؟

الحقيقة أن واقع العالم الإسلامى مهما يمتد به الزمن لا تحدث به أى تغيرات جذرية تضيف إليه أو تدفعه حضاريًّا؛ لأن له "سيمترية" خاصة، وأنا كمُفَكِّر أدين

بالمسيحية، إلا أننى أرى أن الأديان الثلاثة)الإسلام – اليهودية – المسيحية(تتفق فى شىء جوهرى؛ هو قضية الإله الواحد، وهذا هو الفارق المحورى بينها وبين الأديان الوضعية.
لكن السؤال عن المنهج الإسلامى يُثير ويحرِّك لدىَّ دائمًا سؤالًا آخر أكثر أهمية وإلحاحًا هو ماذا يفعل المسلمون بعقيدتهم؟ وعلى أى نحو يوجِّهونها؟ بل ماذا يفعلون بهذا المنهج؟ المؤكَّد أنهم لا يفعلون به أى شىء إلا محاولة تطبيقه بشكل ديكتاتورى! وعلى ما أعتقد فإن هذا يُعَدُّ مخالفةً صريحة لذات المنهج الذى يَدْعون إليه ويروِّجون له.
وبصفة عامة أرى أن الأديان -مهما اختلفت طبيعتها فى قليل أو كثير- يمكن أن تتعايش جنبًا إلى جنب دون أى صِدَام. لكن الشىء المحزن والمؤسف حقًّا هو أن يفرض الدين نفسه بالقوة والعنف. أما بالنسبة لكتاب "هونكة" فأنا لم أقرأه، ولكننى أدركت من خلال ما قرأتُ عنه وسمعت به أنه محاولة جيدة لتقديم الحقائق الأصلية والمستمدة من جذور الأديان عن الذات الإلهية، بهدف قهر ومحو تلك الصورة المغلوطة التى يقدِّمها كُتَّابٌ مُلْحِدُونَ عن هذه الذات، والكتاب فى كل الأحوال تبنَّى اتجاهًا جديدًا فى مواجهة الخط الساخن ضد الأديان والعقائد.
• باعْتِبَارك مُفَكِّرا ألمانيًّا كبيرًا.. هل تتفق مع رأى المُفَكِّر الفرنسى "جارودى" فى أن أعداد مَنْ أُبيدوا فى الهولوكست لم تتجاوز نسبة الـ 10% مما تشير إليه أبواق الدعاية الصهيونية فى العالم؟ وما هى ملامح مُسْتَقْبَل الصراع العربى الإسرائيلى فى إطار توجهك الفِكْرِىّ؟
بداية لا أعارض النسبة والعدد الذى ذكره الفيلسوف جارودى مرات ومرات، علاوة على أن الكثير من المؤرخين مُجْمِعُونَ على ذلك، لكن فى رأيى أنه لن تُحَلَّ المشكلة إذا أثبتنا صحة هذه النسبة أو نفيناها، فالذى لا بُدَّ منه هو أن نعترف بأنه قد حدثت أشياء ضد اليهود، ولكن ليس بالضرورة أن تتحمل الأجيال المُعَاصِرَة جرائر تلك الخطيئة، وإن كنا لا نقلِّل من حجمها أو قيمتها، وإنما نشير فقط إلى تلك الأبواق الدعائية التى لا تزال تندد دائمًا بما حدث لليهود، وتحاول بذلك أن تقرِّر أوضاعًا تحقِّق من ورائها أكبر مكاسب مادية وسياسية. وتستطيع أن تتفق معى فيما أكَّدته مَسِيرَة التاريخ من أن اليهود لهم موقع جيد فى ألمانيا ويُعامَلون معاملة حسنة قبل ظهور الحركة ضد السامية، أما مُسْتَقْبَل الصراع العربى الصهيونى فهو يرتبط وبشكل كبير بمدى قبضة الولايات المتحدة الأمريكية على حلقات هذا الصراع، وموقفها من القانون الدولى وحقوق الإنسان وجديتها فى إنصاف القرار 242 كأهم عناصر تسوية الصراع، وتخليها عن سياسة الكيل بمكيالين واحترام سمعتها السياسية بين دول العالم باعْتِبَارها تعيش الآن كل تجليات الزعامة والسِيَادَة السياسية والاقتصادية والعسكرية والاستراتيجية، ولكن بصفة عامة لن يُحسم هذا الصراع عن طريق العنف المسلح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

كريستيسان باروش.. أسس قانون الفوضى العالمية

نعم... إن الكتاب الذى لا يستحقُّ أن تقرأه مرتين لا يستحق أن تقرأه مرة واحدة! هكذا تحدث "تولستوى"، وهكذا أيضًا كانت دائمًا كتابات الأديبة الفرنسية "كريستيسان باروش" تقترب من هذا، فلا تدعك تفكر حتى تستحوذ عليك هواجس اللقاء الحميم مع سطورها ومعانيها وخيالاتها وإحساساتها ورؤاها وأفكارها وإيقاعاتها المتناغمة وشخوصها ورموزها وأناتها وآهاتها وعذاباتها، وكل ما لم تقله فى سياقاتها العديدة، لكل هذا ولغير ذلك كانت جائزة "جونكور" فى انتظار صاحبة)نسمة من الله(،)رجل حياتى(تكليلًا لمشوارها الروائى الذى أحدث تماسًّا خلَّاقًا مع الأعمال الأدبية الرائدة التى تُترجم الدلالات العميقة خلال رحلة التأمل والمراهنة على بلوغ المغزى.

• الفِكْرَة المحرِّكة للعمل الروائى عند "كريستيان باروش"... من أين تأتى؟ من أعماق الذات أم من صفحات كتاب اسمه العالم؟

أنا لا أنطلق فيما أكتب من فِكْرَة ثابتة أو إيديولوجية خاصة أحاول تأكيدها أو أبرهن على صحتها، وإنما أعتمد فيما أكتب من روايات وقصص قصيرة على مادة خصبة ثرية؛ هى تلقائية الأحداث والأشخاص والظروف التى يستغرقنى تحليلها وتَفْسِيرها أشواطًا من الزمن، وأستطيع خلالها التقاط وبلورة الأفكار الجديدة التى أنسج حولها أى شىء أكتبه.

• التجربة الإبداعية والفنية للأديبة الشهيرة "نتالى ساروت" كيف تراها "باروش"؟

على وجه العموم أنا أقدِّر تمامًا هذه التجربة التى دائمًا ما تكشف بوضوح عن ملامح أديبة متميزة يمثل العمل الأدبى بالنسبة لها معاناة حقيقية تتحول إلى عشق خاص حين تسبح فى أعماق الفِكْرَة بين حالة من الوَعْى واللاوَعْى، وهى تنتمى إبداعيًّا إلى تيار الرواية الجديدة فى فرنسا الذى يتبنى أسلوبًا خاصًّا فى الكتابة الروائية والتعبير الفنى، الذى يتمحور بين حدود اللغة وانسياب موجات الحس والشعور. إنها بالنسبة لى تمثِّل ظاهرة أدبية وفِكْرية، كما هى كذلك عند كثير من رواد الحركة النقدية فى فرنسا.

• وكذلك انطباعاتك عن تجربة الأديبة الشهيرة "فرانسوا ساجان"؟

أنا أحبّها كثيرًا، وأقدِّر دون شك تجربتها الروائية، وأتفق كذلك مع أغلب النقاد فى أنها قد عبَّرت بحق عن عصرها، ولكنها ومنذ وقت طويل تعيش حياة بوهيمية لم تمكِّنها من أن تنتج لنا أى عمل أدبى يستحق الإشادة والتقدير، ودعنى أقلْ فى صراحة إن روايتها "مرحبًا أيها الحزن" هى التى صنعت شهرتها العريضة، تلك الشهرة المستندة إلى تعاطف القراء مع الأديبة الشابة، وليس إلى عظمة العمل ذاته، وهناك فرق.

• كيف ترى باروش مُسْتَقْبَل القصة والرواية فى عصر المعلوماتية، وبمعنى آخر هل ستؤدى الوسائط الإلكترونية إلى موت الكُتَّاب عمومًا والأدب بشكل

أخص على حد تعبير الروائى الإيطالى الكبير أمبرتو إيكو؟
بصفة عامة، إرغم عدم توفر إلمام كافٍ لدىَّ بتفصيلات ومفردات تلك القضية، فإننى أرى أن الإنسان -خاصة فى هذا العصر- هو أكثر احتياجًا للأدب منه إلى غيره؛ ذلك لأن الأدب يفجِّر فى ذاته كل الطاقات والقدرات الخلاقة التى تجعله دائمًا يسمو على كل النقائص والسلبيات ويتجاوزها إلى أشياء أكثر إيجابية.
ومبدئيًّا أتفق تمامًا مع رؤية أمبرتو إيكو فى أن الكتب ستبقى ولن يُستغنى عنها فى يوم ما، وهو يستند فى ذلك إلى أن ظهور العديد من الابتكارات والاختراعات التكنولوجية والإلكترونية لم تؤدِّ مطلقًا إلى محو أو انقراض ما يسبقها من وسائل وأدوات، وأضيف سببًا آخر؛ هو أن كل تلك الاختراعات أو الابتكارات لن تكون لها فاعلية الأدب فى إشباع تلك الحالات النفسية والذاتية والرُّوحِيَّة المتحققة خلال الاستغراق فى قراءة فنون الأدب على اختلاف أشكالها، ونحن نعرف تمامًا ما صنعته الحياة المادية بالإنسان المُعَاصِر.
• هناك دراسة مهمة للكاتب الفرنسى "فيليب روجر" عنوانها "لماذا يكره الفرنسيون أمريكا".. ما هو تصورك عنها؟
لم أسمعْ بها، وأن كنت قد سمعت عن كاتبها كثيرًا، وهو صاحب رؤية نقدية فى كل ما تناوَل من قضايا، ولكن الذى أحرص على تأكيده فى هذا الإطار هو أن الفرنسيين لا يكرهون الشعب الأمريكى مطلقًا، وإنما يعارضون بعضًا من التوجهات السياسية الأمريكية، ذلك أن فرنسا دائمًا دولة لها وضعية خاصة يمثِّلها وجود عمق ثَقَافِيّ وحضارى تحاول به أن تشهر دائمًا ضرورة ممارسات حقوق الإنسان على الأصعدة كافةً.
• ألا يستهويكِ أن يكون لك عمل روائى تُثار فيه ملامح ودلالات غطرسة القوة الأمريكية، خاصة أن فرنسا ليست منقادة بالضرورة لكل التوجهات السياسية الأمريكية المُعَاصِرَة، إذ إنها تُعد من أحرص الدول حفاظًا على طابعها وشخصيتها؟
أتمنى أن يكون هناك عمل فنى مميز فى هذا الاتجاه يُشار فيه رمزيًّا إلى بانوراما الفوضى العالمية التى توشك معها لحظة الانفجار، لكننى ومع الأسف لست مهيأة لكتابته؛ لأننى أقل الناس مشاركة أو احتكاكًا بالأمور والنواحى السياسية، فالسياسة تُلَوِّثُنِى، لكنى أنتظر أن يُخرج ذلك العمل أدباء كبار هم أكثر منى شهرة وذيوعًا، ولهم باع كبير فى هذا، يستطيعون خلاله تصوير مأساة الإنسان المُعَاصِر فى تواجهه مع سُلْطَةِ التغيرات السلبية المفاجئة.
• ظاهرة الولع بمصر التى عبر عنها "روبير سوليه" حقيقة أم هوس بمحاولة اصطناع ظاهرة من ابتكار فرنسا؟
نعم.. هناك فئات كثيرة من الفرنسيين أعجبوا بمصر -تاريخًا وأصالة وحضارة- إعجابًا بلغ بهم حد الفتنة، بل الهوس؛ باعْتِبَار أن مصر فى رؤيتهم هى مركب تاريخى وجغرافى وثَقَافِيّ غير مسبوق، وهى أيضًا ميراثٌ إنسانى له طابع

وإيقاع خاص، وأنا شخصيًّا أنتمى إلى تلك الفئات عن حب وقناعة، ويكفى أن أستشهد فى ذلك بمقولة للكاتب الفرنسى جان كوكتو حين قال)عندما وجدت نفسى أواجه الأهرامات تملَّكنى إحساس بأننى أتنفس الخلود(، أو مقولة نابليون)أيها الجنود.. إن خمسين قرنًا تطلُّ عليكم من فوق هذه الأهرامات(.

• الأدب العربى بين التواصل والاغتراب.. أين موقعه منك؟

الحقيقة أنه لا علاقة لى بالأدب العربى إلا منذ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل، فبدأت بعدها أقرأ بعضًا من رواياته مثل:)ميرامار(،)خان الخليلى(،)أولاد حارتنا(،)ثرثرة فوق النيل(، وقد اعتبرتُ ذلك طرحًا جديدًا على جدول قراءاتى اليومية، وقد استشعرتُ به أن هناك أشياء مهمة جديرة بالمعرفة، لكن يبقى شىء واحد هو أن هناك ضرورة قصوى على الحركة الثَّقَافِيَّة المصرية نحو أن تترجم ذاتها وتطرح نفسها وسط الموجات العاتية من تيارات الفنون والآداب والأفكار فى أوروبا والغرب عامة.

• هل يراودك حلم جائزة نوبل؟

أنا لا أكتب من أجل جائزة نوبل أو غيرها، وليست الجوائز فى رأيى -مهما علا قدرها- هى التى تقيِّم الأدباء والعلماء، ورغم ذلك فكل الذين حصلوا على جائزة نوبل كانوا أكثر منى شهرة وانتشارًا وعلمًا، وكل ما أطمح إليه هو تحقيق أعلى مستوى فنى فى التعبير الروائى وأرقى مستوى فى البناء القصصى، حتى لو لم أفزْ بجائزة نوبل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

روبرت يانج.. قصة الغدر التاريخى

قالها فولتير من قبل، وردَّدها بعده صوت الزمن "إن التاريخ ليس إلا كتالوجًا لأخطاء البشرية وحماقاتها" وحين فاجأ الكاتب الأمريكى الشهير "فوكوياما" جميع الأوساط الثَّقَافِيَّة والفِكْرية والسياسية العالمية بأطروحته عن نهاية التاريخ معلنًا وبشكل سافر أن حركة التاريخ قد توقفت بالفعل عند باب أمريكا، أحدث ذلك ضجيجًا هائلًا خلق حالة من التمرد والغليان والاستفزاز غير تلك التى كان ينتظرها صناع الشر من الشعوب التى يراد لها الاستسلام والخنوع والإحباط، كذلك حين عدل "فوكوياما" أخيرًا عن آرائه وأفكاره تلك أحدث زلزالًا مروعًا كانت وطأته على العقول بمثابة بارقة أمل لاحت فى الأفق فأخذت على آثارها كل الكوادر الثَّقَافِيَّة والفِكْرية مسارًا خاصًا يصل بها إلى وقفة للمراجعة والتصويب والرؤية المتجهة نحو البحث فى البدايات وغض الطرف عن المقولات الدعائية عن نهاية التاريخ.

بعد ذلك كانت الصيحة المدوية التى أطلقها البروفيسور "روبرت يانج" بجامعة أوكسفورد، والحائز على جائزة الأكاديمية البريطانية، وفى لقائى العابر به الذى لم يستغرق وقتًا قدر ما استوعب حديثًا ممتدًّا، روى لى من فيض خواطره بعضًا مما سجله بكتابه الأخير)أساطير بيضاء.. كتابة التاريخ والغرب(، وإن ألحَّت علىَّ تساؤلات عدة، وددت استكشاف أصدائها لديه؛ على غرار طبيعة العلاقة الشائكة المُعَاصِرَة بين الشرق والغرب، والانطباعات الخاصة عن ظاهرة العولمة وجذور الثَّقَافَة الأمريكية، والمأزق الآنى للحضارة الغربية باعْتِبَارها قد افتقدت إلى حد كبير للطابع الإنسانى العام، والذى كان يمكن أن يحافظ على توازنها؟

لكن "يانج" آثر أن يخوض فى تصوراته وأفكاره جملة، وبعيدًا عن أى حوارية، فاسترسل معى مرددًا: إن حصاد الصراع المحتدم وطيلة تاريخه بيَّن ذلك الدور الأسطورى والخطير الذى لعبته -ولا تزال- الثَّقَافَة الغربية بكل آلياتها المتعددة ومضمونها الهادف نحو تقوية الذات وإضعاف الآخر، فى اتجاه تبرير استعمارية الشعوب، وما تضمَّنه ذلك من تكريس واستساغة لمعانى القمع والقهر، وأيضًا بيَّن ذلك الدور القتالى الذى مارسته الثقافات المحلية للشعوب، وكان من النتيجة المنطقية لذلك المناخُ الفِكْرِىّ والثَّقَافِىّ الذى يعايشه العالم. ولعل من أبعاد ذلك الصراع بين العالم الأول والعالم الثالث الأحداث المفزعة فى الحادى عشر من سبتمبر، والتى غلفت العالم بطابع آخر هو الخوف من الحاضر على المُسْتَقْبَل، وأدَّت بدورها إلى تغيير بعض المفاهيم السياسية والثَّقَافِيَّة والاستراتيجية، فأصبحت خريطة العالم فى السيناريو الأمريكى موزعة على مستويين هما: أمريكا وأعداء أمريكا، الذين هم بالضرورة ليسوا فقط أولئك الذين يفكرون مُسْتَقْبَلًا فى التواجُه المباشر معها، بل هم بالقطع كل من لا يتحالف أو يتعاطف معها أو يهادنها وحدها.

وأعتبر ذلك الاستعلاء وغطرسة القوة وجنونها هو المقدمة للإعلان الحقيقي عن موت الغرب ونهايته، لذلك، ومن هذا المنطلق، فقد توجهت بفِكْرِى تلقائيًّا نحو إعادة قراءة تاريخ الاستعمار الغربى من خلال كتابى "الأساطير البيضاء"، الذى يمثِّل بحد ذاته أحد المداخلات القاطعة للوقوف على علاقة التاريخ بالعديد من المتغيرات، ورغم ذلك فأنا لستُ أزعم أننى كنت ربَّان السفينة فى هذا الميدان، وإنما كانت هناك محاولات جادة لمُفَكِّرِين كبار من أمثال "إدوارد سعيد" و"هومى بابا" وغيرهما.
والذين يقرأون تاريخ الإرهاب الفِكْرِىّ الغربى لا يستنكرون ما يحدث على مختلف الأصعدة، لا سيما إذا اعتبروا المُفَكِّر الفرنسى "روجيه جارودى" هو أحد المرجعيات الأساسية فى ذلك خلال كتاباته المطولة عن الإرهاب الغربى بكل معانيه ودلالاته وانعكاساته، وإن كان لى أن أقول شيئًا آخر فهو إننى قد حاولت أن أقدِّم مشروعًا جديدًا للتاريخ.
• إذا كنت تتحدث عن مشروع جديد للتاريخ، فكيف ترى "ألبيون الغدار" كتوصيف سياسى قديم أُطلق على بريطانيا؛ نظرًا لتوجهاتها المزدوجة طيلة تاريخها.. هل تعتقد وأنت أكاديمى ومُفَكِّر بريطانى ذو ثقل أن هذا التوجه ما زال لصيقَ الصِّلَةِ بها، لا سيما وقد احتدَّت ظرفيات السياسة الدولية؟
نعم.. "ألبيون الغدار" هو تعبير أوروبى تحقيرى يعود تاريخه للقرن الثالث عشر، ويُستخدم فى سياق العلاقات الدولية للإشارة لتلك العلاقات المعقَّدة بين بريطانيا والأوروبيين؛ حيث كان ملوك بريطانيا منذ العصور الوسطى يُتَّهمون بالازدواجية والخيانة من قِبَلِ القوى الأوروبية الأخرى؛ بسبب تراجُع ملوك بريطانيا عن وعودهم لنظرائهم الأوروبيين. نعم.. "ألبيون" هو الاسم التاريخى لبريطانيا، ولا يزال يُستخدم فى بعض الأحيان للإشارة إلى المملكة المتحدة، وتعود جذوره إلى المنحدرات الصخرية فى مضيق دوفر جنوب شرق إنجلترا المواجه لفرنسا، وكان هو أول ما يره الأوروبيون القادمون إلى بريطانيا، ولعل فرنسا تُعد من أكثر الدول استخدامًا لهذا التعبير تعريضًا بإنجلترا؛ لأنها قد عانت بالفعل من نوبات الغدر السياسى إبان ثورتها الكبرى، إذ تحالفت بريطانيا مع أكثر ممالك أوروبا ضد هذه الثَّوْرَة؛ إبقاءً على النظام الملكى، مما دعم سِمَاتِ الغدر والخيانة التى التصقت ببريطانيا منذ القرون الوسطى، وقد ندد بها أسقف فرنسى شهير عاش فى القرن السابع عشر حين قال: إنجلترا يا غدر إنجلترا يقيها من الرومان أسوار المحيط الذى يحميها. وكذلك كان تشهير الكاتب الفرنسى أوغسطين لويس الذى قال: دعونا نهاجم ألبيون الغدار فى عقر مياهه.
لكن دعنى أقل إن هذه هى قواعد وثوابت السياسة التى اعتمدتها إنجلترا فى الحفاظ على كونها الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس.
• هناك رؤية للكاتب الأمريكى "جور فيدال" مؤداها أن الأحداث التاريخية أدَّت إلى التحالفات العسكرية، وأن الثَّقَافَة السياسية هى التى أسفرتْ عن

الرئاسة الإمبريالية.. لأى مدى يمكن ان تتفق أو تختلف حول هذا فى إطار وتيرة التنظيم الاستراتيجى للتاريخ؟
إننى أعرف بالفعل كل شىء عن الواقع الذى يدعم سير التاريخ، فكل شىء على مر القرون يعتمد على التمييز بين الذات وذلك الذى يهدِّدها، فمن يهدِّد مصلحتى هو الآخر. فمن هو الآخر؟ إن ما يُسمى فى التاريخ "الآخر" هو بالطبع مغاير لا يستقر فى مكان يقع داخل دائرة الجدل. إنه الآخر فى علاقة منظمة تنظيمًا تَرَاتُبِيًّا، الذات فيها هى التى تحكم الآخر الخاص بها وتسميه وتحدده وتكلفه بالعمل، هذه هى مؤامرة العنصرية التى لا ترحم، لا بُدَّ أن يكون هناك آخر ما، فليس هناك سيد بلا عبد، وليست هناك سُلْطَة اقتصادية سياسية بلا استغلال، وليست هناك طبقة سائدة بلا ماشية ترزح تحت النير، ولا ملكية بلا استغلال.
الحركة التى أدت فى نهاية العصر الاستعمارى إلى سؤال الغرب عما يخوِّل ثقافته وعلومه وتنظيمه الاجتماعى، وعقلانيته ذاتها، القدرةَ على المطالبة بأن تكون لها الشرعية الكلية، ألم يكن ذلك سرابًا مرتبطًا بالسيطرة الاقتصادية والهيمنة السياسية؟ وبعد قرنين ها هو التنوير يعود، ولكنه ليس باعْتِبَاره طريقة لإطلاع الغرب على إمكانياته الحالية وعلى الحريات التى يمكنه بلوغها، بل باعْتِبَاره طريقةً لبحثه من ناحية حدوده، ومن ناحية السُّلْطَات التى أساء استغلالها. أى العقل باعْتِبَاره تنويرًا مستبدًا.
• بينك وبين "إدوارد سعيد" دراما فِكْرية تتمثَّل فى الاختلاف الحاد فى التوجه العام نحو قضية الاستشراق والثَّقَافَة... نريد الخوض فى فضاءات هذا الاختلاف؟
فيما يتعلق بالاستشراق بصورة خاصة والمعرفة الأوروبية بالمجتمعات الأخرى بصورة عامة، كانت التاريخانية تعنى أن تاريخًا إنسانيًّا واحدًا يوحِّد البشرية، وهو ما لم يحدثْ قَطّ فى النقد المعرفى على المستوى الأكثر تشددًا للربط بين تطور التاريخانية التى اتسعت وتطورت بما يكفى لتشمل المواقف المتناقضة، مثل أيديولوجيات الإمبريالية الغربية ونقد الإمبريالية من ناحية، والممارسة الفعلية للإمبريالية التى تمَّ فيها الحفاظ على تراكم الأراضى والناس، والتحكم فى الاقتصادات، وإدماج التواريخ ومجانستها.
أثبت الإنجاز النَّظَرِىّ الأساسى لإدوارد سعيد، وهو خلق موضوع للتحليل اسمه "الخطاب الكولونيالى"، مجالًا من أهم مجالات البحث فى السنوات الأخيرة وأكثرها خصوبة. وقد جرى توسيع مفهوم الخطاب الكولونيالى، الذى لا يزال بالضرورة موضع جدل ونقاش، ليشمل أنساقًا أخرى مثل "خطاب الأقلية"، وهو يُستخدم حاليًّا لوصف بعض بُنى القوة داخل تراتبات الغرب نفسه، وعلى الأخص علاقة الأقليات بالجماعة السائدة، ويقدِّم الخطاب الكولونيالى وصفًا جيدًا لكيفية تغيير التَّقَدُّم النَّظَرِىّ السياسى لعمل مجموعة من العلوم المختلفة تغييرًا فعالًا، غير أن مشكلته النَّظَرِيَّة تظل قائمة. رأينا

كذلك كيف أن افتقار إدوارد سعيد إلى التحليل الذاتى المَنهجى يكشف كذلك عن عدم وجود إجابة للسؤال الخاص ببديل الاستشراق، وحتى كيفية مباشرة تقويضه، وكيفية الوجود فى الداخل وفى الخارج فى آن واحد.
إننى أعتبر فشل الاستشراق فشلًا إنسانيًّا بقدر ما هو فشل فِكْرِىّ؛ ذلك أن الاستشراق عجز -عندما اضطر لاتخاذ موقف يتَّسم بمعارضة لا سبيل للحد منها لإحدى مناطق العالم التى اعتبرها غريبة عن منطقته- عن الارتباط بالتجربة الإنسانية، وعجز كذلك عن رؤيتها على أنها تجربة إنسانية. ومشكلة إدوارد سعيد هى أن قِيَمَهُ الأخلاقية والنَّظَرِيَّة جميعها مشاركة بعمق فى تاريخ الثَّقَافَة التى ينقدها، حتى إنها تُقَوِّضُ مزاعَمه بالنسبة لمسئولية الفرد الذى يكون فى موقف اختيار، لكى يكون داخل ثقافته وخارجها كذلك.
الواقع أنه ما دامت الثَّقَافَة متناقضة بالفعل، فإن إمكانية الوجود فى الداخل أو الخارج نفسها هى بالفعل جزء من تلك الثَّقَافَة، ويبدو من المؤكد أن هذا هو وضع إدوارد سعيد؛ فهو يشكِّك بالفعل فى الثَّقَافَة باعْتِبَارها نسقًا مُجْمَلًا، بينما يتساءل إلى أى مدى شاركت الثَّقَافَة فى أسوأ تجاوزات الدولة، بدءًا من حروبها الإمبريالية ومستوطناتها الكولونيالية إلى مؤسسات القمع المناهضة للإنسانية، والكراهية العنصرية، والتلاعب الاقتصادى والسلوكى. غير أنه مهما كانت رغبة إدوارد سعيد فى التشكيك فى ظروف الثَّقَافَة وآثارها، فمن الملاحَظ أنه يرى على الدوام أنها لا تزال ثَقَافَة رفيعة أوروبية بشكل حصرى تُعزى إليها قدرة خاصة على إحداث مقاومة للدولة. فثَقَافَة إدوارد سعيد لا تشبه -رغم كل تحفظاته- شيئًا قدر تشابُهِها مع ثَقَافَة "أرنولد" أو "إليوت".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طارق حجى.. لغة الفراغ وثالوث دمار الواقع المصرى

هكذا حقًّا تكون مَسِيرَة الكبار حين يخوضون معارك الثَّقَافَة رغم قسوتها وضراوتها، أملًا فى أن يكون للفِكْر الحر حياة، وللوَعْى الإنسانى رُوح، وللحاضر مُسْتَقْبَل واعد، ربما لم يكن أحد يصدق ونحن نعيش عصر الإنترنت وحرب النجوم والميكروسوفت والباراسيكولوجى أو المكاشفة على البعد ويوتوبيا الفضاء والمعلوماتية وغيرها من المفردات البراقة فى زمن الغرائب والمدهشات أن تكون الثَّقَافَة هى المحور الفاعل الذى انطلق بالعقل الإنسانى ليغير حركة الواقع تغييرًا يوشك أن يكون انقلابًا نحو الأفضل والأرقى، وبالتالى، على مدى ثمانين عامًا، توالت كتابات عديدة أشعلت الوَعْى المصرى بالثَّقَافَة، منها "مُسْتَقْبَل الثَّقَافَة فى مصر"، هذا العصر وثقافته، ثقافتنا فى مواجهة العصر، ضرورة أن نَتَثَقَّفَ، يقظة الفِكْر، هموم المثقفين، تحديث الثَّقَافَة العربية.

ودائمًا ما يمثِّل الحديث عن المُثَقَّف المصرى وطبيعة العقل العربى شغفًا ثقافيًّا، فكيف وقد كان هذا الحديث من وحى عقل الكاتب "طارق حجى"، أحد هؤلاء الذين أقاموا جسورًا ثَقَافِيَّة صلبة أحكمت علاقة الفِكْر بتحليل مفردات الواقع وإشْكَالِيَّاته، انطلاقًا إلى واقع آخر أكثر خصوبة وحيوية، تتجسد خلاله طموحات وآمال تعكسها الانطباعات العقلية لقارئ مجموعة الأعمال الكاملة، التى نعتبرها بمثابة البوصلة التى تحدِّد المسارات وتحفِّزنا نحو الانطلاق والإقلاع إلى واقع ثَقَافِىّ متميز، نجتاز به ذلك الخضم الهائل من الصعاب والعثرات. فبعد أن أطل علينا بإشراقاته الخطيرة فى كتابه...)ما العمل(ثم فى كتابه)الأصنام الأربعة(، ثم)ثالوث الدمار(،)مصر بين زلزالين(،)التحول المصيرى(،)نظرات من الواقع المصرى(أتى كتابه)نقد العقل العربى(، وجاء)الثَّقَافَة أولًا وأخيرًا(تتويجًا رائدًا لتلك البانوراما الفِكْرية الثرية.

• فى إطار كتاباتك المتعددة عن الواقع المصرى المُعَاصِر... ما هى المخاطر الاجتماعية والثَّقَافِيَّة التى تحيط بهذا الواقع، خاصة أنه قد تغيَّر كثيرًا فى ملامحه لكنه لا يزال محتفظًا بجوهره ومضمونه؟

أعتقد أن ثالوث الدمار المهدِّد للواقع المصرى يتمثَّل أولًا فى طبيعة علاقتنا بالحداثة والعصر؛ فمكونات الحياة التعليمية والثَّقَافِيَّة لا تعمل فى اتجاه تكوين مواطن مصرى فى حالة صلح وترحيب بالحداثة، وإذا لم يكن هناك تغير جذرى فى هذه العلاقة فسوف يزداد اغترابنا وخروجنا من دائرة العصر.

والنقطة الثانية هى أن هناك نظامًا تعليميًّا لا يعتمد على التفكير الإبداعى ومحكوم بالكم لا بالكيف، كما أنه ليس وثيق الصلة بالكونية وعالمية الثَّقَافَة والمعرفة، إضافة إلى أنه نظام لا يعظِّم قيم المجتمعات الحديثة مثل قيمة تقديس الجودة أو قيمة العمل الجماعى أو قيمة التنافسية أو قيمة تقديس

الوقت، وبصفة عامة، فإن النظام التعليمى فى حاجة مُلِحَّةٍ إلى نظرة ومراجعة كلية.
وأخيرًا فإن علاقتنا بالعالم الخارجى تُعَدُّ مصدرًا مهمًّا فى إحداث قلقلة بهذا الواقع؛ إذ شاعت فى حياتنا مفردات وجزئيات ومكونات تخدم فى النهاية فِكْرَة أن العالم لا يتَّخذ منا موقفَ المحب العاشق، وإنما موقف المحارب، بينما المعروف أن قيمة الكيانات الاجتماعية تتوقف على حجم الدور الذى تلعبه، ولعل ذلك يدعونا إلى أن نتساءل عن الدور الحتمى الواجب علينا القيام به تجاه مجالات الاقتصاد والصناعة والخدمات، لا سيما أن الإحصائيات تؤكد بالفعل أن هذا الدور يقلُ عن واحد فى الألف فى معظم الأمور! فإذا كان هذا لمحة من الواقع، فأغلب الظن أن الغالبية العظمى من دول العالم لا تُعنى بنا مطلقًا، وبالتالى لا تتآمر علينا؛ لأن التآمر لا يكون على كيان يُنتج واحدًا فى الألف من الناتج الاقتصادى العالمى! وإذا كانت تتآمر علينا فماذا تفعل مع دولة كاليابان أو كندا مثلًا؟ إن العالم ليس مشغولًا بتدميرنا، ولا يبذل من أجل إيذائنا ما بذلناه نحن من أخطاء، وإنما هو مستعد لأن يجد لنا مكانًا تحت الشمس إذا أردنا ذلك أو كنا نستحقه.
• يدور فى الوسط الثَّقَافِىّ المصرى نوع من الصخب والضجيج حول ضرورة الحفاظ على الهوية التى تتآكل مكوناتها بين آنٍ وآنٍ بفعل انسيابية العولمة... فى رأيك ماذا صنع المثقفون لهذه الهوية حفاظًا على جوهرها من سوءات العولمة أو أية مؤثرات أخرى؟
قدَّموا أقل من القليل وربما قدَّموا العدم... ضجيج كثير على لا شىء كما يقول شكسبير، تكلمنا وتكلمنا ولكنا لم نكن نرى أن الكلام لا يكفى للتعامل مع واقع يتجسد من واقع معطيات الحياة أيضًا. ومن حق البعض أن يكره العولمة، ومن حق البعض أن ينتقدها، وأيضًا من حق البعض أن ينظر لتهذيبها أو يعتبرها متوحشة، لكن لدىَّ اعتقادٌ جازم بأن هويتنا الثَّقَافِيَّة فيها خير كثير كما فيها سلبيات كثيرة أيضًا، كما أن لدىَّ اعتقادًا بأن الهوية والخصوصية تقوى بالتعامل مع الآخر، وتَزُولُ بالوَهَنِ الداخلى، وأنها ستتغير بالعولمة أو من دونها.
وبصفة عامة أتصور أن المُثَقَّف العربى، وبسبب انعزاله، قد أصبح مُنْبَتَّ الصلة بالواقع، بالتالى فليس لديه أدوات وأساليب أو مناهج من التفكير يحمى بها هويته، وليس فى ذلك من جديد؛ فما أكثر ما طلبنا من خصومنا أن ينهزموا!.
• للأستاذ هيكل رأى لا بُدَّ أن يستوقفنا.. إذ يقول إن العالم العربى يدفع مليون دولار يوميًّا ليتكلم مع نفسه، فما رأيك فيما يعيشه هذا العالم من حروب ومهاترات كلامية ولا يزال يأسره الخطاب البلاغى فى عالم تجتاحه قيم المادة والمادة وحدها؟

هذا موضوع قريب جدًّا من عقلى وقلبى، وكانت وما زالت له مساحة تأمُّلية عندى، لكنى أعتقد أن العقل العربى بحق تساوت لديه الأفعال والأقوال، وإن كان ذلك يخالف الحقيقة المجردة فى أن القول ليس فعلًا، والعكس صحيح تمامًا، ولا شك أن هذا منتج طبيعى لواقع تعليمى وثَقَافِىّ مُتَرَدٍّ إلى حد بعيد.
أما هيكل فهو شريك فى هذا الخَلْطِ الذى يعيبه؛ لأنه يُعتبر أحد رموز فترة تاريخية تكلمت كثيرًا عن الكرامة، ولا أعتقد بحال أنها قدَّمت تلك الكرامة مجسَّدة خارج الكلمات. وإذا كان العرب ينفقون كثيرًا من الحديث لأنفسهم، فلو أنفقوا نفس المال على الحديث إلى العالم الغربى فلن يستمع إليهم أحد؛ لأن العيب ليس فى توجيه الحديث إلى الداخل أو إلى الخارج؛ وإنما فى نوعية الحديث ذاته.
• يرى الكثير من المنظِّرين السياسيين أن الصراع العربى الإسرائيلى قد أوشك على مرحلة الانفجار... فبماذا تصف السياسات الدموية المنفلتة من أى مبدأ أو قيمة أو معيار سياسى؟
كنت -ولا أزال- أؤمن بأن العمل من أجل سلام حقيقى أو قيمة إنسانية عليا يستحق النضال، وهذا السلام لا تحققه بالضرورة اتفاقيات الاستسلام؛ وإنما الاتفاقيات العادلة القائمة على الشرعية الدولية وضمان الحق الذى لا يمكن التفريط فيه، لكن لا يوجد بالمنطقة العربية منافس فى العداء للسلام مثل إسرائيل، رغم ما بها من حاجة لهذا السلام، حتى لو امتلكت أضعاف ما لديها من قوى عسكرية!
وفى إطار سياسات شارون المتعنِّتة والدموية أيضًا، أؤكد أن الشىء المذهل هو حجم الجبهة المؤيدة لشارون؛ فهو لم يأتِ بنسبة ترشيح ضعيفة، وإنما جاء بأعلى نسبة حصل عليها رئيس وزراء فى إسرائيل، ليمنح للمجتمع الإسرائيلى الأمن، ثمَّ يصل به إلى السلام، لكن إذا بقى فى الحكم نحو عشر سنوات فسوف تستفيق إسرائيل لا شك على كارثة كبرى.
• يتردد فى أمريكا -وعلى سبيل الاستفزاز الكونى- عبارة مهمة وحادة؛ وهى: أنه على أوروبا أن تنشغل بصناعة الجبن الأبيض أفضل لها من أن تنافس الدولار العظيم... فماذا يمكن أن يقال عن عالمنا العربى والإسلامى فى إطار ظاهرة الاستعلاء الأمريكى؟
اختيار جيد أن تطرح على هذه المقولة التى تدَّعى فيها أمريكا رفيقة التحضر والتمدن فى المجتمعات المُتَقَدِّمة سُلْطَتَهَا المُطْلَقَة على العالم، لكن سرعان ما تتلاشى هذه السُّلْطَة إذا ما حاولنا الوقوف أمام مجموعة من المفاهيم؛ مثل: الديمقراطية، حقوق الإنسان، الحريات العامة، خاصة وهى فى طور التكوين بالنسبة لأمريكا؛ لأن المساحة النسبية فيها واسعة جدًّا، وتكشف عن ازدواجية خطِرة وتحمل تغليبًا للمصالح الذاتية، ولا يعنى ذلك بالضرورة أن حقوق الإنسان هى فِكْرَة خاطئة، لكن لا بُدَّ أن تجاهد من أجل تنقيتها واكتمالها وزيادة جرعة الإنسانية فيها وفى غيرها؛ لأنها مفاهيم وليدة ومشبعة

بالشوفينية والعنصرية، وبها من المعايير السلبية أكثر كثيرًا مما بها من إنسانية.
• مشروعك الثَّقَافِىّ الذى قدَّمته فى كتابك الأخير "الثَّقَافَة أولًا وأخيرًا".. هل اقترب بشكل ما من المشروع الثَّقَافِىّ النهضوى الذى بدأ مع بدايات القرن العشرين؟
بداية أرى أن مجتمعنا المصرى قد حاول أن يقدِّم مشروعًا ثقافيًّا نهضويًّا فى العشرينيات والثلاثينيات، وكان يبدو لى طيبًا إلى أبعد الحدود، ولكن ليس بشكل مطلق، وكل النقاط التى ذكرتُها فى مشروَعْى تتجه إلى هذا النموذج الطموح.
أقول إن هذا المشروع كان يحمل فى طياته صلحًا بين الماضى والحاضر، توفيقًا رائعًا بين هذا الماضى والعصر والمدنية والحضارة التى لا يوجد مبرر واحد لاتخاذ موقف مخاصم منها، وبالتالى فإشْكَالِيَّة ماذا نأخذ من الماضى وماذا نأخذ من الغرب لم تكن موجودة فى إطار هذا المشروع، وإن كنا نطرحها وبشدة على أنفسنا اليوم، مما يشير إلى استدلال قوى هو أن العقل العربى قد تأخَّر كثيرًا، وبمعنى أدق أُدخلت عليه عوامل ارتباك جعلته يطرح اختيارات مُرَّة، فيعتبر أن الحداثة بديل عن الأصالة، وأن أطروحات الغرب إما أن تنسفنا -فيجب أن نرفضها تمامًا- وإما أن نأخذها كلية -فنفقد هويتنا-، ومن هنا أعتقد أنك لو طلبت منى فى سطر واحد ماذا أريد لقلت: أن نعود لمشروع بدت بوادره فى أوائل القرن ثم أخفق لأسباب ليست من داخله وإنما من خارجه.
• أنت كمُثَقَّف مستنير ترى أن العولمة تمثِّل آلية جديدة فى التحكم بمقدرات الواقع العالمى... فكيف ترى بعضًا من فريق المثقفين وقد اتخذوا لأنفسهم اتجاهًا مُعاديًا للعولمة وأنها تمثِّل خطأً فِكْريًّا وليس عملية ممارسة حياتية؟
أولًا أحب أن أؤكد أن معظم المثقفين العرب هم مثقفون رسميون، وهذا نمط غير موجود فى الدول المُتَقَدِّمة؛ لأنه نمط يتوهَّم فى هذه اللحظة المُعَاصِرَة أن العولمة هى طرح فلسفى قابل للنقاش والأخذ والرد، بينما المُثَقَّف الغربى وثيق الصلة بحركة الحياة، وبالتالى فهو يرى أن العولمة هى وصف لواقع جديد انبثق من نهاية الحرب الباردة، مثل نفس الواقع الذى وجدنا أنفسنا أمامه عام 1945 بعد فوز الحلفاء على المحور.
وأعتقد أن معظم الذين يرفضون العولمة يأتى رفضهم من عدم المعرفة العميقة بطبيعة المجتمعات الرأسمالية، وأقول لهم إن إخلاء الحياة من الصراع هو فِكْرَة رومانسية لا أعرف من أين أتت إليهم، فأمريكا من الداخل مليئة بالصراعات المحتدمة على رأسها ما بين شركة "جنرال موتورز" وشركة "فورد" وما بين "آبل" و"آى بى إم"، إضافة إلى ما بين تويوتا اليابانية وجنرال موتورز مما يتجاوز الصراع بين كل المؤسسات.

• على ذلك كيف ترى التحديات التى يمكن أن تُواجِه الثّقَافَة العربية فى مرحلة الصعود العولمى، خاصة وأنت تضع مبدأ قبول الآخر ضمن القيم التَّقَدُّمية التى يجب أن تُتخذ كمعيار؟
أنا تعجبنى كلمة التحديات؛ لأنه بالفعل ستكون هناك تحديات ثَقَافِيَّة تستوجب بدلًا من التنكر والتجاهل لشبح اسمه العولمة أن نتواجه بردود أفعال قوية، فمثلًا العلاقات الأسرية التى تستمد جذورها من الدين والتاريخ والجغرافيا هى فى مواجهة نمط آخر علينا أن نبذل جهدًا خارقًا لكى لا ينتصر هذا النمط، فالحضارة الغربية لا تستطيع أن تدافع عن نفسها فى هذه الجزئية؛ لأنها كانت تتمنى لو أنها أنجزت ما أنجزته من تَقَدُّم مادى على كيان أسرى وعلاقات إنسانية أفضل.
فهل نحن أفضل من الغرب فى مجال الجريمة الأقل والعنف الأقل والشذوذ الأقل لأننا فعلًا أفضل؟ أم لأننا لم نتَقَدَّمْ بعد ولم نُختبر، أتمنى أن يكون ذلك فى ظل ثَوْرَة تقنية تُصاحبها ثَوْرَة عقلية تعمل على ترسيخ قيم عصرية داخل نسيجنا الثَّقَافِىّ، بحيث تُعظم من الإنجاز الحقيقى الذى هو الإنجاز الاقتصادى.
• رأيك فى آلية العقل العربى الذى قدَّمت له أنت نقدًا خالصًا والذى يضع العولمة فى شكل قالبى أو يطرحها بشكل يحمل مغالطة حين يتساءل عن العولمة... خير أم شر؟ نعمة أم نقمة؟
العقل العربى الذى تحدثتُ عنه هو العقل العربى كما أثَّرت فيه متغيراتُ القرن الأخير، التى جعلته بعيدًا عن حركة العالم أو العصر وقطار التمدن الذى تقوده أوروبا وأمريكا، أنا قلت فى نقد هذا العقل إننا محليون أكثر مما ينبغى، وهناك صلة وثيقة بين هذا العيب ونظرتنا إلى العولمة، وهناك أيضًا مجموعة من العيوب المكتسَبة التى شابت طرائق التفكير وجعلتنا نخلق صورة وهمية للعالم الخارجى، فنظن مثلًا أن الاتحاد السوفيتى كان ملاكًا فى تعامله معنا، ثم نكتشف بعد ذلك أنه لم يكن يعنيه منا إلا مدى خدمتنا لدوره العالمى كقوة عظمى.
أقول إننا نرى العالم بعيون حالمة أو بشىء مطلَق من الرومانسية أو الوهم... لماذا؟ لأننا من جهةٍ انغلقنا عن العالم فترة ما، ومن جهة ثانية تصاعد فى واقعنا طَرْحٌ ثَقَافِىٌّ سَلَفِىٌّ مخاصم للدنيا بأسرها، ومن جهة ثالثة فإن هناك مشاكلنا الاقتصادية التى أصبحنا معها ننظر إلى الداخل أكثر من نظرتنا للخارج، ونتيجة كل ذلك أصبحنا لا نرى أن ما يحدث فى العالم ويُسمى بالعولمة هو شىء تشكَّلَتْ بالفعل أجزاءٌ كبيرة منه، بينما القدرة الواقعية على التعامل مع التحديات لا نملكها لأسباب عدة تتعلق بتجربتنا التاريخية خلال الخمسين عامًا الماضية.
وبمعنى آخر، رأينا الاتحاد السوفيتى كملاك ولم يكن ملاكًا، ورأينا العولمة كاقتراح وهى ليست كذلك، وبعضنا ينظر إلى الولايات المتحدة كأنها ملاك والآخر ينظر إليها وكأنها شيطان وهى ليست هذا أو ذاك؛ وإنما هى قوة

عالمية لها مصالح، وعليك إما أن تختلف مع هذه المصالح فتصطدم، أو أن تخضع لها، أو أن تربط تلك المصالح بمصالحك، هذه هى النظرة العلمية... لكنها نظرة منقوصة فى ثقافتنا، وهى كذلك سبب النظرة غير الواقعية للعولمة وغير العولمة.

• يَكْثُرُ الحديث عن الهوية الثَّقَافِيَّة... فهل تعتبر أن الخطر الزاحف نحو إبادة هذه الهوية يأتى من الداخل المختلف على ذاته أكثر من مجيئه من الخارج المنشغل بذاته؟

إلى حدٍّ بعيد أوافق على أنه ليس هناك ذئبٌ فى الخارج ينتظر لحظة الانقضاض على هويتنا لالتهامها، وكذلك أوافق على أن هناك صراعًا وتحديات لا تهدف بالضرورة إلى طمس هويتنا؛ لأنه ليس هناك عائد يمكن أن تستفيد من ورائه أي جهة، فى رأيى أن الداخل المصرى هو المهم أولًا وأخيرًا؛ لأننا بحاجة إلى أن نبنى داخلًا قويًّا من الناحية الاقتصادية والتعليمية والثَّقَافِيَّة، وهذا كفيل بالتعامل الجيد مع التحديات بوجه عام.

وإن كنت لا أزال أؤكد أن هدم الهوية الثَّقَافِيَّة يأتى من الداخل أكثر من الخارج، ودعنى أسألك: إن ضاعت اللغة العربية خلال الخمسين عامًا القادمة وأصبح المصريون لا يجيدونها قراءة وكتابة.. فهذا فى اعتقادك بفعل من؟ أنا أجزم أنه بفعل الداخل؛ لأن برامجنا التعليمية -وتحديدًا طرق تدريس اللغة العربية- لا تزال منفِّرة للأجيال الجديدة، وهذه نظرة ليست تشاؤمية؛ بدليل أن علماء اللغة العربية أنفسهم يؤكِّدونها صباح مساء، إن اللغة مكوِّن محورى من مكونات الهوية.

• فى الحديث عن مشروعك الثَّقَافِىّ ذكرت ضرورة الارتباط الخاص والمراجعة الذاتية لمرحلة الخمسينيات والستينيات.. فما أهمية ذلك من وجهة نظرك؟

أؤمن أن مشايعة فترة الستينيات لمجرد الارتباط العاطفى هو خطأ فادح يماثله خطأ الهجوم عليها؛ فليس من المفترض أن تكون علاقاتنا بمرحلة تاريخية تقوم على صلة عاطفية تجعلنا نحب ونكره، لكن الشىء الطبيعى والمنطقى هو المراجعة الموضوعية لكل مرحلة منها؛ لأن المشكلة تكمن فى أن الذين يرفضون فترة الخمسينيات والستينيات إنما يفعلون ذلك لحساب ما قبل 1952، وأيضًا الذين يحبُّون فترة الستينيات يفعلون العكس، وكلا الطرفين على خطأ، فنحن فى حاجة لأن نؤكد لأنفسنا أن مسيرتنا خلال نصف القرن الماضى كانت مَشُوبَةً بالأخطاء، وبالتالى لا بُدَّ من التعرف على هذه الأخطاء، وأن نتحمل النقد الذاتى، وأن نمارسه بأنفسنا، وأن نفعل ذلك دون أن نستثنى منه أية مرحلة.

• كيف جاء كتابك "نقد العقل العربى" تتويجًا للبانوراما الفِكْرية بينما كان من المنتظَر أن يكون أولها؟

فى بداية مشوارى مع دنيا الثّقَافَةِ انْصَبَّ اهتمامى على دراسة الفِكْر الاشتراكى بمذاهبه ومدارسه، وقد علّقنا على هذا الفِكْر آمالًا كبارًا، لكنه لم ينجح فى تحقيق الأهداف المرجوة منه والتى كنا ننشد منها الخير لمصر، ثم بعدها انصرفتُ إلى دراسة المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى كان يغوص فيها الواقع المصرى بأسره، ووصلت إلى قناعة خاصة مؤداها أن المشكلة -أيًّا كانت- لا تكمن فقط فى النظام الحياتى أو النظام السياسى، وليست كذلك فى النظام الاقتصادى؛ وإنما تكمن بحقٍّ فى آلية الفِكْر نفسه؛ فبدأت أظن أن المشكلة ليست خارجنا؛ وإنما هى داخلنا أيضًا، وحينما لاح فى الأُفُقِ مؤخَّرًا مفهوماتٌ جديدة عن حوار أو صدام الحضارات أخذتْنى عدةُ تساؤلات مُلِحَّة، منها: مَنْ نحن فى مواجهة الآخر؟ وعكفت على دراسة ما يسمونه عيوب تفكيرنا المُعَاصِر، فى إطار تجربتى الممتدة إلى نحو عشرين عامًا وسط حشد من الجنسيات المختلفة، فكنت أرى أن هناك خلافات أساسية فى مناهج التفكير بيننا وبين الآخرين؛ نظرًا لعيوب تأكدت فى واقعنا، وبالتالى كانت بداية تناولى لقضية العقل العربى.

• تسيطر على العقل العربى فِكْرَة محورية يحاول أن يعايشها أو يتكيف معها وهى فِكْرَة التآمر من قِبَلِ الآخر... هل يمثّل ذلك أيديولوجية العَجْز؟

نعم.. هناك أعداد متزايدة تؤمن بذلك، وأرى أن سيطرة هذه الفِكْرَة هى غاية فى الخطورة، وأقول لو كانت هناك مؤامرة فليست هى التى ستحدِّد الواقع والمُسْتَقْبَل، وإنما الواقع والمُسْتَقْبَل يتحددان طبقًا لمعطيات أخرى، ولك أن تتساءل معى إلى أين ستصل حدود المؤامرة؟ فهل تحدد على أساسها مصير بلد كاليابان أم حَدَّدَ مصيرَ اليابان ذلك النظامُ الاجتماعى والاقتصادى الناجح وتلك العزيمة والإرادة والرغبة والتفوق، بمعنى أنه بعد عشر سنوات من ضرب اليابان استطاعت أن تغزو العالم! أقول لو كانت هناك مؤامرة فهى موجودة ومؤثرة، ولكنها غير مقرِّرة، وإذا لم تكن موجودة فإن هناك صراعًا عالميًّا، وليس كل صراع بالضرورة مؤامرة، وفى اعتقادى أن العيوب الأساسية -التى جعلتنا فيما نحن فيه- موجودة داخل المجتمع، وإذا رصدنا هذا العيوب وتعاملنا معها فإن المؤثرات الخارجية ليست قادرة على تحديد شكل الحاضر والمُسْتَقْبَل، وأنا بذلك أريد أن أُعلى من شأن الإرادة المصرية؛ لأن الإيمان المطلق بفِكْرَة المؤامرة يجعلنا ننتهى إلى أن المؤثِّر فى الخارج وليس فى الداخل، وأنا أريد أن يكون العكس.

• هل يتفق طارق حجى مع الرأى القائل بأن طبيعة التفكير الأحادى هى الطبيعة المستحوذة على مساحات عريضة داخل العقل العربى؟

بالطبع، وبنسبة مائة فى المائة لا يتمتع العقل العربى برؤية متعددة، وليست هذه عيوبًا أيديولوجية أو عرقية يمكن اعْتِبَارها أسبابًا مباشرة لذلك، وإنما تكمن الأسباب الحقيقية عند تأمل تاريخ الفِكْر العربى وما ساده من تيارات، وبالتالى أصبحت تقع علينا مهمة كبيرة فى تقديم التُّرَاث متزنًا جانبه العقلى

مع جانبه النقلى حتى يعرف العالم أننا لسنا حَمَلَةَ سيوف، وأقول إن العقل العربى المُعَاصِر هو عقلٌ أحادى النزعة؛ لأن وراءه ألف سنة من النقل، وبالتالى لا بُدَّ أن ننطلق به ونُحدث ثَوْرَة فى داخله ونحرره من أزمته الكبرى أمام معطيات العصر الحديث، وذلك بتخليه عن تلك الثَّقَافَة الثقيلة التى تَحُولُ دون مصالحته لعصر يعيشه.

• هناك مقولة للدكتور زكى نجيب محمود تشير إلى الطبيعة المزدوجة لهذا العقل، وهى: "نحن نقبل الحضارة ونرفض نتائجها".. فكيف تراها؟

شرف كبير لى أن أتَّفِقَ مع مقولة مُفَكِّر فى وزن الدكتور زكى نجيب محمود، الذى سوف يأخذ من فِكْر هذه الأمة أضعاف ما أخذه، وستعرف الساحة الثَّقَافِيَّة -بل مصر كلها- أنها قد قصَّرت فى حقه... ولعل هذه المقولة تعبِّر أصدق تعبير عن ازدواجية العقل العربى فى رفض الغرب فِكْريًّا وفى ذات الوقت تقبل ثمارَ فِكْره! والحقيقة أن الفصل بين الجانب المادى التقنى التكنولوجى والجانب الثَّقَافِىّ قضية لا أساس لها من الصحة؛ لأن الثَّوْرَة العلمية فى الغرب هى ثمرة للثَوْرَة الثَّقَافِيَّة وليس العكس.

• هل تعتبر أن الثَّقَافَة العربية عامة والثَّقَافَة المصرية على وجه أخص تعانى نوعًا من القلق الثَّقَافِىّ أو أنها تعانى أزمة حادة وسط الثقافات المُعَاصِرَة؟

أنت تلمس وترًا موجعًا من أوتار الثَّقَافَة، نحن لدينا ميول فطرية نحو الكلام المتضخ، حتى إنه قد أصبح يمثل جزءًا حيويًّا من ثقافتنا المُعَاصِرَة.. لكن السؤال هو: لماذا؟ والجواب هو أن الواقع غير مُتْرَعٍ بالإنجازات، وبالتالى كانت اللغة السائدة ليست لغة الإنجازات، وإنما هى لغة الفراغ!

• إذن أنت توافق على أن المثقفين يتكلمون لغة الفراغ؟

إلى حد بعيد، وعدد كبير منهم تُتحفهم تلك اللغة، ويكفى أن أشير إلى ما دار من حوار ثَقَافِىّ كشف من جانبهم عن أعلى درجات الحماس للتاريخ الفرعونى، ثم اكتشفت أنه لا يوجد منهم من يعلم أن رمسيس كان من الأسرة التاسعة عشرة! وهذا يعنى أنك تعتز بشىء لا تعرفه، وبالتالى فالاعتزاز موقف عاطفى وليس عقليًّا!

• ما هى أخطر قضية يجب أن يطرحها العقل العربى فى أزمته الراهنة؟

بلا أدنى تردُّد قضية التعليم يجب أن تكون لها الأولوية المطلقة فى الطرح؛ لأنه دون خطط تعليمية منتجة سوف تستمر فى إفراز وتخريج كائنات بشرية تحمل نفس العيوب، وتزداد عزلةً عن العالم الخارجى، فى الوقت الذى ينظر فيه هذا العالم إلينا نظرة من يتكلم بلغة مغايرة عن تلك التى نتكلمها نحن، فدون ثَوْرَة شاملة فى التعليم لن نصل إلى شىء.. ثَوْرَة تبدأ بالكيف قبل الكم، ولا شك أن هذه الثَّوْرَة ستكون لها انعكاسات مباشرة على العيوب الموجودة فى التفكير العربى.

• تحدثت عن العزلة.. فما هى انعكاسات هذه العزلة على المُثَقَّف المصرى؟

المُثَقَّف المصرى يعيش حتى الآن على أرضية الستينيات، وأقرب مثل لذلك هو أنك عندما تتحدث عن مصطلح العولمة تجد أن تسعة وتسعين بالمائة من المثقفين يتكلمون على أساس أن من حقك أن تُوقف قطار العولمة، بينما هو سائر، والبعض يملك أن يذهب إلى منزله ويغلق عليه بابه وشباكه، أما القطار فلن يتوقف، ولا بُدَّ من التعامل طبقًا لشروطه التى كانت صعبة ولكنها ليست مستحيلة. ولقد أعجبنى تعبير د. نصر أبو زيد، الذى يعتبره الغرب قيمة ثَقَافِيَّة؛ إذ أنتج مفهومَ العولمة حيث قال إن القوى العظمى فى كل زمان تحاول أن تفرض قيمها ومبادئها، وكل قوى عظمى سابقة حاولت ذلك، فالمحاولة كانت على أكبر فائدة وأقل ضرر.

• أعتقد أن جملة آرائك فى الفِكْر العربى والمُثَقَّف المصرى يمكن أن يمثلها ما حدث بالضبط من هجوم بشع على أديب مصر الكبير نجيب محفوظ؟

بعد أن قرأت كتاب اعترافات نجيب محفوظ انتهيت بتقدير كبير للطرفين، لكن علاقتى الوثيقة بالثَّقَافَة الغربية تجعلنى فى ذهول دائم؛ لأننى لا أرى أى مبرر لهذه الثَّوْرَة العارمة على محفوظ الذى يملك عن جدارة مطلقة أهلية الحكم على ثَوْرَة يوليو ورجالها، ثانيًا إنه كأديب كبير له حق الاختلاف وله أن يقول ما يشاء، ولعل هذه الثَّوْرَة تُثير لدينا تساؤلات عديدة، منها: هل نجيب محفوظ مُطالَب بأن يرضى البعض؟ لا... هل نجيب محفوظ له قدر كبير من الحكمة؟ نعم... هل هو مخطئ أم مصيب؟ مسألة نسبية. وسر تلك القضية بحذافيرها يرجع إلى أن معظم المثقفين كما قلت مرارًا يعيشون فى وجدان الستينيات التى هى قُدْسُ الأقْدَاسِ، ومن يقترب منه تُرمى عليه مياه النار! ودعنى أسأل الذين هاجموا محفوظ عن مساحة الحرية التى أعطيتموها إيانا إذ صادرتم هذه المساحة لدى محفوظ، أليس من حق الجماعات الدينية أن تصادِر حديثنا جميعًا؟!. ماذا لو جاء إليكم أديب ومُفَكِّر مثل "سارتر".. ماذا أنتم فاعلون؟ إنها فى النهاية قضية مناخ ثَقَافِىّ ورؤية مستقلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إبراهيم بيومى مدكور.. تُرَاثنا سر الجِقْد المتفجر علينا

لم يكن لقاءً له أن ينتظر المصادفة، لكن من له سلطان عليها إذا أتت، فقانون المصادفة دائمًا هو منفلت من أَسْرِ معياريات الزمن.. لم يَجُلْ بخاطرى يومًا أن ألتقيه؛ لأنه كان عازفًا عن الأضواء، يعيش فى معبد اللغة وعوالمها، ودائمًا ما يداعب خياله أولئك الراحلون من أقطابها، يؤلمه كثيرًا تردِّى أوضاع اللغة، يذوب حسرة على تفكُّك اللسان العربى... وجدتُه يقف صامتًا فى خشوع العابد أمام المجمع اللغوى.. محرابه الأكبر، كان فى انتظار سائقه... دنوتُ منه وطلبت اللقاء... اعتذر فى أدبٍ جَمٍّ لكثرة شواغله، لكنه قد سأل إن كانت هناك ضرورة ما لهذا اللقاء، فقلت: الضرورة الوحيدة أنها حوار مع آخر الخالدين!

• عن المقولة التى تتردد دائمًا.. والتى مؤداها أن لغتنا الجميلة تعيش محنة حقيقية وتجوب آفاق الخطر... إلى أى مدى -وأنت رمزٌ للغة الضاد- تستطيع أن تقرِّر حقيقة ذلك؟

نعم.. هى فى خطر كبير يدعو إلى التخوُّف على حاضرها ومُسْتَقْبَلها. وما رأيت لغة فى العالم المُعَاصِر تعانى مثل لغتنا العربية؛ ذلك لأن المدرسة والبيت معًا لا يؤديان الرسالة التى يُعَوَّلُ عليها فى النهوض باللغة نحو الوفاء بمتطلبات الحياة الحاضرة التى نعيشها، وإن كانت اللغة فى ذاتها قادرة على الوفاء بمثل هذه المتطلبات، لكن ما تعانيه اللغة هو القصور والتقصير فى أدائها وممارساتها، وما يدعو للغرابة بحق هو البحث عن أسباب وبواعث هذا التقصير؛ فالمدرسة -التى هى مُنْشَأةٌ تعليمية تربوية- لم تَعُدْ لها هذه الوظيفة، فكيف ننتظر أن يكون للغة شأن بين أهلها فضلًا عن البحث لها عن شأن فى المحيط الإنسانى؟

أما البيت، فقد ساعدَ عددٌ من العوامل الاجتماعية على أن تقصِّر الأسرة فى دورها، بل فى وظيفتها نحو النشء، وإذا كان هذا هو موقف المدرسة والبيت فلا بُدَّ فعلًا من أن تكون لغتنا الجميلة العريقة الرصينة فى خطر كبير!

• اللغة والفِكْر.. قضية لها أصداء كبرى فى الأدبيات العربية والأوروبية، وتمثِّل أحد أهم دعائم الوجود الإنسانى بجانب كونها تمثِّل جدلية فلسفية تتبلور فى الترابط والاستقلالية.. فما هى انطباعاتك عنها؟

لا بُدَّ ان نقرر أنه إذا كانت اللغة ثمرة للتفكير، فإنها شرط أساسى لوجوده وتحقُّقه على وجه كامل، وهذه الصلة بين الفِكْر واللغة هى صلة تفاعل وتلازم؛ فللغة أثر قوى فى التفكير، فهى إلى مدى بعيد مادته ودعامته؛ لأن الدال والمدلول متلازمان، وقَلَّ أن يُستحضر أحدهما فى الذهن دون الآخر، وقد أكد ذلك "أرسطو" فى جملة خالدة مؤداها أنه ليس ثمة تفكير بدون صور ذهنية. وللحياة الفِكْرية أثر فى نهضة اللغة ونموها، فلولا تجدُّد المعانى وتباينها ما تجددت الألفاظ ولا تنوعت التراكيب، ولولا عمق الفِكْرَة وتجددها ما كانت

دقة اللفظ وتخيره، من ثَمَّ فثروة اللغات تتفاوت فيما بينها تبعًا لنشاط وديناميكية الحياة الفِكْرية وتَقَدُّم العلوم والفنون.
• كيف تصبح اللغة نواة لمشروع حضارى يحقِّق الطموح القومى لأمة باتت خارج التاريخ؟
إذا كان العرب اليوم يريدون أن يلتفّوا حول مشروع حضارى يجمعهم -بعد أن فرقتهم النوازع والأهواء السياسية- فلن يكون ذلك إلا حين يؤمنون بعروبتهم وعربيتهم، ويؤكدون ذاتها وسط اللغات الأخرى التى يتباهى ويتفاخر بها أصحابها، وكم عز أقوام بعِزِّ لغات كما قال شاعرنا "حافظ إبراهيم".
• كيف تراجَع دور المجمع اللغوى فى الحفاظ على كرامة اللغة فى ظل ما نعيشه من هبوط وإسفاف حتى صار حديث العامية فضيلة؟
ليس دفاعًا عن المجمع، فقد أدى على مدى ستين عامًا رسالة متصلة فيما يتعلق بتيسير اللغة نحو أداء متطلبات الحياة الحاضرة ثَقَافَةً، ودراسةً، وحديثًا، وخطابة، كان سبيله إلى ذلك هو إخراج معجمات لغوية جديدة وُضعت لتتماشى مع رُوح العصر، فضلًا عن مراجعة كتب النحو القديمة، واختيار نصوص صالحة للنشء، فى إطار دوره الخطير نحو إخراج المعجمات المتخصصة مثل المعجم الطبى ومعجم المصطلحات الذى يقدِّم شرحًا كاملًا للدلالات الاصطلاحية التى يتعارف عليها الدارسون فى العلم والأدب، وفوق ذلك هناك عمل اللجان؛ مثل لجنة ألفاظ الحضارة التى تتَبع الألفاظ والمعانى الجديدة فى الأوساط الثَّقَافِيَّة العالمية لكى تنقلها فى أداء عربى صرف، وكذلك لجنة الهندسة والطب والتاريخ والقانون والطبيعة؛ من أجل تأدية المعنى العلمى والحضارى... وأعتقد أن فى ذلك دلالة كافية للعناية باللغة المُعَاصِرَة ممثلة فى هذا الإنتاج.
• التُّرَاث العربى الإسلامى طالته اتِّهَامات كثيرة كيف يمكن تأكيد تَقَدُّميته؟
الحقيقة أننا أُمَّة ذات تُرَاث مجيد، وهذا التُّرَاث كان هو سر الجِقْد المتفجر علينا من شعوب أخرى استكشفت عظمته ووعت خصوصيته، وبالتالى حاولت أن تقلِّل منه وتضربه فى مقتل، وما أجدر هذا التُّرَاث بأن يردنا إلى نهضة كبرى كالتى كانت... نهضة ثَقَافِيَّة، دينية، اجتماعية، لكنها فى النهاية نهضة عصرية، يجب أن تكون هى غايتها التى من أجلها تُسَخَّرُ كل الطاقات العلمية والفِكْرية فى المعاهد والأكاديميات؛ لأن هذا التُّرَاث ما زال محل إشعاع واستلهام، ومصدر علم ودراية عند شعوب كثيرة!
• لأى مدى يمكن أن ترتبط أزمة اللغة أو محنتها بالأزمة الحضارية السائدة؟
نعم.. نحن نفترض أن اللغة ظاهرة اجتماعية تسير بسير الزمن وتتطور بتطور المجتمع، ولم يصل هذا الإيمان إلى درجة من درجات اليقين قدر ما وصل اليوم؛ فنحن نعيش عصر التقنية والمعلومات، ونرى ونسمع ما يدخل فى اللغة من ألفاظ وتراكيب جديدة دعت إليها ظروف الحضارة، وما دام الفِكْر قد تجدَّد فلا بُدَّ من أن تتجدَّد اللغة معه تلقائيًّا، ولا بُدَّ لكل فِكْرَة جديدة من

لفظ جديد يؤديها. وعندى أن اللغة الجامدة الراكدة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، وجمودها هذا فى الغالب صدى لجمود الناطقين بها، فإن تحركت تحركت معهم لا محالة. ووضعية العرب والعالم العربى نحن اليوم أعلم بها، ولا يستطيع أحد أن ينكرها فضلًا عن أن ينكر آثارها، وأنا أعتقد أن مفتاح الأزمة الحضارية يكمن فى اللغة؛ لأن جوهر هذه الأزمة فى رأيى يبدأ وينتهى من إشْكَالِيَّة المفاهيم التى هى أول خطوة على الطريق إذا أردنا حضارة وتَقَدُّمًا ووقوفًا بارزًا فى الساحة اليوم.

• أنت كمُفَكِّر إسلامى مستنير... ألا ترى أن تناقضات العالم الإسلامى قد باتت تمثِّل ظاهرة تستوجب التحليل والتَفْسِير؟

الحقيقة أن العالم الإسلامى قد أصبح -مع شديد الأسف- أضحوكة كبرى ولعبة تحركها وتوجهها أنامل الغرب حيثما شاءت، وهو فى هذا يكتفى بقرارات الشجب والإدانة والاستنكار، ويُبعد عن عقله -وحتى عن خياله- أنه قد أصبح يعيش فى دنيا يحكمها منطق القوة ليس غير، ولا وجود فيها إلا لمن يؤكد وجودَه بالفعل، أما من ينتظر غيره أن يقوم له بهذا الدور فهو ينتظر ما لا يجىء!

وأنا أعتقد أن الإسلام اليوم مقهورٌ بالمسلمين، ومحجوب عن الدنيا بهم، كما قال محمد عبده منذ تسعين عامًا، أو كما اعتقد "مالك بن نبى" المُفَكِّر المعروف أن سر تخلف المسلم اليوم هو عقوبةٌ من الإسلام؛ لعدم نصرته إياه، وإن كنت آمل دائمًا أن تكون للإسلام القوة والمنعة والغلبة والسِيَادَة كما كانت له من قبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مصطفى إبراهيم فهمى.. الإحباط المُسْتَقْبَلِىّ لنَظَرِيَّة كل شىء

الحقيقة بسيطة وجميلة، والكون بكل غموضه وأسراره لا يزال يمثِّل مادة خصبة مثيرة تستلفت اهتمام العلماء الذين يعكفون على دراسته ويخرجون علينا بالعجائب التى تمثل نوعًا من تحدى الذكاء البشرى، فما إن تظهر نَظَرِيَّة تقوم بالتَفْسِير والتحليل والتعليل حتى تصححها أخرى أو تضيف إليها، مما يؤكد أن الحقائق ليست ثابتة وتتغير بمرور الزمان. وما لم يحدث من قبل هو ظهور ثلاث نَظَرِيَّات فى تَفْسِير وتوصيف الكون تُعتبر ثورات ثَقَافِيَّة فى هذا الوقت الوجيز من القرن العشرين، تجسيدًا للمناخ العام للفِكْر، واتفاقًا مع نمو وارتقاء الحضارة. إذن هل من سبيل لنَظَرِيَّة موحدة تستوعب هذا الكون بكل مشكلاته وقضاياه؟ إنها بالفعل أصبحت موجودة، وتُعتبر إشراقة جديدة فى فلسفة وتاريخ العلم وجولة رائعة فى آفاق وضروب الزمان والمكان، تحدد علاقتنا بالكون وتحسم تساؤلات محيِّرة وتعكس المقولة القديمة فى هذا الكون... الأسئلة هنا والإجابات هناك!. نعم... الإجابات هناك، لكن ذلك لم يكن مدعاة لإحباط قدر ما كان دافعًا حيويًّا لإطلاق طاقات الاستزادة، فقد امتلأت نفسى شغفًا شعوريًّا وعقليًّا بـ"هوكينج" كأسطورة علمية خارقة، مارست معها هواية العزف الذهنى بقراءة كتابه تاريخ موجز للزمن، الذى تبوأ به مقامات الريادة؛ لأنه مثَّل نقلة نوعية تَهَالَكَ العلماءُ على أثرها إيغالًا فى فهم أضابير الكون، ولم يكن من سبيل إلا مغامرة السفر إلى قلب لندن ثم إلى بيته وعقله. لملمتُ كلَّ ما كتبتُه عن نَظَرِيَّاته وأفكاره ومواقفه وراسلت مكتبه بجامعة كامبريدج ليضرب لى موعدًا ويطرح برنامج اللقاء وكيفيته، وبالطبع جاء دور القدر ليعصف بأمل عزيز، وتراسلنى مساعدته البروفيسورة "جوديت"، لتخبرنى بأن "هوكينج" يحاضر فى محافل أمريكا، لكنه فى طريقه إلى مدينة الضباب، ولا تعلم يقينًا أيُتاح له وقت لهذا اللقاء، خاصة أن زيارتى تُعَدُّ خاطفة، وربما تُقارِب نهايتها قبل أن يصل!

وقد مَثَّلَ لدىَّ خِطَابُ "هوكينج" -الذى أحفظه فى خزانة أوراقى الخاصة- سعادة لامستُ بها النجوم، لكنى لم أستطع مقاومة نفسى من إلحاح شديد بضرورة أن يقرأنى "هوكينج" فيما سجلتُه عنه، ليعلم أن هناك فى العالم العربى من يستقصى مسارات حركة العلم ويتتبع مغارات التيارات الفِكْرية والسياسية وعمق التحورات المجتمعية، فى محاولة لنزع تلك الصفات الشائعة عن العرب وعالمهم، والإسهام فى بلورة صورة مغايرة عن الانطباعات التاريخية لدى الغرب، الذى ما زال يقبع خلف عدسة لا تعرض غير مشهد ثابت يعكس إصرارًا يُنافى طبائع الزمن والبشر.

•)تاريخ موجز للزمان(كتاب هز العالم... وقد شاركتَ فى تلك الهزة بنقلك للكتاب إلى العربية... من هو "ستيفن هوكنج" مؤلف الكتاب؟

أشهر عالم رياضيات.. ويشغل كرسى "إسحق نيوتن" بجامعة كمبريدج، لديه مرض بالجهاز العصبى سبب له ضمورًا فى العضلات فأصبح قعيد كرسى متحرك، ومع بداية هذا المرض أخبروه بموته بعد سنتين على الأكثر، فتوقفت أبحاثه وأصابه اليأس، لكن الحب هو الذى ربطه بالحياة مرة أخرى فتزوج وأنجب، وخلاصة جهوده فى تلك الفترة بحوثه فيما يسمى بالثقوب السوداء، وهى تلك الأجرام السماوية الكبيرة التى تتقلص فى طور من أطوار حياتها ثم تنكمش وتصبح غير مضيئة فيتكون الثقب الأسود الذى لا يُرى ولا يمكن إدراكه إلا عن طريق تأثيراته.
و"ستيفن هوكنج" لا يستطيع الكتابة نتيجة ضعف عضلاته، كما أن التنفس غير المنتظم أحدث له التهابًا رئويًّا أدَّى لشق الحنجرة، مما أفقده صوته، فقدَّمت له شركات الكمبيوتر أجهزةً خاصة تستقبل كلماته التى تخرج شبه مفهومة، كما خصصت الإذاعة البريطانية مبلغ خمسة ملايين جنيه أسترلينى لعمل فيلم تسجيلى عن حياته، ورغم أن عمره يناهز الخمسين عامًا، فإنه طاقة ينتظرها مُسْتَقْبَل العلم.
• ما هى القيمة الحقيقية لهذا الكتاب؟ وهل يمثِّل أطروحة جديدة هزت الأوساط العلمية وأصابتها بنوع من القلق المعرفى؟
هذا الكتاب يُعتبر أحد علامات الطريق فى فلسفة العلم نحو اكتشاف نَظَرِيَّة كبرى موحدة للكون، وهو حلم كثيرًا ما راود معظم علماء الطبيعة، وآخرهم "ألبرت أينشتين"، كما أنه من الكتب التى أحدثت ثَوْرَة فِكْرية فى العلوم... فإذا كانت المبادئ الرياضية لنيوتن تُعتبر خطوة رائدة، وكذلك نَظَرِيَّة النسبية وآثارها فى تنظير العلم، فإن نَظَرِيَّة "الكم النسبية" لستيفن هوكنج فى تسلسلها المنطقى تمثِّل نقلة هائلة نستطيع بها أن نفسِّر كل شىء، كما يمكن أن تتحكم فى أى شىء، ولو أتيحت لها تطبيقات عملية فسيكون لها آثار خطيرة وبعيدة المدى، ولكن ما يعوق هذه النَّظَرِيَّة هو عدم توافر الوسائل المادية لإيجاد معجل بطاقة مائة بليون G.V.
إن الوصول لنَظَرِيَّة موحدة لتَفْسِير جميع قوانين الكون أمر بالغ الصعوبة؛ لأنه من المعروف أن النَّظَرِيَّات الكونية مثل نَظَرِيَّة النسبية العامة والخاصة تقوم على مبدأ اليقين، وتتناول بنية الكون بكل ما فيها من مجرات وأفلاك بالمقياس الكبير، بينما نَظَرِيَّة ميكانيكا الكم "لماكس بلانك" يشكِّل مبدأ عدم اليقين بؤرة اهتمامها، وتتناول ظواهر مثل الذرات والجسيمات والإلكترونيات بمقاييس بالغة الصغر. وإن ظهر أن هناك فارقًا بين النظريتين فليس لأجل أن هذه تتناول أشياء كبيرة والأخرى تتناول دراسة الأشياء الدقيقة؛ ولكن الفِكْرَة أن النسبية فيها شىء من اليقين، ونَظَرِيَّة الكم وتطوراتها وصلت إلى أن العلم ليس يقينيًّا كما يعتقد الناس، وإنما هناك احتمالات، وهذه المسألة أتت من قياس موضع سرعة جسيم صغير ما يحتّم وجود نقطة ضوء صغيرة، ونقطة الضوء هذه هى كميات من حزم إشعاعية لها تأثير ولها قوة، وعندما

أسلَطها على الجسيم الصغير تتمثل حركته، فكلما احتجت لدِقّة أقل احتجت لتغيير السرعة، مما يؤكد استحالة الوصول لليقين!!

• رغم التناقض الواضح... كيف يمكن الجمع بين هاتين النظريتين... ميكانيكا الكم -التى هى أساس الثَّوْرَة الإلكترونية- والنسبية -التى حققت خطوات خطيرة فى الفضاء-؟

حاول "ستيفن هوكنج" تطبيق ذلك عندما وصل لمسألة الثقب الأسود، الذى هو كتلة رهيبة تكثفت فيها المادة كثافة شديدة حتى أصبحت تشغل ما يمثِّل النقطة أو الصفر. ونَظَرِيَّات توحيد القوى وتوحيد جسيمات القوى تؤكد أن كل الجسيمات والإشعاعات تكوِّن شيئًا واحدًا فى البداية، وعند تغيُّر الظروف تتحول لقوى مختلفة، مما يتطلَّب بناءَ نَظَرِيَّة توحيدية؛ فحتى الآن لم يستطيعوا إلا توحيد ثلاث قوى -من القوى الأربع التى تتحكم فى الكون- وهى الكهرومغناطيسية والجاذبية النووية القوية والضعيفة. والنَّظَرِيَّة الموحدة تقول إن الطاقات العالية جدًّا للقوى الثلاث ما عدا الجاذبية يكون لها نفس الشدة، وهى أوجُه مختلفة لقوى واحدة، فلا بُدَّ من معجِّلات بطاقة مهولة لنوحِّد بها هذه القوى، وهو ما لم تصل إليه حتى الآن. وعلى أى حال، فهذا الكتاب يتصدَّر قائمة الكتب العلمية، ولا يزال أيضًا يُباع منه ملايين النسخ، كما تُرجم لجميع لغات العالم، فهزَّ الأوساط العلمية، ودويُّه موجود حتى الآن؛ فالمؤلف نجم علمى، والكتاب أطروحة جديدة.

• هل تعتقد أن "هوكينج" كان موفَّقًا فى صياغة نَظَرِيَّة "الكم جاذبية" التى تجمع بين النَّظَرِيَّات المتناقضة؟

كان موفَّقًا لحدٍّ كبير جدًّا فى الصياغة وبلورة الأفكار، ويكفى أنه أثار المشكلة وأثار أساسًا نظريًّا قويًّا لها يمكن أن يكمله غيره إن لم يكملْه هو، فالبحث العلمى شاق، ويمكن أن يقوم به أفرادٌ كثيرون، والأفكار العلمية التى تظهر لا بُدَّ أن تسبقها خلفية علمية قوية، ومع أن هذه الأفكار تراود ذهن أكثر من فرد، لكن هناك واحدًا فقط يستطيع جمعها وصياغتها، وهذه قيمة كبرى من أجل وجود نَظَرِيَّة موحدة لو ثبت تطبيقُها فأقل تكريم يمكن تقديمه هو حصوله على جائزة نوبل فى العلوم.

• ما هو مفهوم الزمان عند "ستيفن هوكنج"؟

الزمان عنده له ثلاثة معانٍ، أولها السهم النفسى، وهو الاتجاه الذى نحس فيه بمرور الزمان ونتذكر الماضى وليس المُسْتَقْبَل، والسهم الكونى، حيث يتمدد فيه الكون بدلًا من أن ينكمش، والأخير هو السهم الديناميكى للزمان، وخلاصته أن هناك نزعةً فى الكون نحو الاضطراب وليس نحو الانتظام، وإن بدا ظاهريًّا أن هناك نظامًا فهو على حساب شىء آخر حدث فيه اضطراب أكثر! مما يطرح سؤالًا هو: الكون.. إلى أين؟

فإذا تمدد الكون ووصل إلى الانكماش فى المُسْتَقْبَل هل يعود الزمان كما كان؟ ولو عاد فهل يرى البشر موتَهم قبل ميلادهم؟ إن بداية الكونِ هو

الانفجار الكبير، وهى نَظَرِيَّة سائدة نتيجة أنه كانت هناك كتلة كثيفة جدًّا فى حجم صغير جدًّا يولِّد حرارة هائلة من وجود تجاذب شديد، وهذه الحالة يسمونها مفردة لا تنطبق عليها قوانين العلم، وتنهار أمامها كل قدرة التنبؤ بالمُسْتَقْبَل، ومنذ ذلك الانفجار حدث التمدد، وكلما زاد هذا التمدد زادت البرودة، إذن هناك قوتان متضادتان.. قوة الانفجار وقوة البرودة التى تُحدث الانكماش.. فما المصير؟

إن هناك ثلاثة احتمالات أو سيناريوهات لهذا الكون، أن تتغلب قوة التمدد، ووقتها لن يكون هناك انكماش أبدًا، أو أن الكون يتمدد ولكن سرعة تمدده لا تصل للدرجة التى تسمح بانكماشه، أى أنه متمدد للأبد بسرعة تقل تدريجيًّا، وعمر هذا التمدد خمسة عشر بليون سنة، وهو نفس الرقم الباقى لفناء الكون!

• السيناريو الأخير يشير إلى أن الكون سوف ينكمش ثانية ويعود كما كان.. فهل يعود الزمان أيضًا؟

إن "ستيفن هوكنج" يؤكد القانون القائل بأن الأشياء تنزع دائمًا لأن يختلَّ نظامها، ويدلِّل على ذلك بالقدح السليم على المائدة، الذى هو فى حالة نظام، والقدح المكسور على الأرض، الذى هو حالة اضطراب، فمن السهل أن يمضى الإنسان من القدح الموضوع على المائدة فى الماضى بشكل أيسر من الوصول إلى القدح المكسور فى المُسْتَقْبَل، وليس من السهل المضى فى الطريق العكسى. وإذا كان الكون سينتهى إلى درجة انتظام عالية، فمن المحتمل أنه كان فى حالة اضطراب فى العهود المبكرة، وهذا يعنى أن الاضطراب سيقلّ بمُضِىّ الوقت، وسوف نرى أقداحًا تضم أنفسها معًا وتثب للمادة، وعلى هذا فإن أى كائنات بشرية توجد فى كون يقل فيه الاضطراب بمضى الوقت فسيكون لها سهم نفسى للزمان يتجه للوراء، أى أنهم سوف يتذكرون أحداث المُسْتَقْبَل ولا يتذكرون الأحداث فى الماضى!

• وهل أمكن الرد على كل ما هو مطرُوح فى الكتاب من قضايا وتساؤلات؟

هذا مستحيل... لكن هناك احتمالات علمية تُثيرها نقاط عديدة، هى من أين أتى هذا الكون؟ كيف ولماذا بدأ؟ هل يتمدد للأبد أم سينكمش؟ ما مصير النجم؟ هل ينطفئ فيصبح ثقبًا أسود؟ إن إحدى نتائج نظريته هذه أن الكون لا بداية له ولا نهاية! وأن الثقوب السوداء ليست سوداء؛ وإنما يشعّ منها ضوء، مما يغير وجهة النظر القائمة؛ فعلى الرغم من وجود مستحدثات العلم، فليس هناك حلول قاطعة؛ فكلما وصلت لشىء ترتبت عليه مشكلة؛ فمثلًا التَّقَدُّم العلمى أصبح ثمنه تلوث البيئة، ومع أن هذا التَّقَدُّم يجيب عن العديد من التساؤلات، فإنه يقدِّم تساؤلات جديدة، وعلى مستوى أعلى، فالعملية مستمرة لا تنقطع ما دام الإنسان موجودًا.

• إذا كان الخيال يمثِّل أهـمية كبرى للأدب.. فهل يمثل نفس درجة الأهمية بالنسبة للعلم؟ وهل أصبح أحد مقوماته؟

العالِم -خاصة إذا كان من أصحاب النَّظَرِيَّات الكبرى- لا بُدَّ أن يكون نَشِطَ الخيال؛ لأن الأساس النَظَرِىّ الذى يقيم عليه نظريته موجود أمام كل العلماء، بل أمام كل الناس، فالخيال مطلوب. والوصف الشائع بين العلماء فى وصف النَّظَرِيَّات أنها جميلة جدًّا؛ فجودة النَّظَرِيَّة فى بساطتها، وجمالها يعنى تناسقها العلمى، والذين اكتشفوا الجزء الأساسى فى الوراثة وأخذوا عليه جائزة نوبل قال أحدهم: أنا وصلت للحقيقة، والحقيقة دائمًا بسيطة وجميلة.
إن الوصول لشىء مُتَّسِق لا بُدَّ له من خيال؛ لأنه لم يكن قبل ذلك مُتَّسِقًا، فلا بُدَّ من تخيُّله فى صورته المثلى، ووضع الفروض فى البحث العلمى يمثِّل قمة الخيال فى العلم.

• ماذا يعنى "هوكينج" بالمبدأ الإنسانى القوى والضعيف؟

المبدأ الإنسانى يؤكد أنه لا حياة فى هذا الكون إلا على كوكبنا، وأن الكون قد خُلِقَ من أجلنا، ولو كانت هناك كائنات أخرى فلِمَ لا يتصلون بنا ولو كان عن غير طريق اللغة؟ فنحن نرسل موجات ولا يستجيب أحد، فى صورة ضوء أو إشعاع، كما أن ظهور الحياة مرة أخرى عملية صعبة تتطلب بلايين السنين، وإذا كان عمر الكون خمسة عشر بليون سنة، وعمر الحياة خمسة بلايين، فلا بُدَّ من عشرة بلايين سنة حتى تظهر حياة فى مجرتنا، فإما أن هناك أكوانًا كثيرة مختلفة، وإما أن هناك مناطق كثيرة فى كون واحد.
وهناك بعض الاعتراضات ضد هذا المبدأ، منها: بأى معنى يكون القول بوجود هذه الأكوان المختلفة لو أنها منفصلة أحدها عن الآخر؟ ذلك فضلًا عن أن هذا المبدأ يسير فى اتجاه مضاد لاتجاه المد فى كل تاريخ العلم.
أما المبدأ الإنسانى الضعيف فيقول باحتمال وجود الحياة على الكواكب الأخرى، ويقرر أنه فى كون كبير لا متناهٍ فى المكان والزمان. ولو تيسَّر للإنسان أن يعرف عددًا له قدرُه من أشكال الكون الابتدائية المختلفة، لكان يمكن أن يتطور لإنتاج كون مثل الكون الذى نشهده. كل ذلك فضلًا عن استخدام هذا المبدأ الضعيف فى تَفْسِير حدوث الانفجار الكبير منذ ما يقرب من عشرة آلاف مليون سنة.

• على مستوى التساؤل العلمى أو الفلسفى.. كيف يختلف الزمان باختلاف المكان؟

أنت لا تقيس أى شىء فى الكون إلا بأبعاده الثلاثة، وهى الطول والعرض والارتفاع، وقد أضيف إليها بُعْد الزمان. وتبعًا لنَظَرِيَّة النسبية، فإن الزمان غير مطلق؛ بمعنى أن قياس الزمان لأكثر من ملاحِظ لا تكون نتيجته واحدة، وهذه النَّظَرِيَّة تجبرنا على أن نغيِّر أفكارنا عن الزمان والمكان تغييرًا جوهريًّا، فنتقبل أن الزمان ليس منفصلًا عن المكان، وإنما ينضمّ له ليشكِّلَ شيئًا يُسَمَّى "الزمان والمكان"، أما بالنسبة لمسألة اختلاف الزمان فتمثّل لها باستخدام ساعتين دقيقتين جدًّا، ثُبِّتَتَا فى قمة وقاع برج ما، فوُجِدَ أن الساعة التى عند القاع أى الأقرب للأرض تدور بسرعة أبطأ، فالفارق بينهما له أهمية

تطبيقية لها قدرها، وأيضًا لو كان لديك توأمان الأول يعيش على قمة جبل والآخر موجود عند مستوى سطح البحر، فإن الأول سيكبر بسرعة أكبر من الثاني، ولكن فى هذه الحالة سيكون فارق السن ضئيلًا جدًّا، على العكس لو كان أحد التوأمين فى رحلة فضائية بسرعة تقارب سرعة الضوء؛ فعندما يعود سيكون سنه أصغر كثيرًا من الأخ الذى بقى على الأرض.

• هل دخول العلم طور النَّظَرِيَّات الموحدة يعنى إمكانية التنبؤ بكل شىء والذى ينتهى معه دور العلم بالأساس؟

"ستيفن هوكنج" نفسه قال إنه لن يحدث ذلك؛ لأن مبدأ علم اليقين أكد لى أنه لن تكون هناك نَظَرِيَّة مطلقة يصبح معها العلم يقينيًّا وحتميًّا، ويكفى أنه حتى الآن ليس هناك معادلة يمكن أن تتنبأ بسلوك الإنسان، وحتى لو وصلنا لنَظَرِيَّة موحدة متكاملة فهى مجرد خطوة أولى نحو فهم العالم والوجود.

وهذا فى رأيى قمة التواضع والفهم للمشكلة، ومن هنا فهو قيمة علمية تؤكد أن خط العلم يشوبه التغيير باستمرار، وأننا نعيش عصر العلم والقفزات الرهيبة وثَوْرَة المعلومات، فما كان يحدث فى خمسة قرون أصبح الآن يحدث فى أقل من خمس سنوات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذكريات مُسْتَقْبَلِيَّة للمشروع الإسلامي

جارودى.. التوحيد قضية لم تترسخْ فى عقل المسلم

كنت أصارع اللحظات حتى التقيته، أتعجَّل لقاءه، أتشوَّق لجديد أفكاره ونَظَرِيَّاته، أشفى نفسى بكلماته النارية التى يصبها غضبًا على أمريكا تاريخًا وسياسة واقتصادًا واستراتيجياتٍ متهاوية وتنديدًا بعشق الدماء والإبادة. وكم كانت لهفتى لسماع تجلياته الفِكْرية الجديدة عن الإسلام وقضاياه وموقف رجالاته من الحملات الضارية وتحليل مضمونات ما يوجهونه من خطاب يستدعى الإحباط، بلغت موعدى معه متجاوزًا نحو عشر دقائق، تَقَدَّمت إليه بأسف واعتذار يتَّسق مع بشاشته العقلية، لكنه لجأ إلى التأنيب القاتل والزَّجْرِ المعنوى، مستعينًا بطرفة تاريخية ثَقَافِيَّة تحمل دلالاتٍ عدة؛ إذ قال: "يبدو أن العرب قد نسوا قيمة الوقت منذ أن أهدى هارون الرشيد ساعته لشارلمان"!!.. وقد اجتاحنى الذهول من سرعة استحضار هذه الواقعة، حاولتُ بعدها أن أشقَّ على نفسى باعتذار آخر فلم أستطع، وحين وطأت قدماى أعتاب المتحف البريطانى سعيت وسعيت بحثًا عن تلك الساعة التى مثَّلَتْ مجد الحضارة العربية، والتى كان يدور فيها عدد من الجنود مع دَقَّاتِهَا، وتذكرت كم كان "جارودى" قاسيًا؛ لأنه تَجَاهَلَ أن أوروبا فى الآن ذاته قد حَطَّمَتْهَا؛ اعتقادًا لكون الجن يسكنها، وقدَّموا للعرب دعوة لإصلاحها. وقد لزمنى على أثر ذلك استغراقٌ كامل فى فِكْرَة الدورات الحضارية.

إن المُفَكِّر الإسلامى العالمى "روجيه جارودى" هو واحد من القلائل المتفردين الذين أكدوا بشدة -بعد تشريح تاريخى عتيد- أن الحضارة الغربية هى حضارة محكوم عليها بالسقوط والاندثار... حضارة لا يمكن أن تتحدى الزمن ولا أن تَثْبُتَ لمتغيراته؛ لأنها قتلت المحورَ الفاعل وهو الإنسان!. ثم كانت رؤاه المختلفة والثاقبة التى انطلق منها حول الإسلام وتعاليمه كعقيدة وكمنهج حياة، إضافةً إلى تصوراته الخاصة للكثير من المشكلات العالمية التى جعلتْه العدوَ الأوحد والأخطر لإسرائيل. فرغم الحملة الضارية التى تعرَّض لها فى فرنسا من اللوبى الصهيونى بدعوى معاداته للسامية، فإنه لم يتراجع عن آرائه التى ضمَّنها كتابه "الأساطير المؤسِّسة للسياسة الإسرائيلية". فضلًا عن كونه لم يتزحزح عن أفكاره القاتمة تجاه أمريكا، التى يرى فيها إحدى الدعائم الرئيسية لمخططات إسرائيل ومحاولتها لاستعمار العالم باسم الليبرالية الاقتصادية الشاملة. ذلك بجانب الإشارات العديدة إلى تناقضات المجتمع الأوروبى الذى يتعامل بالديمقراطية بينما يقوم بممارسات عنصرية.

إن جارودى، وفى إطار أطواره الفِكْرية هذه، إنما يقدِّم دعوتين؛ الأولى: ينادى فيها بمقاطعة أمريكا، والثانية يدعو خلالها إلى تخليص الإسلام من الأُطُر الضيقة التى تعتمد على التَفْسِير الحرفى للنصوص المقدسة، مؤكدًا ضرورة هذه المسألة فى حالة الرؤية للإسلام كدعوة لها صبغة عالمية، وبغَضِّ النظر

عن اتفاقنا أو اختلافنا معه، فلا بُدَّ من النظر إلى رؤاه بعين الموضوعية والعقلانية التى تحثُّ على إدراك أن جارودى -فى أول الأمر وآخره- ينتمى إلى ثَقَافَة غربية تهتم بالعقل فى بحث الأشياء للوصول إلى الجوهر، دون التوقف عند تفاصيل عطلت وتعطل الكثير من المجتمعات، من ثَمَّ يبرز سؤال حيوى؛ تُرى هل تخلص "جارودى" بحقٍّ من ولائه لهذه الحضارة ومبادئها ومذاهبها الفِكْرية؟

• الحقيقة الدينية هى الحقيقة الغائبة عن الواقع الإسلامى بل الواقع الإنسانى بصفة عامة.. ترى ما هى انطباعاتك الخاصة عنها؟

مما لا شك فيه أن الحقيقة الدينية هى وحدها الحقيقة العليا المطلقة، وما عداها ليس إلا حقائق نسبية، وأن الإيمان القوى لا يتحقق إلا بعد الفهم الدقيق لأصول الدين وقواعده فهمًا مدعمًا بالأدلة والبراهين، وأنا كمُفَكِّر اعتنقت الإسلام دون أن أتنازل عن الماضى؛ لأننى لا أحب كلمة التحوُّل من دين إلى دين. أقول دخلت فيه بعد أن كنت مسيحيًّا وماركسيًّا، وإن كان فى نيتى أن أبقى على الاثنين!

وفى رأيى أن الإسلام ليس بدينٍ خاص، بل هو تكملة لمَسِيرَة دين أساسى أول منذ أن نفخ الله من روحه، أى منذ "آدم" لكن لما كانت الأديان الأخرى يتنافى بعضها مع بعض، فاليهود ينفون المسيحية والمسيحيون ينفون اليهودية، فقد دخلتُ فى الإسلام لأجد الشكل المتكامل للإيمان فى أبهى صوره، اعترافًا بكل الديانات الأخرى، بل حتى بعض الديانات التى لم تُذكر فى القرآن، مثل التى تُوجد فى الهند أو الصين، فعندما أقرأ كتبهم المقدسة أتأكد أنه قد بُعث فيهم نبى.

إن أكبر خطأ يمكن أن يرتكبه المسلمون هو إبراز تميُّزهم واختلافهم عن باقى الديانات، ومن ذلك قولهم نحن -المسلمين- لدينا إجابات عن كل الأسئلة، ويكفى لهذا قراءة القرآن بتَمَعُّن، يحدث هذا بينما الدين الحنيف يحثنا على جمع شمل كل المؤمنين، وهذا فى رأيى مهم جدًّا؛ لأننا اليوم نعيش مرحلة حروب دينية منذ انهيار الاتحاد السوفيتى وتدمير العراق على يد أمريكا، بل إننا نعيش نوعًا من الاحتلال شبه العالمى يفرض علينا نظرته للحياة.. تلك النظرة المبنية على آليات السوق، وعلى أن يصبح فيها كل إنسان عدوًّا للآخر، وبالتالى أصبحت حرب الكل ضد الكل، وأصبح الدين السائد هو إلهية السوق التى تجرِّد حياتنا الخاصة من أى معنى؛ لأن هذا الذى تفرضه أمريكا على العالم عن طريق صندوق النقد الدولى -سواء فى أوروبا الشرقية أو فى دول العالم الثالث- جعل الهدف الأوحد هو ضرورة الإنتاج السريع والوفير للاستهلاك سواء كان هذا نافعًا أو ضارًّا، وبالتالى فرسالة الإسلام هى أولًا تجميع كل المؤمنين وقيادة الوجدان البشرى؛ لأن الدين المبنى على المادية هو دين عبثى.

• تفعيل الحوار بين الأديان يمكن أن يكون عاملًا محوريًّا فى بعث هذه الحقيقة وإحيائها؟
الحقيقة أنه لا يمكن للعقيدة أن تنمو وتترقى إلا بطرح تساؤلات دائمة من الضمير الاعتراضى الإسلامى، ويوم نظن أننا وجدنا الحقيقة وأصبحنا آلهة نكون بذلك قد قتلنا ديننا وحددنا نهايتنا، لذلك أقول إن باب الاجتهاد هو الوسيلة الأساسية للنهوض بالإسلام، وليس هذا هو حالنا الآن؛ لأنه يسود بين المسلمين شعورٌ بالاكتفاء الذاتى والرضا والغرور الذى هو عكس الاعتراف بالسِّيَادَة الإلهية، وإذا كان القرآن يقول إن الله هو العلى، وإنه ليس كمثله شىء، فليس من حقى أن آخذ مكانه وأقول إننى إله! بل يمكننى أن أفتح ذراعى لآخذ جزءًا بسيطًا من القدرة الإلهية لكى تكون لى خبرتى الشخصية بالله. فلا يمكن أن يكون هناك حوار حقيقى إلا إذا اقتنع كل واحد منا أنه فى حاجة للخبرة الدينية فى الديانات الأخرى، بل إلى شىء يتعلمه من الآخر، لذلك أقول إن الحوار الموجود حاليًّا بين الأديان هو حوار زائف، وأؤكد لك أنك إذا أحضرت قسًّا مسيحيًّا وأحد علماء المسلمين فى مكان ما فسيترك كل واحد منهما الآخر يتكلم بأدب، بل سيكون كل واحد منهما متسامحًا، لكن هذا التسامح -من وجهة نَظَرِى- فيه شىء من التحقير! كما لو كان يقول الواحد منهما للآخر: أنت مجنون وأنت مريض، ولكنى أُقْبَلُكَ على عِلَّتِكَ!
بينما الحوار الحقيقى فى رأيى هو التلقيح المتبادل للأفكار والمبادئ والفلسفات، والقرآن يقول فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ)4(، فإذا كان هذا هو مطلب الله من نبيه، فأجدر بنا أن نعمل بهذا، إضافة إلى أنه يجب علينا تنمية الصفة العالمية للأديان بدلًا من الارتكاز والركون إلى ما هو خاص بديننا وتمييزه عن الباقى.
• هل من سبيل لترجمة العلاقة العكسية والطردية بين معركة التشكيك فى الإسلام وانتشار ظاهرة المد الإسلامى فى الآن ذاته؟
يجب أن نبدأ بالتشكيك فى أنفسنا كمسلمين، وبالتساؤل عن ديننا؛ فالصورة المشوَّهة للإسلام فى الغرب سببها المسلمون أنفسهم؛ فمنذ ألف سنة والتفاسير القرآنية التى تمثِّل جزءًا ضخمًا من التُّرَاث الإسلامى كما هى، لم يجدِّدها المسلمون كما لو كان الإسلام قد مات من ألف عام!
• لكن هناك عددًا من التفاسير المُعَاصِرَة قام بها علماء لهم باعٌ كبير فى ميدان الدراسات القرآنية؟
للأسف لا أعرف عنها شيئًا، ولا أدرى لها أى أثر على الجماهير العريضة، فانظر للطريقة التى يتكلمون بها عن الإسلام، والاعتراضات التى أُوَاجَهُ بها، والتى سرعان ما أستشف منها الطريقة البربرية التى يُدرس بها القرآن.
• هذا اتِّهَام صريح له حيثيات عدة.. لأنك تعتبر المسلمين ليسوا إلا قشورًا تطفو على الساحة أو أنهم ظاهرة صوتية؟

نعم... وهذا ســؤال مهم فالمسلمون فى العالم أجمع لا يقومون بأى دور فعال، ويكفى أن أحدِّثك عن قبول العالم الإسلامى باحتلال بعض أراضيه المقدســة من قِبَل الأمريكان وبصفة مستمرة، فكيف ترى أن يلعب المسلمون دورًا بارزًا على الساحة؟

• جرت العديد من المناظرات بين رموز الفِكْر العالمى حول الإرهاب كمفهوم وظاهرة مخترِقة لبنية المجتمع المُعَاصِر.. كيف تراها؟

لا شك أن الإرهاب قد أصبح ظاهرة عالمية مدمرة، لكن ما يحدث فى مصر حاليًّا من عمليات إرهابية مخطَّطة يجعلنى أتساءل: مَن المستفيد من ذلك؟ وقطعًا ليس هذا بعمل يقوم به أى مصرى؛ لأنه يهدف إلى تدمير اقتصاد بلده الذى يعتمد على السياحة بالدرجة الأولى، وفى رأيى أن هذا يحدث قبل إجراء المباحثات مع صندوق النقد للضغط على المصريين، وبالنسبة لى كمُفَكِّر فالمستفيد الأوحد من كل هذا هو جهاز المخابرات الإسرائيلية "الموساد"، الذى أعتقد -بل أؤكد- أنه وراء تدمير المركز التجارى الأمريكى بنيويورك؛ لأنه لا يمكن أن يقوم بهذا العمل إلا جهة مزوَّدة بتكنولوجيا مُتَقَدِّمة، ولديها تمويل ضخم، فضلًا عن التواطؤ مع من يقومون بالحراسة هناك، والهدف من كل هذا هو تقديم المسلمين العرب فى صورة بشعة أمام الرأى العام العالمى.

• محاور النهضة والانطلاق للعالم الإسلامى لا تزال محل خلاف.. ليس على ضرورة إحداثها، بل على نقطة البداية من أين تكون وكأنه تشتيت متعمد للقضية؟

محاور النهضة كما أتصورها تبدأ بالعودة إلى الفضائل العليا التى كانت السبب المباشر فى سرعة انتشار الإسلام انتشارًا لا مثيل له فى أقل من قرن، بل فى خلال ثلاث سنوات، حقق الفتح الإسلامى ازدهارًا ثقافيًّا فى إسبانيا، لكن ما يجب أن نتساءل عنه هو لماذا انتشر الإسلام بهذه الصورة الرائدة؟ بداية لا بُدَّ أن نقرر أنه ظهر كثَوْرَة اجتماعية غيرت جاهلية القرون الماضية، كذلك كوَّن توليفة رائعة بين الحضارات والثقافات المتباينة، فأصبحت مدينة مثل قرطبة تمثِّل مركز إشعاع حضارى لأوروبا كلها، فى الوقت الذى كانت فيه مدن مثل باريس ولندن ليست إلا قرى صغيرة.

• شُغلت الأوساط كافةً على الصعيد السياسى والثَّقَافِىّ والاقتصادى عالميًّا بمفهومات مُعَاصِرة مثل العولمة والكونية والكوكبية.. ترى ماذا وراء هذه المصطلحات ذات المغزى العميق.. وهل يمكن للعالم العربى أن يندمج معها عقليًّا ويتعايش معها اجتماعيًّا ويتجادل معها ثقافيًّا؟

كل هذه المصطلحات ليست إلا إعادة متكررة لنَظَرِيَّات نُشِرَتْ من قبل وتُرجمت إلى العديد من اللغات؛ فـ"ريمون بار" هو الذى أوجزها فى فرنسا، وأعادها "مادلان" فى السياسة الفرنسية، ولقد برزت كل هذه الموجات فى وقتٍ تصاعُد الرأسمالية الحرة، ولعل آدم سميث -وهو أكبر منظِّر للرأسمالية- قد قام بدور إيجابى متميز فى وقت كانت إنجلترا تمثِّل فيه

أعظم قوة فى العالم من الناحية الاقتصادية والزراعية، وكانت تعمل على إشاعة وفرض المذهب الليبرالى على العالم، وليس النظام الاقتصادى الحر، وبالتالى كانت هذه النظم تفرض السيطرة والهيمنة على استيراد المنتجات.. وبما أنك الأقوى فإنك تملك حرية الاختيار؛ لأنك تملك أدوات القوة.
والآن خسرت إنجلترا فى جولتها الأخيرة هذه السيطرة ووَرَّثتها لأمريكا لسبب بسيط؛ وهو أن الأمريكان جاءوا مع "ويلسون" فى أبهى صور الانتصار بعد سحق الألمان وسقوط الإمبراطورية الإنجليزية.
إن أمريكا وبعد الحرب العالمية الثانية تحاكى إنجلترا فى بسط نفوذها وسيطرتها، ولقد أكدت نفس المعنى "سيمون فى" حين قالت: إن أمركة أوروبا بعد الحرب ستصبح خطرًا عظيمًا؛ لأنها سوف تمهِّد دون شك لأمركة العالم بأسره، وعلى ذلك ناديتُ فى كتاب)أمريكا طليعة الانحطاط(بضرورة إنشاء عالمية حقيقية بدلًا من أكاذيب العولمة الاقتصادية التى تمثِّل الوريث الحقيقى للهيمنة الاستعمارية.. ومن هنا أقول إنها مصطلحات جديدة لنظام قديم. وبالنسبة للعالم العربى يجب أن يرفض هذه المصطلحات عقليًّا واجتماعيًّا، وعليه أن يتكيف مع منطق المواجهة فِكْرًا وممارسة، فإن لم ينطلق فإنه على الأقل لن يتراجع.
• من منطلقات الأيديولوجية السياسية.. أكد آية الله خومينى أن أمريكا هى الشيطان الأكبر فى هذا العالم، وأكدتَ أنت أيضًا على معانٍ تقترب من ذلك فى كتابك)أمريكا طليعة الانحطاط(.. هل لا تزال هذه الرؤية ثابتة أم أن ممارسات الكتلة الأمريكية قد حوَّلتها لاتجاه مغاير؟
بداية لا بُدَّ من مقاطعة المنتجات الأمريكية، من أول زجاجة الكوكاكولا حتى الأفلام الأمريكية، فنحن الذين نمنح أمريكا كل هذه القوة، وكل هذا التبجح، وكل هذا الثراء، وكل هذه الهيمنة، فلو سحبنا السجادة من تحت أقدامها فسوف تسقط. وإلا فسوف تمارس ضغوطها وقوتها بشكل متفرد؛ لاستنزاف العالم الثالث، لأن أمريكا تعيش أعلى بكثير من إمكاناتها، وبالتالى يهمها فى المقام الأول استغلال هذا العالم، لسداد ديونها التى تتجاوز ثلاثة أضعاف ديون العالم الثالث مجتمعة، بوسائل وشعارات متعددة، منها اقتصاد السوق، الذى أصبح بمثابة الديانة الجديدة، ومفهوم النظام العالمى الجديد الذى يمثِّل فى حقيقته استمرارًا للفوضى الاستعمارية القديمة بصورة جديدة، وباسم الليبرالية الاقتصادية الشاملة، لتضمن الهيمنة على العالم بأدوات الاقتصاد دون استبعاد التدمير العسكرى.
ويكفى أن نشير إلى أن عائدات 350 شخصًا تساوى عائدات 2.5 مليار من سكان العالم، وأن الفجوة قد اتسعت بين سكان الدول الغنية والدول الفقيرة من 1 – 30 إلى 1 – 150، وبالتالى فليست المعونات المزعومة لدول العالم الثالث إلا وسائل ناجحة لتقوية التبعية ودعم التخلف، وكل ذلك بلا شك يستدعي بعض القرارات السياسية الرامية إلى التحرر من عولمة الاقتصاد

التى تمثِّل مشيئة أمريكا فى أن تجعل من فرنسا ومن أوروبا وبقية العالم مستعمرة تفتح السبل أمام اقتصادها فى شتى المجالات من الزراعة الغذائية إلى علوم الفضاء ومن الإسلام إلى السينما، لذا فأنا أؤكد مقولة)ينتحر الشماليون لغياب الغايات بينما يموت الجنوبيون لنقص الوسائل(. وأتصور أن التجربة الصينية هى الحل البديل لتوحيد هذا العالم المنقسم، مع الأخذ فى الاعْتِبَار أهمية الثروات فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وضرورة إخضاعها لوحدة العالم، وليس لمصلحة دولة دون غيرها.

• رغم الانقلاب المدوِّى الذى أحدثه كتابك)الأساطير المؤسِّسة للسياسة الإسرائيلية(فما زالت هناك آثار لتفعيل استراتيجية الخلط بين مفهومين مختلفين تماما، هما: اليهودية والصهيونية.. فماذا تقول؟

أنا أردِّد دائمًا أن اليهودية ديانة سماوية أحترمها كما أحترم كل الديانات السماوية، بينما نجد أن الصهيونية عندهم عقيدة سياسية أسسها "هرتزل" قائلًا: أنا ملحد.. أنا استعمارى، وكل هذا لا علاقة له بالدين، وإن كانوا حتى الآن فى محاولتهم غزوَ الأراضى العربية يقومون بذلك تحت ستار التبريرات الدينية لهذا الاحتلال، والغريب أن هناك توهمات عربية تكشف عن حُسن نيات أمريكا تجاه قضايا السلام، ولقد دارت مناقشة بينى وبين وزير عربى أكد لى أنه وقَّع عَقْدًا قيمته 21 مليار دولار لشراء طائرات أمريكية، فقلت له إن كلينتون لن يمنحكم طائرات أكثر كفاءة من تلك التى يعطيها لإسرائيل؛ لأنه يريد أن يشكل منها قوة ساحقة للعرب.

• الفِكْر الإسلامى عند جارودى يدور فى فلك ثلاثة مفاهيم محورية هى: الشريعة، الفقه، العقيدة.. كيف يراها جارودى فى إطار الإشْكَالِيَّة المنهجية السائدة فى العالم الإسلامى؟

لا بُدَّ أن نقرِّر حقائق كثيرة، أولها: أنه لا ينبغى تطبيق تعاليم القرآن بحيث تكون مقصورة على حقبة زمنية معينة، وهى فترة وجود الرسول بين البشر، وإنما كتعاليم مسترسلة وممتدة فى عمق الزمن حتى يفنى البشر ذاتهم، فغاية الدين ألَّا تتوقف تعاليمه عند التطبيق الأعمى الأصم البعيد بالطبع عن الإسلام وروحه.. تلك الروح التى يمكن أن تحقق لهذا العالم ريادة جبارة وانطلاقة حضارية متميزة.

ولا ينبغى أن ننظر إلى الإسلام وكأننا قطيع من البقر تنظر إلى القطار يمرُّ أمامها، لكنها لا تدرى ما به؛ لأنها منشغلة بأكل الحشائش.. مستحيل أن نكون هكذا، لكن مع الأسف هذا ما يحدث. وفى رأيى الشخصى أننا علينا أن نستوعب أنه عند اعْتِبَار الشريعة الإسلامية بمثابة القانون المطبَّق بصورة عالمية، فهذا يعنى أنها لا تخصُّ المجتمعات الإسلامية، لكنها تتوجَّه إلى جميع شعوب الأرض، بينما يصمِّم البعض على كتابة إسلام بالإنجليزية فى معناه الحرفى، وهذا يمثِّل نوعًا من الانغلاق والتَّحَجُّرِ. وأرى أن أول دورٍ يجب أن يلعبه المثقفون هو ضرورة التمييز بين مفهومى الشريعة والفقه.

وهنا تجب الإشادة بكتاب مهم لجمال البنا يتحدث فيه عن الإسلام وتعاليمه واجبة التطبيق فى القرن الحادى والعشرين، لكننى أتوقع من رجالات الأزهر أن يقوموا بحرق الكتاب أو على الأقل مصادرته، رغم أنه يسعى جاهدًا لأن يجعل من الإسلام إسلامًا مُعَاصِرًا، بما يحقِّق صحوة إسلامية رائدة، الإسلام ذاته فى حاجة إليها؛ لأنه نائم منذ عشرة قرون، والدليل أن هناك ما يتجاوز المليار من البشر وكلهم مسلمون، لكنهم ليسوا مسلمين بحق، وإلا لانتهت أمريكا منذ زمن بعيد.

• التوحيد كفِكْرَة ذات مغزى فلسفى وعمق عقائدى وإشعاع رُوحِىّ.. كيف يتصور جارودى أبعاد هذه الفِكْرَة؟

المبدأ الجوهرى الذى نادى به الإسلام هو التوحيد، وهى فِكْرَة ذات مغزى بعيد كما أشرت فى سؤالك، وإن كانت معانيها كما أعتقد لم تترسخْ حتى الآن فى عقل المسلم، وإلا تغيرت حاله وتحوَّل إلى مارد مقتحِم يصنع حياته كما يتراءى له، ولا يترك للآخرين فرصةَ العبث بمقدَّساته؛ فالصلاة لن تخرج عن كونها توحُّدًا مع الله، والزكاة هى توحُّد مع الفقراء، والحج توحُّد مع البشر.. والآن كل العلوم الحديثة أصبح لها ارتباط وطيد ببعضها البعض بشكل يؤكد أنها صائرة نحو التكامل والتوحد.

وإذا كان هذا هو واقع الفِكْرَة عند المسلمين فلا غرابة من أن "جولدا مائير" -وهى ملحدة، بل معترفة بإلحادها- تؤكد على الملأ فى تصريحاتها وتبريراتها لاستيلائها على الأراضى العربية حُجة أنها أرض الميعاد التى وعد بها الرب، فأى رب هذا الذى كانت تعنيه؟

نعم إن الله موجود فى داخلنا، ولا ينبغى البحث عنه بأعين الموتى، ولو استطعتُ أن أحدد الله، فهذا يعنى أننى أقيسه بنفسى وأحدد كينونته، لكننى أستطيع أن أرسم له صورة فى مفاهيمى الخاصة. أقول وبصراحة نحن لا نناضل من أجل الله؛ لأننا نضع كل هالات الجمال والقداسة والورع، لكن لا ننتظر منه إلا بعض الخدمات الضئيلة، لذا فنحن فقط نقول إن هذا لا يرضى الله.. فكل ما نريده هو خدمات من الله.. وبما أننا نتحدث عن ميثاق الواجبات فواجبنا الأوحد كما أتصور هو أن نسهم عن طريق عملنا ومعرفتنا فى إيجاد هذا العالم الموجود فى مقابل العالم المكسور والمنقسم الذى نحيا فيه. إننا لكى نخدم الله لا بُدَّ أن نحقِّق وحدته على الأرض، ويسأل كل منا ذاته.. إيمانك الداخلى العميق ماذا فعل بك، وبالتالى أستطيع أن أحكم عليك وقتها.. لكن لن أسألك عن ديانتك؟ إننا فى حاجة إلى حوار حقيقى؛ لنعرف معنى الإيمان الحقيقى، ونقطة الانطلاق الأولى تبدأ من حوار الأديان.

• لا شك أن التجربة مع الموت تفوق كثيرًا أية تجربة حياتية مهما بلغت.. فماذا أكسبتك تلك التجربة، خاصة أنك وقتها لم تكن قد دخلت الإسلام بعد؟

إنها فعلا تجربة خصبة تضمنت مفارقات كثيرة لا تزال تحرِّك نفسى، وهذه التجربة لا أملُّ من روايتها؛ لأننى رأيتِ الموت مجسَّدًا يمرُّ أمام عينى، وهذا

شىء رهيب، إلا أنه لم يكن يعنى مأساة بالنسبة لى رغم قسوته.. فحين نظمنا مظاهرةً داخل أسوار المعتقل عام 1940 ضد "فرانكو" أنذرَنا قائد المعسكر -وكان فرنسيًّا- بإطلاق النار علينا ما لم نَعُدْ إلى الخيام فورًا، وبالفعل أصدر أوامره إلى حاملى الرشاشات الذين أصروا على رفض أوامره، وحين سألتهم عن ذلك، قالوا: إنه ليس من الشرف أن يطلق الرجل المسلح ناره على أعزل، بالتالى فأنا لا أزال حيًّا بفضل هؤلاء المسلمين. أما الآن وقد بلغت من العمر نحو السابعة والثمانين، واقترب الموت منى، فأعتبرها مأساة مروعة بالنسبة لى، لا لشىء إلا لعدم إنجازى ما أردتُ إنجازه فى حياتى، ودائمًا ما يموت المُفَكِّر وهو يستشعر أنه لم يستكملْ مشروعَه الفِكْرِىّ والإبداعى.

• قلتَ إن المهمة الأولى للمثقفين هى كشف الأكاذيب التى تسود المراجع المدرسية ووسائل الإعلام باعْتِبَارها أدوات تخدم الغرب للإبقاء على هيمنته بأيديولوجيات مغالطة عن حداثته، وليس هناك افتراض واحد عن تلك الحداثة المزعومة إلا ويُعَدُّ افتراءً أو كذبًا.. فما أبرز هذه المزاعم والادعاءات فى ظل بانوراما الفوضى العالمية الجديدة؟

أول هذه المزاعم يكون عن الديمقراطية، ولعلك تعلم أن أول ديمقراطية تحدث عنها التاريخ كانت فى أثينا، وكانت ستارًا للأقلية، بل كانت مضرب الأمثال كأم للديمقراطيات، فلم تكن فى حقيقتها سوى عشرين ألف مواطن حر مقابل مائة ألف عبد، فهل هذه هى الحرية؟ أم أنها ديمقراطية للسادة ليس غير، كما تكشف نصوص إعلان استقلال الولايات المتحدة عن المساواة فى الحقوق بين المواطنين، لكن عقب الإعلان تم الحفاظ على العبودية لمدة تجاوزت قرنًا، حتى إنه ما زالت التفرقة العنصرية ضد السود مستمرة، نعم هناك فرق بين الأبيض والأسود، نعم هناك ديمقراطية للبيض وليس للسود.

وفى فرنسا يطلقون تصريحات شهيرة تتعلق بحقوق الإنسان، بينما نجد أن ثلاثة أرباع الفرنسيين محرومون من حق التصويت؛ لعدم دفع الضرائب، أو لأن الدستور يعتبر الفقير مواطنًا سلبيًّا، فكما قلت إنها ديمقراطية للأغنياء والسادة وليست للفقراء.

وعلى مستوى آخر، نجد أن إعلان حقوق الإنسان فى الأمم المتحدة يحمل تناقضات صارخة، على رأسها: ماذا يعنى إعلان حق العمل والنظام يشمل ملايين من العاطلين؟ وماذا يعنى حق الاقتراع وقد أصبحت الورقة المالية فى مكان ورق الانتخاب؟ الإعلان يمنح العاطل والملياردير الحق فى إصدار جمعية أو إقامة بيت على الساحل أو إقامة محطة تليفزيونية.. لكن لا أحد يسأل عن مدى القدرة على ذلك؟

والغريب أن من ينصِّبون أنفسهم مدافعين عن حقوق الإنسان، ممثَّلين فى الدول السبع الأغنى فى العالم، قد اجتمع قادتها فى عام 1996 لمكافحة الإرهاب، بينما هم فى الحقيقة رؤساء الدول التى حققت أعلى معدلات فى

جرائم الإرهاب فى حاضر هذا العالم وماضيه، وبالتالى فقضية حقوق الإنسان هى أكذوبة مُطْلَقَة، وكارت سياسى تتلاعب به دول الغرب عامة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سلمى الفاروقى.. أنا سبب إسلام جارودى

بين عشية وضحاها خرجت سلمى الفاروقى من أحضان بلدتها المحتلة فلسطين، المَحُوطَة بهالات اللهب، تحملُ بين جوانحها رؤيةً فطرية حضارية نحو الدين تعتقد أنها مفتاح الخطر الداهم فى وجه أعداء الحقيقة، وسعيًا وراء هذا الحلم حوَّلت سلمى واقعها إلى ما تجاوز الحلم ذاته بأشواط، واستطاعت الاقترابَ الحذر الواعى من مناطق الألغام فى سراديب عقل ثورى جامح، هو عقل جارودى، ومن خلالها فتحت النار من بعيد، وكأنها تفجِّر حربًا عالمية تتزامن مع جولة الحرب الباردة بين أمريكا وروسيا!

فبعد اللقاء الرُّوحِىّ الحميم والألفة النفسية والتقابل المنطقى الذى خلق نوعًا من التوحد الفِكْرِىّ بينها -كامرأة فلسطينية مسلمة- وبين مُفَكِّر فرنسى كبير يمتلك رؤية تنويرية ذات أبعاد سياسية واقتصادية وثَقَافِيَّة وعَقَدِيَّة، نراه وقد انطلقت سهامه مصوَّبة نحو العقل الصهيونى لينسفَ أساطيرَه وأباطيله التى ينسجها دومًا، ثم يخوض فى اتجاه تصحيح المفاهيم الدينية الإسلامية فى إطار الحوار العالمى بين لحظة وأخرى.

تُرى ما هى أحلام وهواجس "سلمى" وسط بانوراما صاخبة عاشتها مع مُفَكِّر ثائر؟.. تُرى لماذا آثر جارودى أن تكون سلمى هى أول كائن يسمع نطقه بالشهادة؟... ولماذا أخذت قضية فلسطين مُنَّجَهًا جديدًا فى الخط الفِكْرِىّ الساخن لجارودى من ذلك الحين؟

• العلاقة بينك وبين مُفَكِّر كبير كجاوردى تمثِّل لقاءً جديدًا وحميمًا بين حضارتين لهما معا تاريخ حافل، لو استدعت سلمى الفاروقى طرائف أول لقاء... ماذا تقول؟ وهل كان وراء هذه العلاقة دوافع عاطفية أم سياسية؟

بصراحة لم تكن هناك أى دوافع عاطفية أو سياسية وراء هذه العلاقة العميقة، لكن شاءت الأقدار أن أترك الدول العربية والإسلامية عام 1974؛ جريًا نحو استكمال شعورى المُلِحّ بأننى أريد أن أعيش إيمانى بالطريقة المطابقة لقراءتى للقرآن ومفهومى له وللأحكام الفقهية المتضمنة فيه، فقررت أن أذهب إلى الغرب، وأول ما خطر بذهنى كان سويسرا، ذلك الحلم الذى حلَّق بخيالى منذ كنت طفلة ترى هذه البلدة كأنها الجنة الصغيرة، كل شىء فيها متجاوز فى روعته وجماله، وما أراها إلا وأشعر أننى أريد أن أسبح.

ولم يكن سهلًا فى البداية أن أجد عملًا أو أحصل على الشرعية فيها، لكن فى نفس العام أنشئ مركز إسلامى فى جنيف وطلبوا منى المساعدة فى تكوينه، وبعدها بسنوات، وبالتحديد فى أوائل 1982، أرسل إلىَّ أحد الأصدقاء المقيمين هناك خطابًا أشاد فيه بعبقرية كتاب)وعود الإسلام(للمُفَكِّر الفرنسى روجيه جارودى، فاشتريته على الفور، وكان أول كتاب يهز إحساساتى الإيمانية ويُثير ملكاتى الرُّوحِيَّة، ويوقظ فى نفسى مجد الإسلام من ناحية حضارية وعملية، وحاولت بعدها الاتصال بجارودى فى باريس

لأعرب له عن إعجابى وفتونى بالكتاب، وكان الذى يحركنى دائمًا نحو هذا الكتاب هو أننى كنت أستشعر أنه الصفعة الكبرى على وجه معظم صحف الغرب التى تَقَدُّم كمًّا هائلًا من المغالطات والأكاذيب والافتراءات التى ما إن أقرأها حتى أكاد أبكى دمًا على الإسلام وأهله، الذين تركوه نَهْبًا للمُغْرِضِينَ والحاقدين.
وقد خطرت لى فِكْرَة أن أقدِّم جارودى ليلقى محاضرة عن موضوع الكتاب؛ باعْتِبَاره رجلًا غربيًّا له مفاهيم متحضرة عن الإسلام والحضارة الإسلامية بكل تاريخها الحافل، وأنه قد ضمَّن هذا الكتاب كلامًا غاية فى الأهمية عن القدس والقضية الفلسطينية والحق المهضوم للفلسطينيين، ورغم المعارضة الحادة من قِبَلِ المركز لاستضافة جارودى؛ نظرًا لأنه كان عضوًا بارزًا فى الحزب الشيوعى الفرنسى، لكن لم يفترْ حماسى؛ لأن العمل أداة تعكس إيمان الإنسان بقيمه ومبادئه، وبالتالى فقد اعتبرتُه موضوعًا شخصيًّا بالنسبة لى كمسلمة تعيش فى الغرب وتَغَار على دينها. فماذا لو استطعت أن أهيئ للناس فرصة نادرة لأقدم لهم فِكْرًا متفردًا عن الإسلام غير الذى يعرفونه.. وبالطبع استطعت أن أحشد لهذه المحاضرة جمهورًا عريضًا أتاح لنفسه نوعًا من النشوة الفِكْرية حين استمع لروجيه جارودى.
ولقد كانت انطباعاته عنى جيدة كفلسطينية تعيش فى أوروبا وكامرأة محجَّبة أتتْ لتستقبله فى المطار ثم تستضيفه مع بعض الأصدقاء لتحتفى به طِبْقًا لعاداتنا الشرقية، وفى اليوم التالى دعانى هو للغداء، واعتذرت، ولكنه أصرَّ وأصررتُ أنا أيضًا لأنى صائمة، فتعجَّب لأننا لم نكن فى شهر الصوم، وكانت فلسفتى فى هذا الصوم تنطوى على مبدأ هو أن البشر بطبيعته خطاء، وأن الإنسان لو لم يضع على نفسه قيودًا لاختل سريعًا ثم سقط، إذن لا بُدَّ من ضوابط ومحددات وهنا تفهَّم جارودى عمق موقفى، مستعينًا فى ذلك بتلك القضية الشهيرة التى يرويها دائمًا حين كان داخل أسوار المعتقل عام 1940 وأنذره قائد المعسكر مع زملائه -وكان فرنسيًّا- بإطلاق النار عليهم ما لم يعودوا للخيام فورًا، وبالفعل أصدر أوامره، وامتنع عن تنفيذها الجنود؛ وحين سألهم جارودى عن ذلك قالوا: ليس من الشرف أن يُطلِق الرجل المسلح ناره على أعزل!
أقول إنه حين تكرر النموذج أمامه ثانية متمثِّلًا فى شخصى كان لهذين الموقفين تأثيرهما العميق على جارودى.
• من هنا هل توقعتِ يومًا ما أن يُعلن جارودى إسلامه؟
قلت له ذات مرة: إن قضية التوحيد تحتلُّ عندك كلَّ سطر فى كتابك وعود الإسلام، وأرى أنه لا ينقصك غير النطق بالشهادتين؛ لأنك قد وصلت إلى معانى التوحيد فلسفيًّا، كما أن هذا شىء أستشعره فى أفعالك وفِكْرك، بل إنه يُعتبر الفِكْرَة المحورية الدافعة لك، وقد حدث أن تبادلنا الرسائل قرابةَ ثلاثة شهور إلى أن كانت عِنده محاضرة فى مونترو، وطلب منى ضرورة

مقابلته هناك؛ لأمرٍ وصفَه بأنه مصيرى بالنسبة له، والتقينا بالمركز الإسلامى بجنيف، وفوجئت أنه ينطق الشهادةَ بالعربى، مما أثارَ دموعى بغزارة، خاصة بعدما أكد أنه أرادَ أن أكون أول من يسمع منه هذه الشهادة، وقد ذكَّرنى ذلك بمقولة الرسول: اللهم أعزَّ الإسلام بأحد العُمَرَيْنِ، التى أردِّد على أثرها عند كل سجدة: اللهم أعزَّ الإسلام بجارودى.. وبعدها مباشرة عرض علىَّ أن أكون زوجته فوافقتُ على الفور.

• هل تعتبر سلمى أن ارتباطها بمُفَكِّر فى قامة روجيه جارودى كان بداية لإطلاق الصرخة المدوِّية فى وجهِ الصهيونية؟

هناك خلط فى هذا الأمر؛ فهذه الصرخة المدوِّية فى وجه الصهيونية أطلقَها جارودى قبل بداية ارتباطى به فى كتابات كثيرة، لكن ربما بعد الارتباط أخذت القضية منعطفًا جديدًا من المواجهة الصارمة معهم، وإن كان جارودى دائمًا ما يشعر أن العالم هو جسده، فلو أن بقعة من هذا العالم تعيش كارثةً ما أو معاناة فإنه يستشعر ألمًا عميقًا.

فمثلًا عام 1981 حين حدث اجتياح لبنان كنت أراه منزعجًا، ولقد اتَّفق مع عدد من القساوسة ورئيس تحرير جريدة اللوموند لشرح الأسباب الداخلية لاجتياح لبنان وعرضها على الرأى العام العالمى؛ لأنه كان يعتبر هذا الاجتياح ذا أبعادٍ سياسية موجودة فى البرنامج السياسى الصهيونى التوسعى، الذى يطرح شعار: "من النيل للفرات"، طبقًا لمشروع "لويس برنارد"، وقد رفع الصهاينة ضده دعوى قضائية، لكنه كسبها، وجاء فى حيثيات الحكم أن نقد سياسة بلد ليس له دخل بقضية معاداة السامية، وبالتالى لا تنطبق مفردات الادعاء بالقضية على جارودى، ورغم هذا لم يستفدْ أحد من النتيجة التى توصل إليها لأنه ليس هناك وَعْى متميز أو حتى عادى بأهمية هذه النتيجة.

• ماذا عن طبيعة شعورك كزوجة أثناء محاكمة جارودى التى اهتزت لها الأوساط الثَّقَافِيَّة والفِكْرية عالميًّا وأعربت عن كونه فارسًا منتصرًا؟

شعورى أثناء المحاكمة أننى مقتولة مقهورة، بصرخة حق تُطلق ولا أحد يعتبرها أو يسمعها.. المسلمون والعرب هبّوا وقاموا وكتبوا، لكن ما النتيجة؟ ما هو وضع فلسطين ووضع جارودى؟

أما الصهاينة فحين يُلقِى عليهم أحد بحجر تقوم الدنيا ولا تقعد، هؤلاء الذين خلقوا دولة من لا شىء، ونحن لدينا كل الحق وكل الأسلحة ويحدث لنا ما يحدث.

وبجانب المرارة التى أستشعرها أستشعر أيضًا أن العرب هم بالفعل أهل الكهف، وإن كان أهل الكهف قد لجأوا لكهفهم لسبب سام هو التقرب إلى الله، لكن لا أدرى لماذا طالت نومة العرب لآمادٍ طويلة؛ فَالتاريخ الإنسانى -على ما حفل به من أحداث- لم يشهد من قبل ما حدث ويحدث فى فلسطين وما حولها، ويكفى الآن أنهم يخططون للاستيلاء على المياه التى هى مصدر الحياة. أقول إن هذه المحاكمة كانت داخل دولة تدَّعى أنها تُعلى من قيمة

الحرية مما يؤكد بالفعل أن كل ما يعيشه الغرب من شعارات حقوق الإنسان)كلام فى كلام(.
• تحديدًا.. ما القضية التى تُعتبر محل صِدَام فِكْرِىّ بينك وبين جارودى؟
ليست هناك قضية خاصة تعبِّر عن هذا الصدام؛ لأنه غير موجود بالضرورة. وبصفة عامة، أنا أتفق معه فى طبيعة القضايا التى يُثيرها دائمًا، وأتفق أيضًا فى أبعاد الحلول المطروحة من جانبه، فهو مُفَكِّر متَّزن يناقش القضايا بشكل تحليلى مستفيض، ولا يتعثَّر فى الوصول إلى نتائج لا تُحدث مشكلات على مستويات أخرى. لكن الخلاف الأوحد بيننا يبرز بشدة حين أقوم بتجهيز السفرة وأقدِّم العديد من ألوان الطعام، عندئذٍ يتساءل مستنكرًا عمَّن سيأتى إلينا اليوم؟!
وكذلك يختلف معى بشدة حين يرانى أُطيل الحديث فى التليفون مع أهلى وأقاربى، ويردد على أذنى دائمًا: إن كل دقيقة زائدة أتكلمها يحدث فى ذات الوقت وفاةُ كذا فرد من الجوع فى العالم أو زيادة عدد القتلى والجرحى، وأنا بالضرورة لا ألومه؛ لأنه مُفَكِّر جاد منشغل عن حياته الشخصية بمشكلات الآخرين، حتى لو كانوا فى أقاصى الكرة الأرضية.
• المشاغَبَات الفِكْرية لجارودى.. ماذا سببت لسلمى من مشكلات ومآزق؟ وهل تمنيتِ يومًا أن تكونى بجوار مُفَكِّر مسالم آمن؟
بصراحة.. الإنسان بطبيعته يحبُّ أن يكون آمنًا، وأميل للأشياء والتعاملات والعلاقات السهلة، وأنا أختلف معك فيما اسميته المشاغبات الفِكْرية لأنها فى الحقيقة ليست مشاغبات بقدر ما هى مآثر وبطولات فِكْرية يخوض جارودى جولتها، فلا ينتهى من واحدة إلا ليبدأ الأخرى، لكنها فى مجملها كانت مجسِّدة لقيم المُفَكِّر الحر النزيه الذى يناضل -بل يقاتل- من أجل نصرة قضية أو تأكيد موقف أو إقرار مبدأ، وبالتالى كانت حياته عاصفة وصاخبة ومليئة بالأشخاص والأحداث والأفكار والأسفار الطويلة من أجل محاضرة هنا أو هناك أو لقاء هادئ أو مثير مع هذه الجماعة أو تلك.
أقول إن حياتى مع مُفَكِّر فى وزن جارودى لم تَجُرَّ علىَّ أية مشكلات؛ لأننى منذ بداياتى معه كنت مهيَّأة لطبيعة هذه المشكلات، وبالتالى لا غرابة ولا دهشة أو مأزق سبَبه لى فِكْر جارودى الذى ينشره على العالم، لكن رغم أى شىء لم أكن أرغب فى أن أكون مجرد زوجة لمُفَكِّر مسالم هادئ مستقر؛ لأننى لا أؤمن إلا بالمُفَكِّر الثورى الجرىء الذى يصنع التاريخ، والذى تحرِّك كتاباته الدنيا وتمثل وقفة عند المُفَكِّرين والساسة ورؤساء الدول والنظم بأسْرِها، وكل كتب جارودى أو أكثرها كان لها هذا الطابع. وأقسم أننى مهما اختلفت مع جارودى لأى شىء فإن ذلك يصدر عن قناعاتى وإيمانى بضرورة مساندة كل صرخة حق وراءها مُفَكِّر جرىء فى قامة جارودى.
• هل ترين أن هناك معارك وأشتباكات فِكْرية أو سياسية ربما تحدث مُسْتَقْبَلًا بسبب الهجوم العاصف لجارودى على أمريكا وإبراز فساد النظام الرأسمالى

الذى يعبث بمقدرات العالم؟
جارودى أصبح فى مرحلة لا تهمه فيها أمريكا ولا غيرها، ولا يسعده إلا أن يعلو صوت الحق فوق كل صوت؛ لأنه مناضل بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لا يبغى مالًا أو شهرة ولا يسعى لمنصب أو جاه أو سُلْطَات، وكل تاريخه يؤكد ذلك، وكتاب)أمريكا طليعة الانحطاط(الذى أقاموا حوله ضجة فى الإعلام الغربى ليس إلا نوعًا من التقييم الموضوَعْى الدقيق لتاريخ أمريكا وسياساتها المُعَاصِرَة، بل مُسْتَقْبَل هذه السياسات الموجه نحو ابتزاز اقتصاديات الدول النامية، بما يعمل على زيادة الفجوة بين هذه الدول الغنية تحت ستار مفاهيم شيطانية، مثل: العولمة، الكونية، الكوكبة، إلى غير ذلك من مسميات تساندها هيئات ومنظمات تلتقى على هدف واحد وهو تأكيد السِيَادَة بل الهيمنة الأمريكية على العالم، حتى ولو على حساب العبث بمقدرات شعوب مقهورة مُسْتَذَلَّة!
ولعل هذا الكتاب يأتى فى توقيت صحيح؛ لأنه يمثِّل صدمةً كبرى للعقل الأمريكى الذى سَوَّلَتْ له ذاته أنه العقل المقتحِم الذى يرسم خطوط المُسْتَقْبَل العالمى لما يتجاوز سبعة مليارات من البشر، ويجىء جارودى بكتابه هذا ليهزم هذا العقل ويضعه عند حدوده، يتأمل تاريخه ويستقى منه الدروس والعبرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنا مارى شميل.. أنا سفيرة الإسلام فى الغرب

كلمات صافية رائقة ومنطق واضح يحدوه الأمل والثقة فى مُسْتَقْبَل الإسلام فى مواجهة صيحات التغريب والتشويه والتشويش والمغالطة التى تقتحم الآذان والأعين والقلوب والعقول تعبث بها ولا تزلزلها، لكنها -حتى الآن- لم تخرجنا عن أطوارنا أو تغير مفاهيمنا العربية الإسلامية الأصيلة والمتغلغلة فى أرواحنا... تعالى صوت المستشرقة الألمانية الكبيرة "أنا مارى شميل"، وسط صمت خيم على لفيف الحضور من جنسيات مختلفة لم يكن بينها مصرى واحد متخصص فى الفِكْر الإسلامى ومقارنة الأديان فى بهو مكتبة مصر العامة، أعقبه موجات أعربت عن إعجاب يصل إلى حد الفتنة "بشميل" وأفكارها وعباراتها الدقيقة المكثفة والشاهدة على علم عميق ودراية واسعة وحنكة قلما نراها إلا مع محترفى إدارة القضايا والغوص فيها حتى بلوغ أعماقها، مما خلق لدينا باعثًا قويًّا نحو محاوراتها لاستكشاف جوهر بعض القضايا ولو فى عجالة سريعة.

• الحملة العنيفة التى يخوضها الغرب ضد الإسلام عبر شبكات الإنترنت وغيرها من الآليات الإلكترونية يُكسبها رواجًا وانتشارًا وتتسع جغرافيًّا.. ما رأيك؟

بداية أنا لا أمتلك كمبيوتر، وغير مشتركة فى شبكات الإنترنت التى أصبحت تمثِّل بؤرة للفضائح على مستوى العالم كله، بدلًا من أن تصبح شبكة حقيقية لبث المعلومات على اختلاف أنواعها وتوجهاتها العامة والخاصة، لكن قضية التشهير بالإسلام والمسلمين هى قضية ذات جذور وعمق تاريخى ومغزى عميق، عبَّرَ عنها الكثير من المستشرقين والساسة، وكان منهم أو على رأسهم الإنجليزى "جلادستون" الذى قال: "ما بقى هذا القرآن يتلى فلن تستطيع أوروبا أن تسيطر على المشرق بل لن تستطيع أن تعيش فى مأمن"، وغيره الكثير، لكنى أقول إن هذه الحرب قديمة قدم الإسلام وإن لم تهدأ حتى الآن، ولا أدرى لماذا يزيدها الوقت اشتعالًا كل يوم بل كل لحظة!

وهناك آراء وتوجهات أخرى والمُفَكِّر الأمريكى الاستراتيجى "هنتنجتون" هو أصدق مثل لهذا، وإن كانت هناك وعلى الجانب الآخر آراء وكتابات وأفكار ونَظَرِيَّات رائدة ومتميزة، منها أذكر مقولة الفيلسوف الألمانى "شبنجلر" فى كتابه)أفول الغرب(حيث قال: إن حضارة جديدة أوشكت على الشروق فى أروع صورة، وهى حضارة الإسلام الذى يملك اليوم أقوى روحانية عالمية نقية. ومقولة "جاردنر": "إن القوة التى تكمن فى الإسلام هى التى تخيف أوروبا"، أو مقولة "ديورانت" التى أعتبرها أنموذجًا حيًّا للقضية بأسرها، فقد قال "إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر فى الناس، قلنا إن محمدًا كان أعظم عظماء التاريخ".

لكن تحليل القضية الآن وما يحدث فيها من أخذ وردّ ينتهى بنا إلى أن المشكلة تكمن فى أن المسلمين مقصِّرون فى حق ذواتهم، ولا يعرفون كيف يصورون أنفسهم وتاريخهم وأفكارهم وعقائدهم وسياستهم فى شتى وسائل الإعلام المُعَاصِرِ!
وعليهم أن يتفهموا أدوات وتقنيات الدعاية للأشياء بعد أن يتعرفوا على ما يسود الغرب من تيارات فِكْرية وسياسية واستراتيجية واقتصادية تستهدف اختراق المنظومة العالمية تحت شعارات ومسميات كثيرة، وأعتقد أن العولمة هى إحدى المفاهيم الاستعمارية المخادعة، وبالتالى على المسلمين أن ينهضوا ويقدِّموا أنفسهم للعالم من جديد وعلى خير وجه يُرام.
• فى لقائى مع المُفَكِّر الفرنسى "جارودى" منذ سنوات أكد أن المسلمين بالنسبة للغرب هم ظاهرة صوتية؟
نعم.. أنا أتفق تمامًا مع رؤية "جارودى" فى مغزى ومعنى هذه العبارة؛ لأن الواقع الإسلامى رغم كل التغيرات التى تجتاح العالم –كالطوفان- لا يزال عالمًا ثابتًا جامدًا لا يعبِّر عن شيء، وبالتالى فالمسلمون كيان فيزيقى أكثر من كونهم كيانًا سياسيًّا أو تكتلًا اقتصاديًّا أو وحدة عضوية أو خصوصية معلومة، وبالتالى لا تزال أصواتهم تسبق أفعالهم، مما يؤكد -ولو بشكل غير قاطع- أن هذا الواقع لن يتزحزح كثيرًا عما هو عليه، ومن هنا فقد حكم على نفسه بالاغتراب الطويل.
• مفهوم العالم الإسلامى فى مقابل مفهوم الاستشراق.. لو تحدثنا عن علاقة المفهومين باعْتِبَارها علاقة مضمون بآلية وَعْى مرفوضة ماذا تقولين؟
الذى يجب أن يعرفه المسلمون هو أن الاستشراق ليس بعدو للإسلام، وإنما هو وسيلة جيدة وممتازة لتعلُّم الإسلام كمنهج وعقيدة، وحين سُئلت من كبار الباحثين فى الخرطوم: هل تعتبرين نفسك مستشرقة؟ قلت: نعم، أنا مستشرقة، وأنا أفخر بذلك؛ فالاستشراق نافذة حية للتفاهم بين الأديان والحضارات والثقافات.
والإسلام عندى هو ذلك الدين العميق ذو المعانى والقضايا، وهو أيضًا التوكل الإلهى والخصوصية الرُّوحِيَّة، وأنا دائمًا أتمثل مقولة المؤرخ "ديكنز" فى كتابه)معالم تاريخ الإنسانية(: "إن الإسلام ساد لأنه خير نظام اجتماعى وسياسى استطاعت الأيام أن تَقَدُّمه"، وبالتالى فأنا أدعو المسلمين لأن ينشئوا لديهم ما يمكن أن يسمى بدراسات الغرب المتخصصة عن دياناته وعقائده وأفكاره وتاريخه القديم والحديث وأوضاعه المُعَاصِرَة؛ حتى تصبح لديهم أدوات المواجهة والفهم، وحتى لا تسحقهم موجات التغريب التى تكتسح دول العالم على اختلاف وضعيتها من أنماط التَّقَدُّم التكنولوجى.
• بلغ حجم المكتبة الاستشراقية نحو ستين ألف كتاب فى نحو مائة وخمسين عامًا وأصبح المستشرق الفرنسى "جاك بيرك" عميد الحركة الاستشراقية..

هل تعتبره "شميل" يمثل مدرسة فى الاستشراق المغرض أم الاستشراق المنصف؟
قرأت أكثر آثار "جاك بيرك"، وهو علامة مشهود له، لكنه لا يمثل بحال التيار الفِكْرِىّ الذى أنتمى له، وأود أن أشير إلى أننى أحب المدرسة الفرنسية فى حقل التصوف، وأعتبر أن "ماسينيون" كان يمثل –بحق- التبادل والتفاهم المطلق بين الإسلام والمسيحية، وكان أكثر توفيقًا فى ذلك من غيره، قياسًا على الموجودين الآن.
• لكن لماذا لم تشرعى فى تقديم ترجمة ألمانية للقرآن الكريم، خاصة أنك تجيدين اللغة العربية إجادة مشرِّفة؟
هذه القضية تثير لدىّ إشْكَالِيَّة فلسفية، بمعنى أنه لكى أخرج هذه الترجمة وأرضى عنها فهى تحتاج لمن يوقف حياته عليها لكى يوفيها، أما أنا فقد أنفقت عمرى كله، ولا يتبقى لى إلا أيام قلائل.. نعم أنفقته فى دراسات التصوف والفِكْر الإسلامى ومقارنة الأديان والترجمات، وهذا ليس بالشىء القليل، وقبل كل هذه الدراسات التى تجاوزت الخمسين عامًا فى تمامها لم يكن بمقدورى أن أقوم بترجمة القرآن التى تحتاج إلى الكثير والكثير من الخبرة والحنكة، ورغم ذلك قرأت الكثير من ترجمات القرآن فى لغات عديدة، رضيت عن بعضها وأغضبنى أكثرها، لكنها -فى جملتها- محاولات مثمرة تُحمد لأصحابها. وأنا الآن تعتبرنى ألمانيا وغيرها من الدول والمؤسسات والهيئات الدولية مرآة للإسلام ووجهته أو سفيرته هناك.
• إذن لماذا تتحفظ "شميل" حتى الآن فى أن تعلن إسلامها؟
لست أدرى بم أجيب عن هذا السؤال... السؤال مشكلة وأنا متعَبَة كثيرًا.
• لكن.. هل من الممكن أن تدينى بالإسلام ذات يوم؟
أنا أحب الإسلام كثيرًا وسأظل أدافع عنه حتى وفاتى، وإن كانت هناك مقاومة عنيفة من جانب الغرب ضد الإسلام، ومع ذلك أجتهد وأجاهد.
• لكن منطق هذا الدفاع هل يقوم على قناعة عقائدية أم على قناعات فِكْرية؟
على قناعات فِكْرية ليس غير.
• إذن ما هى ديانة "مارى شميل" التى اتُّهِمَتْ بمناصرة الإسلام وهى لا تدين به؟
الله أعلم!
• هل طمحت شميل ذات يوم فى الحصول على جائزة نوبل، خاصة وأن أعمالك ترتبط بفِكْرَة تحقيق المزيد من التفاهم والسلام بين شعوب العالم وثقافاته وأديانه؟
ما حصلت عليه طيلة حياتى من الجوائز والأوسمة والنياشين والدكتوراه الفخرية يتجاوز الحصر، ومؤخرًا حصلت على جائزة السلام فى ألمانيا، والتى أشكر الحكومة الألمانية عليها كثيرًا؛ لتقديرها الدائم لى، وبالتالى لا أفكر

مطلقًا فى جائزة نوبل؛ لأننى لا أحفل بالسياسة وشئونها ولا أوجه أفكارى تبعًا لها وبالتالى أنا أشعر أننى لست فى حاجة إليها.

• سر العشق الخاص لـ"جلال الدين الرومى" مكون رُوحِىّ لدى شميل.. ماذا تقولين عنه؟

سر هذا العشق أننى كنت قد أطلعت فى الطفولة على بعض التراجم لقصائد جلال الدين الرومى فى ترجمة ألمانية، وعندما كنت فى جامعة بيرلين سألت أستاذ اللغة الفارسية هل يمكننى أن أقرأ لجلال الدين الرومى؟ فقال هذا مشكل وعليك البداية ببعض القصائد التى نشرها قبل عام 1898، وقرأت الكتاب وترجمت أكثر من عشرين قصيدة. وأنا أحب أفكاره وأعشقها بل أحب لسانه، وحين احتفلت تركيا بيوم وفاته دعتنى الحكومة لألقى محاضرة عنه، وأظننى حتى يومنا هذا قد زرت قبره نحو مائة مرة؛ لأكون أكثر اقترابًا من فِكْر العشق وجمال الخليقة، وما نتج عنه من التشوق الحار إلى الله تعالى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جورج قنواتى.. الأديان قوة جبارة تُستخدم للتدمير

دعوة كريمة كان لها العديد من شفاعات الاستجابة والتلبية، وكان صاحبها دكتور عاطف العراقى، موقنًا باستحالة الرفض، لكنه صُدم حين وجدنى أسوق إليه الأعذار وأعدد له طبائع الظروف، فحرص على إغرائى بأسباب لا أقوى عليها، كان أولها وآخرها بريق من تلك القضايا التى تجذب عقلى إذعانًا لهيبتها، وقد وافقته خضوعًا لرغبتى فى إثراء الوَعْى وإبراء الضمير من استحواذ القصور المعرفى حول عناصر القضايا وركائزها، والتى بالطبع كانت تدور حول تاريخ الحضارات وصعودها وأفولها، وأى حضارة يمكن أن تتحكم فى مقدرات المُسْتَقْبَل الإنسانى، وقد قدم الأب جورج قنواتى محاضرة عصماء وسط لفيف هائل مثل أطياف من الكتلة الاستشراقية، بعدها تبدت ضرورة الحوار وحتميته، وقد وافق الأب جورج لكن على مَضَضٍ قائلًا: أنا شيخ متهالك... رددته: لكنك عقل نادر له من صفات التألق ما لا يحصى، ضرب لى موعدًا فى الغد بدير الدومينيكان، ذهبت أتحسس المكان تحت زخات المطر متهللًا أستلهم السماء وأنهب الأرض حتى بلغت ذلك الدير الذى يسكن الصمت، أطل الأب جورج مرحِّبًا يسألنى: أتدرى من كان يجلس على مقعدك الوثير هذا؟ وبالطبع رد بأنه المكان الأثير لكل أصدقائه من رجالات الفِكْر والسياسة فى مصر والعالم. وقد اعتبرت ذلك شرفًا رفيعًا قلَّما يحظى به شاب، ومن كل ذلك فقد ترسخت قناعاتى التى تنبع من كونه مُفَكِّرًا غير عادى تشكلت رؤيته للعالم من تضافر مجموعة ثقافات بجانب أنه قد قضى نحو ستين عامًا فى أحضان الفِكْر الإسلامى ودروب الثَّقَافَة العربية، فضلًا عن أنه قد نهل من فيض الدراسات الاستشراقية وعلوم اللاهوت وغيرها من العلوم حتى صار يعانق السحاب.

• ما هو تشخيصك لطبيعة الأزمة الثَّقَافِيَّة المخيمة على العقل العربى بصفة عامة والتى تتجلى انعكاساتها على صعيد الفِكْر والواقع وباتت ممثلة لعائق حضارى؟

نعم هناك أزمة فِكْرية وثَقَافِيَّة حادة، وهى مرتبطة بالحالة الاقتصادية والسياسية؛ فكبار مُفَكِّرِينا مهتمون بالمسألة السياسية على وجه الخصوص، وكيفية الخلاص من آثار الاستعمار... وفى رأيى أن هذه الأزمة ما هى إلا نوع من التجهيز لحالة التغيير التى تتطلب ذهاب شىء ومجىء آخر، وإن كان الشرق حتى الآن لم يستطع أن ينسجم مع الحداثة أو التكنولوجيا المعبأة؛ فلا يكفى أن نأخذ الأشياء كما هى دون فهم أو وَعْى بتفاصيلها وأسرارها، وبالتالى فأزمتنا الفِكْرية والثَّقَافِيَّة متعلقة بعدم فهم أدوات العصر وغياب النظرة النقدية للأشياء؛ لأننا نأخذها كمسلَّمات، بل نتعامل مع الشعارات دون تحفظ.

وهذه الأزمة تتعلق أيضًا بضعف مثقفينا فى اللغات الغربية على اختلافها؛ فلا انفتاح على العصر، ولا محاولة للتعرف على أزمات تمت تسويتها فى بلاد

أخرى اجتازت هذه المرحلة التى نمرُّ بها... إذن فعدم الاتصال الفِكْرِىّ بالثقافات الأخرى أدى إلى نوع من الضعف والضمور عند المُفَكِّرين، وفى اعتقادى أن الخروج من هذه الأزمة لا يكون إلا بالعمل الجاد وبالحل الذى استخدمه الغرب فى اجتياز أزماته، مع خلق المناخ العلمى والاجتماعى الصالح للحل، ومع مراعاة الخصوصية الثَّقَافِيَّة العربية وما يتصل بهذه الخصوصية من توابع... ولا بديل لنا عن مواكبة التَّقَدُّم واستلهام رُوح العصر، فالثقافات امتزاج واحتواء. وكما يقول جاك مارتان:)بقليل من الماء هنا وقليل من الماء هناك، تستطيع أن تجعل منهما نهرًا(.

إن أزمتنا الفِكْرية فى حقيقتها تتصل بمسئولية المثقفين بالدرجة الأولى، كما تتصل بحرية الرأى والنشر والإبداع، فلا حَجْر على فِكْر أو عقل من جهة الفلسفة والأفكار، حتى لو خالفت أية توجهات أخرى، وحقيقة إن المشكلة الثَّقَافِيَّة التى تعانيها الثَّقَافَة العربية هى العصر الساحق بتقنياته المتزايدة وتراكمه المعرفى وثَوْرَة الاتصالات فيه والتى جعلت العزلة مستحيلة، والتقوقع مرفوضًا؛ لأن المنظومة العالمية فى تقارب، والعلم سيد عصره، وثوراته الانقلابية المتسارعة فى المعرفة والاتصال والثَّقَافَة جعلته مختلفًا كل الاختلاف عن حاضره وأمسه، فقد بات من المستحيل أن نواجه الغد بثَقَافَة الأمس.

وهناك ثلاث فجوات تَحُول بين الثَّقَافَة العربية وثَقَافَة العصر، فالفجوة ليست مساحة زمنية فحسب، ولكنها تحدٍّ حضارى حاسم يمثله مجتمع المعلومات الذى أفرزته الثَّوْرَة الإلكترونية فى عالمنا المُعَاصِر وهذه الثَّوْرَة ليست إلا التلاقى الخصب بين التقنيات الثلاث التى هى الجاذب الإلكترونى والميكنة الذاتية وثَوْرَة الاتصالات، فالفجوة الأولى كما أراها تتمثل فيما بين التحرك العربى والعالمى من فارق هائل... والفجوة الثانية والتى تتعلق بالأولى أيضًا مضمونها نقل التقنية لأسباب عديدة... أما الثالثة فأرى أنها تتعلق بنظم المعلومات وطرق استخدامها؛ فالكم الهائل من المعرفة أصبح يدعو إلى ثَوْرَة ليست أقل خطرًا من الثَّوْرَة الإلكترونية، وفى اعتقادى أن الخطر الحقيقى لا يكمن فى التخلف الثَّقَافِىّ فحسب؛ فلو تركنا العالم دون الأخذ والعطاء لنمنا ونامت المشكلة، ولكن المشكلة الحقيقية أن الثَّقَافَة الغربية تتجه نحو مقدراتنا فى قوّتها فتفرض التنميط على الثقافات كلها، لذلك فثقافات العالم الثالث كلها مهددة بخطر، والاستقلالية هى السبيل الوحيد لإيجاد الطريق عبر متحولات متشابكة فى الذات القومية التى هى خطوط التُّرَاث ومعطيات العصر ورؤى المُسْتَقْبَل القومى.

• الحوار الإسلامى المسيحى هو طوق النجاة العاصم من أحداث الفتنة الطائفية وشتات الأوطان.. فى رؤيتك ما هى الآليات والتكنيكات التى يجب أن تعتمدها تلك الحوارية العقائدية؟

منذ خمسين عامًا وأنا أعمل فى الحوار الإسلامى المسيحى، وفى رأيى أن الدين مسألة ضمير، وكل شخص له مهمة فى هذا العالم، بل له رسالة يؤكدها وجوده وكيانه ومواهبه، ولا بُدَّ أن يستفيد منها... والحوار الإسلامى المسيحى حوار لا تناقض فيه ولا تنازع؛ لأن الأديان فى ذاتها لغة للحوار لا للصراع، فكلها تحث على الفضائل بأنواعها المختلفة وهذا الحوار المسيحى الإسلامى يحتاج إلى قرون... لكن المبدأ أنه حوار ممتد منذ زمن يجمع بين مسلمين ومسيحيين، وعلى المستوى الفِكْرِىّ نستطيع النظر إلى هذا الحوار بين ثلاثة مستويات أولها المستوى العَقَدِى... ففى الإسلام إله واحد ونحن نقول بالثالوث المقدس. وهناك عقائد أخرى داخل العقائد ذاتها لا يخوض فيها إلا خاصة الخاصة الذين تتوافر لهم خلفية علمية لاهوتية فلسفية، وهؤلاء قليلون جدًّا، ولكن عندهم الرؤية الدقيقة التى تسمح بتحديد نقاط التلاقى فى بوتقة الأديان... وهناك مستوى اجتماعى يشير إلى أننا مواطنون فى بلد واحد تحكمنا حقوق الإنسان حتى خارج هذا البلد... وهذه الحقوق مستمدة من الحقوق الإلهية... والأخلاق التى هى مرسومة فى ضمير كل شخص عن هذه الحقوق فى مساواة ومحبة وعدل وإخاء لا بُدَّ أن تخلق هذا الحوار الإنسانى الراقى الذى يترفع عن بعض التحفظات المتدنية؛ لأن هناك تطورًا عصف بهذه الأشياء، والتقى بحكم الزمن نفسه... وهذا الحوار الذى أتحدث عنه لا يكفى فيه الاجتماع الفارغ، وإنما هو من أجل رفع الظلم؛ فالعقلاء موجودون فى كل من المستويين، بمعنى أن الحوار الإسلامى المسيحى ليس به شد وجذب، فما دامت النية سليمة من الناحيتين، فتلك هى البداية القوية، وذات يوم حين أقمنا الحوار مع الأزهر قال الشعراوى أنتم تقولون حوار حوار سموها لقاءات... وقد استجبنا لهذا ومضينا فيه لأنه صحيح، وحتى الخلاف فى القضايا الاجتماعية الكبرى التى يمكن أن توجد من الممكن توحيدها باسم المبادئ الإنسانية العليا التى تحكم الإنسان من حيث هو إنسان، فذات يوم سمعت بشنق إنسان ما فى السودان لأنه كان يعتنق أفكارًا دينية خاصة، وهناك من احتج وقال هذا ضد حقوق الإنسان، فرَدَّ عليه من قال له: حقوق الله قبل حقوق الإنسان، وهذا فى رأيى خطأ كبير؛ لأنه ليس هناك تضاد بينهما، فالإنسان مخلوق الله، والأديان لا تقيِّد الإنسان فى نفسه، بل تعطيه حرية الاعتقاد بها!

والمجتمع لا بُدَّ أن تتماسك فيه أيدى المسلمين والمسيحيين من أجل البقاء؛ لأن الحوار الإسلامى المسيحى فيه استبعاد للقضية الإسلامية أو المسيحية التى مصدرها الجهل وحده، ولقد أصبح نبذ هذه القضية منطقية يفرضها العصر الذى نعيشه.

أما المستوى الثالث فهو الثَّقَافَة والحضارة فهناك حضارة إسلامية وحضارة غربية مسيحية، وهذه الأخيرة بها روائع لا تحصى من فنون وعلوم وآداب، ولا بُدَّ أن يثرى بعضنا بعضًا، والبعض يرى أن الحضارة الإسلامية غير قائمة الآن،

لكن تاريخها موجود، وأنا أسأل كيف لا تكون موجودة وأنت إذا ذهبت من مصر لأوروبا سترى فى أوروبا حضارة إسلامية؟ الجوامع والصلاة والحديث عن الإسلام والكتابة عنه... هذه الحضارة وُجدت ولا تزال موجودة، ولكن ليست بالصورة التى كانت عليها. وأعتقد أنه ما دام الرجل مسلمًا ويعيش فى مدينته فإنه سيصنع حضارة؛ لأنه لا يستطيع أن يعيش وحده... إذن كل جماعة تفرز حضارة، والحضارة الإسلامية من أكبر الحضارات ولا يمكن إنكارها... وعلى هذا المستوى الذى أتحدث فيه لا بُدَّ من تلاحم الحضارات الإسلامية على المستوى المعاش وإن كانت تتفاوت درجاتها عن الماضى.
ولا بُدَّ من معايشة الحضارة الإسلامية والحضارة التاريخية أو تاريخ هذه الحضارة، فهى ثروة كبيرة جدًّا فى العلوم الفلسفية والآداب والتفاسير.
ورغم أننى مسيحى، فإننى ظللت أعمل بالفلسفة الإسلامية، ولا ضرر فى ذلك؛ لأن العلم بطبيعته الإنسانية ضالة المؤمن، إذن الحوار المسيحى الإسلامى من جهة هذه الحضارات واسع جدًّا... فمثلًا ابن رشد كتب فلسفته بالعربية... وتُرجمت للاتينية فى القرون الوسطى واستفاد منه أقطاب أوروبا وترجموها للعبرية، فابن رشد صار محورًا لثلاث ثقافات: اليهودية والمسيحية واللاتينية.
• إذن جاءت الانطلاقة الحضارية من أرضية الفِكْر العربى؟
يمكننى أن أقول هذا؛ لأننى لا أحب المزايدة فى هذه المسائل، فالحضارة الأوروبية لم تخلق من الحضارة العربية، نعم هناك تأثير لابن رشد وابن سينا، وأما النهضة فجاءت من المصادر اليونانية ومن إسطنبول، وحتى إذا كان هذا، فالعرب الآن مطالَبون بأن يأخذوا بأسباب الحضارة الغربية، والأيام دول، ويقينى الكبير جدًّا أنه لا حضارة تعيش وحدها، ولكن الحضارات تعيش فى التئام واندماج وتزاوج واحترام متبادل.
• التيارات الكبرى للفِكْر الدينى فى العالم المُعَاصِر.. هل تراها تمثِّل دافعية حضارية أم ارتدادات فِكْرية تناهض حركة العلم؟
هناك الصحوة الإسلامية، وهناك صحوة مسيحية، ولكن هناك صحوة مستنيرة وأخرى متزمتة، هى التى تتمسك بحرفية النص، دون أن تفهم مدلوله والإطار الذى ورد فيه، بل دون أن يربطوه بتَقَدُّم العلوم اللغوية، ومن هنا تنشأ أخطاء كثيرة وخطايا أكثر.
إن التَفْسِير العلمى للكتب المقدسة خطأ؛ لأن هذه الكتب ليست علومًا طبيعية، وبالتالى فعدم تطور الفِكْر وعدم انطلاقه يمثِّل هذه الصحوة المنحرفة التى تؤدى إلى مبالغات وإلى عنف، وإلى عدم قبول للفِكْر الآخر بل اضطهاده أحيانًا، بمعنى أنه ما لم تكن الصحوة مستنيرة فسيحدث تطرف؛ لأن هذه الصحوة فيها عودة إلى الله وإلى الحياة الروحية بمعناها العميق الذى نفتقده الآن بأشكال كثيرة، وقد تعرضنا لموجات من التيارات الدينية غير المستنيرة التى انتشرت، وأصبحت كالقنبلة التى تهدِّد العالم... فالدين

قوة جبارة محركة يستخدمها البعض للتدمير والبعض الآخر يستخدمها للإصلاح... والنقد مطلوب من أجل التصفية والغربلة، والإسلام والمسيحية المستنيرة مطلوبان لمواكبة هذا العصر أكثر من أى وقت مضى، وهذه الصحوة الدينية التى أتحدث عنها موجودة بمعناها الحقيقى عند بعض شباب أوروبا الذين وهبوا أنفسهم من أجل الخدمة الاجتماعية، وتحمسوا لها بما لديهم من إيمان عميق، أما التيار الثالث فهو التيار الوضعى الذى ما زال ممتدًا، ويقوم على أن العلم يمكنه أن يفسر كل شىء، وهذه فى اعتقادى دعوى فاسدة؛ لأن العلم لا يعطى الخير وحده، بل يعطيك قنبلة وطاقة ذرية من الممكن أن تستفيد منها، ومن الممكن أيضًا أن تقتل بها الناس جميعًا. إذن العلم وحده ليس دينًا... ولا بُدَّ من المبادئ الدينية العليا؛ لأنه فى ظل الصحوة المستنيرة لا بُدَّ أن تكون هناك أخلاقيات للعلم تمنع كل نواقصه، وبصفة عامة أنا أتنبأ بانحسار هذا التيار؛ لأن هناك عودة إلى العقل وإلى الروحانيات. وإذا كان تَقَدُّم العلوم مستمرًّا،ا فإنه لا بُدَّ أن يكون هناك أيضًا تَقَدُّم موازٍ فى الأخلاق مثلما كان يقول "برجسون": "إن العالم يكبر ويكبر ويتضخم من الوجهة المادية، أما روحه فلم تكبر، وبالتالى هناك خلل يحتاج إلى نوع من التناسب".

والذى أقصده أنه ليس هناك تضاد بين الصحوة الرُّوحِيَّة والعلم؛ فالعلم لا يزال يتَقَدُّم بلا نهاية، وإن كانت هناك غوامض كثيرة لم يكشف عنها. وأنا أوافق برجسون على أن هناك تضخمًا جسديًّا للعالم والحضارة أكبر من التَّقَدُّم الرُوحِىّ.

• المتغيرات الدولية المتلاحقة ربما لا تبدو ذات مسار منطقى.. هل يعبِّر ذلك عن خلل فى المنظومة الكونية؟

نعم.. وهذه المنظومة اختلت الآن، ولكن فى رأيى أنه اختلال مؤقت؛ ففى الاشتراكية أشياء لا بُدَّ منها، فالأشياء المادية لا بُدَّ أن تكون فى خدمة الإنسان، وليس الإنسان فى خدمتها، لأن الإنسان هو المِحور لعالم جديد، ولا بُدَّ من إعادة المعادلة لوضعها الصحيح، وما أتوقعه أن القوة الأمريكية المسيطرة ستخفف من حِدَّتها، فكل مذهب له وعليه، ويجب ألَّا نفرح بوصول الرأسمالية لهذا المستوى، فلا بُدَّ أن تكون رأسمالية إنسانية فى ظلها يكون المجتمع فى خدمة الإنسان، بمعنى أن التَّقَدُّم المادى يجب ألَّا يلغى وجود الإنسان، وأرى أن التوازن فى المرحلة القادمة ستحققه أوروبا بخمسين مليون مواطن، وستكون بذلك حلقة الوصل مع القارة الأمريكية؛ لأن أوروبا سوف تستقطب روسيا؛ حتى لا تضيع، ولكننى أعتقد أن هناك تناغمًا وانسجامًا كونيًّا، وأبرز مظاهر ذلك هو اختيار بطرس غالى سكرتيرًا عامًّا للأمم المتحدة وهذا له دلالة عظيمة جدًّا؛ لأن بطرس غالى عربى مصرى من العالم الثالث انتُخب للفصل فى المسائل الدولية، وأنا أرى أنه فى الماضى لم تكن هذه المسئولية موجهة تجاهنا من قِبَل الغرب الذى تغيرت نظرته لنا.. لماذا؟ لأنه

قد اتضح لهم أن الشرق ثَقَافَةَ وحضارة وقيمة إنسانية، ويمكن أن يكون المُسْتَقْبَل من أفريقيا، ولأن ما يمرُّ به الشرق الآن هو أزمة عارضة، وكل الحضارات لها أزمات وكبوات.

• يقال إن الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا.. ألا تنسف هذه المقولةَ معانى ومفهوماتُ التواصل الحضارى الذى هو حلم الشعوب وسُنَّة التاريخ ومؤشر اكتمال التجربة البشرية؟

الله خلق الناس أشكالًا وأطوارًا، وهذه هى سنة الحياة، بل إنها ضرورة كونية، ومقولة كيلنج فى الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا هى مقولة عاطفية، حين كان المد الاستعمارى موجودًا، وكانت هناك نظرة استعلائية لاستخدام الشرق، وهذه النظرة لا يمكن أن تصل لمرحلة المساواة؛ لأنها نظرة إمبريالية لا تَقْبلها المسيحية ولا الإسلام، بل أصبحت الآن نظرة غير حضارية، والمسألة كلها طبيعة تنوع، بل مسألة ذوق ووجدان.

لكل ثَقَافَة محاورها الفِكْرية ومنطلقاتها التطبيقية، وعظمة الثقافات أنها لا تعتبر نفسها التَفْسِير الأوحد للكون والحياة، وأنها بجانب تَفْسِيرها تفسح المجال لما لا ينتهى من التفاسير، والعالم الثالث ليس له ثَقَافَة واحدة بل ثقافات متعددة، وكلها مهددة بأن يبتلعها تنين الغرب لتسطيح هذه الثَّقَافَة وطمس معالمها.

والنظرة إلى العالم من الزاوية الثَّقَافِيَّة هى النظرة الوحيدة التى تعيد إليه التوازن، وتفتح له آفاق التفاهم، وقد أضاع الغرب العديد من الفرص للقاء مع الثقافات الأخرى، فى حين أن الثَّقَافَة هى التى تساعد على الإمساك بعبقرية الشعب وضبطها وتَفْسِيرها، وأفريقيا تفقد هذه الوسيلة، لذلك كان الكشف عن الهوية الضائعة صعبًا، وكان هذا الكشف يقتضى تحويل التُّرَاث الثَّقَافِىّ المرئى والمسموع إلى تُرَاث مكتوب، ولا يمكن أن تصبح الثَّقَافَة الأفريقية قوة تحرير وتماسك واعية للشخصية الإفريقية دون ذلك، ولا عجب بعد التنكر لوجود الإنسان أن تتنكر له ثَقَافَة. أما الحضارات فليست هناك حضارة قائمة بنفسها، وكل الحضارات تمتزج؛ فحضارة البحر الأبيض المتوسط دخلت فيها اليونان، وكانوا فى قمة الحضارة، ثم الرومان الذين أتوا بالنظام الإدارى الحربى، ثم جاءت إمبراطورية القرون الوسطى... بعد ذلك كانت أمواج من الحضارات، بل حوار حضارى لخدمة العصر والحياة مثَّلته البوذية حين أثَّرت فى بعض العقائد الإسلامية والمسيحية، إضافة إلى أن هناك تأثيرات تأتى من اندماج الأشخاص والأمم... فالأمم لا تعيش فى غرف مغلقة، وليس أدل على ما أقول من شخصية طه حسين الذى كوَّن شخصية جديدة جمعت بين العالمية والمحلية، ولأن الحضارات العربية الإسلامية شىء حتمى مادام هناك عرب ومسلمون فلا بُدَّ من أن تكون هذه الحضارة قائمة.

• باعْتِبَارك صاحب تخصص دقيق فى الفلسفة الإسلامية.. ترى ما هى أبجديات استعادة تألق الحضارة العربية الإسلامية؟

مصر -فى رأيى- تنتمى لثَقَافَة البحر الأبيض المتوسط كما كان يردد طه حسين دائمًا. فالعناصر الأساسية التى هى حضارة الغرب هى أيضًا حضارة مصر... الآن لا بُدَّ أن ننظر إلى الأمام حتى لا يكون هناك أدنى احتمال لردة زمنية فنحن منتمون إلى الحضارة الإنسانية كما أننا جزء منها، فالحضارة فيها ليست حضارة إسلامية، بل إنها الوحيدة فى المنطقة بل فى العالم كله التى عاشت سبع حضارات؛ هي: الفرعونية واليونانية والفارسية والقبطية والمسيحية والإسلامية والحضارة الحديثة... ومصر صاحبة سبع حضارات... وتاريخها الحضارى يشفع لأن يكون لها وجود حقيقى فى الساحة الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوليفيه كاريه.. القراءة الثّوْرِيَّة للقرآن

كانت القـــــــراءة الثَّوْرِيَّة للقرآن واســـــتلهام جديد معانيه وقضاياه وأطروحاته -فى إطار الوضعية الحضارية المُعَاصِرَة- هى قضيته المركزية التى فرضها الظرف الثَّقَافِىّ والفِكْرِىّ الذى حتم على المُفَكِّر الفرنسى "أوليفيه كاريه" إجراء العديد من الأبحاث والدراسات حول الجماعات الإسلامية وخلاياها فى العالم فِكْرا وسلوكًا وتاريخًا، وقياس درجة شيوع المذهبية والطائفية، بما أسهم فى تشكيل واقع فِكْرى متردٍّ يمثل مأزقا مُسْتَقْبَلِيًّا خطيرًا للأمة الإسلامية، فانكب بحثًا عن مخرج لتلك الإشْكَالِيَّة، وقد تولدت لديه قناعة أن الإسلام أو غيره من الديانات لا يمكن أن ينتج تلك الدوجما الفِكْرية التى تزعم أنها تنشد التغيير وهى لا تعى معناه فى الأساس، وقاده ذلك إلى سؤال: كيف أن هذه الجماعات قد شكلت أزمة فعلية جديدة لمجتمعاتها التى تنهشها الأزمات الاقتصادية والسياسية والثَّقَافِيَّة بينما قد صورت نفسها كطوق نجاة ووجدت جبهات من المناصرين!! إذن كيف لهذا الواقع أن يجتاز عثراته؟... تفكَّر طويلًا ولم يعثر إلا على آلية واحدة هى ضرورة القراءة المغايرة المختلفة للقرآن عن كل القراءات طيلة خمسة عشر قرنًا، وهى تلك التى تعنى الكشف عن أسس ومقومات التغيير السوى من النص المقدس بشكل يدحر أى معنى منشق يحاول التسلل نحو السُّلْطَة من سرداب الدين.

• "كاريه" كمهتم بالفِكْر الإسلامى وكل التيارات الممثلة له.. أيهما يخدم قضايا الإسلام ويقدم معالجات منطقية تتسق مع رُوح معطياته؟

أنا معجب أشد الإعجاب بكتابات المُفَكِّر الإسلامى المصرى "سعيد العشماوى"، وأتابع ما ينشره دائمًا، وخاصة كتابه "الإسلام السياسى"، الذى طرح فيه عددًا من الإشْكَالِيَّات الإسلامية الجديرة بالنظر والمناقشة، والتى هى فى إجمالها دعوة صريحة نحو تجديد الفِكْر الدينى وبعثه نحو مسارات وانطلاقات أعتقد أن الواقع الإسلامى فى أمسِّ الحاجة إليها من أجل نهضة إسلامية، وإن كنت أعتقد أنه لا يحظى بينكم بحسن التقدير الكافى له ومن فى مستواه، لكن السؤال هو لماذا لا تستوعب ساحتكم الفِكْرية والإسلامية أمثال هذه الطاقات المبدعة صاحبة العطاء؟!

• من وجهة نظر "كاريه".. ما هى المشكلة المحورية الجديرة بالطرح على الساحة الإسلامية فى هذه اللحظة؟

إزاء التغيرات الجبارة والمتلاحقة التى يشهدها العالم المُعَاصِر، أعتقد أن مسألة تغيير المفاهيم واتساقها مع الأحوال الاقتصادية والاجتماعية الحديثة أمر مهم للغاية ينبغى أن يخطَّط ويوجَّه من جانب الصفوة المتميزة فى العالم الإسلامى، وأنا أذكر أن أوائل المسلمين قالوا:)إن الفقيه الحق هو الذى يطابق بين الواقع والواجب(، بالتالى لا بُدَّ من طرح حلول إسلامية تتلاءم مع

الواقع المُعَاصِر، ولا يضرُّ أن يكون لهذه الحلول طابعها الرُوحِىّ والوجدانى لتؤكد جديتها ووجودها، بل تكيُّفها مع كم المتغيرات الهائل فى كل دقيقة من قرننا العشرين.

• فى ظل ما يسود العالم الإسلامى من تناقضات صارخة على صعيد الفِكْر والواقع تماثلها تناقضات وسلبيات فى العالم الأوروبى وإن اختلف الوزن النسبى لها... كيف ترى أوروبا هذا العالم الآن؟

لا شك أن صورة المسلمين فى أوروبا وفى الغرب عامة الآن هى أبعد ما تكون عن حقيقة الإسلام نفسه، إنهم صورة باهتة ممسوخة فترت علاقتها بالإسلام، حتى بات كل منهم فى وادٍ، كما أن الظروف قد ساعدت خصوم الإسلام فى كثير من الأحيان؛ حيث تبدو حركة الأحداث مؤيدة تمامًا لكل ما يطلقونه من دعاوى، وانظر إلى العالم الإسلامى الذى بات ممزقًا محطمًا وأتاح بذلك فرصًا نادرة لمن يربطون بين الإسلام والصراع والعنف والتخلف والقهر السياسى، وانظر أيضًا لترى الحركات الأصولية الإسلامية ذات الفراغ الرُّوحِىّ وهى تضرب الإسلام فى مقتل، حين تعتمد بشكل مطلق على مفهوم قديم للجهاد، وحين تضرب على نفسها عزلة زمانية مكانية تجعلها نشازًا تاريخيًّا لا علاقة له بالحياة ماضيها وحاضرها ومُسْتَقْبَلها، ذلك إذا تأملنا الخريطة اليوم سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا.

إن التيارات الإسلامية التى تمثِّلها فرق عديدة فى العالم العربى بأسره، المضمون الأيديولوجى والثَّقَافِىّ لهذه التيارات لا يعبِّر -مع الأسف- عن الاحتياجات الرُّوحِيَّة أو المادية لهذا العالم، كما أن مصداقية هذه التيارات محصورة فى الإدراك الجزئى لبعض أزمات المجتمع وليس كلها، ومن مفاهيمها تفتقد بحق وصدق إلى رؤية تخدم الإسلام مهما كان منطقها ومهما كانت نيتها، هذا ما نفهمه -نحن الأوروبيين-، فما بالكم وأنتم المسلمون أصحاب المصلحة الحقيقية فى وقف هذه المهازل؟

• فى ظل موجة الظلم العالمى المتمثلة فى أحداث البوسنة والتى تستهدف الإبادة الجماعية للمسلمين.. كيف تراها.. اضطهادًا، عنصرية، غطرسة، تطهيرًا عرقيًّا؟

أعتقد أنه ليس هناك دين يسوِّى بين الظلم والاستكانة للظلم سوى الإسلام؛ فمن ترك نفسه يُظْلَم كمن ظلم غيره على حد سواء، وهناك آية تصف المؤمنين فى هذه الحالة تقول: وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)٣٩(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)5(، ومن هنا فالإسلام يعتبر التجاوز عن الحق شيئًا ممدوحًا إذا كان عن عجز وقصور، بل إنه أيضًا ذهب إلى عدم قبول الاعتذار بالضعف، وأوجب على أهله أن يكونوا أقوياء فى مجتمعهم، وبَثَ فيهم رُوح البطولة والخلق العالى، وهذا أغرب ما يروى عن دين فى العالم، والمتأمل فى هذا الدين يلمس كيف أن العلل الأولية فيه جعلت من المسلمين

المُتَقَدِّمين وحدة مندمجة لم تتجه إلى غاية إلا بلغتها، ولم ترم إلى غرض إلا أصابته.

• يقال إن المسلمين الآن يعايشون مأزقًا حضاريًّا كبيرًا جعلهم خارج التاريخ.. هناك توجه فِكْرِىّ يرى أن العالم الإسلامى قبل الغرب هو من أحكم خيوط المأزق الحضارى حول ذاته؟

نعم هم خارج التاريخ، وسيظلون كذلك ما لم يُعَدْ لديهم ترتيبُ طرف المعادلة التى تصلح لهذا العصر، أقصد معادلة الحق والقوة، العلم والخرافة، الحقيقة والوهم، الحوار والغوغائية، البحث والعبث، الاستدلال والفوضى، الحرية والتبعية، التكنولوجية والبدائية، وكل هذا ليس بالشىء المتعاظم الذى يصعب تحقيقه؛ لأن القرآن جاء بدين الفطرة فى كل شىء، ولم يترك وسيلة لإنعاش العقل، بل تذرَّع بها وسخط على ما سواها. وبمعنى آخر على المسلمين اليوم فى كل بقاع العالم بالقراءة الثَّوْرِيَّة للقرآن، تلك القراءة المتمثلة فى الاستلهام والتصحيح وإعادة تشكيل المفاهيم فى كل ما هو عام أو خاص.

• انطلاقًا من ذلك.. كيف يتحرر العقل المسلم ويجتاز أزمته؟

رغم كل ما للعقل المسلم من تاريخ لا يمكن إنكاره بحال، فإن هذا العقل فرض عليه الانغلاق داخل أطروحات تبلورت فى أزمنة وأمكنة مختلفة، أصبحت تتحكم فى رؤيته لمواجهته الواقع المعيش، مما أورثَه العجز عن تحديد أدواته من خلال هذا الواقع، ونتيجة لذلك أصبح المسلم عاجزًا عن معالجة قضايا هذا الواقع إلا من خلال فتاوى وأفكار من سبقوه، وذلك بالقياس عليها أو بالتلفيق بينها، ولعل العَجْزَ هو المسئول الأول عن بعد الواقع عن الإسلام، وعلى الإسلاميين أن يجعلوا كل ما يقدِّمونه واضحًا فى أذهانهم... والحل فى رأيى هو أن تتمكن قوى التغيير الإسلامى من معالجة التراكمات السابقة، ومعرفة حجم التحدى الذى تواجهه، ولا بُدَّ من مراجعة فِكْرية شاملة متحررة من كل الضغوط النفسية والتاريخية؛ لإعادة تقديم الفِكْر الإسلامى إلى الأمة كفِكْر إيجابى مؤثِّر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوأنا فرونتسكا.. أسرار البصمة الرُّوحِيَّة للإسلام

مغامرة فِكْرية كبرى خاضتها المستشرقة البولندية "يوأنا فرونتسكا"؛ حيث قررت أن تطوف بعالم الإشراقات وتسبح فى ملاحم التصوف فتعيش معانى التوحد والعشق والقرب والخلوة والإلهام الباطنى، لتمثل معزوفة انفرادية جديدة تتناغم إيقاعاتها بين الحس الدقيق والوَعْى النافذ الذى يجعلها تجوب العالم وهى تجلس فى مقعدها.

فلقد أنجزت دراسة علمية مهمة ومثيرة حول التصوف الإسلامى مُنحت بها إجازة الدكتوراه، وبالطبع كان الفيلسوف المتصوف "محيى الدين بن عربى" -الذى ظل مثار جدل لقرون طويلة- هو بؤرة اهتمامها التى انطلقت منها وشكلت بها نزوعًا خاصًا نحو الألفة النفسية والرُّوحِيَّة مع الثَّقَافَة العربية... ترى ماذا قالت السفيرة المستشرقة عن رحلتها الذاتية مع الإسلام والتصوف وانطباعاتها عن مصر والمصريين؟

• الإسلام كعقيدة ومنهج... ماذا يمثل بالنسبة للمستشرقة الكبيرة "يوأنا فرونتسكا"؟

سؤال خطير بالفعل، فأنا -كباحثة وسفيرة درست الإسلام وقضاياه فى أبعادها المادية والرُّوحِيَّة- أحترم الإسلام كثيرًا، ليس كديانة يدين بها ما يتجاوز المليار من البشر؛ بل أحترمه كعقيدة، وقد يتساءل الكثيرون كيف أننى وحتى الآن -وبعد دراسات أكاديمية مكثفة وذات عمق- لم أدخل الإسلام وقد عشت سنوات وسنوات مع اللغة العربية بكل أسرارها ودقائقها ومع الفِكْر الدينى الإسلامى بمختلف قضاياه المثارة بل مع دراسات الحضارة الإسلامية، وعلى مستوى آخر فقد ارتبطت بالتصوف الإسلامى كموضوع بحث، وعشت أوقاتًا طويلة مع كتابات فلاسفة التصوف من أمثال: محيى الدين بن عربى، أبى حامد الغزالى، ابن الفارض، وأحيانًا مع أشعار رابعة العدوية... وبصفة عامة أحب أن أنبه إلى أنه ما أكثر ما بين الأديان السماوية من نقاط مشتركة تدور حول المبادئ والقيم العليا.

• أستشعر أن هناك نوعًا من الألفة بينك وبين اللغة العربية يعكسها هذا الإتقان فى التعبير عن القضايا المتعددة... فما هو سر هذه الألفة؟

بداية أحب أن أؤكد أن إتقان اللغة العربية شاقٌّ جدًّا، ولقد درستها بجامعة وارسو بمعهد اللغات الشرقية، وقدمت بها العديد من الأبحاث والدراسات فى ميدان الفلسفة الإسلامية والتصوف، وتعرفت خلالها على مناطق الإبداع والثراء فى الأدب العربى والثَّقَافَة الإسلامية، فدراسات التصوف تحتاج إلى نوع من الحس اللغوى والإلهام الباطنى.

• ما هو سر اختيارك المباشر لدراسات التصوف الإسلامى بصفة عامة ولمحيى الدين بن عربى بصفة خاصة، هل استأثرت بك تلك الدراسات باعْتِبَارها ذات طابع رُوحِىّ يشغف من نشأوا فى أحضان الفِكْر المادى؟

لقد اخترت دراسة الإسلام كحضارة والفلسفة والتصوف بصفة خاصة لأنه يمثل تيارًا فِكْريًّا مستقلًّا، ومن حقى كباحثة أن أختار القضية التى تشكل قلقًا ذهنيًّا بالنسبة لى، وعلى ذلك فقد اخترت التصوف لأنه يُعد نموذجًا ممتازًا للفِكْر العربى والفلسفة الإسلامية، ورغم صعوبة كتبه، فإنها تحمل عمقًا كبيرًا، وأنا أحترم العمق، فهناك أفكار تتناول الإنسان بشكل تدريجى، فيكون أفضل وأفضل حتى يتَقَدّم نحو دفعات روحانية ويصل إلى الله فى إطار مراحل فِكْرية وروحانية أيضًا.
إن الثَّقَافَة العربية تحمل فى طياتها تُرَاثًا صوفيًّا عظيمًا يجب أن يستلهم المسلمون معانيه، وأن يقرأه الشباب ويقفوا عنده طويلًا؛ لأنه سوف يُعد بالنسبة لهم نموذجًا رفيعًا للشفافية والتسامى والإشراق أيضًا.
وبالنسبة للصوفى الكبير محيى الدين بن عربى، فقد كان يمثل بالنسبة لى اكتشافًا رائعًا كرَّست له حياتى؛ لأفهم فِكْرته المحورية عن وحدة الوجود، وهى فى الحقيقة فِكْرَة صعبة للغاية، كما جاء اهتمامى به من منطلق كونه يُعد نموذجًا ممتازًا للإسلام، بل هو من أخطر مُفَكِّرِى الصوفية، إضافة إلى كونه يمثل مدرسة وحدة الوجود، وأنا كمستشرقة تستطيع أن تُقَدّم رأيًا موضوعيًّا، أقول إننى وجدت عمقًا فلسفيًّا وروحيًّا جعلنى أحترم وأقدر أفكاره وأهدافه فى إطار مساحة مشتركة من التواصل المستمر معه؛ لأنه -بحق- كان من الطراز المناسب والمتوافق مع طبيعتى، وبالتالى فقد حدث تجاذب هائل على المستوى الفِكْرِىّ الرُّوحِىّ. بشكل ظللت معه أردد: خيالك فى عينى، وذِكْرُكَ فى فمى، ومثواك فى قلبى، فأين تغيب؟ وكذلك: الحر من ملك الأكوان أجمعها وليس يملكه مال ولا جاه.
ورغم كونه صاحب النص الأصعب فى السردية الصوفية الكبرى الأكثر تعقيدًا -نظرًا لتفاعلها مع نصوص أخرى تنتمى لحضارات عديدة، مما يجعلنا نواجه شبكة نصية لها العديد من الخصائص التى تبدو متناقضة- فإنه فى كل الأحوال كانت هناك دراسات رائدة خاضت فى إشْكَالِيَّات ابن عربى على إجمالها، منها دراسات "أسين بلاثيوس"، و"هنرى كوربان"، و"ميشال شود كيفتش"، و"وليم تشتيك"، و"أبو العلا عفيفى".
أما بالنسبة للإمام أبى حامد الغزالى فهو أيضًا صوفى من طراز خاص، وكان ضد الفلسفة، وأروع ما كتب كان)إحياء علوم الدين(الذى استخدم فيه مبدأ الاجتهاد القائم على الرؤية النقدية، وأيضًا كتابه الفذ)مشكاة الأنوار(الذى يتميز بجاذبية خاصة خلال تَفْسِيرَاته الرُّوحِيَّة لمعانى الإشراق الإلهى، حين يعرض شرح آية النور من سورة النور، وقد قمت بترجمة هذا الكتاب لأسباب عديدة.
• فى لقائى بالمستشرقة الألمانية الشهيرة "أنا مارى شميل" وجدت لديها نفس مساحة الإعجاب والافتتان بشخصيات صوفية كبيرة فى التُّرَاث

الإسلامى من أمثال "الحلاج" و"جلال الدين الرومى"... ما رأيك فى إبداعاتها الكتابية فى إطار المحيط الصوفى ورموزه؟
أنا معجبة بها كثيرًا؛ لأنها حاولت أن تُقَدّم -وبطريقة أكاديمية- كل التيارات فى التصوف الإسلامى، وهذا بلا شك شىء إيجابى من الناحية التاريخية، إضافة إلى جهودها الدائمة فى تأكيد مصداقية الإسلام فى الرؤية الغربية، وترجماتها العديدة لكتب علماء المسلمين وكبار شعراء الصوفية.
• لكن هل انقطعت علاقتك بالتُّرَاث الصوفى أم ما زالت هناك أفكار يمكن أن تُقرأ فى أعمالك القادمة؟
علاقتى بمحيى الدين بن عربى لم تنقطع؛ فقد بدأت أكتب عنه من جديد، فهو يحتاج إلى درجة عالية من التركيز الذهنى، بينما الفعل التنفيذى يستنزف كل وقتى، ورغم ذلك ما زلت أسأل نفسى: هل أنا مستعدة لذلك؟ وبالضرورة يأتى الرد إيجابيًّا؛ لأن هناك جزءًا من كتاب الفتوحات المكية أتمنى أن أكمله خلال فترة عملى بمصر، حيث توجد المخطوطات النادرة التى ربما لا أجدها فى أى مكان آخر.
• ظاهرة المد الإسلامى فى أوروبا عمومًا وبولندا بصفة خاصة.. ماذا تقول عنها "يوأنا"؟
بلا شك هى ظاهرة ثابتة، وبولندا نموذج طيب للمد الإسلامى، وبها أعداد هائلة من المسلمين، وبعضهم حظى بشهرة ممتازة لدى محطات التليفزيون في كثير من الدول الأوروبية، وبالتالى خلقت هذه الظاهرة حوارًا مفتوحًا ومتصلًا عن الإسلام فى أوروبا، وتلك ظاهرة إيجابية دافعة لقضية حوار الحضارات التى هى حديث الساعة.
وهناك شىء أكرره دائمًا، إننى أحب مصر وشعبها ولعلك تحس منى ذلك، لكن لماذا؟ لأن المصريين لديهم صفات نادرة اجتماعيًّا؛ وهى أنهم رُوحَانِيُّونَ بالدرجة الأولى، وفي نفس الوقت هناك اهتمام بالآخر فى حالة حدوث أى شيء. وشىء آخر وأخير، وهو ما أفكر فيه طويلًا... تلك الابتسامة المرسومة دائمًا على وجوههم حتى لو كانت عابسة فى بعض الأحيان، وهذا يمثِّل سرًّا كبيرًا تنطوى عليه الشخصية المصرية. إننى أعتزُّ كثيرًا بالأديب الكبير نجيب محفوظ وبكتاباته الرائدة التى صوَّرت البيئة المصرية وأشاعت اللهجة المصرية المميزة أيضًا، كما أحب كتابات الدكتور ميلاد حنا، خاصة منها ما يرتبط بقبول الآخر، والأعمدة السبعة للشخصية المصرية.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

رشدى فكّار.. العالم الآن يعيش لحظات من التَّآزُم الكونى

لأكثر من نصف قرن كانت مسيرته الصاخبة بالحوار الجاد والجدل الواعى المعلن عن إشراق ذهنى ونفسى أيضًا، فلم يكن الدكتور رشدى فكّار مجرد مُفَكِّر إسلامى، ولكنه كان مُفَكِّرا موسوعيًّا من طراز رفيع استطاع أن يقيم نوعًا من التوازن الموضوعى المتعادل بين إشْكَالِيَّات الحضارة الغربية كحضارة فى علاقتها بأزمة المسلم المُعَاصِر، بل استطاع أن يحلِّل مفردات هذه الحضارة فى هيكلها ومضمونها، فيكشف لنا وبشكل سافر عن هشاشتها، وكيف أنها قد وضعت إنسانها فى مأزق تاريخى غير مسبوق؛ حين أفقدتْه الكثير من القناعات الرُّوحِيَّة فى وقت لم تَعُدْ فيه احتياجاته المادية تُشبعه، ويكشف لنا أيضًا عن عبقريتها بحكم تفوقها التكنولوجى المذهل، وبالتالى أصبح الشماليون ينتحرون لغياب الغايات، بينما يموت الجنوبيون لنقص الوسائل!! وهكذا كان الحديث معه له إيقاع خاص، بل إحساس خاص؛ لأنه يخرج بنا عن إطار المناقشة التقليدية المحدودة لأى ظاهرة من الظواهر ليربطها بجذورها ويرتاد بها آفاقها المتعددة، فتكتمل النظرة وتصبح أكثر موضوعية وصدقًا عند التعامل أو الاحتكاك معها.

ولعل الكثيرين لا يعرفون أن د. فكار هو العربى الوحيد المختار فى مجامع الخالدين بباريس، والتى تضم صفوة علماء الكون على اختلاف توجهاتهم العلمية وكان كذلك رئيسًا للجمعية الحوارية الدولية)الإديو(، وأول من تنبأ بسقوط النَّظَرِيَّة الماركسية فى أوج مجدها، وظل عَلَمًا بارزًا من أعلام الفِكْر الإسلامى الذين خاضوا مناظرات ساخنة داخل أوروبا حول وضعية الإنسان فى القرنين الحالى والقادم.

• ترأستَ الجمعية الحوارية الدولية بين الشرق والغرب... هل يمكن أن تسهم هذه الرئاسة فى تغيير طابع اللغة العالمية السائدة التى أصبحت مفرداتها على درجة خطرة من التناقض بما يتجلى معه تصادم الكيانات واحتدام الصراع بين آنٍ وآن؟

الواقع أن الجمعية الحوارية الدولية بين الشرق والغرب هى مساهمة فى إطار تدعيم التعامل الموضوَعْى بين الحضارات والثقافات المتعددة فى هذا العالم الذى أصبح ضيِّقًا رغم سعته الجغرافية الممتدة؛ نتيجة لكثافة العلاقات وكثافة التراكم المعرفى، بل كثافة الزمن وسرعة إيقاعه، وفى نفس الوقت هذه الموجة من الاختزال جعلت قضية التفاهم والتعارف قضية أساسية، ومن هنا يبرز المؤشر الخالد فى القرآن الكريم؛ حينما وضع التعارف كأساس للتعامل بين الشعوب وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)6(، والحوار فى هذه الجمعية قائم على مبدأ لا سيد فيه ولا مسود، بمعنى أن أى ممثل لحضارة أو ثَقَافَة له خصوصياته، دون أن يكون فى ذلك محاولة للسيطرة

على فِكْر الآخرين، ورغم أن هذه الجمعية تضم بين صفوفها المُفَكَر والأديب والمبدع من مختلف الجنسيات والمعتقدات والانتماءات الأيديولوجية، فإنها لم تكن حوارية إلا بالحضور الأفريقى والأسيوى المكثف إلى جانب الحضور الأوروبى والأمريكى الشمالى أو الجنوبى، وحاليًّا وكما يلاحَظ فإن هناك اتجاهًا كونيًّا نحو التفاهم؛ حيث لم تَعُدْ لغة الطغيان والتحكم والمضاربة على مصائر الآخرين هى اللغة العالمية السائدة، ترى هل هذا نتيجة لبرمجة معيشية؟ أم أنها جاءت نتيجة لأن مرحلة السيطرة والهيمنة قد وصلت إلى حد الإشباع، بمعنى أن البشرية وصلت بعد عمليات المد الاستعمارى فى العالم إلى حد لم تحلَّ معه مشكلة التفاهم الكونى، ومن هنا كانت الحرب العالمية الأولى تؤكد عدم تخلّص الإنسان من نبرته الحيوانية فى القتل والتدمير، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية بدورها فأكدت نفس الميول؛ إذ أصبح العالم فى نهاية القرن العشرين أمام اختيار محدد: يكون أو لا يكون؟ فإما المزيد من الهيمنة والمواجهة -ومن هنا يكون التدمير الكونى-، وإما حوارية جديدة.

لقد شرفتُ مع مجموعة من المُفَكِّرين العالميين فى بداية السبعينيات بوضع نَظَرِيَّة المراهنة الصناعية، ولفتنا فيها النظر إلى أن هناك مراهنة على الصناعة حتى تؤول فى النهاية إلى أن يخسرها الإنسان والمجتمع على حد سواء، يخسرها الإنسان باسم المجتمع فى جانب من الكون وهو الكتلة الشرقية، ويخسرها المجتمع باسم الإنسان فى الجانب الآخر وهو الليبرالية، ومضمون ما تطرحه هذه النَّظَرِيَّة أن العالم يتجه إلى التفوق العلمى، بمعنى أن العلم إذا كان قد أخذ مكان الفلسفة فى القرن التاسع عشر، فهذا العلم نفسه يترك الريادة للصناعة فى فترة تالية، فيصبح مستأنسًا بالصناعة، بمعنى أن الصناعة هى التى تقنِّن العلم المفيد وغير المفيد، فهناك علوم تَتَقَدّم لأن لها طابع المردودية والفائدة على مستوى الصناعة، وهناك علوم تتراجع رغم ما لها من فضل التسامى بالإنسان وليس لها طابع المردودية، وعلى ذلك أصبحت المردودية هى الأساس، ثم كان هناك تنبؤ فى مرحلة تالية من المراهنة، وهى التكنولوجيا التى سوف تمثِّل بدورها قفزة من أسفل للسيطرة على العلم والصناعة، ويصبح كل منها فى خدمة التكنولوجيا. ولقد شعرنا بهذه المراهنة فى الستينيات من القرن الماضى، حينما كان يُلقى بمليارات الدولارات فى الهواء باسم تجربة الصواريخ والإنسان جائع فى الأرض ويعيش استلابًا حقيقيًّا، وفى تصورى المتواضع أن قضية الحوار بدأت تطرح نفسها الآن لأن هناك اتجاهًا كونيًّا يؤكد ذلك، بمعنى أن هناك تقبُّلًا ضمنيًّا للعملية على مختلف المستويات البشرية، ولكن لكل قاعدة استثناء؛ فوجود الحوارية فى الكون لا يمنع وجود الإنسان الذى لا يريد أن يحاور حتى نفسه! لكن الاتجاه الحوارى الآن -فى رأيى- يؤدى إلى أن الشعوب التى سيكون لها دور فى السنوات القادمة هى الشعوب الأكثر قدرة على التعرف والتعارف والتفاهم ومعيارية الأخذ والعطاء، أما الذى يقوم بعمليةِ الخضوع

لأطروحات مبيّتة ويعتقد بصدق صلاحيتها وينغلق على ذاته، فهو إما أن يُستبعد نهائيًّا من الملعب ويُترك وشأنه، وإما أن يُجَرَّ ليكون من المسخَّرين ويصبح دائمًا مَسُودًا لا سائدًا، ولهذا من الأولى أن يأخذ مكانه فى الوقت المناسب على مائدة الحوار ويقول: أنا هنا، محاولًا أن يحدِّد خصوصياته، ويطرح بموضوعية طموحاته وما لديه من وسائل تحقق غايته، وهذا فى حد ذاته ما هو إلا عملية توظيفية، فالمُحَاوِرُ يتقبَّل حضور محاوِر آخر ليس بالضرورة أن يكون نسخة طبق الأصل منه، وهو ما نسميه)وحدة التنوع(، بمعنى أن هناك تنوعًا مقبولًا يحاول أن يكون له إطار إيقاعى فيه حد أدنى هو التفاهم، وهذا أعتبره شيئًا مبشِّرًا بالخير، فلم تعد القضية احتكارية على مستوى حضارة سائدة، وعلى الآخرين أن ينقلوها -رضوا أو كرهوا-، وأعتقد أنه بقدر ما يكون الآخر واعيًا بذاته ومحددًا لأغراضه بقدر ما يُستمع إليه.

• ما أكثر ما يُلصق بالإسلام من اتِّهَام بالعجز عن مواكبة العصر.. هل يمثل ذلك نقيصة حضارية وحماقة تاريخية تقوم على إحكام المغالطة بينما الحضارة الإسلامية لم تغضَّ من أصحاب الثقافات والعقائد والحضارات الأخرى؟

أنا أستبعد نهائيًّا أن يكون للإسلام قضية أو مشكلة، ولو أن له قضية فعلًا لكان مصيره هو نفس المعتقدات التى ظهرت لتختفى، ولكن قدرته على الصمود وعبور التاريخ طيلة خمسة عشر قرنًا، وتحوُّل قلة كانت تجتمع فى دار ابن الأرقم إلى هذه المجموعة التى تصل الآن إلى أكثر من المليار -رغم كل الطعنات والاستنزاف والمكائد والمواجهات والتحدى-، هذا كله يؤكد أن الإسلام فى الواقع ليس فى حاجة لمن ينقذه؛ لأنه دائمًا هو المنقذ لمن تشتت وأصبح غير قادر بمشاكله.

والمشاكل التى يلصقونها بالإسلام هى فى الحقيقة تتعلق بواقع المسلمين وتُرَاثهم، وأنا أعتقد -وبأسف- أن هناك عملية إسقاط نتيجة الإحباط الذى تعيشه بعض المجتمعات الإسلامية لاستدعاء الإسلام بمناسبة أو دون مناسبة، وحَشْره بكل قضية حتى يصبح هناك مشكلة البشر المسلم، ويضاف إليها مشكلة الإسلام ذاته، وهذا افتعال واضح بغير شك؛ فالإسلام الذى ليس له قضية هو إسلام النبوة، إسلام العصر النبوى، والغيرة الخالدة والحرص والصبر، ولئن كان العصر النبوى قد انتهى فلن ينتهى الإسلام، بل بدأت اجتهادات المسلمين أو ما يُسمى بالفِكْر الإسلامى، وبدأ دخول الشعوب الأخرى فى الإسلام، ثم نزوح الفِكْر الآخر إلى البيئة الإسلامية. إن الإسلام لو كانت له قضية لانتهى فى هذه الفترة، ولكنه استطاع فى إطار التحدى البيانى العربى وإعجاز العقل الإغريقى أن يستقطب كل ما هو مطروح، بروعة احتواء واستئناس لا مثيل لها، وخرج جسد المسلمين أكثر قوة وعطاءً لكى يتحرك تحت قدرة عقلانية، فبعد أن تواجه الإسلام مع البيان وانتصر واحتوى وتجاوز، ثم تواجه مع العقل والحكمة وانتصر وتجاوز، جاءت بعد ذلك قضية

المنهج والعلم فى القرن العشرين، والآن هناك مواجهة جديدة أو تساؤل وهو: إلى أى حد يمكننا أن نكون أوفياء لأجدادنا وأسلافنا ونقوم بنفس العملية الترويضية القادرة على احتواء ما أفرزته حضارة الغرب العملاقة الرهيبة التى هى حضارة احتجاج وتمرُّد قبل أن تكون حضارة لحم وطبخ... هذه الحضارة أقلعت كقدرة ونقد وتنفيذ، جاءت لتعيد الإنسان الذى صودر بل أُلغى من النسق الكنسى فى العصور الوسطى لمدة تتجاوز ألف عام، جاءت لتقول لا... قف، لكن من الذى أعطى الإشارة والتوجيه؟ إنها الأندلس، تلك القدرة الإشراقية الذهنية التى كان المفروض أن تكون أرضًا للإقلاع الحضارى بلا حدود، بمعنى أنهم بدأوا ينظرون لمن يجاورهم فوجدوا من يؤمن بالوحى ويعتزّ به ويحرِّك العقل، ثم بدأت الحركات المناوئة: حركات الاحتجاج والتمرد والاحتكام العقلى بدورها تتغذى، من هذه المعيارية بدأت الأمور تأخذ هذا الطابع الرائع، وسرعان ما تحوَّلت الحضارة الغربية إلى قدرة فلسفية هائلة فى عصور الأنوار والتراكم المعرفى، ثم بدأت بعد ذلك تأتى بالبدائل باسم فلسفة الإنسان فى القرن التاسع عشر من خلال المدارس والمذاهب الوضعية السان سيمونية والكونتية والتطورية الطبيعية لدارون والتطورية الاجتماعية لهربرت سبنسر والماركسية والوجودية، بدأت الحضارة الغربية تغرز بدائل باسم إعادة الثقة للإنسان، فإذًا العقل لم يستردَّ اعْتِبَاره فقط لدى الغرب، وإنما بدأ يصبح هو موضع الاحتكام ولا احتكام إلا له، وهنا بدأت المشاكل، وهنا أيضًا من هذه الزاوية هناك مشاكل استجدت للمسلمين، وتحولوا من قادة ورجال يُحاكَوْنَ إلى تابعين ومُحَاكِينَ ومقلِّدين. وإذا كان هناك خطايا فالبعض يجسدها فى الخلافة العثمانية، والبعض الآخر يجسدها فى الاستعمار والقهر، والآخرون يجسدونها فى أن الشرق يغطّ فى نوم دون حساب لمَسِيرَة الزمن، وأنا فى رأيى أن عوامل متعددة أسهمت متكاملة فى خلق هذه الفترة.. فترة الأزمة، وبالطبع هناك مراحل الضياع وعدم استغلال الوقت والعيش فى زمن متخلف على زمانه، وقبل أن أستطرد أقول كيف يستطيع المسلم أن يتعايش أو يعيش داخل عصره لا خارجه؟ عليه أن يعيد صياغة نفسه ويخلق مركَّبًا جديدًا له بريق وله استنارة، وتلك دلالة وجوده فى القرن العشرين.

ما أحوجنا فى العالم الإسلامى إلى أن نكثف قدرتنا فيما هو معطاء للأجيال القادمة، فلدينا قدرات كامنة ولدينا الخبرات والبشر المتطلع ولدينا الانتماء الحضارى والأصالة الرائعة، ولدينا التحكم الاستراتيجى الكونى، لكن الإنسان هو المشكلة الحقيقية، فمن يقول ليس هناك مشاكل للمسلمين؟ فأنا من أجل هذا اتجهت لوضع النَّظَرِيَّة الحوارية لأحد أشكال الأمة، نعم هناك إرهاصات للدفع خصوصًا على مستوى التَّمَدْرُس والتعامل مع كيفية محاور التخلف الثلاثة: الفقر، الجهل، المرض، لكن مع هذا هناك مشاكل حقيقية وبالمعنى هناك خطأ مطبعى فى طرح المشاكل لدى المسلمين. وأنا كمُفَكِّر

أقولها بصوت عالٍ: الجماهير ليست لها مشكلة، هى فى قاعة الانتظار، ويمكن أن تتحول إلَى قوة دافعة واعية تصنع المعجزات، ونفس الجماهير هذه حين توضع فى غرف الانتظار من يدرى قد تنتفض مع الوقت، والمشاكل المفروض أن نراها على مستوى الفئتين: فئة النخبة وفئة القيادة التى يجب أن تُغَلَّفَ بقدرات ذهنية قادرة على أن تتعامل مع التناقضات المرعبة فى نهاية القرن، تحتاج إلى تأهيل قيادى يدرس ويبحث ويستوعب الظواهر ثم يستنتج، وفى هذا مراعاة لاحترام المراحل الثلاث لعقلانية دراسة الظاهرة وحتى نتلافى كثيرًا مما نلاحظه بالنسبة لدول العالم الثالث، حيث تكون النتائج هى المقدمات، وتلك القضية خطيرة ولكنها بلا أدنى استيعاب، وأبرز مثل لذلك مجتمعات فيها الثراء بالقارة الأفريقية وأخرى تعانى الجوع.

• هل تعتقد أن موجة الجموح العلمى المُعَاصِر التى تعيشها الحضارة الغربية يمكن أن تمثِّل على مستوى آخر موجة للتشكيك فى الإسلام؟

الإسلام لديه قدرة خطيرة على المجادلة المباشرة، كما أن الإسلام ليست لديه عورات يخفيها، والقرآن هو الوثيقة التاريخية التى سُجِّلَتْ فى عصرها، وفى كل يوم تؤكد لنا الأحداث والوقائع مصداقية الإسلام، الذى تمثِّل مضامينه كلها قمةَ العطاء الإنسانى والأخلاقى والرُّوحانى، فالإسلام سوف يكون له شأن ليس لدى البسطاء فحسب، بل لدى قمم العقول؛ لأنه يتمتع بالتوثيق الروحانى، فالمسلم عنده قرآنه وكعبته وقبر نبيه وعنده التوثيق الأخلاقى فى كل المبادئ، يضاف إليها الثبات التاريخى، وأنا على يقين أنه بعد خمسين عامًا، حين يصبح العقل البشرى فى قمة تألقه وإشراقه وعطائه الذهنى، فمن الصعب أن تخدِّره بالخزعبلات الفِكْرية.

إن العلوم رغم تَقَدُّمها الهائل لم تكشف ظواهر الكون، لكنها استطاعت أن ترصد تطور هذه الظواهر، ولو اكتشفت العِلِّيَّة لخلقت الإنسان!! وهكذا تظل الحضارة الغربية وسيلة لهذا العصر لا مرَجْعِيَّة له.

• ماذا أنت قائل عن المنهج الإسلامى والمنهج الوضعى والحقائق الثابتة والمتغيرة؟

حقيقة الإسلام أشمل وأعم من أن نصفه بمنهج محدد وإنسانى قابل للتصويب والتغيير والتجديد؛ لأن طبيعة المناهج الوضعية أن المنهج ركيزة من ركائز التَّقَدُّم العلمى، وأن أى حركة علمية تعتمد على مستويين: مناهج تبحث فى الظواهر وتوثقها وتلاحظها، ثم مناهج لشرح هذه الظواهر. وإذا أصبحت الحركة البحثية والحركة الشارحة للمناهج بالنسبة للتَقَدُّم العلمى تقفز فى الفترة التالية بالعلم إلى مستوى أعلى يقوم بتصويب المناهج، فيضفى على المناهج حركة جديدة لكى تجدد العلم ويجددها العلم، على ذلك فلا يمكن تصور العلم -وهو دراسة وضعية استيعابية تعليمية استنتاجية- دون ركيزة منهجية، ولا يمكن تصور مناهج دون علم، وإذا تحدثنا عن الإسلام فمن الصعب أن نقول إن له مناهج تُصوبِ ويعاد النظر فيها فى كل مرحلة من مراحِل

الحياة الإسلامية، فالإسلام -أولًا وقبل كل شىء- دين شامل، وعلى العلم أن يستلهم منه كما على الفلسفة أن تستلهم، وعلى الإنسان فى حياته اليومية أن يعيش حقائق المنهج الإسلامى بكل جزئياته، فهى الحقائق الثابتة، لذلك فلا مقارنة بين إسلام عملاق، وعلم متغير يصحح نفسه أولًا بأول وطبقًا لعدد من المتغيرات.

• بحكم تخصصكم فى الدراسات الحضارية.. ما هى سُنَّة التاريخ فى الحضارات؟

أنا أعتقد أن القرآن الكريم حدَّد لنا قضية المَسِيرَة البشرية فى آية وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)7(، وحياة الأمم كحياة الإنسان لها أطوارها المختلفة من طفولة وشباب وكهولة وشيخوخة، ثم ينتهى الإنسان ليترك المكان لغيره إلى أن يرثَ الله الأرض ومن عليها... والذى حدث أن هناك تداولًا إطاره واسع يأخذ فترة زمنية واسعة؛ لأن من يوظف التداول يحاول أن يتفاهم ويكون مفيدًا ويعرف كيف يأخذ إطار الترقى ويستوعب مسيرته ودورته الحضارية، بينما هناك من تصل إليه الأيام وتذهب منه، فذلك ليس له قدرة على ممارسة هذا التداول، وقبل ذلك، ما من حضارة عملاقة إلا وتُولد فى إطار ثَقَافِىّ، وما من ثَقَافَة إلا وتكون فى الأساس لها طابع سُلالى أو طابع فئوى... ففى البداية هناك دورة سُلالية ثم دورة ثَقَافِيَّة من حيث بدأت، ذلك إذا كانت حضارة عملاقة، وأما إذا كانت حضارة ملفقة أو مؤلفة فتنفجر وتذوب وتترك المكان لحضارة أخرى لا علاقة لها بها.

وإذا ما استشهدنا بالحضارة العربية الإسلامية، نجد أنها انطلقت من دورات سلالية قبل الإسلام، وجاء الإسلام بمبادئه الخالدة فأصبحت دورة ثَقَافِيَّة، بمعنى أن الناس بدلًا من أن يتقاتلوا من أجل السلالة والماء والعشيرة أصبحت لهم مبادئ مشتركة لها طابع ثَقَافَة مشتركة ومُثل عليا ثم جاءت فترة الفتوحات، ولأن الثَّقَافَة عملاقةٌ نجد أنها استطاعت أن تشع على شعوب أخرى وتتبناها وتدخل فى إطار الدورة الحضارية التى هى دورة ثَقَافِيَّة خرجت وشَقَّت طريقها خارج الإطار الذى تعيش فيه، بمعنى أنها سيطرت خارج دارها، فأصبحت دورة حضارية استمرت تسعمائة سنة، وهذا الإطار زمنه رائع، ثم بدأ التراجع، ولكنه كان تراجعًا عملاقًا، بمعنى أنها لم تنفجر وتذوب وتنتهى كما حدث للعديد من الحضارات الأخرى، وإنما بدأت تدافع عن معاقلها وتعود إلى دوراتها الثَّقَافِيَّة وتبقى رابضة فى انتظار قفزة إلى الأمام.

إن مَسِيرَة التاريخ حتى يومنا هذا بالنسبة لنا لم تكن مَسِيرَة سيئة بل كانت حضارة إنسانية بمعنى الكلمة، ثم جاءت حضارة الغرب -ويجب أن تكون لدينا رُوح رياضية ونقبل الهزيمة والانتصار- فسادت هذه الحضارة بشقَّيها، والآن نراها بعد الهزات الكبرى لها طابع سائد، وربما ستُطرح قضية اليابان والصين وشرق آسيا فى الأعوام القادمة، وهذه هى مؤشرات المُسْتَقْبَل الحضارى.

• لو تحدثنا عن دورة العطاء التاريخى فى الشرق والغرب وكيف أسهم كل منهما فى مَسِيرَة التواصل الحضارى فماذا تقول؟ ثم ماذا عن الوضعية الكونية الآن؟
هناك التصورات الاجتماعية المُعَاصِرَة التى تتجاوز الخصوصيات وتعتبرها قضية ثانوية، وهناك تيارات أخرى تُبرز جانب الخصوصيات، وأعتقد أن كل حضارة وكل ثَقَافَة بل كل مجتمع له خصوصياته التى يجب أن يُبرزها بصورة إيجابية، فيأخذ طابع الإبداع والإيقاع والتطلع، لا طابع الانغلاق والجمود والانطواء على الذات، ومن هذه الزاوية فالشرق معروف أن له خصوصياته وتفرُّده بأروع ما يعتز به إنسان فى كل العصور، وهو أنه مهد النبوات دون استثناء، ثم بعد هذا لا يمكن إنكار أن الشرق الذى قدَّم كونفوشيوس وبوذا وزرادشت، يأتى بعد هذا الغرب بدوره فى قضية النظرة للحضارة الإغريقية، فالبعض يُعطى لها طابع التأصيل، وهناك اتجاه آخر يمكن الدفاع عنه، وهو أن الحضارة الإغريقية لا يمكن التنكر للإرهاصات الأساسية فيها، بل المؤثرات الأساسية أيضًا للحضارات الشرقية القديمة، وبالتالى هناك تكامل حضارى، كل حضارة تأخذ من المنبع وتعطى لمن يأتى بعدها، ومن هذه الزاوية بلا شك فإن الشرق أعطى والغرب يعطى الآن، ومن خصوصياته توزيع العمل والارتكاز على الأسس العلمية والمعرفة التكنولوجية كإحدى الوسائل الصناعية، وربما أهَّلته هذه الخصوصيات أكثر لتحقير الأشياء لا الإنسان، لكن تُرى ماذا قدمت الحضارة الغربية للإنسان؟ يقال إنها قدمت حقوق الإنسان. قدمت الفِكْر الإنسانى، ولكن هل هذا الذى قدمته جديد أم أنه فى الواقع صفحات لم تُقرأ قراءة كما يجب من تُرَاث البشرية؟ الأنبياء ياسيدى هم الرسالة الإلهية.. رسالة الهداية والمساواة والإخاء والتسامح.
لا بُدَّ أن نكون صرحاء، ونقف وقفة هادئة عند هذه القضية؛ لأن الإنسان قبل أن تكون له حقوق لا بُدَّ أن يوجد! وكيف أصبحت مشكلة وجوده قضية فيها نظر؟ وهو إنسان مهيمن كونيًّا يصور كل شىء ويحاكى ويقلد حتى صار هو النموذج الأمثل، فكيف تصبح القضية تمثلها مقولة)قتل امرئ فى غابة قضية لا تغتفر، وقتل شعب آمن مشكلة فيها نظر(، والواقع أنه إذا كان هذا هو الوضع القائم فالهزات المرجوة فى العالم الثالث هى فعلًا نوع من الأصداء الإيجابية الموجودة فى المجتمعات الغربية، فشعوب بأكملها تُجَرُّ من بطونها وتعيش تحت خط الفقر الأول.
البشرية تسير من خلال مخاضات ليست ذات نمط واحد، منها مخاضات الجسد القوى المشبع، ومنها مخاضات الجسد الذى يعانى من الأنيميا وغيبة الطاقة الحرارية، والآن مثلًا هناك أزمة كونية بلا شك ونوع من التطلعات الاستهلاكية التى بدأت تقلق وتؤرق بال المجتمعات الأكثر تطورًا، أرق التضخيم والبطالة وتنظيم الحياة الاقتصادية على مستوى نقدى، هذه أمور أصبحت مسلَّمًا بها، ولقد رأينا ما حدث فى الاتحاد السوفيتى كدولة أعظم،

وكذلك ألمانيا بعد أن وُحِّدَتْ، ووقف زعيمها يقول: نعم وحدت ألمانيا، ولكن من أكبر الخطأ الاعتقاد فى مصداقية هذا القول، فهناك فعلًا ألمانيون شرقيون وألمانيون غربيون، والألمانى الشرقى ليس هو الغربى، لا فى مستوى حياته وعمله وذوقه ولا فى تعبئته، فحتى توحد ألمانيا لا بُدَّ أن نبدأ بحرف الألف أولًا، وهذا يعنى البدء فى خلق أرضية مشتركة تجعل الألمانى لا يفتعل وحدة كانت قد ضاعت منه بسبب بعض الأمور، ثم نفس الشىء نجده أيضًا فى بعض الدول الأوروبية الغربية، ويعنى ذلك أنه ليس هناك دولة بمنأى عن هذا التَّأَزُّم الكونى الذى هو فى الواقع إن جاء فى العالم الثالث فهو نتيجة لاستنزاف خيراته فى المفيد وغير المفيد.
هناك أيضًا الغرب الذى بدأ يشعر الآن أنه قد غالى فى استهلاكه وتطلعاته التى أصبحت بلا حدود بين المردودية بحدود، وأنه لكى يعيش فى تطلعات أكثر عليه أن يظل يقوم باستنزاف كونى لخيرات الآخرين، فبدأت الأمور تُطرح وتوضع النقط فوق الحروف؛ لأن كل مجتمع بشرى الآن يريد أن يكون له كيانه ومخططاته فى التَّقَدُّم، وتلك قضية كونية نلاحظها الآن، وهى تعنى -أول ما تعنى- وجود عملية فوران وتسخين على مستوى البنيات الاقتصادية، وهناك عقول تتواجه، والذى يهمنا فى طرح هذه القضية أننا فى أشد الحاجة إلى أن نقول: ليست هناك مشكلة؛ لأن المشكلة موجودة لدى الجميع، وهناك من يقوم بوضع كل الأسس الوقائية لاحتوائها، ذلك بعكس من يسلِّم بأن هناك مشكلة لكنها تُفلت منه يومًا بعد يوم، وتزداد ولا يعرف من أين يأتيها.
• انهيار الأيديولوجية الاشتراكية كان أحد القضايا التى شغلت دكتور فكَّار.. كيف تنهار الأيديولوجيات من ذاتها وبذاتها؟
لن أزيد عما قلته من ثلاثين عامًا فى مؤلفاتى عن)الارتداد الماركسى(و)الماركسية والدين(وغير ذلك... قلت إن النَّظَرِيَّة الماركسية اللينينية فى طريقها للارتداد... لماذا؟ لأسباب ثلاثة؛ أولها أن هذه النَّظَرِيَّة جاءت سجينة لفلسفة تاريخ القرن التاسع عشر، بمعنى أنها نظرت إلى ماضى ومُسْتَقْبَل البشرية من خلال نظارة القرن التاسع عشر أيضًا، وبمجرد انتهاء هذا القرن وأصدائه التى قد تستمر نصف قرن، تبدأ الأمور تنتهى، وثانيًا إن الماركسية فى بنائها الفِكْرِىّ البحت تبلورت قبل أن تشع المدرسة السيكولوجية فى ألمانيا، وبالتالى فالعنصر السيكولوجى مع ماركس غائب، أى أنه ركَّز على الأوضاع الاجتماعية للإنسان فى نمط إنتاجه وعلاقاته والبنية الفوقية والتحتية أمام إنسان الانحدار، وأعنى به العمق النفسى لهذا الإنسان، ومثال ذلك قضية الوجدان الدينى؛ فأين هى من تلك الأبعاد المطروحة؟ وكيف أن هذه النَّظَرِيَّة كان المجتمع يتنبأ بأنها سوف تسود العالم الثالث؟ فهى نَظَرِيَّة الكادحين والفقراء ومجتمع بلا طبقات وبلا استغلال.. وسرعان ما وجدنا النَّظَرِيَّة غير قادرة على أن تشــق طريقها فى هذا العالم.. لماذا؟ لأن أغوار الإنسان الشعورية واللاشعورية جعلت إحالته دائمًا إلى مرَجْعِيَّة إلهية من

الصعب على الماركسية أن تقوم بإذابتها، فليس الإنسان بطنًا يشبع بالطعام، فهو فى لحظة من اللحظات يريد أن يفِكْر وأن يستعيد إنسانيته، فليس فى سبيل الطعام يُصَادَرُ الفِكْر.
وثالثًا وأخيرًا، نرى أن الماركسية قد أخذت طابع القداسة، ولا قداسة لفِكْر فى وقت عانت فيه الليبرالية من أنها مذهب يرتكز على المضاربة السوقية وعلى الربح... هذا المذهب فتح ذراعيه للنقد، وبدأت الليبرالية كفلسفة تنقد وتتجدد، وأول ما استفادت منه هو نقد ماركس لها، فأخذت على عاتقها مهمة العلاج، وبالمعنى هو درس عوارض المريض وتشخيصه، وقد عالجوا، من ثَمَّ فهو طبيب مجانى لليبرالية، دون أن يشعر الماركسيون بدورهم أنهم فى حاجة إلى أطباء!
• ما زال هناك العديد من الأسرار والطلسمات التى تتأبى على الكشف... ما هى معضلات العلم فى رؤيتك؟
أكبر معضلات العلم الآن تتجسد فى آثار ما أنتجه العلم ذاته، ويكفى أن نشير إلى المشكلات العالمية من أمراض وظواهر وأحداث تتطلب فترات زمنية طويلة لمعالجتها، أما ما يمكن الإشارة إليه مما ليس للعلم فيه باع كبير، فعلى سبيل المثال الجهاز العصبى المستقل، وهو جهاز لا إرادى يتحكم فى الغدد والتقلصات، وحتى يومنا هذا لم تَرْتَقِ القدرة العلمية لأكثر من وصفه، أما التعامل معه والسيطرة عليه فهو غير موجود، وإلا لاختفت معضلات بلا حدود من الأمراض، وقضية أخرى بالنسبة للغدة الكظرية والكورتيزون، لكن علينا أن نحذر من خطأ تعميم خصائص الإنسان؛ فأنا أعتقد أن كل إنسان له ردود فعل خاصة، فجسدٌ ما قد يتقبل نوعًا من الفعل وآخر يرفضه تمامًا، وأنا هنا أتكلم بفضول علمى، ورغم ما وصل إليه الطب الجراحى والطب الاستكشافى لأعماق الجسد الإنسانى، وهو فى قمة التَّقَدُّم، أو فى منزله، ينحنى الإنسان إجلالًا لها، لكن الاحتمالات قائمة، ولا يدرى الطبيب رد فعل الجسد، فهو يعمم مبادئ ونَظَرِيَّات على الظاهرة التى أمامه، ليس غير، فقد يكون هناك أخان يرحل أحدهما فى سن 30 والآخر فى سن 90، مع أن عملية التكوين الجسدى واحدة، لكن ردود الفعل مختلفة فى المقاومة والتكيف... إن معطيات الجسم الإنسانى سر من أسرار الله.
• حقوق الإنسان هى القضية الجوفاء التى يوظفها الغرب استلابًا لحقوق إنسان العالم الثالث... كيف ترى هذه الازدواجية التى تبلغ حد التدليس الأخلاقى؟
نحن متفقون تمامًا أن الإنسان إذا قام بواجبه فالمفروض أن تراعى حقوقه، وأن تُطرح على كل المستويات والأبعاد، فإذا كان الإنسان غير موجود فى الغرب، فهو كذلك فى العالم الثالث، ولكن بطريقة عكسية؛ لأن معنى وجود الإنسان فى هذا العالم هو أن تصل به إلى تجاوز خط الفقر وإلى تجاوز الكفاف، وتؤمِّن له لقمته وكساءه، لكن المشكلة أن عدم الوَعْى يجعل هذا

الذى أخذتَه لتجعل له حقوقًا ربما يغيب عنه أن عليه واجبات.. فعملية القهر والاستلاب طويلة الأمد التى مَرَّ بها هذا الإنسان أصابته بنوع من الغيبوبة، وبالتالى تحولت الحقوق إلى تسوُّل، بمعنى أن يأخذ ويأخذ، أما أن يقدِّم شيئًا فلا... لماذا؟ لأن هذا غير مطرُوح، وهو لم يتعود العطاء.
وهناك نوع من الأخطاء فى عملية حقوق الإنسان هذه، ومثال ذلك ما حدث فى إفريقيا وما حدث فى شرق أوروبا؛ حيث وُجد الإنسان وحدث نوع معين من الضغوط والقهر والدكتاتورية باسم كارت الحزب أو باسم الانتماء إلى التنظيم الحزبى، فبدأ هذا الإنسان الموجود يقول: هل من مزيد؟ فأنا لا يكفينى أن تؤمِّن لى عملًا أو تضمن لى مستوى من الحياة، ولكن المهم أن يكون لى رأى وموقف... وبالمعنى بدأت عملية التدريج الطبيعى، وهذا ما تنبأتُ به منذ فترة طويلة، أما ما يحدث فى أفريقيا الآن فهو عودة إلى القَبَلية، فالإنسان لا يفكر أنه مُطَالَب بنوع من السلوكيات فى نهاية القرن العشرين، فالعالم يتَقَدُّم ونحن نتراجع بخطوات واسعة، وأعتقد أن هذا مخطط كبير، ودائمًا أقول إن الاستعمار قد غادرَ هذه المنطقة ليدخلَها بأسلوب أعتى وأكثر عنفًا، ويستبدل الأرض بالرؤوس التى أصبحت مُسْتَلَبَةً بالكامل، وإضافة إلى ذلك فإن إنسان هذا العالم قاصر بشريًّا، وغير قادر على أن يتواجه مع معطيات عصره، وما بهذا العصر من تناقضات رهيبة نعيشها الآن، وسرعان ما يتخذ أقرب سلاح له ممثلًا فى عباءة الدين، فيصبح ذا الهَمَّيْنِ: هَمّه هو، ثم هَمّ الدين، بينما الدين لا هموم له؛ لأنه جارٌ للحل فى مقابل هموم التصور البشرى.
تصوُّرى لمشاكل العالم الثالث أن هناك تركيزًا أكثر مما يحب على قضية التخلف الاقتصادى، مع أن هذا التخلف هو جزء من بنية الاقتصاد الكونى؛ فالغرب يطرح أن مشكلتك اقتصادية، وأن عليك بالتنمية الاقتصادية، هو يعلم جيدًا أن فى هذا مغالطة كبرى، وأن هذه النقطة بالنسبة له تأمين كامل لاقتصاده المنتفع. ومن هنا بدأت شعوب العالم الثالث تجرى وراء هذه التنمية التى امتصت كل التوجهات الإنسانية، مع العلم بأنه لا جدال فى أن هناك مشكلة اقتصادية فى أغلب دول العالم، حتى الدول المُتَقَدِّمة تعانى من تضخم وبطالة وقضية الأولويات فى القطاعات الاقتصادية، لكن فعلًا هل الحل فى التنمية الاقتصادية؟ هذه قضية خطيرة... فسير هذه القضية أو الذى سيقود الاقتصاد العالمى هو الذى سيقرر متى يأذن ومتى يمنع، وبالتالى يستطيع فى أى لحظة بذلت أنت مجهودات يستطيع أن يشلَّها بإعطائك نماذج مجانية من إنتاجه.. لهذا أرى أن يكون هناك نوع من المواءمة بين بناء الاقتصاد أو بناء الأشياء وبناء الإنسان، بمعنى أن نعرف من أين نبدأ؟ والقضية التى تُحَلُّ فى دقيقة لا تستغرق شهورًا، والعمل البسيط الذى لا يحتمل الخطأ لا يقال عنه: "جَلَّ مَنْ لا يُخطئ"؛ فالاستمرارية فى هذه الحال يمكن أن تتحول بنا إلى كارثة فهناك عملية تضخيم وتهويل ومضاربة على كل ما هو

سلبى فى الإنسان... هذه السلبية التى تتمثل فى أن يعطِى الإنسان أهمية كبرى للشكل ويفقد الجوهر أو المضمون.
أما بالنسبة للمعنى الجوهرى للتنمية الاقتصادية، فأرى أنها شرك خداعى نصب لنا، فنحن لدينا فائض يفتح بنوك الخارج، أى يصنع دولًا ويصنع تَقَدُّمًا، ثم إن مصر عاشت وكان الحافظ لقلبها الإنسانى هو الطبقة المتوسطة والفقيرة، فلم يكن هناك مال ولكن كانت هناك قيم وأسس ودين صحيح، وليس الدين المستورَد والمصنَّع لنا الآن ليكتمل الإفساد وتتسع حلقته، وتسمع ضمن الخداع الدينى الكبير أن الفقر هو الطريق إلى الجنة.. من قال هذا؟ وأين هذا من الإسلام؟
على ما يبدو لى أن قضية معاناة الإنسان أصبحت تمثِّلها مشكلة كيفية الاحتفاظ بهذه المعاناة لا كيفية الاندفاع فى المجتمع... والمعنى أنك قبل أن تدفعه للأمام اجعله يقف مكانه أولًا!
إن الإنسان قد غاب فى معاناته، أضف إلى ذلك أن هناك من تخصصوا فى تكثيف هذه المعاناة، وأنا -حسب رأيى- أرى أن هناك مسلسلًا كونيًّا يستفيد من الخطأ المطبعى الذى وقعت فيه أغلب بلاد العالم الثالث، وأنا ضد من يعتقدون أن المجتمعات المُتَقَدِّمة مهمتها الأولى أن تقوم بعملية اختراق وتدمير وتخريب... لا... الأوروبى جالس يلاحظك ويعرف كيف يستفيد من هفواتك -وما أكثرها-، وكل هفوة يوسعها لك لفتح المزيد من الهفوات ولذلك فأغلب الأزمات التى عشناها فى ربع قرن مضى كانت من صنعنا نحن، ورغم ذلك أقول إن مصر ليست لديها مشكلة عضوية، وإنما مشكلتها وظيفية فى المقام الأول؛ فالمصرى لديه من الكفاءة والتأهيل ما يجعله يلعب دوره بمهارة فائقة، فليس هو الذى يهمش أو كما يقول المثل الفرنسى يعرف من أين يأتيها، ولكن مع الأسف الشديد هو يأتيها اليوم بطريقة خاطئة!
• الطفولة هى كنز المجتمعات، من ثَمَّ فالتنشئة الاجتماعية هى أهم الآليات الحاضنة لهذا الكنز... ما هى وضعيتها وكيفية الارتقاء بها باعْتِبَارها أخطر وسائل التكوين العقلى والنفسى؟
بناء الإنسان كلمة ترددها فى مصر كل الأوساط الثَّقَافِيَّة والاجتماعية والسياسية.. ولكن كيف؟ البعض يعتقد أن القضية أخلاقية بينما نجد آخرين يطلبون إعادة الصياغة الدينية، وغيرهم يرون أن يُعالَج الأمر بالحرية، وفئة تطلب معالجة الإنسان من السلوكيات التى تأتيه من الخارج، بينما النظرة الموضوعية التى أميل إليها تخلق تكاملًا بين الأبعاد، بما يبعد بنا عن التنشئة الاجتماعية التى تخلق نوعًا من السلوكيات الافتعالية ذات الطبيعة التجريدية الفارغة من أى مضمون. وأعتقد أنه قد آن الأوان لأن يُعاد النظر فى إعادة تنشئة الطفل المصرى، فهذه مشكلة حقيقية. ففى الغرب ألاحظ اهتمامًا لا يتصوره العقل بالطفولة ومُسْتَقْبَلها، حتى إن هناك مشروعات لإنشاء وزارات متخصصة للحضانة والطفل؛ تقديرًا لأن القادم سيشهد أجواء مُسْتَقْبَلِيَّة رهيبة،

ويجب من الآن تحصينه وإعطاؤه أكبر قدر من المناعة للمواجهة، ففى سويسرا مثلًا التفوق الأساسى لها لا يرجع لانتشار البنوك، وإنما لأنها دولة سيكولوجية الطفل، فكل عباقرة السيكولوجيا فى العالم سويسريون.
وبالمعنى فكلهم قادة التنظير لبناء الإنسان من بداياته، ولذلك نجد السويسرى فى سن الرابعة عشر ناضجًا وراشدًا قبل الأوان، بينما نجد فى مجتمعات أخرى الرشد يأتى عند سن الخمسين أو لا يأتى أبدًا! ولذلك أتمنى لمصر أن تكون الثَّوْرَة التربوية فيها تمثلها تربية تجريبية تطبيقية إنضاجية، كما هى الحال فى بعض المجتمعات المُعَاصِرَة التى أحسنت تربية الإنسان وبإمكانيات محدودة، فأصبحت فى قمة التَّقَدُّم وهى لا تملك شيئًا! فالإنسان هو صانع الأشياء وليست الأشياء هى التى تصنعه.
إن قضية الطفل مطروحة الآن عالميًّا، ولكن بمعيار آخر هو معيار البديل؛ بمعنى أن لدينا نسقًا تربويًّا موجودًا وليس مطلقًا بالضرورة، وليس الهدف هو إلغاء هذا النسق التربوى وقلب الأمور رأسًا على عقب، وإنما المطلوب أن أخلق نسقًا موازيًا؛ لأن الأمم لا تبنى فى دقائق ولا تصنع بقرار يحولها من الجحيم إلى الجنة، وإنما هى مَسِيرَة طويلة تأخذ مرحليات عديدة، وأنا من أنصار أن يكون للقطاع الخاص دور فى بناء أنسقة تربوية موازية فى إطار مشروعية الدولة، وهذا يحتاج إلى تحكيم حيادى وقدرة تحكُّمية؛ حتى لا تبدأ قضية تخريب المشروعات باسم حساسيات شخصية أو ميول أو نزعات أو تصفية حسابات قديمة، ففى سويسرا مثلًا هناك كثافة هائلة للمؤسسات الحرة التى ترعى الطفل وتجذبه نحو الثَّقَافَة الجادة.
إن التربية مطلوبة كأحد المقومات الحضارية للمجتمعات المُعَاصِرَة، وهذه التربية ليست مقصورة على الطفل، وإنما تمتد لتشمل تغيير النظرة والمفهوم إزاء أشياء كثيرة، فمثلًا النظرة للمرأة كجزء من كل، إذا صح الكل يصح الجزء، والشباب ما أحوجه أيضًا لتربية تعوِّضه قِلَّةَ التجربة والإنضاج النفسى والرُوحِىّ، بل قِلَّة المغامرة الوجودية والكونية.
• "بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ" فهل بدأنا أولى خطواتنا نحو طريق الاغتراب عن الإسلام فى العصر الحديث؟ وفى رؤيتك.. هل تجلت ملامح الاتجاه الاغترابى عن الاسلام؟
كان الأولى بنا –حقيقة- أن نترك لعلماء الحديث مهمة تولِّى الإجابة، ولكن باجتهادنا المتواضع وانطلاقًا من هذا العصر نقول: إنه ليس المقصود هو الاغتراب فى الأرض، وإنما اغتراب الإسلام فى قلوب المسلمين، الذى تؤكِّده التناقضات الحادة بل الانفصام بين القول والفعل، والذى نلاحظه بوضوح ويتمثل فى اختفاء السلوكيات الإسلامية، رغم أن هناك الكثيرين ممن يحملون أسماء إسلامية ويعيشون فى ديار الإسلام، وبعد أن كان الإسلام المحور لكل مجريات حياة الفرد أصبحنا نتذكر الآية الكريمة الخالدة وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ

اللّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)8(.
فقضية الحرفية هذه، ومحاولة الرؤية للإسلام على هذا المستوى، أبعد ما تكون عن رُوح الإسلام وجوهره وغايته، بل إن هذه الرؤية تمثِّله على أنه نوع من الطقوس والشعائر التى ليس لها جوهر إقناعى أو حيثيات موضوعية، إنه يعنى بالضرورة أن يشعر المسلم بإسلامه ويكون لديه اتزان وقناعة ومواءمة بين القول والفعل، وصَدَقَ الحَقُّ -سبحانه- إذ يقول فى كتابه للمؤمنين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ)9(، ففى معطيات العصر الذى نعيشه والممارسات اليومية التى تشير إلى أن الإنسان غريب فى داخله، وإن كنت لا أقصد أن الإسلام أصبح شيئًا هامشيًّا فى حياة الإنسان، فقد أصبح لدى البعض هكذا، والبعض الآخر يتمتع بنور الإسلام وهداه. أما الذين يرتبطون بالإسلام حين تكون لديهم أزمات وحين تهدأ لهم الدنيا ويطمئنون لها، فإن الأمر يختلف، وحديثى عن اغتراب القلب دون اغتراب العقل مصدره أننى أرى أن الإسلام أساسًا يتجه ويتحاور مع أعماق الإنسان، أما قضية العقل فهذه قضية منهج، والإسلام أكد حضور هذا العقل فى العقيدة لا إلغاءه؛ فهو صاحب الأمانة التى حملها الإنسان، وإذا كنا نعيش الآن عصر العقل والذهنية فأَوْلَى بالإنسان أن يتواجه مع ذاته ويعرف أين هو من عصره ومن طموحاته ومن معاناته.
الإسلام هو إسلام النفس إلى واجبها، أى إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية، وكلما كانت أقرب إلى نزعها الحيوانى يسلمها صاحبها إلى وازعها الإلهى؛ لأن الوجود الرُّوحِىّ هو مبعث الحالة العقلية التى جاء بها الإسلام، فالإسلام فى حقيقته لم يكن إلا إبداعًا للصيغة العملية التى تنظِّم الإنسانية فيها. فأكبر أغراض الإسلام هو أن يجعل من خشية الله قانون وجود الإنسان على الأرض -كما قال الرافعى-، وأساس العمل فى الإسلام هو إخضاع الحياة للعقيدة بحيث تجعلها أقوى من الحاجة، ويصبح المسلم غناه فى قلبه، وقوّته فى إيمانه، فمتى سلمت الحياة من تعقيد الخيال الفاسد لم يكن بين الله والإنسان إلا حياة هى الحق والخير والرحمة والحب، تلك هى الأسس الأخلاقية القوية التى مثَّلت التيار الإسلامى فى بواكيره الأولى، ولنا فى نبينا (أُسْوَةٌ حسنة ومثل للكمال الإنسانى، وإن كنا فى عصر تطغى فيه الشخصية المادية على الشخصية الرُّوحِيَّة، وتكاد الفصيلة الإنسانية أن تلحق بالألفاظ التاريخية التى تدلُّ على كل ما كان قديمًا.
• الحضارة الغربية رغم تَقَدُّمها العلمى والتكنولوجى يرى الكثير من المُفَكِّرِين الغربيين بوجه أخص أنها قد أخفقت فى إشباع الحاجات النفسية الرُّوحِيَّة، من ثَمَّ تراجعت مهمة الإنقاذ... كيف ترى ذلك، وأنت متخصص فى دراسة هذه الحضارة؟

حضارة الغرب التى نتحدث عنها هى مرحلة من مراحل تطور الإنسان، ومن قبلها كانت الحضارة الشرقية القديمة التى كان لها دور رفيع فيما يعنى البشرية. والتوجهات العامة خصوصًا فى القرن الثالث أو الرابع قبل الميلاد وفى مناطق متعددة كان هناك إشراق حضارى. ففى الصين كان هذا الإشراق من مانشيوس وكونفشيوس، وفى الهند مع تعاليم "مانى" و"بوذا"، كل ذلك كان فى فترة متقاربة. ذلك إضافة إلى إشراقة الفِكْر الإغريقى، أما قضية النبوة فلا بُدَّ من طرحها فى إطار من القداسة يليق بها، فهناك نبوة وأنبياء ورسل جاءوا لإنقاذ البشرية، وخُتِمَ ذلك بالمَسِيرَة الخالدة للإسلام كتمام للرسالات ودين للوحدانية، والذى انتهى به وحى السماء، ثم كانت العصور الوسطى حيث الميتافيزيقا والنسق الكنسى والمغالاة فى تَفْسِير وشرح النبوة، ويعنى ذلك أن هناك من حاولوا طرح النبوة دون وجود أنبياء، وتأتى بعد ذلك الدفعة الهائلة للحضارة الغربية الأوروبية فى العصر الحديث. أما حضارة الإسلام فمعروف أنه لولا هذه الحضارة لما كانت الإرهاصات الكبرى فى نهاية العصر الوسيط وبداية هذا العصر، وعلى ذلك فالإسلام لعب دورًا رئيسيًّا فى إرهاصات هذه الحضارة منذ مطلعها، وهى الآن فى قمة دورتها التاريخية كحضارة كونية سائدة على الحضارات الأخرى، ولا بُدَّ لنا أن نسلم بهذا برُوح رياضية، ودون حِقْد أو كراهية، ولكن لماذا أصبحت هذه الحضارة هى السائدة؟ لأنها ارتكزت على قدرات التكنولوجيا والتطبيق الصناعى كوسيلة والأسس العلمية كقاعدة، وخلفت إنسانًا متحرِّرًا واعيًا أنجز فى مختلف الميادين وأعطى نَظَرِيَّات وضعية حاول بها أن يعطى بدائل للميتافيزيقا والأديان، وإذا كان فى النهاية قد نجح فى شىء فقد فشل فى أشياء أخرى. فمثلًا إنجازاته الخاصة بالسيطرة على بعض الظواهر الطبيعية واستئناسها والتعامل معها، بما فى ذلك النظام الشمسى ومحاولات غزو الفضاء وكثيرًا ما يُطلق على كل ذلك تسخير الطبيعة واستئناسها، وهذا ليس صحيحًا؛ وإنما الاستئناس للقوانين عن طريق الاكتشاف، لكن القضية تتلخص فى أن الإنسان الذى أنجز واقع فى مأزق خطير؛ لأن إنسانيته أصبحت موضع تساؤل! بل أصبحت مجرد شعارات جوفاء؛ فنجد علاقات حياته اليومية وسلوكه الأسرى وعواطفه قائمة على الأخذ والعطاء، قائمة على المردودية والنفعية والاستهلاك، وبذلك بدأت البنية الأسرية تتأثر، وبدأ هذا ينعكس عن طريق المحاكاة والتقليد على مجتمعاتنا الفتية.

وبالنسبة لإنسان هذه الحضارة فالقضية أصبحت نهائية، بمعنى أن الأسر عبارة عن شركة تجارية مساهمة مجهولة الهوية، كل واحد فيها يدافع عن أسهمه ماذا يخسر وماذا يكسب؟! وهذه الظاهرة أساسها أنها حضارة قائمة على المردودية، وإن كان من الصعب القول بأنها أفلست بقدر ما أنجزت، فكيف أفلست رغم أنها بالفعل حققت إنجازات، ولكنها آلت إلى مأزق وإلى توعُّك يجعلنى أستخدم تعبيرى الخاص عنها أنِها حضارة الأزمة وأزمة

الحضارة... بينما منظور الإسلام لقضية الأسرة مثلًا يختلف تمامًا، فهى قائمة على الرحمة والمودة.
• تحتِّم منطلقات التقييم الموضوعى البعد عن الإطلاقية والتجريد، ومن ذلك فإن الحضارة الغربية ليست شرًّا كلها بل فيها خير كثير، وحياتنا ليست خيرًا كلها بل فيها شر كثير.. ما رأيك؟
بداية أتفق مع هذا تمامًا، فكما قلت إنها بقدر ما أنجزت بقدر ما خلفت بعض الهموم التى أسميها بالهموم المزدوجة، ومنها الهموم الخاصة بها نتيجة مسيرتها التاريخية وجذورها وتعاملها مع الإنسان، وهذه الهموم تبرز بوضوح فى أمثلة كثيرة سأتحدث عنها، ولكن لا بُدَّ من التعامل معها موضوعيًّا حتى نتجاوزها على مستوى التنمية والوَعْى، ولكن الذى يحدث أننا نضيف لأنفسنا همومًا أخرى لا تتعلق بمسيرتنا التاريخية وخصوصيات مجتمعاتنا، وننساق إلى محاكاة الغرب وتقليده حتى فى همومه، كقضية الاستهلاك ومحاولة إعطاء أهمية كبرى للظاهر، وقضية فن الكذب تحت ما يسمى بالتكنيك والاستراتيجية، بينما الإسلام سمى الكاذب كاذبًا والمنافق منافقًا ولم يقل عنه إنه استراتيجى. هذه أمور جديدة ونحن غير موفَّقين فيها إلى حد بعيد؛ لأنها ليست بضاعتنا. فالمسلم لا بُدَّ أن يتمتع بصفاء النفس ونقاء القلب.
وعلينا الالتفات إلى أن حضارتنا العملاقة -التى كانت بحق إلى جانب ما قدمت للإنسانية من قيم ومثل عليا خالدة لإنقاذ الإنسان اهتمت به فى حياته الدنيوية وبمشاكله- هى بلا شك حضارة إنسانية، وليست حضارة أشياء كما هى الحال فى حضارة الغرب التى أعطت أولوية خاصة فى اهتماماتها لتطوير الأشياء وتَقَدُّمها وارتقائها على حساب الإنسان، فهو إن كان يتنزَّه فوق القمر ويسبح فى الفضاء، أى أنه أصبح إنسان الكومبيوتر والذرة، لكنه أيضًا إنسان التلوث والشذوذ والمعاناة النفسية والمخدرات والانتحار!
• هناك من يلجأون إلى استغلال نقاط الضعف فى العلم ويعتبرونها مطاعن مشروعة، سواء فى منهجه أو بنائه أو نتائجه؛ من أجل ضرورة الاقتصار على الإيمان الدينى وجعله المصدر الوحيد لليقين أمام حقائق علمية مهتزة.. فما رأيك؟!
بداية لا بُدَّ أن نتفق حول ماذا نعنى بالعلم.. فإذا كان المراد به إشراك العقل وتوظيفه واستخدامه فيما يفيد الإنسان على كل المستويات لكى يعيش حياة طيبة فيها نوع من الرفاهية فهذا هو العلم الذى دعا إليه الإسلام. فأول آية فى القرآن تقول:)اقْرَأْ(ولا تقول اجهل، إذن الإسلام أعطى كامل الحق للعلم أن يتحرك، لكنه حذَّر من العلم المخرِّب المدمِّر، وإن كانت الأولوية للإيمان فهو لم يقل له انغلق أو تكهَّف أو تَرَهْبَنْ، بل على العكس من ذلك تمامًا؛ فقد جعله يتمتع بالطيبات، وأعطى له المقاييس والمعايير التى تعصمه وتحميه من الشطط والتطرف، وقال له احْتَطْ أيها المسلم القوى وابْتَغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة.

ما قلته هو أننا الآن نسمع صيحات فى الغرب، وعلى رأسها صيحة البابا الذى حذر من العلم المدمر الخاص بتنمية الحرب الكيماوية والقنابل الهيدروجينية، العلم الذى يسعى لتدمير الكون ويؤصِّل أدوات الاستغلال، فها هى أصوات لبعض الأديان الأخرى تلتقى مع نداءات الإسلام؛ لأن المفروض ألَّا يحتكم الدين للعلم، وإنما العلم هو الذى يحتكم للدين، انطلاقًا لما فيه خير البشرية وإرضاء الله وتعادل الإنسان روحًا ونفسًا وجسدًا، أما غير ذلك مما يفتح آفاق الخراب والدمار فلا.

• ماذا عن التعليل المنطقى لانطلاقة العلم فى بعض الميادين وتفاوت هذه الانطلاقة فى ميادين أخرى؟

هناك تعليل شائع لهذا التَّقَدُّم غير المتوازن مستمَدّ من طبيعة هذه الميادين التى يبحثها العلم؛ فهناك ميادين يحقق فيها العلم أعظم قدر من النجاح، أما الظواهر البشرية فإن الأسباب فيها شديدة التعقيد إلى حد لا يبدو فيه أنها تؤدى دائمًا لنفس النتائج؛ لأنه يصعب إخضاع كل جوانب الظاهرة للتحليل العلمى الدقيق، فيظل فيها جانب مجهول لا يمكن التنبؤ به، ومع تأكيدنا واعترافنا بصحة هذا التعليل فلا بُدَّ أن نضيف إليه تعليلًا آخر مستمَدًّا من طبيعة الأوضاع السائدة فى العالم المُعَاصِر؛ ذلك لأن التَّقَدُّم العلمى يتوقف على المصالح السياسية والاجتماعية. والمؤكد أن العلم لو استطاع تحقيق التوازن المفقود لأمكَنَ حل المشكلات المترتبة على تَقَدُّمه السريع، بل لما أصبح التَّقَدُّم يخلق أية مشكلات للمجتمع الإنسانى.

ففى الوقت الذى أصبحت فيه البلاد المُتَقَدِّمة تشعر بخوف حقيقى ضد النمو السريع للبحث العلمى وتفكر فى وسائل إيقاف لهذا التسارع المذهل، نعانى نحن من نوع عكسى من الخوف على مُسْتَقْبَلنا فى عالم يقرِّر مصيرَه العلمُ الذى لا نبدى به اهتمامًا كبيرًا، بينما الطبيعة الثَّوْرِيَّة للعلم المُعَاصِر أحدثت تحولًا حقيقيًّا فى حياة البشر، ولم تصبح ظاهرة هامشية على الإطلاق، بل أصبحت هى الحقيقة الأساسية فى هذا العالم، وتكتسب أبعادًا اجتماعية تزداد أهميتها يومًا بعد يوم، وفى كل لحظة يزداد الإنسان اقتناعًا بأن مصيره -سواء كان يسير نحو الأفضل أو نحو الأسوأ- مرتبط بالعلم، والأيديولوجيات ذاتها تتأثر بالعلم؛ لأن الصراع الأيديولوجى الدائر فى عصرنا الحاضر يتحدد بالشكل الذى وصلت إليه المجتمعات المُعَاصِرَة. وعلى ذلك نستطيع القول إن العالم يتَّجه للتوحد بفضل العلم.

• يشاع فى الساحة العالمية الآن ومنذ سنوات مصطلحات كثيرة مثل الكونية، الكوكبية، العولمة، وإن كانت تحمل فى ذاتها معانى واحدة، فما انطباعاتك عنها؟ وهل تعتبرها تمثل بداية نهضة لإنسان هذا العصر أو مؤشر سقوط؟

الذى يجب أن نقرره هو أن البشرية تمر حاليًّا بمرحلة تقنين للقرن العشرين، وأن هناك دعاء خاصًّا ممن يُطلقون على أنفسهم سادة الكون؛ فمع التَّقَدُّم التكنولوجى والتقنى وعصر المعلومات أصبح الكون قرية صغيرة، وقضية

كهذه لا بُدَّ وأن توضع لها مبادئ، على رأسها العولمة التى تطرح على الذهن مباشرة قضية السِّيَادَة الوطنية، وعن طريق آليات كثيرة مثل البنك الدولى ومنظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولى تتحرك العولمة بسهولة ويُسْرٍ، وتلك أمور تحتاج منا فى العالم الثالث إلى منظِّرين اقتصاديين، وهم بالفعل موجودون، لكن ليس لدينا منظِّرون فى السوسيولوجيا الاقتصادية، وهى ذلك العلم الذى يربط الإنتاج والتبادل والاستهلاك بالبنيات الاجتماعية التى يمكن أن تلعب دورًا كبيرًا، فى وقت أصبح فيه السلاح المطلق هو العقل المُمَنْهَج لا السلاح النووى أو الهيدروجينى، وبالتالى فالتعامل مع العولمة لا بُدَّ أن يتمَّ طبقًا لمنطق موضوعى لنخب فِكْرية قادرة على التواجه مع كل شيطان مريد، وأعتقد أنه قد آن الأوان لأن يُطرح مفهوم التعاون الدولى العادل بل قضية العدل البشرى والعدل الكونى من جانب أمريكا؛ فلا تعاون بين سائد ومسود، بمعنى أن الكون الواسع لا ترتفع فيه فئة لكى تستلب الفئات الأخرى.
وبصفة عامة أنا متفائل بظهور موجة من القدرات الذهنية الخلَّاقة فى العالم الثالث يجب الحفاظ عليها فى مواجهة عملية استنزاف أخطر ألف مرة من استنزاف رءوس الأموال، وهذه القدرات هى التى لن تتعامل مطلقًا بمنطق تسقط العولمة أو تحيا العولمة!! فما أحوجنا لأن نتوافق مع الشرطية الكونية التى بها تتحقق الذات الحضارية.
• تتردد الآن فى عصر التقنية مفاهيم كثيرة.. أكثر ما يلفت الانتباه منها هو مفهوم الذكاء الكونى، فما تعليقك عليه؟
هناك نَظَرِيَّة خطيرة تسود الغرب، بل تمثل انقلابًا فِكْريًّا لا يقوى على صده أحد، وهى فى حد ذاتها تبرهن على أن حدود العلم اللانهائية هى العودة للإيمان، ويُطلق عليها واضعُها "فريد هويل" نَظَرِيَّة الذكاء الكونى، تلك التى لم تَكْتَفِ بطرح اجتهاد جديد فى إطار نَظَرِيَّات الفضاء، وإنما وضعت كل النَّظَرِيَّات السابقة عند حدود خاصة مثل النسبية "لأينشتين" والفضائية "لساجان" والوجودية "لسارتر"، كما دحضت نَظَرِيَّة داروين فى التطور والارتقاء.
وتؤكد نظريته هذه أن الأجرام السماوية والشهب التى سقطت على الأرض حينما تم تحليلها وُجدت عليها كائنات ملتصقة بها أذكى وأقدر من كائنات الأرض، وهذا يعنى أن هناك حيوات أخرى مؤكدة لا مجرد فرضيات فى الكون! ويعنى ذلك أن هناك ذكاءً كونيًّا متدرجًا يقود فى النهاية إلى الألوهية، وبذلك انتهت نَظَرِيَّة الصدفة والضرورة، تلك النَّظَرِيَّة التى اعتبرها علماء كثيرون شماعة أو إطارًا تنظيريًّا لكل ما يجهلونه، ومن ذلك أكدت نَظَرِيَّة هويل أن الحياة فى هذا الكون تسير بتوجيه إلهى.
ولقد أفردت مجلة "البارى ماتش" الفرنسية العالمية لنَظَرِيَّة الذكاء الكونى ملفًّا كاملًا رغم حساسيات الثَّقَافَة الفرنسية تجاه الإنجليز وثقافتهم، ولقد كان

بمقدور الفرنسيين أن يلتزموا الصمت احترامًا لعلمائهم، لكنهم انحنوا لحقائق العلم الدافعة التى تؤكد وجود الخالق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

)6( )الحجرات: 13(
)7( )آل عمران: 140(
)8( )الحج: 11(
)9( )الصف: 2(

مصطفى محمود.. نكون أو لا نكون.. سؤال الماضى والحاضر والمُسْتَقْبَل

جال كثيرًا بين منحنيات قضيته المركزية، تاه بين جلال الإيمان وعظمة العلم وفضيلته، انطلقت رحلة الشتات، بدأ مُفَكِّرا وانتهى صوفيًّا. دأب طويلًا على تذويب الخصومة المختَلَقة بين الاجتهاد البشرى المتغير والطابع الرُوحِىّ الأبدى، تعلَّق قلبه بالإيمان وعقله بالعلم، استدل بالإيمان على عجز العلم، كما استدل بالعلم على ضرورة الإيمان، ذلك بعد أن كان العلم لديه هو الإله المتجبر وبينما الإيمان لا يعدو أن يكون هو العدم أو الكيان المهيض، استلهم من الإيمان آفاقًا رُوحِيَّة بلغ بها مراتب اليقين الذاتى، استشعر الخطر الداهم من شطحات العلم وجنونه فاعتصم بسكينة الإيمان. ترنح كثيرًا بين ضروب الحقيقة المنقوصة ومسارات الحقيقة المطلقة.

تهلل الماركسيون حين أخرج كتابه)الله والإنسان(اعْتِبَارًا بتقرير ذلك الفِكْر الأمثل، لكن بعدها تم تصنيفه كدرويش حين استمسك بالأهلية الإيمانية.

اعتقدَ فى خواء الحضارة الغربية التى سحقت من داخلها أية نزعة إيمانية قتلًا للرُّوح، وبرهنت على الأشياء كليتها بالمادة والمادة وحدها. كان قَلِقًا مذعورًا من تلك الوضعية المتراجعة للعالم الإسلامى، والتى يبرز أهون مؤشراتها حين أعلت من شأن الصغائر، فى مناداة جريئة بإعفاء اللحى وارتداء الجلباب والثَّوْرَة فى ذات الآن على الهندسة الوراثية وما انطوت عليه من منجزات. وبين التفكير فيما يفسد الوضوء وما يصلح العقول، ظل مصطفى محمود باحثا عن ثقوب فى جدار الصمت ليمر الضوء نحو المُسْتَقْبَل.

• ملامح التوجه الفِكْرِىّ العام عند د.مصطفى محمود تنزع دومًا نحو تأكيد النَّظَرِيَّة التآمرية.. هل من ترجمة جديدة لذلك؟

الحضور الإسلامى على الساحة العالمية بعمقه التاريخى تعرَّض للحصار والتمزيق، وتعرض للتحدى والغزو الفِكْرِىّ، لكن الإسلام ظل باقيًا، ولما لم تنفع الفتن فى القضاء عليه، أغرَقَنا الغرب فى صراع اليمين واليسار، ودارت الدوائر، واختفت الشيوعية وتعرَّت الشعارات الزائفة، فاستداروا علينا بشعارات جديدة، منها العلمانية، التى يهدفون من ورائها إلى عزل الدين وإخراجه من الساحة، وإبطال دوره، وخروج الإسلام من المسجد ثم هزيمته الكاملة... لكن الإسلام بكونه منهج حياة لا يمكن أن يُسجن فى همومه، ولذلك فإنهم لكى يكسبوا المعركة قبل أن يخوضوها جعلوا من الإسلام السياسى خصمًا للديمقراطية، ووقع السذج من المسلمين فى الفخ، فقالوا معهم إن الديمقراطية كفر، وهذا منتهى أمانيهم، والحق الذى لا جدال فيه أن الإسلام لا يمكن بحال أن يكون خصمًا للديمقراطية، والمعركة ما زالت مستمرة، ونحن فى مَعْمَعَتِهَا، وهذه المرة هى مسألة الإسلام السياسى، ونكون أو لا نكون؟ وهم ما زالوا يمكرون بنا، ولذلك على كل مسلم أن يفهم

أين يقف؟ ومع من؟ وضد من؟ وسوف يخسر هذا المسلم كثيرًا إذا وقف ضد الديمقراطية.
حينما يصرِّح الساسة فى الغرب بأنهم لا يعادون الإسلام كدين فإنهم صادقون بوجه من الوجوه؛ إذ لا مانع عندهم أبدًا أن نصلى ونصوم ونحج ونقضى ليلنا ونهارنا فى التعبد والتسبيح والابتهال والدعاء، وأقصد أنهم لا يُعادون الإسلام الطقوسى الأصولى، إسلام الشعائر والعبادات، بل يعادون الإسلام الآخر الذى ينازعهم السُّلْطَة فى توجيه العالم وبنائه على مثاليات وقيم أخرى... الإسلام الذى يريد أن يشهد تسارعًا ثقافيًّا، ويرى قيمًا فى التعامل ونماذج أخرى من الفن والفِكْر، الإسلام الذى يريد أن ينهض بالعلم والاكتشاف ولكن لغايات أخرى غير التسلُّط والغزو والعدوان، الإسلام الذى يتجاوز الإصلاح الفردى إلى الإصلاح الاجتماعى والحضارى، وهنا فقط لا مساومة. والنمط الغربى للحياة تحول الآن إلى قلعة مسلحة ترفض أى منافس أو بديل... قلعة لها مريدوها وأحيانًا من المسلمين أنفسهم!
فالليبرالية الأمريكية والأوروبية -بما فيها من انحلال مباح وحرية فى العلاقات الجنسية وشذوذ مسموح ونوادى قمار- لا تريد نظامًا يحدُّ من تلك الحريات الخاصة إذا كان هذا النظام يشكل حضارة منافسة لها ماضيها وتاريخها. وقد سجل الرئيس الأمريكى السابق "نيكسون" خواطره تجاه هذه المعركة الدائرة أو القائمة فى كتابه الأخير)انتهزوا الفرصة(، حين قال إنه بعد سقوط الشيوعية لم يعد للحضارة الغربية من عدو سوى الإسلام!
• فى زمن الهوان الإسلامى -كما وصفتَه- متى يتزحزح العالم الإسلامى عن المسرح التراجيدى؟
حال المسلمين اليوم مثل حال اليهود بالأمس، فهم منقسمون على أنفسهم، بأسهم بينهم شديد، يضرب بعضهم رقاب بعض، إنهم مطارِيد هذا الزمن، كتابهم يبدأ بـ"اقرأ"، لكن كم منهم يقرأ، وماذا يقرأ، والأمية هى القاعدة فى البلاد الإسلامية؟! الإسلام يقول: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)10(، بينما هم يعبدون المناصب والجاه والمال ويسبِّحون للجالسين على الكراسى.
القرآن يقول: وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ)11(، وتكرَّر الأمر بالعلم والمعرفة والعمل ومكارم الأخلاق والتقوى والعدل والرحمة والبر آلاف المرات، فنسوا كل هذا ولم يذكروا من كتابهم إلا آية الحجاب التى جاءت فى موقع واحد، فزايدوا عليها وجعلوها نقابًا وقفازًا! والأدهى أن مسألة اللحية التى كانت عرفًا واختارها الرسول لأن اليهود كانوا يحلقون لحاهم، فقال نربى لحانا لنختلف عنهم، الآن بهذا المنطق النبوى يلزم أن نحلق لِحَانَا؛ لأن يهود اليوم أصبحوا يربونها وشيخهم ماركس هو صاحب أكبر لحية فى التاريخ!
أضف إلى كل هذا نماذج غفلة المسلمين أو الحكم الأصولى القائم الآن فى أفغانستان، الذى أصدر قرارًا بمنع الموسيقى من كل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة... هل تصدقون؟!

كل هذا يحدث واليهود يجلسون على ترسانة نووية... إسرائيل فى العلو، والمسلمون مستضعفون، مروَّعون بالجوع والخوف... أما المشهد الأخير لهذه الدراما فهو ما يفعله الصرب بالمسلمين من قتل وتعذيب وتجويع واغتيال... وأمريكا، صاحبة الباع الطويل فى حقوق الإنسان والديمقراطية، لا تتحرك، ولا تتكلم، وترفض أى نوع من التدخل العسكرى لإنقاذ مسلمى البوسنة، وهذا لا شك يُعد موقفًا متناقضًا مع راية العدالة التى ترفعها فى كل مناسبة تتحدث فيها عن نظامها العالمى الجديد. ويكفى أن يعلم الجميع أن "بوش" حينما سئل لماذا لا تفتح سوق السلاح أمام هؤلاء المقهورين فى البوسنة؟ أجاب لأن مزيدًا من السلاح معناه المزيد من الموت! وهذه مراوغة واضحة لها دلالاتها الكبرى، فكيف يسمَّى حق الدفاع عن النفس موتًا؟!

• رغم ما يسود العالم الإسلامى من انقسامات وصراعات إلا أنك قد شخَّصت كل هذا بأنه مراهقة إسلامية بعدها يأتى الرشد، فبعد الوصول إلى القاع لا بُدَّ من معاودة الصعود. فما هو مصدر هذا التفاؤل؟

مصدره أنه لا يوجد شىء بعد القاع، ودائمًا ما يأتى بعد المراهقة رشد، وكل ما يبدو على السطح هى مظاهر طفولية ونقص وَعْى. الإنسان الآن يكتوى بنار معركة ناتجة عن الصدمات التى تحدث له، ورغم كل شىء ما زالت هناك محاولات تنوير عظيمة تصل إلى الناس من خلال منافذ الإعلام.

• إذن ما هى طرق وأساليب المواجهة الحقيقية؟

نحن فى حاجة إلى كتيبة تجدد الدين وتقاتل خصومه بأسلحة العصر وليس بفتاوى مضى عليها ألف عام، نحن نريد إيمان الأوائل فى عمقه وبساطته، نريد البعد عن الكلام الأصولى الذى يروِّج له السطحيون والمتاجرون بالدين الذين يتعاركون حول اللحية والنقاب والحجاب والجلباب ويتركون جوهر القضية ليغرقونا فى قشور ومظهريات.

• هناك معانٍ مختلفة تُطرح وقد تكون متناقضة مع مصطلح)الإسلام السياسى(فما هو مفهومك له؟

الإسلام السياسى ليس صناعة الانقلابات للوصول إلى السُّلْطَة، لأن شهوة الحكم إذا أصبحت حلم المناضل المسلم فإنه غالبًا ما يفقد إسلامه قبل أن يصل إلى الكرسى، إنما هو فى رأيى دعوة توعية هدفها الوصول للرأى العام وتوصيل المنهج الإسلامى فى صفائه وبساطته وشموله إلى عامة المسلمين على أساس أنه حركة حياة ومعاملة وعلم ومكارم أخلاق ورحمة وعدل، وليس مجرد صلاة وصيام... الإسلام السياسى هو صناعة الرأى العام بالدعوة وبالأسوة وبالقدوة، ولقد أخطأت الحركات الإسلامية فى الماضى حينما حاولت ضرب الحاكم وقلب نظامه فدخلوا السجون بدلًا من البرلمان!

• ما هى أخطر ظاهرة سجلها د. مصطفى محمود فى كتابه)الإسلام السياسى والمعركة القادمة(وانعكست على واقعنا بشكل أو بآخر؟

غروب الثّقَافَة اليوم ظاهرة عامة، فبمقدار إشراق وتَقَدُّم العلوم والمعارف فى الغرب، وبقدر سِيَادَة التكنولوجيا والصناعة الغربية على العالم بقدر تدهور الفنون والثقافات التى تتدفق علينا من هناك، فما كنا نراه فى الماضى من فنون الأوبرا والباليه والمسرح والموسيقى السيمفونية وبدائع النحت والتصوير -تلك الفنون التى كانت تقود العالم فى الثلاثينيات والأربعينيات وتقدم نماذج رفيعة من الذوق والجمال- انتهت الآن وخرجت من العصر، وأخْلَتْ سبيلها إلى موجات العبث والانحلال وسينما العنف والجنس وضجيج الديسكو ومسرح الهزل وفوضى الألوان... وعالمنا الثالث يقلد هذه الموجات ويظن أنها تَقَدُّم وتحضر، والحقيقة أنها انزلاق إلى الوراء وانتكاس إلى السذاجة... ولن أتحدث عما وراء تلك الموجات وعن الأيدى الظاهرة والخفية التى تعمل على ترويجها، فالمتهمون بلا عدد، وهناك من يقول إنها سياسة ومن يقول إنها تجارة، لكن لا أملك وسائل للتقصى والحسم عن مصادر هذا العفن العام، والمؤسف حقًّا أنه فى عصر بلوغ الذروة وكشف الغوامض الكونية والهندسة الوراثية والإلكترونيات والكومبيوتر وعلوم الاتصالات ترافقت تلك العلوم أو القوى العلمية الهائلة مع هذا الانحطاط الثَّقَافِىّ بشكل يدعو للتساؤل عن كيفية تزاوج الانحطاط مع التَّقَدُّم المذهل إلا أن يكون انحطاطًا مصنوعًا ومدبَّرًا؟ فلماذا نستورد هذه الفنون الهابطة، ونشيِّعها ونتصور أنها تَقَدُّمية؟ وكيف تخدعنا عيوننا وحواسنا وأذواقنا عن سوء البضاعة؟ أنا هنا لا أدعو إلى إغلاق الأبواب، لكنى أدعو لحسن الانتقاء، كما أدعو إلى نقد مستنير يقيم الموازين أمام الأذواق المختلفة، يقيم المرشحات والفلاتر لتمنع الدخان والأبخرة السامة المتصاعدة من هذه الفنون.

ومن العجب العجاب أن نسمعهم فى فرنسا الآن يحتجون فى صحفهم على إقامة مدينة "ديزنى لاند" فى ضواحى باريس، ويقولون إنه غزو ثَقَافِىّ أمريكى وتصدير للعبث الأمريكى غير المقبول من الشعب الفرنسى... يا سبحان الله... إذا كانوا يقولون هذا فى فرنسا عن اللهو البرىء.. فماذا نقول نحن عن هذا الغزو الشرس والمستمر لتلك الموجات المتتابعة من الفساد والإفساد؟

• إن الواقع الإسلامى الآن يموج بالعديد من المشكلات والقضايا، فأى هذه المشكلات لها أولوية خاصة فى ضرورة التصدى والحل؟

المسألة الأخلاقية يجب أن تكون لها أولوية خاصة فى الطرح؛ لأن الإسلام علم وعمل ومكارم أخلاق، بينما أكثر الرايات المرفوعة هى رايات سياسية تريد أن توحّد بالرصاص وخطف الطائرات وأخذ الرهائن، لذلك لن يصلوا إلى شيء؛ لأن الإسلام لم يجمع أكثر من ألف مليون من البشر لا بالقوة ولا بالإرهاب، لذلك فالجماعات التى تستطيع أن تنهض بوَعْى الناس إلى مستوى إسلامى وعقلانى يعبر عن رُوح الإسلام الحقيقية فهذه هى الجماعات التى

ستمثل القدوة فيه... ولقد حدد لنا الرسول) (هذا فى كلمة قالها لأحد الصحابة:)قُلْ آمنتُ باللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ(... لماذا؟ لأن أكبر كرامة هى الاستقامة.
وفى رأيى أن مشكلة المسلمين اليوم هى الانفصال عن العصر بكل متغيراته وتوابعه، والركون إلى الكتب الصفراء، متصورين أن الحكاية كلها ذِكْر وتسبيح، بينما عمار الكون هو مسئولية الإنسان، وكيف يكون ذلك إلا حين تدرس قوانين البيئة المحيطة؟ بل كيف يكون ما أراه وما أسمعه هو موقفنا من العقيدة، ونحن بلد عمر الدين فيه أربعة عشر ألف سنة! وليس هناك شىء يمكن أن يساعدنا على إحياء الأخلاق غير الدين كدستور أخلاقى لا غنى عنه، والغريب أن بعض الأعراف الأخلاقية الإسلامية هى التى حكمت الحضارة الغربية فى أكثر إيجابياتها، ولكن الحضارة الغربية الآن، ونظرًا لتخليها عن بعض آخر من هذه الأعراف، بدأت تعانى الكثير والكثير من الأوبئة والانحلال وارتفاع معدلات الجريمة، مما سجل لديهم إحصاءات مفزعة أصبحت لافتة لنظرهم منذ سنوات طويلة، لذلك أقول إن العلم وحده ليس قوام الحضارة، لأن هذه الحضارة -بجانب إهدارها لبعض الأخلاقيات- أهدرت أيضًا أخلاقيات العلم ذاته.
• هل تعتقد أن انتشار موجات المد الإسلامى فى الغرب وراء استمرار معركة التشكيك فى الإسلام؟
لا... لأن الجانب الذى كان يشكِّك فى الإسلام -وهو الجانب الشيوَعْى الماركسى- وقع بالضربة القاضية -أو كما أسميها الضربة الاقتصادية القاضية-، وهذه مسألة كنت أشعر بها حتى قبل ظهور جورباتشوف، فعملية الزرع الخطأ انتهت كالعادة برفض الفِكْر المزروع، وإلى انهيار البنية الاجتماعية والسياسية فى كل بلد اعتنق الاشتراكية حتى وصلت المسألة إلى الدولة الأم: الاتحاد السوفيتى، حيث أدركت حاكمَها صحوةُ ضمير، بعد أن أطلق صيحته التى أعربت عن الدمار الذى أصاب بلاده، وكان آخر ما سمعناه فى هذا أن أهالى مدينة لينجراد طالبت غالبيتهم بتبرئة مدينتهم من اسم لينين، والعودة إلى اسمها القديم سان بطرسبورج، وقد يسأل سائل: لماذا لم يترك جورباتشوف الشيوعية على حالها مستورة بعيوبها؟ والجواب: إنه لم يفعل ما فعل حبًّا وغرامًا بالديمقراطية، إنما فعله كحَلٍّ وحيد أمام انهيار اقتصادى كامل، سينكشف به النظام وتنفضح الشيوعية، ولن يجد العامل ما يأكلُه، بسبب عدم كفاية الإنتاج وانهيار الصناعة والزراعة، بل تخلف النظام بأكمله أمام تنافس رأسمالى سيقضى عليه، فلم يكن من الممكن الاستمرار فى الكذب، فبعد سبعين سنة من الشعارات اختفى فيها المخزون السلعى وهبط الروبل إلى الصفر، ولم تعد أجهزة الإعلام تستطيع أن تصنع شيئًا أمام حقيقة ماثلة لمجاعة سوف تعلن عن نفسها، ولم تكن البروسترويكا سوى المصارحة بالكارثة، وبفضل تلك المصارحة وبفضل أوروبا الشرقية التى قدَّمها جورباتشوف رشوة للرأسمالية الأمريكية استطاع أن يتلقى المعونات

والكساء والغذاء الذى عَبَرَ به شهور الشتاء القاسية، وأيضًا بفضل تلك المصارحة استطاع أن يعفى نفسه من حرب عقيمة مع افغانستان ومعونات لاشتراكيات فاشلة فى بلاد مثل كوبا وأنجولا.
والواقع أن كل هذا مصدره أن الفِكْر الاشتراكى كان يقوم على أساس فاسد، هو الزعم بمساندة الطبقة العاملة، بينما هذه الطبقة فى كل الدول الرأسمالية فى حالة أسعد، فكل واحد يملك سيارة وإيرادًا، فأين حقيقة ما يقولون ونحن نرى أو نسمع عن عمال المناجم الذين يعيشون كل ستة منهم فى غرفة واحدة بعد مرور سبعين سنة على الثَّوْرَة!. المسألة أن الاشتراكية مظهرها غير مخبرها... مظهرها أغانٍ وأناشيد ومسيرات شبابية للحرية والديمقراطية، ومخبرها كله تخلُّف... فهى لم تدخل بلدًا إلا دمرته اقتصاديًّا، أو هى أقرب وأسرع طرق الإفلاس المادى والرُّوحِىّ.
• هل من سبيل لنهضة عربية إسلامية تنطلق من الغيرة الحضارية فى ظل معطيات هذا العصر الذى يشهد ازدهارًا علميًّا تقنيًّا غير مسبوق؟
المشكلة كبيرة وتحتاج إلى أخلاقيات جهاد وقيم عمل، فهل نستطيع أن نتجاوز مشكلة الرغيف إلى المشكلة الأكبر وهى التعليم والإسهام الحضارى؟ أقول: العلم أولًا، والعلم ثانيًا، ثم العمل بما تعلمناه ومكارم الأخلاق والصدق مع النفس ومع الله، فهذا ديننا، ولا بُدَّ للمسلم أن يُخرج من رأسه فِكْرَة أنه سيغير العالم فى ثانية... وأن الإسلام هو الحل... فأى إسلام يريد؟ وأى تغيير هذا إذا لم يبدأ بنفسه قبل غيره؟ فالإيمان وأخلاقيات الجهاد وقيم العمل بضاعة نفيسة تحتاج تنشئتُها إلى ثَوْرَة داخلية وصراع وجودى باطنى يطول ويعلو بك على ماديتك، وهى ليست تربية بين يوم وليلة، وليست حصاد خطب وهتافات، وإنما هى الجهاد الأكبر الذى نستطيع أن نصدَّ به الطوفان فهل ظهر رجال هذا الجهاد أم أنهم سيولدون من مخاض العذاب القادم... إن الإصلاح لن يصنعه جبابرة بل أناس فضلاء صادقون، فالامتحان صعب، ونحن فى حاجة إلى عقليات خلاقة وسياسات مرنة وحلول غير تقليدية فى لحظات التحدى التاريخى التى تستلزم تغيير المسار، وفى ظل المنعطفات السياسية التى تستلزم أيضًا اتخاذ مواقف جديدة. مطلوب شجاعة تواجه كل هذا، فليس عيبًا أن نكون فقراء، ولكنها جريمة أن نكون متخلفين، والعقل لا يعرف مستحيلًا، ولغة التَّقَدُّم أصبحت لغة واحدة ومفرداتها ثابتة فى كل مكان.
• فى إطار أيديولوجية الدكتور مصطفى تتجلى مسألة الغزو الفِكْرِىّ حقيقة ماثلة ويُحال أن تكون وهمًا أليس كذلك؟
الغزو الفِكْرِىّ حقيقة يؤكدها الواقع فى أشكال كثيرة، وإن كانت الاشتراكية تمثِّل غزوًا ثقافيًّا، فإننا نرى الآن أن هذا الغزو قد لبس ثوبًا آخر هو العلمانية، التى تعنى فى جوهرها أن الدين فى المسجد والدنيا هى التى تحكم... وأرى أنه إذا كان الاستعمار قد جاء ليسلب الموارد، ويحتل الأرض، فإنه يعود الآن -بذكاء- ليحتلَّ العقول بأسلوب آخر هو العلم والتكنولوجيا والاقتصاد والفلسفة

والفن، بمعنى أن الحرب ما زالت مستمرة، ولكن تحت شعارات حضارية مقبولة، وتحت غطاء مشروعات للتنمية، ولكن مهما تعددت الوسائل فإن الهدف يظل واحدًا، وهو محو الهوية، ومحو الأعراف والتقاليد المحلية، وتذويب البنية العقلية والسلوكية فى مقابل تكنولوجيا براقة ودمى إلكترونية، ولقد قالها "سيرج لاتوش" الأستاذ بمعهد دراسات التنمية الاجتماعية والاقتصادية بباريس والخبير بشئون العالم الثالث فى كتابه)تغريب العالم(: ليس وراء هذا التغريب الثَّقَافِىّ إلا نفس محاولات التبشير القديمة.
إنه تيار واحد من هذا الغزو الفِكْرِىّ ظل يعمل على تغريب العقل المصرى وتشكيكه فى مقوماته وأديانه ومقدَّساته منذ أجيال... وتاريخنا يؤكد بالفعل أن هذا الغزو كان موجودًا بقيادة سلامة موسى فى الماضى، ثم تسلَّم الراية كُتَّاب اليسار، وبعدهم تيارات عبثية وسوريالية وعَدَمِيَة وعلمانية، ثم بعد ذلك سينهمرعلينا طوفان ثَقَافِىّ من الأقمار الصناعية.
ليس فى هذا دعوة للعزلة والانغلاق ولا دعوة لرفض الحضارة الغربية ولا نوع من الحجر على رأى أو اتجاه؛ لأن مصر بحكم موقعها الاستراتيجى بين ثلاث قارات تمثل نقطة التحام حضارى، ولا تملك إلا أن تعيش هذا الالتحام، لكن لا بُدَّ أن نضع على عقولنا مصفاة ناقذة ترشح وتنقى وتناقش كل ما يُلقى إليها، الفِكْر بالفِكْر، والنظر بالنظر، فالتعددية الفِكْرية مطلوبة، والإسلام كفِكْر لا يخشى المواجهة، بل إن نقاء جوهره لا يظهر إلا مع هذه المواجهة، وعلى ذلك فأنا مع الانفتاح الكامل، لكن مع الوَعْى التام بحقيقة وخطر الغزو الفِكْرِىّ، فإذا كانت العزلة غير ممكنة، فإن الاستسلام للأفكار الغازية وتسربها هو انتحار حضارى.
والموقف السوى هو اليقظة والوَعْى والإيمان العميق بالذات وبالهوية التاريخية التى خرجت منها أنوار النبوات والمعارف الإلهية على العالم، فكيف نتحول إلى أقزام مفتونين أمام الدمى الإلكترونية، واللعب الفضائية؟ فلهم علومهم ولنا علومنا، ولهم تُرَاثهم ولنا تُرَاثنا، ومن هذه النِّدِّيَّة نستطيع أن نأخذ ونعطى، ومن هذا المنطلق يثمر تلاقح الثقافات نبتًا جديدًا، أما أن ينسحق البعض تحت أقدام هذا الغزو الثَّقَافِىّ ويتعطل جهاز الإرسال فى عقولنا ويتحول إلى مجرد آلة استقبال، فهذا هو الضياع الذى يهددنا، والذى يجب أن نرفضه جميعًا.
• الأحادية القطبية واختلال التوازن العالمى.. ما هى مُسْتَقْبَليات تلك العلاقة العكسية؟
العالم الآن أصبح أحادى القطب، فأمريكا تقف على رأسه كعملاق منفرد بالسيطرة لا تثير قوته العسكرية اطمئنانًا، وإن كانت لم تعد كافية وحدها لضمان استمرار الزعامة؛ لأن القوة الاقتصادية مطلوبة بنفس المقدار والبنية الاجتماعية والصحية كأركان مهمة لاستمرار حياة الحضارات. والاقتصاد الأمريكى فى هذه اللحظة أصبح مهدَّدًا تمامًا من جانب المارك الألمانى

الصاعد والين الياباني المكتسح، بينما الإنفاق الأمريكى أصبح هو الآخر كثيرًا، بل مترهلًا، ومهدَّدًا بعجز الميزانية، وعلى هذا فالعملاق الكونى مهدَّد بالسقوط فجأة كما صعد فجأة، ولكن ماذا بعد انهيار السيطرة الأمريكية إلا عالم يموج فى بعضه البعض، ومُسْتَقْبَل مجهول الهوية كعلاقة استفهام كبيرة، فرغم القوة الموجودة، من الجائز أن تُفاجأ بنهاية درامية مثل نهاية العملاق الروسى، فهناك العديد من المؤشرات التى يمكن أن تكون مصدر إزعاج، لذلك هم يعكفون الآن على دراستها، وبكل التفاصيل المتعلقة بها من قريب أو من بعيد.

• مسار السياسة العالمية المُعَاصِرَة يبدو كأضحوكة تُودى بالمنظومة الكونية... ترى ما هى كيفية تغيير هذا المسار؟

الإجابة عن هذا السؤال تتطلب تفصيلًا، لكنى سأقتصر على ما قُلته فى كتابى)ألعاب السيرك السياسى(، إن السياسة العالمية ما هى إلا حفلة تنكرية يظهر فيها كل سياسى بوجه غير وجهه، إنها لعبة ذكاء، والشعارات المعلنة فيها غير النيات المبيتة، والأوراق التى تُكشف على المائدة غير المؤامرات التى تُحاك تحتها! ولا أحد يدرى ماذا تحت القبعة؟ وعلى هذا النمط كانت حوادث التاريخ دائمًا، فالثَّوْرَة الفرنسية مثلًا كانت شعاراتها المعلنة هى الحرية والإخاء والمساواة، ولكن ماذا حدث لهذه القيم؟ لم يكن من شىء إلا المذابح والمشانق...

وبصفة عامة، فالأزمات لا تحل لوجه الله، بل لوجه المصالح، ولوجه البترو–دولار، ولوجه البطالة الموجودة، ولوجه تشغيل المصانع، من أجل هذا دائمًا ما أقول إن المبادئ معلَّقة والمصالح فاعلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

)10((الإخلاص: 1)

)11((لتوبة: 105)

كمال أبو المجد.. الإسلام هو الحل.. ولكن كيف؟

المشروع الحضارى الإسلامى... من أين يبدأ؟ وما هى خطواته؟ وما هى الاستراتيجيات الضامنة لإنجاحه وسيادته؟ وهل تمثل تيارات الإسلام السياسى عائقًا موضوعيًّا؟ وما هى آليات إحداث صحوة إسلامية؟ وكيف أصبح الإسلام يمثل ذريعة نحو الاشتباك الحضارى؟ وكيف يمكن إذابة الخصومة التاريخية مع الكتلة الغربية؟ وهل أصبح التوظيف السياسى للإسلام يمثل متَّجَهًا جديدًا نحو الصدام الحضارى؟ وإذا أمكن تصوُّر رؤية "جراهام فوللر" أن يصبح العالم بلا إسلام، فهل يصبح بلا إرهاب؟ وكيف تم إغفال حقيقة أن تاريخ الأزمات الوظيفية والهيكلية فى حياة العالم الإسلامى قد بدأت مع حركة الاستعمار الأوروبى فى القرن التاسع عشر؟

تلك هى بعض من الخواطر التى اجتاحت عقل شاب يطمح فى الاستماع إلى كلمات تحمل رؤية موضوعية فهرول إلى د. أبو المجد ملتمسًا إشعاعًا جديدًا.

• الواقع المصرى بكل ما يحفل.. لأى مدى يمكن أن تكون قابلية خضوعه لمشروع حضارى إسلامى؟

عند تقييم واقع أى مجتمع لا بُدَّ أن نبتعد عن المُطْلَقَات؛ لأن واقع المجتمعات هو شبكة من العلاقات والأوضاع، ووصف أى ظاهرة من الظواهر بأنها إسلامية أو مناقضة للإسلام أمر يحتاج أولًا إلى ضبط معيار التقييم، ثم إلى ضبط رؤية الواقع.

والواقع المصرى شأنه شأن أى واقع آخر، وأعنى أنه واقع معقَّد فيه عناصر إيجابية وأخرى سلبية، فيه تحولات وتغيرات وأزمات... والحقيقة أن البداية المنطقية تتطلب أن نحدد متى نصف حالة اجتماعية أو حضارية بأنها إسلامية؟ لأن الإسلام كحضارة لا يتدخل فى صغائر الأمور، وإنما يضع توجيهات ومبادئ عامة، وفى بعض جوانب العلاقات الاجتماعية يدقِّق ويفصِّل. إذن لا بُدَّ أن نميز بين هذه المجالات حتى يمكن أن نصف نظامًا بأنه إسلامى لمجرد إنه لا يتعارض مع المبادئ الكبرى التى جاءت فى الإسلام، بينما فى جزئية أخرى لا نستطيع أن نسمِّى وضعًا معينًا بأنه إسلامى إلا إذا كان فى كثير من تفاصيله متفقًا مع تلك المبادئ.

والمقولة الثانية التى أحب أن أضعها فى هذا الإطار هى أنه حتى يكون الوضع إسلاميًّا لا يُشترط بالضرورة أن يكون مخالفًا لكل ما كانت عليه سائر الأمم والشعوب، فهذا التزام ما لا يلزم؛ لأن الإسلام فى النهاية دعوة ونظام لترشيد وهداية المجتمعات والحركة الطبيعية لمجتمعات قائمة، سواء كانت هذه المجتمعات مسلمة أو غير مسلمة... والإسلام حين جاء أقرَّ أشياء كثيرة جدًّا كانت فى الجاهلية، وأقصد أنه قام بتعديل النظام القيمى الحاكم؛ لأن الحضارة هى إنجازات ومعارف توجهها وتتحكم فيها مجموعة قيم أساسية، وعلى ذلك فالذى يفرق بين الإسلام وحضارات أخرى ليس بالضرورة هو

جسم الحضارة أو كيانها المادى بقدر ما هو مجموعة المبادئ والقيم الحاكمة لتلك الأوضاع ولهذه العلاقات، وإذا أردنا أن نفصل فعندنا المجال السياسى والاجتماعى والاقتصادى والدولى، فمثلًا الإسلام حين قدم مشروعه الحضارى للظاهرة السياسية وضع عدة مبادئ أساسية أولها مبدأ الشورى الذى يُسمى بالنظام الديمقراطى فى المجتمعات الأخرى، وثانيها: حدود الله التى لا ينبغى للجماعة أن تتجاوزها، وثالثها: العدل بين الناس... إذن هناك قواعد قانونية تقيد الحاكم والمحكوم، وهو ما يُعبر عنه فى النظم الحديثة بمبدأ سِيَادَة القانون والشرعية. وإطار أو مضمون القواعد التى يخضع لها المجتمع -حكامًا ومحكومين- مستمد من الشريعة الإسلامية، والقاعدة الأخيرة هى احترام حقوق الناس وحرياتهم... وأنا أزعم أن هناك تقصيرًا كبيرًا فى مجتمعات المسلمين وفى الحركات الإسلامية فى الاحتفال والعناية بقضية الحرية وحقوق الإنسان... فالحرية شرط التكليف فى الإسلام، وهى أيضًا شرط الإبداع والتجديد والنهضة فى واقع الناس، وعلى هذا فاحترام حقوق الإنسان فريضة وبقدر احتفال الإسلام بصيانة هذه الحقوق والحريات فإنها تكاد تكون فريضة غائبة أو ناقصة فى مجتمعات المسلمين، وناقصة أيضًا فى برامج الحركات الإسلامية المُعَاصِرَة، وأنا أحذر من تجزئة الحرية؛ بمعنى أن نقرَّ الحرية لأنصارنا وننكرها على خصومنا، فالحرية لا تتجزأ، والقرآن الكريم يصل فى احترام الآخر إلى أن يقول وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ)12(.

• أين الخطأ إذن ومتى بدأت الكارثة؟

لقد تعلَّموا خطأ وتربوا خطأ فصاروا خطأ، والقضية ليست قضية شعارات ترفع، وإنما هى قضية خُلُق يمارس، وفضائل أساسية من تحلَّى بها كان حسن الإسلام، ومن تخلى عنها فهو مقصر، وينبغى أن يراجع، ويعود إلى احترام هذه المبادئ والشعائر.

إذن كل نظام يقوم على الشورى، ويقيم العدل، ويحترم الحقوق والحريات، ويرتضى تطبيق الشريعة الإسلامية فى ميادينها، وفى الثابت من نصوصها وأحكامها، هو نظام إسلامى، وليس هناك نظام إسلامى كامل؛ فالنظم تقترب وتبتعد بقدر ما تشتمل عليه من مبادئ، أيًّا كان شكل الدولة. وعلماؤنا يقولون: العبرة بالمقاصد والمعانى، وليست بالألفاظ والمبانى.

الحضارة الإسلامية حضارة إيمانية، ونقطة الانطلاق فيها أن يُسلم الناس لرب العالمين، وأن يطيعوا الرسول فيما ثبت عنه وفهمته العقول على وجهه الصحيح من سنته، هذا هو المنطلق الرئيسى، ولكن تتبعه مجموعة من القيم، وهنا تفترق الحضارات... والحضارة الإسلامية وما فيها من قيم حافظة يمثلها التعاون والتكافل والإيثار والاهتمام بالخلايا الرئيسية فى المجتمع، ثم هناك القيم المحركة مثل قيمة العمل والإيجابية واحترام الوقت والحركة واحترام النظام والعقل الذى هو المنطلق الكبير الذى به سلط الإنسان على الكون

ومن خلاله سخر الكون للإنسان، بل وبه كان الإنسان خليفة... كل هذه منطلقات رئيسية تجعل المسلمين ليست مهمتهم الوحيدة أن يحافظوا على أنفسهم ويحققوا الخلاص الفردى ويقفزوا من العزلة إلى الجنة... لا... إنما مهمتهم أن يحققوا خلاص الأمة، بل خلاص الأمم، ونهضة الشعوب، ويكونوا أمة معمرة تضرب فى الأرض بسلطان العقل وبسواعد القوة؛ فقد كان "عمر بن الخطاب" إذا تكلم أسمعَ، وإذا مشى أسرعَ، وإذا ضرب فى الحق أوجعَ.

• إذا تحدثنا عن مشروع حضارى إسلامى يعالج هذا الواقع فمن أين يبدأ هذا المشروع فى رأيك؟

هذا المشروع يبدأ بإدراك أن المسلمين متخلفون، ليس لأنهم مسلمون، وإنما لأنهم تخلّوا عن قيم صحيحة فى ذاتها، وهى القيم الأساسية التى دعا إليها الإسلام، وهنا أذكر مقولة رجل من الصحابة وقد دخل على "النجاشى" وقال: "الله بعثنا وابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار"... هذه المقولة أعتبرها منطلقًا أساسيًّا للمشروع الحضارى الإسلامى؛ لأنها تؤكد إنهاء سلطان الناس على الناس بغير الحق. إن هذا منطلق دينى عَقَدِىّ يحمل جنين مشروع حضارى قائم على النظر الإنسانى العام على أساس المساواة، وإذا تكلمنا عن المساواة فقد سقطت بضربة واحدة كل الاعْتِبَارات غير المنطقية فى تقييم الناس فى الأعمال والسلوك مثل الجنس واللغة إلى آخره، وفى رأيى أن جوهر المشروع الحضارى هو نظرة إيمانية، تليها نظرة إنسانية، يليها تصور لمهمة الإنسان فى الكون من تعمير وهداية. المشروع الحضارى الذى نريده هو مشروع نهضة وتَقَدُّم وحركة، مشروع خروج ضد التخلف وإنهاء التشرذم... وحين يتم ذلك على أساس القيم الأساسية الحاكمة فى ميدان السياسة والاقتصاد والاجتماع والعلاقة بالآخرين على المستوى الدولى فهذا مشروع حضارى إسلامى، لكن يظل صحيحًا أنه فى داخل الدوائر الإسلامية المختلفة ستتنوع الاجتهادات؛ لأن ما يصلح لبلد صغير قد لا يصلح لبلد كبير.

• معنى هذا أن المشروع الحضارى الإسلامى قائم منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة؟

نعم... لكن، فى النهاية، نحن نتكلم عن الحضارات كبشر يحملون هذه الحضارات، والمشروع قائم فى ضمير الكون، وتحقق على فترات من التاريخ، وقيمه فى الكتاب والسنة التى يتمسك المسلمون بها أحيانًا فيرتفع شأنهم ويتخلون عنها فينخفض شأنهم، واليوم ونحن نتحدث عن مشروع حضارى نريد أن تكون ثمرة التجربة الإنسانية الطويلة، وثمرات استخدام العقل التى أوصلت الإنسان إلى هذا التَّقَدُّم، نريد لها أن تتم وتكتمل بعناصر هداية، وأريد أن أنبه إلى أن المشروع الحضارى الإسلامى ليس بدعًا، وليس بالضرورة مختلفًا عن كل ما عداه، وإنما هو مشروع مرشد، كما إنه ليس مشروعًا إلهيًّا يعفى الناس من الاجتهاداتِ، وإنما هو مشروع حضارى يقيمه

الناس مُسْتَهْدِينَ بقيم الإسلام، ولذلك فأنا أحذر من البلطجة السلوكية التى تصور للناس أن المشروع الحضارى هو مشروع ينزل عليهم من السماء... لذلك أقول لا يقعد أحدكم عن طلب مشروع حضارى ويقول:)الإسلام هو الحل(.
نعم، الإسلام هو الحل... ولكن حين تتناوله العقول والأيدى والأبصار، وحين يُستجاب لحاجات الناس المتجددة بحلول متجددة، فإن لكل عنصر فقهه ولكل زمان اجتهاده.
• من الخندق الأصولى تنطلق صيحات عديدة يتصدرها أن الإسلام بآفاقه الرحبة يمثِّل المشروع البديل للمشروع الحضارى الغربى... فكيف ترى ذلك؟
أنا لست من أنصار وضع الإسلام فى مقابل الغرب، وإن كان الغرب يفعل أحيانًا، متصورًا أن هذا تفكير المسلمين، ومتصورًا أيضًا أن الإسلام عدو يريد أن ينزعهم... لا... نحن لا نقول هذا، وإنما نقول إن الحضارة أخلاق، فيها الحسن وفيها القبيح، والحضارة الغربية أثمرت ثمرات طيبة بقدر ما أعلت العقل واستخدمته، وبقدر ما كانت حضارة عالمية، بل بقدر ما ساهمت به فى تسخير الكون للإنسان، ويُحمد لأهلها على تعاقب العصور أنهم ارتادوا جنبات هذا الكون، وحولوا النَّظَرِيَّات العلمية إلى تجارب عملية، فقامت صناعات كاملة على أساس من اكتشافات علمية متعددة، وتحقق تَقَدُّم مادى فى مواطن كثيرة، لكن الذى نخشاه هو غياب بعض القيم... هذا الغياب الذى أصبح ظواهر مسجلة وموثقة حتى إن أحدهم قال: إن التَّقَدُّم المادى الهائل الذى لا ننكر ثمراته أبدًا لا يصاحبه بنفس الدرجة والسرعة تَقَدُّم فى نوعية الحياة الإنسانية... أما نحن فنسميها حضارة شيئية؛ لأن إنسان هذه الحضارة تصوَّر فى وقت من الأوقات أن السعادة تُترجم بسلعة، فكلما أحطت نفسك بآلاف السلع كنت سعيدًا، وهذا غير صحيح؛ لأن الإنسان فى النهاية كائن اجتماعى شقاؤه فى العزلة، وسعادته فى الاختلاط بالآخرين، ذلك إذا أردت أن تقيم سعادة وسلامًا اجتماعيًّا وعلاقات سوية تقوم على تبادل الرحمة والمودة، وهذه ليست مسائل شكلية؛ لأنها تزرع فى العلاقات دفئًا وتبعدنا عن النرجسية والانحصار على الذات، والتعاسة، وتبادل القسوة والعدوان. حتى إن العنف والجريمة فى مجتمعات هذه الحضارة الشيئية أصبحت ذات معدلات مرتفعة حسب إحصائياتهم لها؟! والمسألة -فى رأيى- ليست مسألة تنابز بالألقاب ولا تنافر ولا قصائد مدح وهجاء، القضية أننا شركاء فى مُسْتَقْبَل الحياة على هذا الكوكب الذى اؤْتُمِنَّا عليه، فهل نفعل شيئًا نصلح به علاقاتنا وننصرف إلى تنمية هذا الكوكب أو نتقاتل؟! خاصة أن نظرتنا قائمة على الإيمان بالتعددية. وعلى الاعترافات بالفضل لأهله، وعلى إرشاد السارى إلى ما قد يكون قد فاته من الخير، وتلك نظرة لا تحمل فى ذاتها تعاليًا ولا انحيازًا، بل فيها رؤية إنسانية شاملة، وحرص على الإصلاح، وتجنب للآثار الجانبية السيئة لبعض الظواهر الطيبة من ثَمَّرات العقول والأفكار.

• كيف ترى الصحوة الدينية كنهضة رُوحِيَّة فى ظل غياب البعد الحضارى للدين؟
نحن إزاء عدة ظواهر نسميها كلها بنفس الاسم، نسمى الصالح والطالح منها بأنه صحوة إسلامية... ومرة يأتى غيرنا ويدخلون الصالح والفاسد ويسمونها الأصولية والتطرف... لا... أليس منهم رجل رشيد ليميز بين الأشياء ويفرز الظواهر، ويعرف أن الأمر فيه الحسن وفيه القبيح؟ إذ كيف أساوى بين من يدعو إلى الله على بصيرة وهدى وكتاب منير فى سماحة ورفق واعتدال وصحبة والتفات إلى قيم الإنسان الإيجابية؟ كيف أساويه بمن يخرج على الناس شاهرًا سيفه هل يستويان؟! لا... ثم هل من الإنصاف أيضًا أن يأتينا من الغرب أو الشرق من لا يريد أن يسمع، ولا أن يرى، ولا يطيق جملة واحدة فيها كلمة إسلام، فيسمى كل مؤمن، وكل مسلم، وكل مصلٍّ وكل داعٍ للنهضة على أساس إسلامى، باسم المتطرف أو الأصولى؟!... هذه خزعبلات وثرثرات وعبث لا يلتفت إليه العقلاء، ولا يرد على أصحابه، فيقال للذين يصورون كل كلمة فيها إسلام بأنها خير... مهلكم، فإن الأمر بجوهره لا بلفظه، ولا بشعاراته، وأقول إنه تحت شعار الدعوة الإسلامية والحركات الإسلامية، هناك دعوات رشد ودعوات غضب تدمر ولا تبنى... هناك السهام المسمومة التى توجه نقدًا للحركات الإسلامية بين من يتعمدون الخلط ووضع كل شىء فى بوتقة واحدة ليلصقوا بكل ما هو إسلامى كل النقائص التى يستخرجونها من هامش صغير يحسب على الصحوة الإسلامية.
• الدين وكونه قيمة اجتماعية إضافة إلى أنه أحد المكونات الحضارية... ومصر دولة ذات تاريخ مع هذا البعد.. كيف تكون رسالتها المُعَاصِرَة؟
الحقيقة أن رسالة مصر كبيرة جدًّا، فمصر دولة لها تاريخ مزدوج، مسلموها مؤمنون ملتزمون، وكذلك مسيحيوها... مصر بلد التوحيد منذ أخناتون، وحين جاء الإسلام اكتملت به الرؤية الدينية التى هى رؤية توحيدية إيمانية. إن لغة الخطاب الدينى فى مصر كانت دائمًا لغة سماحة واعتدال... ومصر بحكم موقعها الجغرافى وثقلها السكانى ونهضتها العالمية ذات الجذور الثابتة لها دور كبير فى العالم العربى يضع عليها مسئولية كبيرة فى العالم الإسلامى، وأنا أعتبر أن حرمان العالمين من الدور المصرى، وحرمان مصر من أن تؤدى هذا الدور، يمثل خسائر عامة على العرب والمسلمين.
ولذلك فمسئولية مصر أن تلتفت إلى أن المكون الدينى فى حضارتها مكون عام، وإذا تخلفت عن أداء هذا الدور فسيشيع أحد أمرين: إما الترخص الشديد وانحسار المكون الإيجابى لها هى حضارة هذه الأمة، وإما أن تتغلب نماذج الطرح والرؤية الإسلامية غير المعتدلة، وذلك فإننى أظن أن استمرار مَسِيرَة النهضة الإسلامية يتطلب التفاتًا إلى خصوصية الصيغة المصرية فى الدعوة الدينية، وفى التبشير الدينى -إذا جاز التعبير- فى بناء النهضة على أسس إسلامية.

• يقول المُفَكِّر الجزائرى "مالك بن نبى" إن مشكلة كل شعب هى -فى جوهرها- مشكلة حضارته، وعلينا أن نلعن القابلية للاستعمار قبل أن نلعن الاستعمار نفسه.. كيف ترى ذلك؟
الحقيقة أن مالك بن نبى أدخل فِكْرَة أنك لا تُستعمر إلا إذا كان عندك قابلية للاستعمار، بمعنى أنه إذا تردت أوضاعك الاجتماعية فطبيعة الحال يصبح عندك استعداد للاستعمار، لكن لا يمكن لأمة تستعمل عقلها وتجمع شملها أن تصبح عندها هذه القابلية، وبعبارة بسيطة كل العبارات لها مد وجزر، ولها إقبال وإدبار، وإذا أردنا أن نفصل معالم هذا المد وهذا الجزر، لتشخيص واقع اليوم، فإننى أقول إن معالم الجزر والتراجع فى وضعنا الحضارى تتمثل فى عدة ظواهر، منها التقصير الشديد فى ترتيب الأولويات فى الرؤية الإسلامية، إضافة إلى غياب فِكْرَة الأمة وانتشار ظواهر الخلاص الفردى الذى يتفق مع الحضارة الغربية، والأمر الرابع هو تراجع فِكْرَة العمل كفريضة إسلامية... هذه كلها مظاهر تخلف لا ينازع فيها لا من حيث كونها مظاهر تخلف ولا من حيث إنها قائمة بدرجات متفاوتة فى العالم العربى وبين المسلمين. هذه هى مواضع التخلف التى يكون التغلب عليها هو نفسه أهم عناصر الصحوة الحضارية والنهضة المبتغاة.
• هويتنا الحضارية ومعالم وجودنا وخصوصياتنا الثَّقَافِيَّة ما هى استراتيجية الحفاظ عليها فى ظل الصراعات المتوالية على اختلاف طابعها؟
ليس هذا فحسب، وإنما فى ظل الإعلام المُتَقَدِّم تقنيًّا وفنيًّا والذى يكون الرؤية، فالمشكلة أننا الآن نريد تحقيق هدفين يبدوان كما لو كانا متعارضين، نحن لا نريد أن ننعزل، فمن انقطع عن العالم ضاع، ولكننا فى الوقت نفسه لا نريد أن يكون الانفتاح على العالم معناه فقدان الهوية الذاتية؛ لأن هذا يُضعف القدرة على النمو والنهضة، فضلًا عن أنه يهدر دورك فى ترشيد الآخرين. إننا فى ظل حفاظنا على القيم الإسلامية الحاكمة لا نتحرج بعد ذلك من أى أخذ أو اقتباس من أى حضارة أخرى، ما دام هذا الاقتباس يتم على علم وهدى وكتاب منير، وعن قدرة على الانتقاء والاختيار، وعن رغبة فى تمثل هذه الأمور وإعادة إفرازها وهضمها. إنها مسائل كثيرة فارقة بين حضارة وأخرى، بين حضارة عطاء وحضارة أخذ، وحضارة بذل وإيثار وحضارة اهتبال وانتهاب.
• إذن لأى مدى يمكن أن تسود محاولات التغريب من قبل الآخر؟
سوف يستمر هذا، ولكن لا يجب أن يستولى علينا الفزع لأننا نقول إن الحواجز سقطت إلى غير رجعة، والعزلة صارت مستحيلة، ولا بُدَّ أن تقاوم هذا التغريب من خلال جهود جماعية؛ لأنها مسألة إحلال قيم محل قيم أخرى، وكما قال ابن نبى:)إنك إذا لم تَقَدُّم شيئًا لجيلك فإن هذا الجيل سيأخذ من الآخرين(لذلك فإنه يجب تزويد أجهزة التعليم والتربية، التى يجب أن تقوم على التكوين لا التلقين، وكذا أجهزة الشباب والدعوة الدينية، برؤية إسلامية؛ حتى تكون عقلية الانتقاء والتأقلم عملية واعية.

• ولكن إنسانية الحضارة الإسلامية قد حالت دون هذه المحاولات حين كانت منطلقة... لماذا؟
ببساطة شديدة: لأن انحيازك فى ظل الحضارة الإسلامية هو انحياز لمبادئ، وليس انحيازًا قبليًّا تمثله الحضارة الغربية الراهنة، فمن ورائهم وفى أعماقهم إحساس بأن حضاراتهم هى الحضارة، وأن الآخرين لا يُعترف بهم إلا إذا دخلوا فيها، وبالتالى كلمة العالم المتمدين أو العالم الغربى تفترض أن الاختلاف مع الآخرين شر، وعلى هذا فهناك شك كبير فى عالمية هذه الحضارة، لأن هناك تزييفًا موضوعيًا ناتجًا عن فرض هذه الحضارة على الآخرين، وبذلك تصبح عالمية، وهى ليست كذلك؛ لأن الحضارة العالمية هى حضارة مشتركة يسهم فيها الجميع، وهذا هو المعنى الحقيقى للتعددية. أنا أرجو ألا تهتز ثقتنا بأنفسنا تحت مطارق الألفاظ التى تروج. نعم... هناك عالمية حقيقية وعالمية زائفة، تعددية حقيقية وأخرى وهمية، موقف إنسانى أصيل وآخر هش، والموقف الإسلامى بين هذا وذاك هو موقف إنسانى حقيقى. موقف عالمى يؤمن بالتعددية إيمانًا حقيقيًّا لا بالعنصرية التى تثير رياحًا مخيفة من التعصب الغربى والأوروبى.
• ترى ما هى الحقائق التى يجب على المسلم استحضارها؟
الحقيقة الأولى أن الله ليس بينه وبين أحد نسب، وأنه من لم يستعمل عقله لم ينفعه دينه، لأن دينه -حينئذ- سيكون ناقصًا... وأعتقد أنه قد آن الأوان لاستخدام العقول التى تعطلت سنين طويلة، والقضية الثانية: هى أن العزلة لم تعد ممكنة، فالعالم كله حاضر بعضه عند بعض؟ والقضية الثالثة أنه لا علم بغير عمل، وأنه إذا كانت الكلمة لها وظيفة كبرى فإن العمل هو الذى يترجم الكلمة إلى واقع، والأمر الرابع أنه لا فضيلة ولا سلام بغير حرية، هذه الحقائق لا يجوز أن تغيب... وفى رأيى أن هذه شروط النهضة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

)12((التوبة: 6)

محمد الغزالى.. لماذا نعيش عصر انهزام القيم الإسلامية

الجلوس إلى الشيخ محمد الغزالى، الداعية والمُفَكِّر الإسلامى المستنير، رحلة رُوحِيَّة عبر آفاق النورانية والإشراق، رحلة تسمو بالعقل وترتقى بالرُّوح وتصفِّى النفس من خلال ما يفيضه من علم غزير ورؤية ثاقبة تقوم على التحليل والتعليل لجوهر هذا الدين، وتخرج لنا بالحقائق الناصعة التى تتلاشى على أثرها كل الشكوك المتزاحمة بالرؤوس، والتى تتصل بالعديد من القضايا تبديدًا للهواجس الضالة وهدمًا لجذور المنطق المُلَفَّقِ القائم على أكاذيب بارعة تقتضى المواجهة الفائقة، لكن الغريب حقًّا أنه طيلة ساعات كانت أعين الشيخ تطل من خلف عدسة نظارته ملقية بإشعاعات لم أكن أتصوَّر وجودها فى مسلم يعيش العِقْدَ الأخير من القرن الفائت، وكأنها تعلن هزيمة المادة.

• هناك العديد من الظواهر الخطرة التى اجتاحت بعض الفئات الاجتماعية وأولها الشباب.. ماذا يمكن أن يقدِّم الشيخ الغزالى من كلمة يمكن أن تنتشل هؤلاء؟

عندما أقارن بين شبابنا وشباب الأمم الأخرى فى أى مجال، أشعر بأن كفتنا تطيش، بينما كفة الآخرين أرجح، والسبب أننا اتخذنا العلم أشبه ما يكون بالورق اللاصق على جدران سيئة المنظر. شبابنا جميعًا يحتاجون للرُّوح الإسلامية التى تبعث على التنافس فى الخير، فبدلًا من الركود النفسى الموجود الآن يتجه للدين، فهو قبل كل شىء عاطفة حارة فى الوجدان وقلب نقى ثم كفاية عقلية معناها أن النية الصالحة لا تغطى القصور العملى، وما أتمناه أن يُثبت شبابنا للعالم الأوروبى قبل العربى أن المصرى ليس كثرةً نوعية، بل هو كثرة فى المواهب والقيمة الإنتاجية؛ فظاهرة هجرة العقول تؤكد نجاح المصرى فى الخارج وإخفاقه فى بلده، وهو فى هذا مثل الكاوتشوك؛ ممكن أن تمده فيمتد، وحين تتركه يصبح شبرًا، فهذا التذبذب بين المستويين خطر على الأمة.

لماذا التقصير والمصرى ذكى وعنصره جيد؟ إنه لا بُدَّ من إعادة النظر فى الطريقة التى تتكون بها الكفايات فى مصر، ونحن لا نطلب مستحيلًا؛ فما دام المستوى يرتفع حينًا وينخفض حينًا، فمعنى هذا أنه قادر، وأن الارتفاع عنده ليس شذوذًا، بل هو شىء عادى، وعلى ذلك فإن كنت أتَّهم شبابنا بالبلادة، فأنا أيضًا أتهم البيئة والأوضاع المحيطة التى أعتبرها معوقة ولا تُحسن احترام أو مكافأة من يستحق! فإسرائيل الآن شبابها يصنع العجائب، مع أن الأرض هناك لا تتسع للملايين التى جاءت، ولكنه يريد أن يكابر القدر، وأن يجعل من الحياة هناك دولة واحدة ترجح فى كفايتها المادية والأدبية والسياسية والعسكرية إحدى وعشرين دولة عربية! فكيف نقبل هذا على أنفسنا ونحن

أصحاب غيرة على ديننا ووطننا وحاضرنا ومُسْتَقْبَلنا، على شبابنا أن يكون جادًّا مؤمنًا بربه يخدم بلده ويرعى حاضرها ومُسْتَقْبَلها، ويعلم أن الحياة سباق مُرٌّ وشاق، والذى يتخلف فيه لن يكون له نصيب إلا فى أودية الفناء والهلاك.

• لكن ماذا عما يسود الساحة من تيارات متصارعة وعن المسافة الواسعة بين جوهر الدين وما يدور برؤوس الشباب ويجعلهم يجرِّمون الواقع ويكفرونه؟

لا شك أن الأمة الإسلامية بكل فئاتها وطوائفها الآن دون المستوى الذى يرشحها له انتماؤها للإسلام، فالإسلام دين يقوم بطبيعته على الحوار العقلى المنهجى وعلى تبادل الأفكار دون أن يُهمل الرأى الآخر أو يتجهم به، بل يعترف به ويدخل معه فى أخذ ورَدّ، فنحن باسم الإسلام نبحث عن البرهان، ونحتكم إلى الدليل ولا نلجأ إلى العصا، ولا نعرف القسوة والحدة فى معاملة الرأى الآخر، بل نترك له الحرية لكى ينفس عن نفسه فى ميدان الجدل الحر وبسط الآراء وطرحها ونقدها والتنقيب عما فيها من خير وشر قبل القبول أو الرفض.. والإسلام ذاته قال: فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)13(، لكن يبقى بعد ذلك لو أن هذا الكافر مضى فى طريقه دون أن تكون له صلة بى، فيجب ألّا تكون لى صلة به، فلا أعترضه أو أعكر صفوه، لكن إذا اعتدى هو علىَّ وحاول إنقاص قدرى واحتقار دينى لا بُدَّ أن أواجه الموقف بلون آخر من السلوك لا يزيد عن كَفِّ شره عنى.

أما عن هذه المسافة الواسعة بين جوهر الدين الإسلامى وما يدور برؤوس شبابنا من تكفير الناس وتجريم للواقع، فإن تكفير الناس أمر سهل؛ لأنه وظيفة العجزة الذين لا يقصدون إلا الهدم فى محاولة لطمس الحقائق ونقل الحوار من الفِكْر إلى الصراع أو القتال، فليس هذا هو منهج الإسلام من قريب أو بعيد، كما أنه لا يمثل الحضارة المحترمة، ولا ما يجب أن يسود بين الناس من رؤية معتدلة؛ لأن الدين أساسًا قلب يحتكم إلى الفطرة النقية، وعقل سليم يحتكم إلى المنطق، فإذا فسدت هذه الفطرة أو ضعفت هذه الحجة ابتعد الفرد عن الدين الصحيح الذى هو بناء حقيقى داخل النفس البشرية. فالفهم الفارغ من المعرفة لا بُدَّ أن يُملأ بالمعرفة، لأن الذى يفهم كيف يسير فى الطريق المعوجة يجب أن يتعلم كيف يسير على الصراط المستقيم أو على المنهج الإسلامى الذى يحتاج إلى مدة طويلة لاستيعابه وتشربه؛ من أجل تربية النفس وإبعادها عن الأهواء والشهوات والدنايا، وكل ذلك لا شك يستغرق أمدًا طويلًا وليس أمر استعجال أو أمر ادعاء، بل إن بلوغ الكمال النفسى قد يأخذ أمدًا أطول من بلوغ الكمال العلمى، ولكن شبابنا للأسف الشديد عجزوا عن التجاوب مع تعاليم الإسلام، فبدلًا من أن يقضوا الأيام والأعوام فى صقل معارفهم وتهذيب أخلاقهم والتقرب إلى الله بحسن النية وسهولة الطبع نراهم يمشون فى طريق أخرى، النتيجة أنهم أساءوا إلى أنفسهم كما أساءوا إلى الدين على حد سواء.

إن عدم فهم الإسلام على وجهه الصحيح من خلال فهم آليات النص القرآنى هى شكوى قديمة، وفى رأيى أن المسلمين كانوا دائمًا بين رجلين؛ رجل تجرد عن الدين وأخلص للدنيا وأسلم زمامه لها، ورجل تديَّن تدينًا جاهلًا جعله لا يحسن العمل بدينه ولا الاستفادة منه ولا تطويع الحياة لمبادئه ولا خدمة الحياة بقيم الإسلام الرفيعة، ولا بُدَّ أن نذكر أن العرب عندما سادوا العالم لم يسودوه... بجاهليتهم بل سادوه بالفهم الواعى للإسلام، وبالتالى كانت هذه الأمة مثلًا رائعًا فيما يتصل بمسألة حقوق الإنسان وكرامات الشعوب، وانظر إلى تلك الحقوق التى تبنتها الأمم الأوروبية والغرب كله، انظر إلى هذه الحقوق فلن تجدها إلا حبرًا على ورق، وأقصد أنها جعلت الإنسان كأنه ترس فى آلة، له حقوق لكن عليه قبلها واجبات مجتمعية لا يستطيع أن ينفذ منها إلى هذه الحقوق! لذلك أقول إننا لا بُدَّ أن نعود لنفس المستوى العلمى الأول لأجدادنا؛ حتى يمكن أن نكون أهلًا للتَقَدُّم والصدارة، لكن فى ظل أدوات ومعطيات العصر؛ لأن الوسائل تغيرت كمًّا وكيفًا، فالفِكْرَة التى كانت تنتقل من مكان لمكان وتأخذ شهورًا طويلة هى الآن لا تأخذ فى نقلها أكثر من خمس ثوان!

من المؤسف أن القوى العاملة عندنا فى الحقل الإسلامى لا ينتهى لها خلاف ولا تشى أحوالها بوحدة قريبة، مع أن الخصوم ارتفعوا فوق منازعاتهم ويحسنون نسيانها فى مواجهة أى محنة. وأتصور أن فَقْدَ المعرفة وراء هذه الفُرقة؛ فلا يزال شبابنا لا يرون من تعاليم الإسلام إلا النذر اليسير، ثم يغالون بما عرفوا على تفاهته ويحتقرون ما جهلوا على نفاسته وينطلقون فى الدنيا مخرِّبين لا معمرين ومفرِّقين لا مجمِّعين، أقول إن فقر المعرفة، وراء جملة من الرذائل، ووراء صدوع كثيرة عانت منها الأمة قديمًا وتعانى منها حديثًا... ولقد رأيت البعض يغالى بأمور لا تساوى شيئًا، العلم بها لا ينفع، والجهل بها لا يضر، أى أنهم يقدمون النوافل على الأركان ويهتمون بما لا يضير فقدانه الدين والدنيا، إننا على أية حال لا نرى بُدًّا من إحقاق الحق وإبطال الباطل ومطاردة الشواذ والغلاة حتى تستوى الصفوف وتجتمع الكلمة، فلا قيام لدين فقد دنياه وتجمدت أجهزته التى يحيا بها، ويستحيل أن ينتصر دين لا دنيا له ولا صناعة ولا حضارة ولا اقتصاد ولا إدارة ولا سياسة أو هيمنة، ومن هنا فعلى أجيالنا الحاضرة من المسلمين أن يدركوا ذلك إدراك اليقين، فلن يرتفع لهم لواء إذا بقوا مهملين فى دنيا طوعت كل شىء لخدمة مآربها وغاياتها، فالنبال القديمة أصبحت صواريخ تعبر القارات، والزوارق القديمة أصبحت غواصات وبوارج تحمل الطائرات.

• لكن ترى ما هو السبيل لمواجهة عاجلة تعيد الشباب بكل طوائفه إلى نقطة تلاقٍ وكيف ترى مسئولية علماء الإسلام فى ذلك؟

من رأيى أن الحكومات لا تستطيع أن تقوم بهذا، وإنما لا بُدَّ أن تقوم به جماعات تعمل من أجل التربية ولا تشتغل بطلب الحكم أو السياسة التى يُراد

بها نفع فئة أو حزب معين... الأمر يحتاج منا إلى منهج آخر غير الذى تعرفه أمتنا، ويمكن أن أسميه منهج التربية الشعبية، ومن الخير أن يقوم به أناس وهبوا أنفسهم لله وطلبوا خدمة المثل العليا بطريق التطوع والفدائية، فكما يقول محمد عبده: إن الفساد يهبط من أعلى إلى أدنى أما الإصلاح فيبدأ من أدنى إلى أعلى، وإذا كنت أنادى بإصلاح الجماهير فإن هذا يبدأ بإصلاح النفس الإنسانية، وهذا مسلك الأنبياء؛ فالأنبياء لم يظهروا ليثبوا على الحكم ويستغلوه لمصلحتهم أو مصلحة دعاواهم ورسالتهم بل بدأوا بتربية الجماهير والأفراد، فلما اتسعت القاعدة التى ينتشر الإصلاح فيها بدأ الإصلاح يتسلل منها إلى أعلى فشملت القاعدة كل الكيان وبلغت القمة؛ لأن كل نهضة تتجاهل بناء الإنسان فهى تبنى على هباء أو على رمال. ولا شك أن هناك تقصيرًا واضحًا وملحوظًا من قِبَلِ علماء الإسلام، لكن هذا التقصير من الأمانة ألا نحمِّلهم مسئوليته وحدهم.

• وعلى ذلك ماذا أنت قائل للشباب المسلم؟

أقول لهم كُفُّوا عن التشديد على أنفسكم وعلى الناس، فالناس فى زماننا هذا يحملون على أكتافهم همومًا كثيرة فلا تضيفوا إليها باسم الإسلام همومًا جديدة واذكروا أن الإسلام لم يكن أبدًا -وما أراد له ربه أن يكون- مشقة وعسرًا.. لم يكن صرامة ولا جهامة ولا محاربة للاستمتاع بالحياة، وحذار أن تكابروا فى هذا، وأن يحوِّل بعض الدعاة بداوتهم أو جفوة طباعهم أو ضيق صدورهم إلى دين يُلزمون به الناس؛ لأن الإسلام فطرة تأبى التكلف، والإيمان دراسة للكون تورث معرفة الله، والجهاد عمل فى الكون لإعلاء كلمة الله والأرض كلها محراب لمن شاء أن يعبد.

• أوضاع المرأة بين الحداثة والموروث.. هل من سبيل لنظرة توفيقية تنويرية؟

بصفة عامة، أوضاع المرأة لا تعجبنى فى الحالين؛ فقديمًا كانت ميتة داخل البيت وإن كانت تحسن الحضانة والرضاعة والتربية، وتمنح دفء العاطفة للأجيال الناشئة، كما أنها كانت أقرب إلى الصدق مع زوجها وأضبط للأخلاق وأصون للمروءة، كما أنها كانت منتجة، ولكن ما آخذه عليها أنها كانت عبئًا على الحياة، بل عبئًا على أولادها الذين ينظرون إليها باستهانة لأنها ليست مثقفة أو متعلمة، وإن كان فى مستطاع المرأة أن تعطى أكثر وأكثر حتى تصبح وزيرة.

والآن أعيب على الزوجات المتفرنجات اللاتى يأخذن من أوروبا مظهرها فى السباق الغريب للأزياء ويتركن أولادهن فى دور الحضانة دون قدر من التربية الواعية والحنان الطبيعى. إن التى تعيش فى العالم الثالث كيف يكون تفكيرها مقصورًا على ارتداء ملابس الباريسيات! لماذا ننقل عن أوروبا دون أن نفكِّر فى الفروق المجتمعية بيننا وبينهم؟ ولماذا لا نأخذ إلا هذه الصور؟

وهناك المرأة تستحى أن تكون مقصرة أو عاطلة. أريد للمرأة عندنا أن يكون لها فى واقع الحياة نصيب بل فاعلية كبيرة.
وبصفة عامة، فالمرأة الآن لا يسرنى موقفها كثيرًا، لأسباب متعددة ومتنوعة، منها أنها يجب أن تنطلق لتصبح كالمرأة اليابانية التى استفادت من الحضارة الأوروبية وما بها من تَقَدُّم علمى وتكنولوجى، ولكنها بقيت رغم ذلك على تقاليدها وتصون بيتها وتربى أولادها، وتغرس فيهم المبادئ التى تريدها، ويكفى أن أشير هنا إلى أن الشعب اليابانى يرى أن الشعب الأمريكى كسول إزاء هذه الشئون، ومن هنا كنا نتمنى لو أن النهضة شملت الأمة العربية والمصرية على وجه الخصوص، وبدأت بالتربية النفسية وإحياء التقاليد القومية وإعادة بناء الأمة على قواعدها الأولى، أقول إنه لا ينبغى أن نقلِّد الغرب تقليدًا ممسوخًا لا يتفق مع مبادئنا وقيمنا ومثلنا ولا يبنى أمة تمثل المرأة نصف كيانها... إذن فالنموذج الذى أطلبه هو النموذج الإسلامى الذى يحقق الأصالة الفِكْرية والتاريخية ويقيم أو يخلق رُوح المُعَاصِرَة، وحين يقول أحد بأن تحقيق هذا النموذج صعب أقول لماذا؟ والنموذج اليابانى تحقق وانتفعت اليابان بأوروبا حضاريًّا وصناعيًّا ولكنها بقيت على أصالتها.
• معركة العلم والدين لا تزال مستمرة ومجسَّدة فى بعض مستحدثات العلم التى يعتقد البعض أن لا مكان لها فى الإسلام ومن هنا تضعف الثقة بهذا الدين، فما هو انطباعك عما يسمى بالصراع المُسْتَقْبَلِىّ بينهما؟
الحقيقة أنه لا توجد قضية قال بها العلم ولم يقل بها الدين؛ فكل قطعى فى الدين يواقع قطعى فى العلم، وإذا كان هناك مخالفة فإنها تكون نتيجة خطأ فى الفهم ممثَّلًا فى الظن أن شيئًا ما دينٌ وهو ليس بدين، أو ظنًّا أن شيئًا ما علم وهو ليس بعلم. وبصفة عامة الخلاف بين الدين والعلم لا وجود له إلا فى الأمور الظنية، وإلا فأين هى القضايا التى وفد بها العلم الحديث دون أن تحسم إشْكَالِيَّاتها. أنا لا أميل بالإسلام للنَظَرِيَّات؛ لأنها تخطئ وتصيب، وإنما أفسر القرآن بالقطعيات، فإذا كان هناك قطعى يستحيل أن يكون بينه وبين الدين خلاف؛ لأنه ليس هناك خلاف بين صحيح العقل وصريح النقل، كما أنه على الفقهاء مواكبة مَسِيرَة العلم الحديث.
• للدكتور رشدى فكَّار مقولة شهيرة يؤكد خلالها أن الحضارة الغربية هى حضارة الأزمة وأزمة الحضارة، ونرى بالفعل أنها حضارة الأزمة لأنها شتتت أوصال التاريخ البشرى وكذلك هى أزمة الحضارة لأنها أنتجت ضبابية المُسْتَقْبَل؟
د. رشدى فكَّار رجل واسع الفِكْر حاسم فى قضاياه، ومقولته هذه لم يبعد بها عن الصواب، بل الحقيقة أن هذه الحضارة لها وعليها، قد تكون تَقَدُّمت علميًّا ولكنها تأخرت أخلاقيًّا ونفسيًّا؛ فلا يزال الجنس الأبيض يرى أنه سيد الأجناس، ولا تزال التعصبات الدينية ضد الإسلام قائمة، بل لا تزال أوروبا منحلَّة وصلتها بالدين هى أيام الآحاد والأعياد، وعلاقتها بالمسيحية مفتعلة وغير صحيحة،

واليهودية كدين انتهت وتحولت لجنسية عمياء يشوبها الحِقْد، مما جعل اليهود مكروهين فى أوروبا وأمريكا؛ لأنهم لم يقدموا صورة دينية محترمة يحس الناس أنهم أخذوا منها جانبًا من الروحانية وآخر للإشباع الوجدانى فضلًا عن جانب العقل البشرى.
أما عن حضارة الأزمة فأنا أرى أنه يقصد بذلك أن الحضارة المنتصرة تصنع الأزمات، بمعنى أنها إلى الآن لم تحل مشكلاتها الداخلية، التى يتمثل بعض منها فى امتهان المرأة، أما مشكلاتها الخارجية مع الشرق فهى قائمة، والعالم الثالث لا يزال مستَنْزَفًا ومستغَلًّا... بحقٍّ إنها حضارة الأزمة؛ لأنها لم تحقِّقْ للإنسان الاستقرار الكامل والطمأنينة، بدليل أن إحصائيات ومعدلات الانتحار فى أوروبا آخذة فى الارتفاع باستمرار.
إن الأوروبى خير له أن يعود إلى أديانه التى ورثها؛ فربما لو تبع "عيسى" برقته ودستوره الأخلاقى الذى تمثله بعض كلماته حين قال:)لا تنظروا للناس كأنكم أرباب، ولكن انظروا إلى أعمالهم كأنكم عبيد(إن محمدًا وموسى وعيسى هم القادة الحقيقيون للفِكْر الإنسانى والقادة الحقيقيون للعاطفة الرقيقة والمثل العليا، فإن أوروبا تعانى من وثنية موروثة من الرومان والإغريق وليست مسيحية كما يدَعون، وعلى ما قلت فهذه الحضارة أفْلَسَتْ بقدر ما أنجزت، فإن كانت قدمت اختراعات كثيرة ورفَّهت المعيشة وجعلتنى أركب سيارة وطيارة فإنها أفلست من ناحية أخرى؛ حيث أشقتْ أعصابنا ومشاعرنا الإنسانية وأراحت أجسامنا، وهذا نوع من الفشل المحقَّق!
• ماذا عن تصورك لدور الغرب فى التعامل المغلوط مع الإسلام وما ترتب على ذلك من انعكاسات سياسية واجتماعية؟
الغرب للأسف الشديد يكره الإسلام من أعماق قلبه، ويحاول تصوير الأمة الإسلامية على أنها تتاجر أو تقامر بحياتها، فلو كان مستواها المعيشى أفضل ما فكرت فى جهاد أو استشهاد، وهذا كلام ينفرد الأوروبيون بتوجيهه إلينا، والحقيقة أن الأمة الإسلامية مظلومة، وأن الأوروبيين أساءوا إليها كثيرًا كما أساءوا إلى العالم كثيرًا أيضًا، وأنا هنا أذكر كلمة لغاندى حين قيل له: كم تحتاج من الزمن لكى تجعل الهند فى مستوى المعيشة الإنجليزية؟ فسكت ثم قال: إن بلوغ الإنجليز هذا المستوى فى معيشتهم تم على إفقار سكان هذا الكوكب والهبوط بمستواهم المعيشى، وبذلك يكون السؤال كم تحتاج الهند من الوقت حتى تُفقر أهل إنجلترا وتذلهم وتخفض مستواهم حتى يرتفع مستوى الهنود المعيشى... أقول إن الأوروبيين نموا على حسابنا ولا يزالون أنانيين لا يفكرون إلا فى أنفسهم. وأنا لا أستغرب اشتغال المستشرقين بمحاربة الإسلام لأنهم جزء من العالم الأوروبى الذى لا يزال يحيا بعاطفة "بطرس الناسك" وحِقْده على الإسلام وهياجه الذى حرك به الهمج، العالم الأوروبى لا يزال يحيا بهذه النَّظَرِيَّة، وبالتالى فلا بأس عليهم إطلاقًا أن ينظروا إلى التاريخ الإسلامى بمنظار أسود وبلونون أحداثه -بدءًا من السيرة النبوية

حتى يومنا هذا-، لذا فعلمهم متهم ومشوب بأخلاط كثيرة لا يمكن احترامها. ونحن نريد العقل الحر والنقد النزيه ونقبل أن نُتَّهَمَ بالخطأ مادام هناك الدليل على ذلك.

إن الإسلام فى معركته مع المستشرقين ليس هو المدين، لكن المسلم وقد تخلف فى إسلامه يريد أن يسقط على الإسلام ذلك فيجعله يتخلف، ويحاول أن يطرح بديلًا للإسلام الشامل الكامل القادر المنقذ للكون من مذاهب أخرى يمليها عليه خصوم عصره ثم يقولون له:)أين أنت بين الأمم؟(لا شىء... إذن أنت الإسلام المتخلف... وهم يعلمون يقينًا أنه متخلف بذاته ولكنهم يحاولون أن يقنعوه بأن يعمم تخلفه هذا على إسلامه حتى يضيعوا على الأجيال القادمة فرصة الإنقاذ باسم الإسلام، بمعنى أنهم لا يكتفون بدفنه بذاته وإنما يتطلعون عبثًا إلى دفن الإسلام معه فى قبره.

• كيف يمكن استعادة الطبيعة الإيمانية للشخصية المصرية فى ظل انتشار مجموعة من الأمراض الاجتماعية كالكذب والغش والسرقة والأنانية والفوضوية، التى ائتلفتها هذه الشخصية وأصبحت مكونًا أساسيًّا فيها؟

نهضة الإسلام يمكن أن تقوم على أكتاف الشباب كما قامت من قبل، فهو الخيال الواسع والحماس المشتعل بل هو القوة بين ضعفين ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة، كما أنه لا بُدَّ أن تعود التنشئة الإسلامية بطبيعتها الأولى ويسود المناخ الدينى، فهذه التنشئة مطلوبة لإعادة الصلة بين البيت والمدرسة؛ فالتعاون كان بشكل غير عادى فى العصر القديم حيث كان المجتمع متماسكًا فأصبح هذا التعاون مفقودًا الآن.

وللأسف كل خلائق النفاق استشرت فى مجتمعنا، بما يعطى مؤشرًا بالوقـوع فى الهاوية، فكيف يصـبح الكذب والغدر والخيـانة والفجور خلقًا لمجتمـع إسلامى؟ لهذا يجب أن نعود بالتربية إلى توضيح هذه المعانى وإذا كان الرسول بُعث ليتمم مكارم الأخلاق فكيف تكون أمته نموذجًا سيئًا للأخلاق الرديئة والتصرفات السلبية؟!.

بحق نحن نعيش فى عصر انهزام القيم الإسلامية، ولكن هذا الانهزام ليس شاملًا؛ فلا تزال كتلة الأمة سليمة ومعنى سلامتها أنها تنقاد للحق عندما تعرفه، وتخجل من الجريمة عندما تقع. فى أمتنا بقايا خير؛ لأنها لا تحب أن تُعرف بالشر وتكره أن توصف به، فالضمير لا يزال حيًّا.

ومهمتى كداعية تنمية هذه العاطفة وجعل الخير الموجود فى ناحية يمتد ليشمل بقية النواحى، فالإحساس الدينى لا يزال قائمًا رغم كل الأمراض الاجتماعية والاضطراب الأخلاقى اللذين بعدنا بهما عن الإسلام إلى حد ما، فلا يزال للدين قيمة كبرى فى نفس المؤمن والفاسق أيضًا! والذين ينادون بفِكْرَة قيام الدولة الدينية، أقول إنها لا تجئ إلا نتيجة مقدمات تسبقها أهمها التربية النفسية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية، فإذا لم تكن هذه الطبيعة

موجودة فى الناس والمجتمع وبقية أركان الأمة فلو أنك أقمت حكمًا اسلاميًّا على هذا الفراغ فإنه لا شك سيكون حكمًا كاذبًا.
• تتعدد المنظورات للدين فى ظل سِيَادَة التيار الأصولى، فمتى يصبح الدين يقظة ومتى يصبح الدين غفلة؟
الدين أفيون الشعوب عند بعض الناس الذين يتصورون القضاء والقدر على أنه جبرية، فهنا يكون الخير تخديرًا للشعوب، لكن عندما نفهم أن التوكل على الله إنما يكون مع الأخذ بقانون السببية واحترام هذا القانون فى كل شىء، فإن الدين عندئذ يكون منبهًا لا مخدرًا، ولا يكون استكانة؛ بل يكون ثَوْرَة إصلاح وحركة عمران، كما أن الجمود العقلى والوقوف على القشور دون اللباب أعتبرها أمراضًا، ودائمًا الأديان عندما تفسد فهى تفسد بأن تتحول الحقائق فيها إلى مظاهر، والجواهر إلى صور، إضافة إلى أن اللعب بالنصوص وتحريفها نوع من إفساد المعنى الدينى.
• يقال إن هـموم العالم العربى والإسلامى كثيرة وكبيرة وطريق النهضة مملوء بالألغام والأشواك.. فكيف ترى ذلك؟
هموم العالم العربى والإسلامى فوق الحصر؛ لأنه ماديًّا وأدبيًّا ومدنيًّا وعسكريًّا عالم متعب، وقد استطاعت دويلة كإسرائيل، عدد سكانها لا يتجاوز ثلاثة ملايين، أن تهزم نحو ما يزيد على مائة مليون عربى، لتفرض نفسها على مليار من العالم الإسلامى أو أكثر، والسبب فى هذا أمور شتى منها أن العقيدة قد أخذت مجرى غير مجرى تحويل قوى الشعوب ضد الأعداء، فأصبح الناس يكره بعضهم بعضًا، ويهدم بعضهم بعضًا، ويتركون عدوَّهم دون أن يحاولوا النيل منه، ولا تزال الفرقة بين الشعوب العربية موجودة، وأنا أشعر بحزن عندما أجد ضراوة نحو الإقبال على الحكم وطلب السُّلْطَة، فالأمة الإسلامية همومها كثيرة، ولا يملأ فراغها النفسى إيمان، ولا يملأ فراغها العقلى حضارة، ولا بُدَّ أن تعود إلى أصلها وتعرف الطريق الذى مشى فيه الأذكياء الأقوياء حتى تكون مثلهم.
إن الغفلة لو لم تشغل الأمة الإسلامية لما أصبحت فى دائرة العالم الثالث، وإن كانت تريد الخروج إلى دائرة العالم الأول فلا بُدَّ أن تعود أدراجها إلى حياة أسلافها الأولين، فقد ظل المسلمون حوالى ألف عام هم العالم الأول، ولم تستطع أوروبا أن تتحرك إلى الأمام إلا بعد أن أخذنا نحن خطوات للوراء، والسؤال الآن هو: هل اقترب المسلمون من القاع خلال تاريخهم الطويل مثلما اقتربوا منه هذه الأيام؟ إن اليهود أسَروا المسجد الأقصى، وبين الحين والحين تذهب أفواج منهم لإقامة الشعائر اليهودية به، إذ إن الخطة المرسومة أن يهدموه ليبنوا عليه هيكل سليمان، والحق يقال إن المسلمين نيام ويُخشى أن يستيقظوا من رقادهم على فاجعة، ومن هنا فالواجب علينا أن نكشف هذه الأوضاع، منبهين إلى نتائجها اليوم وغدًا.

إن لمعركة الخبز ضجيجًا يصم الأسماع، والشعوب العابدة لرغيفها سوف تموت دونه، وعلينا أن نوقظ الهمم إلى المعركة الأقسى، معركة الأرض والعرض.. معركة الأرض والسماء.. معركة الإسلام الذى يترنح من تتابع الضربات على كيانه!

• قد يقول قائل لا تتشاءم فأمتنا بخير.. ألا ترى كيف تزول الشيوعية لهزائم تافهة نزلت بها بينما شعوبنا تتحمل أقسى الآلام لتنسى دينها وتاريخها وهى مثابرة ترفض النسيان وتجاهر بإيمانها الصبور... فما رأيك؟

نعم.. إن معادن صلبة لا تزال تلمع فى تراب الهزيمة، وأمتنا حقًّا لم تفقد صلاحيتها للبقاء والنفع، لكن أيام الجد طلع فجرها، ولا مكان لاسترخاء أو كسل، وحرارة الولاء والانتماء لها دخل كبير فى دوران المعركة وبلوغ نتائجها، فمن المستنكر أن يكون غيرُنا صادق الانتماء لعقيدته عالى الصياح بها، على حين نرى مسلمين فى ولائهم لدينهم غش، وفى انتمائهم إليه خفوت، ومن هنا فضعف الإيمان بالحق ينهزم أمام قوة الإيمان بالباطل لا محالة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

)13((الكهف: 29)

نصر أبو زيد.. فهم النص بالحياة لا فهم الحياة بالنص

كان لاسمه بريق باهت لدى العامة، كأنه طائف من الشيطان، وكان لأفكاره انطلاقة السهم فى رؤوس الخاصة، كأنها فيض ملائكى مقدس... تباينت حوله المواقف والرؤى، اشتدت حوله العواصف التى ترميه بالكفر، ودافعت عنه أقلام نزيهة رفعته إلى مصاف رواد حركة التنوير، وأقلام مشبوهة تريد أن تحفظ لذاتها شيئًا من شرف وكرامة بالدخول فى معركة ثَقَافِيَّة تبدِّد بها ما حام حولها من شكوك ومظان. أردتُ استجلاء الحقيقة.. هرولت إليه.. ضَمَّنَا مقهى صغير بالجيزة.. صدمتْنى أفكاره.. ليس لقوّتها أو ضعفها؛ وإنما لكونها تُعَدُّ من بقايا وأطلال التُّرَاث، وقد حاول صاحبها توظيف المناهج النقدية المُعَاصِرَة على النص الدينى انطلاقًا من مبدأ تاريخية هذا النص، لكن دون يقين بصلاحية هذه المناهج لموضوع البحث والتفكير، لكن التَّقَدُّميين أرادوا بها تعطيل قدسية النص الدينى، ناقشته وجادلته وعارضته... تجلّت لى خيوط إلحادية تجاهلتُها، كان ظنه أن حديثى سينطلق من توجُّه أصولى يعتمد الحجة الإسلامية منهجًا، لكننى اعتصمت بالمنطق المجرد؛ لأنه يمثِّل القاسمَ المشترك بيننا، والذى تبرزُ خلاله شراسة الخصوم، تبرَّم كثيرًا بعد أن تبدَّتْ له منى طاقة لغوية وفِكْرية أشار إليها، لكنه لم يتحسَّبْ لها، سألنى: أى جامعة تخرجت فيها؟ وما هو موقع العربية منك؟ احتشدت وقبل أن أجيب لاحت فى ذهنه تصورات أقربها أنها علاقة عشق وغرام وليست علاقة شهادة وتخصص، وقد ظل اللقاء حافلًا ثريًّا خصبًا، لم يَتَمَلْمَلْ أحدنا بعد أن ظللنا طيلة ثلاث ساعات فى أخذ ورَدّ، اكتنفته خشونة اللفظ وحدة المعنى وعنف التواجه وحرج التساؤلات، لكنه انتهى إلى صداقة لا تدعمها أو تشدها أواصر الماضى، لكن يدفعها الشغف فى اقتحام الآخر ثانية، وقد ظلَّت نفسى معلقة بقناعات تتحسس الدلائل والاستشهادات، وتقتفى مسار المنطق إلى أن احتدمت الأمور وبلغت طورًا طاشت فيه الحقائق حين حجبت درجة الأستاذية عن د. نصر أبو زيد؛ نظرًا لأنه تجاهل فى أبحاثه ومؤلفاته ما هو معلوم من الدين بالضرورة، وقد ضجَّت الساحة الثَّقَافِيَّة بذلك الحدث، وانبرى العلمانيون للهجوم على لجنة الترقية واتِّهَامها بالرَّجْعِيَّة والتخلف، ورغم أنى لم أكن يومًا متفقا مع رؤى د. نصر وتوجهاته، فإننى كنت احمل فى نفسى إدانةً كبرى للجنة، انطلاقًا من أن معايير تقييم العلم لا تخضع لسلطة الدين، كما أن الخضوع لهذه السُّلْطَة أو الانفلات منها لا يشير بحال إلى صحة العلم أو خطأه، وبذلك منحت اللجنة د.نصر وأشياعه صكوك المناوأة والتنديد والتشهير والتعريض بها وإلصاق كافة اتِّهَامات البربرية الدينية والرَّجْعِيَّة الحضارية.

ولم يطل أمد ذلك حتى جاءت الصفعة المدوية من لندن تحمل قولًا فصلًا تلفُّه غيرة حميمة تنتصر لشرف العلم وقدسية الدين معًا... صفعة تجلت معها بشاعات الخيانة والتآمر والادعاء حين أعلن الكاتب الكبير جلال كشك فى

مقالاتٍ عشر جاءت تحت عنوان)فضيحة المعلم نصر(أفصح خلالها عن أهون الخطايا العلمية وأفدحها، إذ أكد أن كل ما جاء من مراجع فى بحث د.نصر لا علاقة له بالمادة العلمية المكتوبة على الإطلاق، وهو ما يعنى انعدام القيمة العلمية واستشراء الفساد الأكاديمى وغياب الضمير الأخلاقى.
تلك كانت نهاية أسطورة أعلى من شأنها الكثير إلى أن فضح كشك تفصيلاتها، منتويًا استكمال مشروع هدمها، ولما حانت فرصة المناظرة فى)مونت كارلو(لم يكن منه إلا أن قام بتشريح الوهم وإسقاط الصنم والانقضاض على الجانى، وذلك فى ثَوْرَة جنونية أول وآخر آثارها الموت!! وقد ألقى ذلك دروسًا وحِكَمًا وعِبَرًا لا تُحصى ولا تُنسى ولا يتمنى كاتب هذه السطور أن يبرأ منها على مر الأيام.
• ما هو تقييمكم للغة الحوار الإسلامى المُعَاصِر فى ظل ما يسودها من جهالات وسطحية وابتذال، وهل أسهم ذلك فى تغييب الجوهر التَّقَدُّمى للإسلام؟
اللغة التى يتحاور بها من يطلقون على أنفسهم اسم الاسلاميين مع الفصائل الاجتماعية والسياسية الأخرى يغلب عليها فى اعتقادى طابع إرهابى؛ لأنهم يتصورون بما أنهم ينطلقون من الإسلام فهم يمتلكون رؤية الحقيقة المطلقة، وبالتالى فهم لا يقبلون أى اختلاف إلا إذا كان فى الفروع والجزئيات، وأنه لا بُدَّ فى أى حوار مع من ينتمى إلى جماعات الإسلام السياسى أن تسلِّم معه بالأطروحات الأساسية لفِكْره، وإذا اختلفت معه فى الأسس فهو لا يقبل الحوار معك، وهذه قضية خطيرة جدًّا؛ لأن هذا معناه أننا لا نقبل الآخر بما هو آخر، وإنما نقبله بشرط أن يسلم بمنطلقاتنا الأساسية، فإذا سلم بهذه المنطلقات انتفت عنه صيغة الغيرية، بل حتى صيغة التعددية التى يطرحها بعض الإسلاميين، فتراهم يتصورون هذه الصيغة فى إطار البرنامج الإسلامى وليس خارجه على الإطلاق!
إذن، التعددية السياسية التى ينطلقون منها تستبعد كل ما هو خارج الخندق الإسلامى، وهنا يغلب على لغة الحوار الإرهاب والقمع الذى نجده واضحًا عند الخطباء والوعاظ وصغار الشباب، بل نجده مستترًا وضمنيًّا فى كتيبات الكبار أو العقلاء أو من يسمون أنفسهم بالمعتدلين. أقول: هذه ليست لغة الحوار أو الخطاب الإسلامى فقط، بل هى لغة الحوار المسيطر على حياتنا العقلية والفِكْرية والسياسية بصفة عامة، لذلك نحن نحتاج إلى لغة حوار حقيقية وليس إلى لغة أمر وطلب إذعان. وهذه اللغة لن تنشأ إلا بإشاعة مناخ من الحرية العقلية والفِكْرية والسياسية، تلك الحرية التى تبدأ بالتسليم بوجود الآخر واحترام خلافه، والتسليم بأن العالم يتسع للجميع وأن المجتمع لا يقوم على فِكْرَة محورية واحدة، وإنما يقوم على تعددية وصراع سلمى بين الأفكار.
لا شك أننا إذا نظرنا إلى التعليمات العامة فى الإسلام، التى تتحدث عن الإقناع والمناقشة، نستطيع أن نجد آيات كثيرة، لكن إذا استندنا إلى النصوص

الدينية فقط فهناك نصوص أخرى تطالب بالإذعان، لذا أتمنى ونحن نؤسس حياتنا العقلية ألا تكون مرجعيتنا هى النصوص؛ لأنك إذا استندت إلى نص وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)14(ستجد من يستند إلى نص وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ)15(، وهذا يذكّرنى بموقفين للإمام "على"؛ حين أرسل ابن عباس ليجادل الخوارج فقال له:)لا تجادلهم بالقرآن فإنه حمَّال أوجه، ولكن جادلهم بالسنة(.

هذا أمر، والأمر الآخر، حين رفع الأمويون المصاحف فوق أسِنَّة السيوف وقالوا لا حكم إلا الله وقال "على":)إن القرآن بين دفتى المصحف لا ينطق، وإنما ينطق به الرجال(، فإذا كان المصحف لا ينطق وحده وإنما ينطق به الرجال، فإن علينا نحن أن نبحث عن عقل الرجل الذى ينطق المصحف والذى يفسره... ومن أجل هذا لا أريد أن نؤسس تعددية الحوار على أساس نصوص دينية؛ لأن الاستناد إلى النصوص دون وَعْى بإشْكَالِيَّة النصوص وبتعددية السياق ومستوياته وأسباب النزول والنسخ يفتح أبواب الخطر.

ويجب حين ننظر إلى النصوص الإسلامية أن نلتفت إلى التاريخ؛ لأن الإسلام ظاهرة تاريخية، ونحن نتحدث عنه كثيرًا باعْتِبَاره ظاهرة مفارقة للتاريخ، بل إن هناك توحيدًا عجيبًا بين الإسلام والمسلمين والتاريخ! أقول: إذا وقفنا عند الإسلام فقط فنحن إذن نقف عند مرحلة تاريخية تجاوزتها حركة البشر، فمثلًا حقوق الإنسان بصرف النظر عن العقيدة هى حقوق وصلت إليها الجماعات البشرية بعيدًا عن الأديان. فالإسلام كإطار مرجعى هو فى حدود الممارسة الدينية وليس خارج هذه الحدود، هو إطار مرجعى بوصفه دينًا، لكن لا أستطيع أن أقرر حقوق الإنسان فقط بالعودة إلى الإسلام؛ لأن هناك مكتسبات إنسانية خارج الأديان لا نستطيع إنكارها.

• فى اطار جغرافيا الفِكْر..هل يمثل التطرف فى فهم النص الدينى مرَجْعِيَّة عقائدية لملامح التطرف الراهن والمتجسدة قولًا وفعلًا فى أغلب الممارسات الحياتية؟

أنا لا أطلق على ما يجرى: التطرف فى فهم النص؛ بل هى ظاهرة فهم النصوص الدينية بشكل خاص.. هى ظاهرة غير منفصلة عن ممارسة الإنسان لفهم النص الدينى للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتَفْسِير النص الدينى وتأويله لا يتمُّ خارج هذا الإطار؛ لأن الإنسان حيوان تاريخى يعيش فى مجتمع له بناء خاص مرتبط بظرف تاريخى وبيئى، وهذا المجتمع ليس وحدة متجانسة، وإنما كل جماعة لها مصالح وتوجهات وأفكار، وأقرب مثال لذلك تلك الخلافات التى نشأت فى المرحلة الأولى من التاريخ الإسلامى بين الأمويين والخوارج والشيعة، فإذا كانت هذه التعددية فى فهم النص الدينى هى تعددية طبيعية.. فمن المتطرف؟ إننى حين أصف فهمًا ما بأنه متطرف فإننى أصفه من موقفى أنا ومن فهمى أنا الذى قد يكون متطرفًا، وبالتالى علينا أن نبتعد عن هذه الصفات السلبية، وواجبنا أن نبحث جميعًا عن فهم

موضوَعْى للنصوص الدينية، فهم يتخلص من تغليب المصالح الاجتماعية والسياسية والشخصية فى تَفْسِير النص، إننى لا أستطيع القول بأن هذا تطرف، وأعتقد أن الشاب الذى يقول بتحريم الفنون مثلًا استنادًا لفهمه لبعض النصوص، مثل "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ" أقول -وإن كنت لا أوافق على هذا التَفْسِير أو هذا الفهم- دعنا نتأمل.. علىَ أى أساس يستند هذا الشاب؟ ولنكن موضوعيين: ما هو الفن الذى يتاح لهذا الشاب أن يراه؟ ما هو تصوره عن الفن؟ إنه الفن الذى يراه بحكم خبرته، لكن حين يكون هناك مجتمع يصبح فيه تعليم الفنون وتذوقها جزءًا من التعليم الأساسى فلا أظن أن هذا الشاب سوف يتسرب إليه ما فهمه؛ لأنه يدين الفن الذى نقدمه له.. فهل نسمى هذا الفهم تطرفًا؟ إننا إذا أطلقنا على ذلك أو وصفناه بذلك فإنها صفة سلبية بها نكون قد تخلصنا من المشكلة برُمَّتِهَا ولم نفهمْها أو نقف على أسبابها، وبالتالى لا نستطيع أن نعالجها. لكن حين يتاح لهذا الشاب أن يرى فنونًا رفيعة يستمتع بها وتتدرب حواسه على تذوُّق تلك الفنون لن يرى هذا التناقض، ولن يمر بالنقلة من الحرام الاجتماعى إلى الحرام الدينى.

إن التطرف كلمة مخدرة لاستبعاد المشكلة ككل بالنسبة لفهم النص الدينى، بل هى كلمة تكتفى بوضع الآخر فى خانة بحيث لا تستطيع أن تتعامل معه... إنه متطرف! إن فهم النص بشكل عام يعد ظاهرة اجتماعية يجب أن نبحث عن أسس خللها أو اتساقها فى البناء الاجتماعى حتى نستطيع أن نتعامل مع ما نسميه تطرفًا. لكن أحدًا لا يسأل لماذا أصبح المتطرف متطرفًا؟ أقول إن هذا هو السؤال الذى لا يُسأل، ولن تنفع فيه لا قوافل دينية أو قوافل توعية؛ لأن التطرف ليس دينيًّا فقط؛ بل إننا نتمتع بكل أشكاله: فهناك التطرف السياسى والاجتماعى والثَّقَافِىّ والمهنى والبيئى. وبالتالى فالرؤية المتطرفة أصبحت جزئية من التكوين العام؛ نتيجة ظروف اجتماعية واقتصادية جسَّدها الخلل فى البناء الاجتماعى الذى أدَّى بدوره إلى خلل فى البناء العقلى.

• ترى ما هى كيفية التعامل إذن مع النص الدينى من وجهة نظر حضارية؟

بداية لا بُدَّ أن ننظر دائمًا إلى النصوص من وجهة نظر حضارية، أى من وجهة نظر اللحظة التى نعيشها، فإذا كانت هذه اللحظة متخلفة فنحن لا نستطيع أن ننظر إلى النص من وجهة نظر مُتَقَدِّمة، وما يدعو للسؤال حقًّا هو: أى لحظة حضارية نعيشها؟ هذا مطلوب تحديده بدقة وبعيدًا عن الآمال الكاذبة. وآليات التعامل مع النص يجب أن تكون هى الآليات العلمية مع أى نص، فالنص الدينى لا يختلف عن النصوص البشرية فى آليات التعامل معه وفهمه بطريقة علمية بما أنه تركيب لغوى. والإيمان بمصدر النص الدينى الإلهى لا يعنى أنه نص مفارق فى تكوينه وبنيته وطرائق إنتاجه للدلالة عن أى نص لغوى آخر، أقول إن النص الدينى يتمتع فى أذهاننا بقداسة دينية وليس بقداسة ترتبط بالتعامل معه علميًّا، وهذه القداسة مرتبطة بالمسلم الذى يؤمن به، لكن

هناك فرقًا بين تقديسه عاطفيًّا وبين فهمه بطريقة علمية، وإن كنا دائمًا نخلط بين العاطفة الدينية والأسس العلمية فى فهمه.
النص الدينى نص لغوى له ملابسات وقوانين تحدد مواصفات إنتاجه وتكونه، فإذا كانت أسباب النزول جزءًا من فهم النص فهذا يعنى أن هناك بُعدًا تاريخيًّا، وربما كان الجهل بهذا البُعد يعوق فهم النص مهما كانت النوايا الدينية حسنة وطاهرة وتؤدى بصاحبها إلى الجنة. أقول إن أسباب النزول والعلاقة المتواترة بين تتالى الآيات وكذلك ترتيب الآيات داخل المصحف وما يرتبط بذلك من السياق لا بُدَّ أن أفهمه؛ وهذه كلها قوانين لغوية لا بُدَّ لكى أدرسها من التسليم بقوانين دراسة النصوص، بدءًا بعلم اللغة فى أحدث إنجازاته العلمية، وليس علم اللغة كما وقف عنده "الجرجانى" الذى انتهى عند القرن الخامس الهجرى.
فنحن نحتاج إلى تأسيس الوَعْى العلمى فى حياتنا قدر ما نحتاج بنفس الدرجة إلى أن نتوجه صوب النصوص اللغوية -ومنها النص الدينى- توجهًا علميًّا قوامه أدوات نقد مرهفة وأدوات تحليل تراعى البناء اللغوى والسياق التاريخى فى تركيبه وكيف تركَّب وعلاقته بأسباب النزول وربط الآية بما قبلها، وهذه المسألة فى جملتها ليست على هذه الدرجة من الخفة والسهولة التى نتصورها، وإذا كنا بصفة عامة عقليات استسهالية على مستوى المهن، فهذا المنطق أخطر بكثير فى فهم النصوص الدينية؛ لأن نتائجه خطيرة لا تجعلنا قادرين على إدارة صراع حقيقى.
• قلت إن التحليل الموضوَعْى مطلوب بعيدًا عن التعاطف الدينى مع النص، والمفترض حين يؤمن الفرد بنص فلا بُدَّ أن يتمثل هذا التعاطف أو جزئية منه، فماذا لو اجتمعت الخاصيتان؟
لا بُدَّ أن تسلم نفسك إلى عالَم النص، أى لا تدخل وأنت مقيَّد بأطر جاهزة؛ حتى لا ندين ما لدينا، فأنا أخشى أن تعوق العواطف الدينية المسلم عن فهم طبيعة النص، فالقارئ الحقيقى هو من يستطيع أن يثير أسئلة وحوارات مع النص بل يدخل معه فى علاقة تكافؤ. ونحن هنا نتكلم عن فهم النص الدينى وتحليله وليس عن التعبد به، فتلك قضية أخرى، إنهما سبيلان؛ واحد لاستهلاك الظاهرة والآخر لفهمها.
• تَرَدِّى الواقع الإسلامى عنوان المعادلة التى يستلزم تَفْسِيرها شرح العلاقة العكسية بين تقلص مساحة العقل واتساع مساحة الخرافة... إلى أى مدى يحتاج هذا الواقع إلى إعادة صياغة المفاهيم الدينية فيه؟
إننا نعيش واقعًا متردِّيًا حقًّا، وليس هو كذلك لأنه إسلامى، لكن بما أنه متردٍّ ففهمنا للإسلام أيضًا متردٍّ، ويجب البحث عن أسباب هذا التردى تاريخيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا وفِكْريًّا وهذا التردى فى رأيى ليس ابن هذه اللحظة التاريخية؛ وإنما هو تراكم لانتكاسات ومحاولات نهوض، كما أنه ليس راجعًا لأسباب إسلامية، أقصد أنه لا يرجع إلى ما يردده البعض من أننا ابتعدنا عن

الإسلام؛ لأننا إذا قلنا ذلك فالحل بسيط ويتحقق بالعودة للإسلام، وفى رأيى أن هذا تبسيط مُخِلٌّ لإشْكَالِيَّة النص والسقوط التى استمرت قرنين من الزمن بل أكثر من ذلك على مستوى العالم العربى والإسلامى.
إن أسباب التدهور مركبة جدًّا جدًّا فى بنية العقل والمجتمع والثَّقَافَة، وكلها تحتاج إلى علوم تدرسها، لكن ما دمنا نتحدث عن فهم النصوص فأعتقد أن الفهم الصحيح للظاهرة الدينية هى فهمها كظاهرة تاريخية ذات سياق، وليست ظاهرة تمثِّل جوهرًا ثابتًا متعاليًا على التاريخ. وهنا نستطيع أن نستنبط مغزاها الآن ولا نقف عند الدلالة التاريخية فقط كنوع من الاستلهام، لأن هذه النصوص مكون أساسى من مكونات ثقافتى، وليست حاكمًا حرفيًّا لحركتى.
إننا يجب ألَّا ننسى أن حركة تطور الثَّقَافَة الإسلامية كانت دائمًا تسير فى ضوء إعادة فهم النص فى ظل المتغيرات التى تحدث فى الواقع الاجتماعى الاسلامى، فلا أستطيع أن أقف عند الحدود الحرفية للمعانى التى كانت ثابتة فى القرن الأول أو الثالث؛ لأن اللغة من طبيعتها التطور، فكيف أتمسك بحرفيات تجاوزها الوَعْى البشرى فى حركته التاريخية، فمثلًا: داخل القرآن شواهد تاريخية تمثلها بعض الآيات فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)16(، أقول هل هذا نص أستطيع أن أتمسك بحرفيته؟ لماذا؟ لأن تطور البشرية ألغى نظام الرِّقِّ، فتحول الحكم إلى شاهد تاريخى لا يمكن تطبيقه. ومن هنا لا بُدَّ أن نعيش لحظتنا التاريخية أولًا، ولا يكون النص هو المحدد لمرحلتى التاريخية بل تكون مرحلتى هى المحددة لفهمى للنص، وما دامت النصوص الدينية فيها جوانب أصبحت شواهد تاريخية فلا أستطيع أن أعيد إنتاجها، ولا أستطيع أن أعيد استخدام أحكامها بدعوى أنها نصوص ثابتة. إذن علىَّ أن أحدد موقفى الحضارى: ماذا أريد لنفسى؟ أريد أن أخرج من عنق زجاجة التبعية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثَّقَافِيَّة والفِكْرية، أريد أن أتحرر من كل ألوان الانحلال، أريد أن أخلق الإنسان الحر، فكيف أفعل ذلك؟ لا بُدَّ أن أقرأ النص الدينى وفى ذهنى هذه اللحظة التاريخية، لكن إذا قلت إننى أقرأ النص لكى أعيد صياغة المجتمع طبقًا لما يقوله النص، فأنا هنا خارج اللحظة التاريخية ومتعارض مع النص الدينى معًا.
• ماذا تقول للكتلة الحائرة بين مقولتين، أولاهـما: ضرورة الأخذ فى النص الدينى بعموم الأسباب وليس بخصوص الألفاظ والآن تشهد الساحة الفِكْرية انقلابًا معرفيًّا لهذه المقولة إلى المقولة النقيض؟
هذه مقولة مثل كل المقولات التُّرَاثية فيها جانب الإنجاز الفِكْرِىّ والعقلى، وتتضمن جانبًا سلبيًّا، وبمعنى أصح فإنها تحتاج إلى إعادة صياغة علمية من منظور ما وصلنا إليه من معرفة فى العصر الحديث، لكن ما معنى المقولة؟ إنها تعنى أن معظم أو كل آيات الأحكام نزلت لأسباب معينة أو مقترنة بوقائع

معينة، والسؤال: هل تتوقف دلالة الآية على السبب الذى نزلت فيه؟ وهل الدلالة جزئية أم عامة؟ وخذ مثلًا: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا)17(الألفاظ عامة وليس هناك بأس من أن تأكل أى شىء، وهذا يتناقض مع تحريم لحم الخنزير والميتة، فهل نتمسك هنا بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟

وبصفة عامة نقول إن هناك آيات لا بُدَّ أن نقف فيها عند خصوص السبب، وآيات نقف فيها عند عموم اللفظ، لكن إذا كانت قضية عموم اللفظ وخصوص السبب هى قضية فقهية قديمة، فقد آن الأوان لأن ننظر إليها من منظور آليات اللغة فى إنتاج الدلالة؛ لأن العموم والخصوص ليست مسألة ألفاظ، ولكن تعدُّد مستويات السياق هو الذى يحدد إذا كانت الدلالة عامة أم خاصة.

أقول إن مقولة القدماء هى صحيحة بشرط ألَّا أقف عندها أو عند حد معرفتهم اللغوية فى عصرهم، بل لا بُدَّ أن أضيف وأستفيد من الدراسات اللغوية الحديثة فى فهم القرآن، وإن كان الاسترشاد بالنصوص دون معرفة سياقها يجعلنا ندخل فى حرب النصوص، ومن أبشع الخطأ أن يتصور كل مسلم يذهب للمسجد أنه قادر على فهم القرآن؛ لأن الفهم ليس مرتبطًا بدرجة التدين، والعلم له أدواته، وليس "دروشة"، بما فى ذلك العلم بالقرآن.

الإسلام جزء من تكويننا وليس شيئًا خارجًا عنا نستدعيه ليحدث فينا صحوة، وإذا كنا نحتاج إلى صحوة حقيقية فليس بالضرورة أن تكون هذه الصحوة إسلامية، ولكن صحوة على جميع المستويات، ومن ضمنها ستكون الصحوة فى فهمنا للإسلام؛ فلسنا الآن خير أمة أخرجت للناس، ولسنا جنسًا متميزًا عن باقى الأجناس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

)14( )النحل: 125(
)15( )البقرة: 191(
)16( )النساء: 3(
)17( )المائدة: 93(

فرج فودة.. العقيدة والواقع.. إشْكَالِيَّة مُسْتَقْبَلِيَّة

تظل المصادفة موعدًا خفيًّا ترعاه يد القدر ميلادًا للقاء أو كشفًا لحدث يُحال معرفته، وقد ساقتنى غرائب المصادفة يومًا إلى أن ألقاه حين هممت بالذهاب إلى الجلسة التاريخية لنجيب محفوظ وحرافيشه، وكانت أولى دوافعى هى حاجتى الماسة إلى الصمت والإصغاء بعد ثرثرات طويلة مع أشتات الناس... وجدته منفعلًا حادًّا فى نقاشه، يملك حججًا قوية وبعضًا من أسس المنطق، يشحذ لسانه ويهيئ عقله لحظيًّا لجولة جديدة... هكذا رأيت فرج فودة حين كان محتدًّا على أحد المتأسلمين الأدعياء المتدثرين بعباءة دولة الخلافة، والظانين بسريان موجات الكفر فى خلايا المجتمع وتغلغلها فى أصلابه، فلم يكن منه إلا أن قذف خصمه بوابل من التساؤلات المفحمة أولها: من أنتم؟ ومن أين اكتسبتم هذه الوصاية؟ وكيف تقيمون دولة الخلافة وبأية آليات؟

وقد أخذ الحديث منعطفات أخرى مثَّلَتْ لدىَّ حافزًا نحو الحديث معه، وقد انطلقت إلى تلافيف القضايا والأفكار، لكن ما هى إلا ساعات حتى كان خبرُ اغتياله يتصدَّر الصفحات الأولى فى الجرائد كافة، بعد أن طالته الأيدى الآثمة برصاص الكراهية والغدر باعْتِبَاره مرتدًّا مارقًا يتوجَّب إهدارَ دمه وإزهاق روحه ليس إلا لكونه رجلًا يحمل فِكْرا مغايرًا أراد به عبور العقل المصرى إلى واحة جديدة يختزل بها ما فاته، ويطرح على العالم جديدًا يعيد له الاعْتِبَار بضرورة وجوده مشاركا فى البانوراما المُسْتَقْبَلِيَّة.

• هناك ظواهر ومتناقضات وفُرْقة وانقسامات واختلافات... كيف انشقَّ العالم الإسلامى على كتابه المقدس.. بل كيف ارتضى بحياة مغايرة لمبادئه وقيمه وأخلاقياته؟

بداية أنا أرفض مقولة العالم الإسلامى، وأفضِّل الحديث عن المسلمين أينما كانوا، وذلك لأنى أرفض أن يكون الدين عاملًا يقيم عالمًا أو تجمعًا أو تكتلًا أو ما يشبه القومية، ولا بُدَّ من الفصل الواضح بين ما هو خاص وما هو عام. والمشكلة فى تقديرى تأتى من مقولة أحد المُفَكِّرين وهو أن الإسلام دين ودولة. أقول: إذا آمنَّا بالإسلام كدين عظيم وآمنَّا بالتدين كقضية فردية وشخصية مقصورة على علاقة الفرد بربه وعلى تعامله مع الآخرين فى إطار الممارسة الحياتية، وفصلنا بين الدين والسياسة، فسوف تكون هناك فرصة كبيرة للمسلمين ليتَقَدُّموا ويعيشوا إيقاع العصر الذى لا يسمح بدولة دينية ولا بسيطرة رجال الدين على الحكم ولا بما يتناقض مع حرية الاعتقاد. ولقد مرَّت المسيحية بهذه التجربة فى العصور الوسطى عندما اختلط الدين بالسياسة، فحدث ما حدث من ردود أفعال وثورات لإعادة الأمور إلى نصابها.

إن الإسلام الآن على مفترق طرق، وهناك فريقان: واحد يحاول أن يصدم الإسلام بالعصر، وفريق آخر يحاول أن ينجيه من هذا الصدام... إن هواة

الصدام يريدون الاحتماء تحت رايات الدين وشعاراته، وأعتقد أنه ما لم ترفع رايات المواءمة وما لم ينتهِ الكهنوت فى الإسلام -وهو ليس أصلًا من أصوله- فسوف تحل كارثة على الإسلام والمسلمين فى السنوات القادمة. فعلى يد بعض المسلمين أصبح الإسلام دينًا للترويع وللتعصب وسفك الدماء، بل أصبح -عندهم- معاديًا للأوطان، بينما الإسلام دين السماحة والمحبة والرحمة، ولا يتناقض مع الوطنية. إن أصواتهم مرتفعة، والذين يناصرونهم يوفِّرون لهم المساحات الواسعة يعلنون رأيهم منها، والذين يصطدمون معهم دفاعًا عن الإسلام والمسلمين يُتهمون باتِّهَامات أقلها الكفر والإلحاد!

هناك إسلام اليسار واليمين والاستنارة، والاسلام السياسى، لكن ليس كل من يريد أن يدعو لفِكْره يذهب للإسلام وليس هذا الفِكْر عبارة عن الإسلام، هناك دين موجود، والبعض من المزايدين يحاولون الاستفادة من الحس الدينى بالحصول على أكبر مكسب جماهيرى باللعب على هذا التوتر. إن الإسلام دين سماوى، والله لا بُدَّ سيحفظ هذا الدين ويزيد انتشاره ويحقق مجده الرُوحِىّ كما أراده، ولا أعتقد أن هناك إرادة سوف تعلو على إرادة الله.

الإسلام دين والمسلمون بشر، والبشر خطاءون بطبعهم، وكل ما حدث من مسار التاريخ الإسلامى كان أخطاء مسلمين، ولا تنسب إلى العقيدة أو القرآن ذاته، لكن الكارثة أن المسلمين يُقحمون القرآن فى خلافاتهم، ففى حرب الخليج كان البعض ينادى بأن "صدام" هو إمام المسلمين وأنه فى أعلى عليين، وفى نفس الوقت كان هناك من ينادون بالعكس تمامًا ويعتبرونه باغيًا طاغية، وكلاهما يتحدث بالقرآن والسنة. أضف إلى ذلك التناقض المفتعل بين الشورى والديمقراطية، كل هذه المشاكل لم يكن الإسلام سببًا فيها، فالسبب يكمن فى قصور الاجتهاد فى المواءمة بين العقيدة الثابتة والواقع المتغير، بينما هناك إمكانية واسعة لإيجاد هذه المواءمة التى يمكن أن تحجب عنا التخلف فى صوره المختلفة والممثلة عند البعض فى العلاج بالجن والعلاج بالقرآن، فهنا يبدأ الخلاف؛ لأن هذه سلوكيات مسلمين لا يفهمون دينهم، والرسول عندما مرض عالج نفسه بوسائل عصره لكن نحن لا علاقة لنا بوسائل عصرنا، إذ ما زلنا نعتبر دخول دورة المياه بالقدم اليمنى أو اليسرى ضمن الإشْكَالِيَّات الكبرى، هذا يحدث عندنا بين الشباب، فى كل دول العالم يُنظر إلى عام 2000 وما وراءه، ونحن نعيش فى وهم استعادة الخلافة الإسلامية!! وإن أردتَ مثلًا آخر يؤكد بُعْدَ المسلمين عن المستوى الحضارى المطلوب لهذا الزمن فانظر إلى حجم الترجمة فى مصر -سواء كانت ترجمة علمية أو فِكْرية أو أدبية أو فنية- فى عالم ينتج يوميًا مئات المجلدات، وانظر إلى المستوى الردىء لتدريس اللغات، الذى لا يمكِّننا من الاطلاع على إنجازات الحضارة الإنسانية.

• إذن ما هى التحديات القائمة لإنهاض المشروع الإسلامى؟

إذا كان المشروع الحضارى الإسلامى يبيِّن لنا أن غايته الوصول إلى دولة الخلافة الراشدة التى توحِّد الشعوب الإسلامية فى أمة واحدة ووطن واحد، فإنه لا يبيِّن لنا كيف سنبدأ معه من اللحظة المُعَاصِرَة، ولا يبين لنا موقفه من المواطنة القومية التى يخضع لها كل مسلم على وجه الأرض. كذلك نحن بحاجة لأن يجيب المشروع الإسلامى عن موقفه من المواطنين الذين يتمتعون فى ظل الدولة القومية بمزايا المسلمين نفسها: هل سيعاملهم وفق التصور الإسلامى للوطن فى ظل دولة قومية قائمة على التصور الغربى؟ أم أنه فى كل هذا سيتجاوز التصور الإسلامى وينشئ تصورًا جديدًا للدولة فى ضوء التصور الإسلامى؟ ونحن نطرح هذه التساؤلات ليس بهدف تعقيد القضية؛ وإنما بهدف تحديد حجم التحدى الذى يواجه الإسلاميين عن مطالبتهم بقيام دولة إسلامية، وهذه التساؤلات ليست ترفًا فِكْرِيًّا، بل تحديات واجهت كل من أراد أن ينشئ دولة وفق التصور الإسلامى، أقول: إذا كانت النظم والأجهزة التقنية كلها مقتبسة من الحضارة الغربية، فمن الواجب أن نطرح على أنفسنا موقفَنا من هذه النظم، هل تتفق مع الشريعة الإسلامية؟ وإذا كانت لا تتفق فأين الحرام؟ ولماذا هو حرام؟ وما هو البديل بل كيف سنجد مصادر للدخل القومى؟ وكيف سنخلق دورات اقتصادية منتجة؟ وكيف سنهيئ فرصًا مُجدية للاستثمار؟ وكيف سنربط التعليم بخطط التنمية ونخلق فرصًا للعمل؟

• هل تعتقد أن الإسلام عقيدة عالمية؟

لو لم أعتقد أن الإسلام عقيدة عالمية ما آمنتُ به، وهذه ليست دعوة للتشكيك فى عقائد الآخرين، كما أنه ليس لى أن أدلِّل على عظمة اعتقادى على حساب فساد عقائد الآخرين؛ فالدين ليس قضية عقلية أساسًا... الدين والتدين قضايا وجدانية.

• فى ظل تراجع وغيبة الفِكْر المستنير.. هل يمثِّل ذلك مدعاةً للتشكيك فى أن مصر مرت حقًّا بمائة عام من التنوير؟

بالتأكيد مصر مرَّت بمائة عام من التنوير، ولكنه -للأسف الشديد- كان مرور "ترانزيت" فالواقع الثَّقَافِىّ والفِكْرِىّ فى مصر متخلف عما كان عليه من خمسين عامًا، الأسئلة التى طُرحت أمام جيل الرواد وأجابوا عنها يعاد طرحها الآن من جديد، وعلى نفس المستوى، وكأنها لم تُطرح ولم يستقر المجتمع حول إجابات لها، مصر الآن فى حاجة إلى قاسم أمين من جديد لتحرير المرأة دون الدخول فى متاهات فلسفية أو فِكْرية أو فقهية، وهى فى حاجة أيضًا لبلورة قضية الوحدة الوطنية بالطرح الذى طرحه سعد زغلول:)الدين لله والوطن للجميع(، دون أن يمس ذلك المشاعر الدينية. مصر محتاجة أيضًا فى قضية الاجتهاد الدينى المتنور إلى آراء محمد عبده الفقهية المتعلقة بقضية الربا وفوائد البنوك، وقِسْ على ذلك أفكارًا كثيرة جدًّا كنا نظن أنها حُسمت وأنه لا مجال إلى العودة لِمناقشتها، ومثال ذلك قضية اختيار الحكم المدنى،

وهى قضية حُسمت عمليًّا لدى المصريين، وقضية عدم الخلط بين أوراق السياسة وأوراق الدين. الواضح أن المناخ الفِكْرِىّ والتنويرى تخلَّف كثيرًا، وهناك أمثلة عديدة وشواهد لا حصر لها لمساحات هائلة من العفن الفِكْرِىّ والثَّقَافِىّ. وهذه الشواهد تمثِّلها ظواهر مفزعة نحو الردة الحضارية والثَّقَافِيَّة، فحيثما تتصور الرُّقِى والتنوير الفِكْرِىّ تجد العكس، فإذا تكلمت عن التعصب الطائفى ومشاكله فى مصر تجده منتشرًا بشدة، وإذا تكلمت عن الأفكار المتدنية فى فهم الدين وعلاقة الدين بالدولة ستجدها أكثر انتشارًا وشيوعًا فى الجامعات الإقليمية التى وجدت لكى تكون بؤرًا للتنوير الفِكْرِىّ والثَّقَافِىّ، بينما هى اليوم تقود الردة الثَّقَافِيَّة والحضارية.
اليوم نجد أنفسنا أكثر تخلفًا. فمنذ بداية القرن كانت قضية الحكم المدنى أو الدينى قضية محسومة، وأعتقد أنها الآن إحدى القضايا المؤرقة، وخذ مثلاً آخر: فلم نسمع ولم يطرح خلال المائة سنة السابقة دعوة حول تطبيق الشريعة الإسلامية فى تاريخ البرلمانات المصرية، ولم تطرح هذه القضية لا على الساحة السياسية أو الفِكْرية، بل لم تكن ضمن برامج أى حزب من الأحزاب، وأيضًا الحجاب الآن يُطرح بشكل جاد جدًّا، وكذلك موضوع عدم السماح للمرأة بالعمل أو عودتها إلى المنزل لم يطرح، لكن طُرح فى الآونة الأخيرة فى مجلس الشعب أكثر من مرة، كما ظل كتاب محيى الدين بن عربى)الفتوحات الملكية(مسموحًا بتداوله إلى أن صدر قرار أحد مجالس الشعب 1978 بتحريمه وتجنيبه.
• فى رؤيتك هل نجح الرواد فى إعادة صياغة الفِكْر المصرى وجعله أكثر استعدادًا لتقبل صور الحضارة الحديثة وزوال المجتمع التقليدى؟
لا، لم ينجحوا، ولو نجحوا لم نكن لنعانى ما نعانيه الآن؛ فجان جاك روسو وفولتير لم ينتهوا لا فى جيلهم ولا فى الجيل الذى تلاهم، ولم ينتهوا إلى الأبد؛ لأن التنوير قضية تغيير حضارى، والرواد كان تأثيرهم محدودًا؛ لأن الحضارة أتت إلى مصر بتذاكر طيران، بمعنى أن هؤلاء الرواد جاءوا بأفكار جديدة عن المسرح اليونانى وعن التنوير والثَّقَافَة والحضارة، ولكن مصر لم تدفع ثمنًا لهذه الحضارة أى أن القيم الحضارية والأفكار التنويرية لم تكن نتيجةً لصراع عنيف أدى إلى استقرارها ورسوخها فاقتلعت واقتلع الكثير منها بسهولة، وأعتقد أننا الآن مُقبلون على مرحلة تغيير حضارى حقيقية؛ بمعنى أن هناك ثمنًا يُدفع، فعلى مستوى الفِكْر نجد أن هناك معركة ضارية وسوف تكون أكثر ضراوة فى المرحلة القادمة على المستوى المحلى والاقليمى، وحرب الخليج فى حد ذاتها شكل من أشكال دفع ثمن الحضارة والمقارنة بين العقلانية والعشوائية، ولسوف تنتصر الحضارة وتستقر الأمور ويصبح من الصعب العودة إلى الخلف، ويصبح من الصعب أن نخلط بين الإسلام وتاريخ المسلمين ونقدم هذا التاريخ على أساس أنه الإسلام، بينما هو ملىء بالتزييف والفظائع والخروج عن العدلِ وعن كل القيم.ّ

• يتردد فى الساحة الثّقَافِيَّة أنه كان لدينا مُفَكّرُون متنورون ولم يكن لدينا تيار تنويرى.. إلى أى أحد تثقُ فى هذه المقولة؟
نعم.. هذه مقولة صحيحة.. لم يكن هناك تيار تنويرى، لكن طه حسين سيظل أعظم رمز تنويرى فى تقديرى، ولو أنه كان من الممكن أن يخطو خطوات أوسع مما خطاها، لكن يبدو أن مد المعارضة الذى واجه أفكاره صدمه صدمة عنيفة، فقد انكسر بعد كتابه)فى الشعر الجاهلى(وبدا شاحبًا، لكنه كان واضحًا فى بعض مقالاته، وفى كتابه)الفتنة الكبرى(، ورغم ذلك ظلت -وستظل- أصداؤه التنويرية والمتناثرة عبر كتبه ومقالاته ومواقفه الشجاعة موجودة ومؤثرة، وطه حسين عندما أضعه فى الميزان مع غيره، أعتقد أنه نموذج عبقرى شجاع، وأنه أحد قلائل قادوا حركة التنوير، بل يكفى أن أشير إلى أنه ملك النثر العربى، والذين يقرأون الجاحظ وابن المقفع والتوحيدى سيجدون طه حسين بينهم متفوقًا؛ لأنه صاحب مدرسة جديدة فى هذا النثر.
• هل أفهم أن شجاعة طه حسين كانت مقنَّعة؟
هذا ليس عيبًا؛ لأن التعامل مع الوجدان الشرقى يلزمه الكثير من الحذر لتمرير ما تريد أن تقوله، فمطلوب أن تكون شجاعًا وليس مطلوبًا أن تكون منتحرًا.
إن العقل العربى مختلف تمامًا عن العقل الأوروبى فى أشياء كثيرة؛ لأن تركيبته مختلفة، فإذا كان العقل الأوروبى يبدأ من الجزئيات ثم ينتهى إلى الكليات، ويمتثل للشك الديكارتى، فالعقل العربى يبدأ من الكليات، فتُنحى الجزئيات ويمثل إلى اليقين، وهذا بحكم تاريخ الأديان فى الشرق، أقول: إن العقل الغربى مختلف؛ ففيه يمكنك أن تقول ما تشاء فتبقى ولا تثور حولك الزوابع، وأنا أزعم أن الجيل الحالى تجاوز الخطوط الحمراء على عكس ما يتصور الناس، وإن كانوا سيرون أثر ذلك فيما بعد عشرين أو ثلاثين سنة. فمصر تشهد الآن أخطر موجة تنويرية فى تاريخها المُعَاصِر كله بل تاريخها من ألف وأربعمائة سنة؛ إذ إن هناك مجموعة من الكتابات لم تُكتب فى تاريخ العربية، وهذه الكتابات يمثلها حسين أحمد أمين وفؤاد زكريا وسعيد العشماوى وسيد القمنى ورفعت السعيد ومحمد نور فرحات وخليل عبد الكريم وأحمد صبحى منصور، أعتقد أنك لو وضعت هذه المجموعة بجوار بعضها وقرأتها معًا فلن تجد فى تاريخ الفِكْر المصرى العربى ما يماثلها فى جرأتها ووضوحها للوصول للهدف، أضف إلى ذلك كتابى)الحقيقة الغائبة(الذى لم يسبقْه كتاب فى جرأته، وإن كان الناس لا يشعرون حاليًّا بهذه الموجة، فلأننا فى ظل معركة ميدانية لا نَظَرِيَّة فحسب، والقضية ما زالت محل صراع، لكن عندما يأتى دور من يقيِّم، فإن الأمر يختلف.
إننى أعتقد أن المناخ الفِكْرِىّ المصرى الآن مناخ مبشِّر، وأعتقد أن الساحة الثَّقَافِيَّة سوف تكشف عن انتصار مرة أخرى لتيارات التنوير وعودة الوَعْى الغائب فى المعركة بين من يسعون لاستحضار التُّرَاث إلى درجة إهمال

المتغيرات، والذين يحاولون القفز إلى الأمام للحاق بالحضارة بعد أن تخلّفنا عنها شوطًا بعيدًا، لكن ذلك لم يتمَّ قبل فترة صراع طويلة ومريرة تخوضها رموز كثيرة. ورغم المعارضة الشديدة للبدايات الأولى لهذه الموجة، فقد أصبح هناك تأييد فى بلاد المغرب العربى، وهناك ظواهر جديدة تحدث، بحيث إن المعركة تعدَّت الإطار المحلى إلى إطار التأثير فى المنطقة ككل، ومن هنا فالمُسْتَقْبَل سيكون للتنوير، وليس لجيوش الرِّدة والعودة إلى الخلف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سعيد العشماوى.. أريد للإسلام أن يكون دينًا وأرادوا أن يكون سياسة

سنوات قلائل قضيتها مع فِكْر سعيد العشماوى، أقرأه ويسمعنى، أطرح رؤيتى عليه فى اعتدال وموضوعية، أتحسَّب كثيرًا لمنطلقاته ومرجعياته المؤسِّسة لهذا الفِكْر. وأتحسس كثيرًا لأن تصيبنى عدواه، كنت أتحلل من أية أيديولوجية أتخندق وراءها، أتحرك من أرضية مجردة تكتسب قوتها من درجة المصداقية والحيادية التى تقتحم ذاتى متصدية للعراك الشرس بين المذاهب والنَّظَرِيَّات، دعانى يومًا لمنزله الذى ينافس فى روعته متحف اللوفر والأرميتاج والمتروبوليتان، ذلك أثر ظهور كتابه الإسلام السياسى... كان فرِحًا مزهوًّا، استمر النقاش حوله ساعات إلى أن قاده لسانه قبل عقله، فعصفنى بكلمات إشادة لنفسه ولعنة على العقاد؛ محتجًّا بأنه قد خدم الفِكْر الإسلامى بأكثر منه كثيرًا كثيرًا، فكان سؤالى الإضطرارى: كيف؟ فأردف أنه قدم نَظَرِيَّة يُستطاع معها تحليل النص الدينى طبقًا لخصوص أسبابه وليس لعموم ألفاظه، على الفور عارضته؛ لأنه يقدِّم نَظَرِيَّة قديمة مبثوثة معالجاتها فى كتاب)تأويل مشكل القرآن(لابن قتيبة، لكن الصاعقة التى بهت أمامها جاءت منسابة فى كلمات بسيطة... هى أن النَّظَرِيَّة فى العلم لا بُدَّ ان تنطوى تحتها كل الظواهر دون أن تنفلت منها واحدة، وإلا صارت رؤية أو وجهة نظر، من ثَمَّ فإذا كانت كل آيات النص الدينى لا ترتبط بأسباب مباشرة، فهنا يسقط الزعم بكونها نَظَرِيَّة يُعتد بها أو تمثِّل مكوِّنا علميًّا جديدًا، وعندئذٍ كانت القطيعة التى أفرزت هذا الحوار.

• أين موقع الإسلام السياسى فى بؤرة الحوار العقلانى.. بل أين موقعه من منهجية الإسلام؟

بكل أسف.. أعتقد أن الصيغة المطروحة –غالبًا- للإسلام محليًّا وإقليميًّا وعالميًّا هى صيغة الإسلام السياسى التى لا تقبل أى حوار بالعقل أو نقاش بالمنطق أو اجتهاد بالفِكْر، ولأنها سياسية، فهى تعتقد أنها تستحوذ على الكل وتحتكر الإسلام، ولا تسمح بوجود صيغة أخرى بجوارها، وإلا اعتبرت هذه الصيغة كفرًا وإلحادًا... ولقد جاهدت مع غيرى لتقديم صيغة أنضج وأصح وأعقل للإسلام، وسميناها: الإسلام المستنير، لكن جماعات الإسلام السياسى المدعومة بقوى خارجية ترفض أى حوار معنا أو مع غيرنا، وليس لديها إلا أن يقبل الكل مطلقاتها ومسلَّماتها الخاطئة والمبتسرة، وإلا اتّهمنا بالكفر صراحة أو ضمنًا، وكان هذا الاتِّهَام من وعاظهم ودعاتهم إشارة إلى الشباب المفتون باغتيالنا، فهم يقدمون الفتوى بالقتل، والشباب غير الناضج والمسيَّر والمسيَّس يطبِّق هذه الفتوى فيقتل ويغتال، أو على الأقل يشرع فى ذلك... وهكذا لم يعدْ من حوار بالكلمات فى مجال الإسلام المطروح من جانب جماعات العمل الإسلامى السياسى، ولكن الحوار أصبح رصاصًا من جانبه، ولا

نقول حوارًا بالرصاص؛ لأن الرصاص يصوَّب من جانب واحد، ولو دُعى المستنيرون إلى المعاملة بالمثل أو أمسكوا بالرصاص ولو للدفاع عن أنفسهم فسوف ينتهى الدفاع إلى حرب أهلية... والمستنيرون بعد أن يساعدوا على نشوب حرب أهلية بدأها الإرهاب لا بُدَّ أن يقبلوا أن يكونوا أهدافًا للاغتيال دون أن يفعلوا شيئًا، وأنا أعتقد أن قبولهم السكوت على الرصاص والقتل والتهديد بالاغتيال هو أبلغ مثل للإنسان المسلم التقى النقى الذى يرفض أن يردَّ الأذى بمثله؛ حتى لا يشوِّهَ الإسلام أو يجعله سببًا فى نشوب حرب أهلية فى مصر أو غيرها.

• غياب منهجية الإسلام فى الحوار لدى جماعات الإسلام السياسى.. هل يمثل امتدادًا فِكْريًّا تاريخيًّا لغياب ذات المنهجية فى ظل ما يمُوج به تاريخنا الإسلامى من نماذج؟

الإسلام بحسب الأصل يدعو إلى إعمال العقل واللجوء للحوار، وفى القرآن آيات كثيرة تدعو إلى ذلك مثل وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)18(، وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)19(، غير أن دعاة الإسلام السياسى -الذى انزلق إلى العنف ثم انحدر إلى الإرهاب- قد نسخت من القرآن الكريم آية السيف وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)20(أو بآية وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ)21(، ولكنى أعتقد أن آيات الجدال من محكماتِ القرآن لم تُنسخ، وأن آيات القتال المنوَّه عنها خاصة بقتال أهل مكة دون غيرهم، فالذى يظهر من أسباب التنزيل وسياق النصوص أن آيات الكتاب مقصورة على قتال أهل مكة، فهى آيات مخصَّصة بالزمان والمكان والحادثة، أى أنها آيات موقوتة، وقد نفذت بالفعل من جانب النبى وجماعة من المؤمنين، ولم يعدْ من الجائز أن يزعم أحد أنها آيات عامة تقضى بقتال الناس عمومًا مسلمين وأهل كتاب فى كل زمان ومكان، بل الأصل هو المجادلة بالتى هى أحسن، والحوار بالتى هى أفضل، أما القتال والدعوة إليه على خلاف أحكام القرآن فهو مذهب الخوارج، أو كما أسمِّيه المذهب الحربى فى الإسلام، الذى ظهر فى عصر على بن أبى طالب وظل يظهر فى التاريخ الإسلامى فترة بعد فترة لأسباب سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، فهو يظهر لذاته، ونتيجة للتَفْسِير الخاطئ، ثم يتخذ من الظواهر السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية مظهرًا، فى حين أن الحقيقة تكمن فى التَفْسِير المغلوط للقرآن، وأن آية القتال نَسخت أكثر من عشرين آية من آيات الرحمة وحرية الاعتقاد وحسن المجادلة، ويقينى أن هذا الاضطراب سوف يظل فى الفِكْر الإسلامى مشوِّهًا للإسلام ومسيئًا إلى الشريعة حتى يضع المسلمون العقلاء نَظَرِيَّة النسخ، فمع أن النسخ وارد فى القرآن ويُعترف به وتوجد كتب كثيرة خاصة بذلك فإن الفقهاء لم يضعوا نَظَرِيَّة عامة شاملة للناسخ والمنسوخ، فظل الأمر عفويًّا واعتباطيًّا ومتروكًا لكل فقيه أو واعظ أو مهيج يزعم أن آية

قد نسخت آية أخرى بغير دليل إلا بمجرد قوله وتَفْسِيره الذى قد يأخذ به البعض.
وقد رأى بعض الإرهابيين فى تاريخ الإسلام أن آية السيف -المنوه عنها كما قلنا- قد نسخت آيات الرحمة وحرية العقيدة، فصار ذلك اعتقادهم واعتقاد أتباعهم، وبذلك قدموا صيغة حربية للإسلام ومنهجًا عسكريًّا للشريعة ليسىء للإسلام والمسلمين، ويصورهم على أنهم إرهابيون خطرون لا يقبلون جدلًا ولا يحسنون قولًا ولا يُعملون عقلًا، وليس أخطر على الإسلام من هذا الفِكْر المنحرف وهؤلاء المسلمين الضالين الذين أساءوا إلى الإسلام إساءة بالغة، وأظهروا المسلمين فى صورة كريهة أمام العالم كله، وفى تقديرى أن الصهيونية العالمية وراء ذلك؛ لأنها كسبت من هذا تشويهَ صورة الإسلام وإحلال صورة المسلم الإرهابى المرفوض مكان اليهودى التائه المضطهد!
•)الإسلام هو الحل(هل تعتقد أن تصدير هذا الشعار للقاعدة الجماهيرية هو نوع من تسييس الدين بالعنف والتطرف والإرهاب؟
هذا الشعار كلمة حق يُراد بها باطل، فأنا أعتقد أن الإسلام فى الأساس عقيدة وشريعة، أى إيمان بالله ومنهج فى السلوك، والإيمان بالله بغير منهج رفيع فى السلوك يُعد إيمانًا فارغًا من جوهره أو زائفًا من حقيقته، وقد ينحرف ليصبح إيمانًا بالشيطان وليس إيمانًا بالرحمن.
إن منهج السلوك ما لم يؤسَّس على الإيمان بالله -بحسب الأوصاف التى ذكرتها الشرائع عنه، وبتقديرى أن أهم الصفات لله هى الرحمة والعدل والسلام- فإن أى سلوك بغيره يصبح سلوكًا منحرفًا، وفى الغالب ينحدر إلى الجريمة؛ فالإيمان الصحيح كوجهى العملة، إيمان بالله الحق العدل الرحيم السلام.
وكلمة "الإسلام هو الحل" هى فى الحقيقة تعبير يصح إذا أخذنا الإسلام فى مفهومه الصحيح على أنه خُلُق رفيع وإيمان صحيح أيضًا، غير أن المقولة تنصرف إذا كانت مجرد شعار يُقصد به تدمير المجتمع وتوطئة الأسباب للثَّوْرَة على الحكومة والناس وإباحة اغتيال الخصوم وأكل أموال الناس بالباطل وتضليل العوام وتدمير صورة الإسلام وتشويه شكل الشريعة.
فإذا أخذنا الإسلام فى مفهومه الحقيقى على أنه إيمان نقى وخلق سلام لتَحَوَّل المسلمون إلى مؤمنين حقًّا بالرحمن لا بالشيطان، وإلى ملتزمين حقًّا بالأخلاق الحميدة لا بالسلوكيات البليدة... إذا حدث ذلك فسوف يكون الإسلام حلًّا لكل المشاكل، وأعتقد أن ما كان يقصده ريجان فى حملته الانتخابية)التى حضرتُها فى أمريكا، حيث كان يحمل الكتاب المقدس وكان يقول هذا الكتاب هو الحل، أى أن الأخلاقيات المسيحية فى تقديره كانت هى الحل(لم يقصد بقوله لا نظامًا سياسيًّا ولا ترتيبًا حزبيًّا ولا إنشاءً لبنوك خاصة ولا انتشارًا لشركات توظيف الأموال ولا إطلاقًا للرصاص على أفراد المجتمع كيفما كانت

عقيدتهم ولا ترويع الآمنين ولا قلقلة أركان المجتمع؛ فكل ذلك ليس حلّا لأى مشكلة، ولكنه تصعيد للصراعات ونشر الفساد وبدء الحروب الأهلية.

• ولكن ما الذى أدَّى إلى ذلك؟

لقد تنبأ الرسول بما حدث وما يحدث الآن حين قال "بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء" وهذا قول حق أثبتت الأيام صحته، فقد بدأ الإسلام الحق غريبًا مرفوضًا من الناس، وما إن ساد حتى انحرف به الناس سراعًا منذ الخليفة عثمان إلى السياسة، وانحرفوا به إلى الحزبية. وهكذا أراد الله للإسلام أن يكون دينًا، وأرادت له الناس أن يكون سياسة، أدت السياسة إلى أن ينغمس أربابها وأصحاب المطامع فى السياسة والمال والحزبية والمكاسب، مما دعا المسلمين حقًّا إلى الابتعاد والاغتراب عن مجتمعاتهم، فصاروا بعيدين عن الدنايا متوقفين عن المطامع، واستمر الوضع على هذا النحو منذ عهد الفتنة الكبرى حتى وقتنا الحالى، حيث زاد اغتراب المسلمين حقًا. فأصبح المؤمن التقى النقى مغتربًا عن مجتمعه، ويكاد يكون مرفوضًا من الغالبية التى تحوِّل الإسلام إلى سياسة وحرب وضرب وأكل لأموال اليتامى بالباطل وادعاء للبطولة فى غير أماكنها، وافتراء على الحق والحقيقة، وليس كل من يدَّعى الإيمان بالله هو مؤمن حقًّا؛ إذ لا بُدَّ أن يؤمن بالحق والعدل والرحمة والسلام والحضارة والإنسانية والمساواة بين البشر جميعًا، أما إن كان يؤمن بعكس ذلك فهو زائف الإيمان.

• إذا قلنا إن هناك ضرورة حيوية لوجود مشروع نهضوى إسلامى... فمن أين تبدأ خيوط هذا المشروع؟

فى كتابى الإسلام السياسى ذكرت أن ما يسمى بالحركة الإسلامية مجرد مد مادى وفعل حركى كان من الأفضل أن يتحرك إلى نهضة حقيقية، وقد أخذ البعض عن هذا التعبير ودعا إلى مشروع إسلامى نهضوى، وفضلًا عن أن هذا التعبير بهذه الصيغة صار أقرب إلى التعبيرات الماركسية وأدنى إلى الترجمات الركيكة، فإنه مع ذلك لم يقدِّم أى مشروع غير عبارات عامة غير محددة وصيغ مطاطة غير منطقية وكلام هلامى لا يؤدى إلى فاعلية.

ولا أزعم أننى فى هذه المساحة الضيقة أستطيع أن أقدم مشروعًا للنهضة الإسلامية؛ لأن هذا مبسوط فى كتبى وفى دستور الإسلام المستنير، لكننى أقول إن مشروع النهضة لن يكون مشروعًا حقيقيًا إلا إذا استهدفَ الرحمنَ واستقبلَ الإنسانَ وجعل محوره الأخلاق وسبيله العلم ثم العمل على تنقية الفِكْر الإسلامى وتصحيح الفهم الفقهى؛ حتى تنضبط المفاهيم الإسلامية ولا تزوغ القيم الدينية، ويكون ذلك بوضع تعريف لكل لفظ مستعمل فى الإسلام وبالذات فى الفقه الإسلامى، ثم وضع منهج لتَفْسِير القرآن بحيث يتم التَفْسِير على أساس أسباب التنزيل لا على أساس عموم ألفاظ القرآن، بمعنى أن نبحث عن أسباب تنزيل كل آية لنفهم تَفْسِيرها وفقًا للظروف التاريخية والواقعية والاجتماعية والسياسية التى كان يقصدها النص، والالتفات بذلك

عن القاعدة الخاطئة التى ترى التَفْسِير على عموم معانى الألفاظ بحسب ما يراها المفسر لا على أساس أسباب التنزيل. وتلا كل ذلك ضرورة وضع منهج للنسخ فى القرآن؛ حتى لا يظهر علينا مدعٍ يقول أو يزعم أن آيات الرحمة وحرية الاعتقاد والإنسانية والسلام قد نُسخت من القرآن، والخطوة الأخيرة فى هذا المشروع هى أن يتحرر العقل الإسلامى من القيود التى فُرضت عليه من القرنين الرابع والخامس الهجرى، فيتحول إلى عقل علمى يقوم على السببية ويقدر العِلِّيَّة وينبنى على المنطقية، فبغير السببية لا يقوم فهم، ودون العِلِّيَّة لا يستوى علم، وبغير المنطقية ينحدر المسلم والمسلمون إلى مَهَاوِى الخرافة والأضاليل.

فالشعارات مهما كانت حادة، والألفاظ مهما كانت حادة أيضًا، فإنها لا تنصر دينًا ولا تنشئ دولة ولا ترفع فردًا، إنما ينتصر الدين وتزدهر الدول ويسمو الأفراد بالخُلُقِ الرفيع والعلم الشامل والحركة الدائبة والكفاح المتصل، فهذا هو منهج الإسلام الحقيقى الذى يوجد الإنسان السوى والمجتمع الفاضل والحكومة الإسلامية وكل منهاج غيره هو مجرد شعار فارغ وسراب كاذب.

وفى ختام اللقاء كانت المفارقة الهائلة التى أطربتنى فصرت مزهوًّا مدعومًا بإحساس التميز مترقِّبًا ان تسجل الأقدار سطرًا جديدًا فى مشوارى الكتابى، وها قد فعلت وفعلت إذ قدَّمَ سعيد العشماوى إلىَّ خطابًا من عميد المستشرقين "جاك بيرك"، يعرض فيه كل ما تملَّكه من فزع قاهر إزاء موجات الغضب الفِكْرِىّ المتصدرة الساحة المصرية والعربية... كتب يسأله إسداء النصح، وهل له أن يأتى مصر لتسلم جائزة المجمع اللغوى من رئيس الدولة أم يتوارى كاسف البال نظرًا لما تشير إليه الأجواء العامة كون وجوده أصبح غير مرغوب فيه، بعد تلك الحملة الشعواء التى شُنَّتْ ضده إثر ترجمته الشائنة للقرآن، والتى قام المركز الثَّقَافِىّ الفرنسى بالقاهرة بترجمتها كاملة وإرسالها إلى "بيرك" ليتولى مهمة الرد، بعد أن غيَّرت توجهاتها مسار الرأى العام نحو رؤية سلبية قاتمة... عندئذٍ ترنَّح عقلى وارتطمت داخله خواطر وتخوفات... أأنا الذى أحدِّد مجىء جاك بيرك من عدمه؟ إن زحزحة الجبال أهون كثيرًا من هز العرش الذى تبوَّأه جاك بيرك فى الساحة الأوروبية والعالمية، التى شهدت له وقارًا ومصداقية وعلمًا وحصافة وشخصية رائدة وشهرة عريضة. ورغم ضراوة الحملة وقسوتها فإنها لم تكن تستهدف المساس بصورة "بيرك" أو الإساءة إليه، وإنما اتجهت الإرادة نحو إحداث صخب ثَقَافِىّ تدور رحاه بين الشرق والغرب تجديدًا لمَسِيرَة العلاقة الشائكة بما أثاره فى ترجمته من إشْكَالِيَّات دينية وفِكْرية. ولعل الذين يعرفون بيرك يعلمون أنه قد قضى شطرًا زمنيًّا طويلًا يدأب على إخراج هذه الترجمة فوُفِّقَ فيها إلى حدٍّ بعيد -طبقًا لرأى العلماء-، لكن العمل قد شابه هنات كثيرة، وهو أمر غير وارد عند التعاطى مع الكتب المقدسة، وربما غيرها.

نعم هدأت أصداء الحملة، لكن "بيرك" لم يهدأ، ولم يروّض ثائرته إلا حين أتاح له الأهرام إمكانية الرد الذي تضمَّن اعترافًا مباشرًا بأنه قد هُوجِمَ فى عشر مقالات سمَّاها "قتالية" شكَّكَتْ فى نقاء سريرته وعمق مقاصده، مؤكدا أن العالم يعرف من هو "جاك بيرك" وأعماله وعلاقاته التاريخية بالعالم العربى وقضاياه.
تُرى ماذا يعنى كل ذلك بالنسبة لشاب فى الثلاثينيات سوى إقامة جسور الجدل مع قيمة فِكْرية لها رُوح نقدية تعصمها من التورط فى العديد من الخطايا الاستشراقية؟ ثم ماذا يعنى غير تصويب القضية وردّها إلى معطياتها الأولى؟ وكذلك ماذا يعنى سوى الإسهام بالدفاع عن عقيدته وتُرَاثه؟ بل وماذا يعنى ذلك لشاب سوى بلوغ صوته إلى مسامع "جاك بيرك" وما أدراك من هو "جاك بيرك"!!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

)18((النحل: 125)
)19((العنكبوت: 46)
)20((الانفال: 039)
)21((البقرة: 191)

سعد مصلوح.. كارثيات الفهم المغلوط للنص

كثيرًا ما يتشيع المحللون -على صعيد السياسة والسوسيولوجيا- لاتجاه خاص يتعامل مع التطرف كونه مفهومًا نسبيًّا فى الحكم على الأشياء والأشخاص والقضايا، فما تراه اعتدالية يراه الآخر انحرافًا وشططًا، وما تحسبه استقامة يظنه كثيرٌ فسوقًا. لكن الرؤية الموضوعية التى تخضع للعديد من الضوابط لا تعدو أن يكون التطرف لديها -وبحكم التجربة التاريخية- هو كيمياء الدمار المجتمعى التى أودت بأفراد وجماعات وكيانات.. إذ إن خطر التطرف إنما يقاس بانعكاساته السلبية على الذات والمجتمع، لكن أخطر الخطر حين يبلغ مداه بالاعتداء على قدسية النص الدينى لتطويع مفاهيمه وآلياته وسياقاته فى توجه مغاير لمضمونه بما يمنح سُلْطَةَ وَهْمٍ للذات تخوِّل لها شرعية اتِّهَام البشر، من ثَمَّ يظل التطرف يمثل معانى الحَجْر والقمع والتحقير والرفض والحماقة والأحادية... وتلك هى الداءات الوبيلة التى تهزم المجتمعات وتقتلعها مهما تكن صلابتها.

• النص الدينى نص علوى متفرد يُفهم على مستويات عدة متدرجة.. تختلف درجة إدراكه باختلاف مستوى الوَعْى لدى الأفراد.. فإلى أى مدى يرتبط التطرف بمدى قصور هذا الوَعْى؟

أن التطرف مفهوم نسبى جدًّا، ولا يمكن ان يكون هناك تطرف مطلق؛ لأن ذلك يرجع إلى معيار معين، وعندما تختلف المعايير لن نجد مفهومًا واحدًا للتطرف، فالذين يحتلون أقصى اليمين والذين يحتلون أقصى اليسار هم متطرفون، ومن هنا فالتطرف ليس حِكْرًا على جماعة أو حزب بعينه، والأمة التى تستطيع أن تدخل فى حوار صحى وسليم هى الأمة التى تستطيع أن تقارب بين وجهات النظر ولا تعطى مساحة لما يمكن أن يسمى تطرفًا من وجهة أى من الأطراف الداخلة فى عملية الصراع السلمى الثَّقَافِىّ، ومن هنا فالمطلوب أن تكون هناك سعة صدر ونوع من السماحة لتقبل الآراء المخالفة والتعامل معها بموضوعية شديدة.

أما النص الدينى فهو نص غير بشرى أنزله الله من فوق سبع سموات إلى البشر، ولكن بما أنه رسالة للبشر وعقولهم فلم يكن هناك مفر من أن يتعامل البشر مع هذا النص، وألا يكون لهذا النص مفهوم مفارق للمفاهيم المقصودة لذلك، لكن للأسف الشديد عندما يتعامل البشر مع النص الدينى فإنهم ينطلقون من قَبْلِيَّات وقَطْعِيَّات سابقة، وفى غالب الأحيان يحاول كل منهم أن يجعل النص الدينى مصدِّقًا لمرئياته ومصدقًا لمعتقداته السابقة، ومن هنا يبدأ الشِّقاق فى فهم النص الدينى، وتطويع هذا النص لم يكن للأغراض البشرية على وجه التحديد، وإنما لمبادئ سبق للبشر أن اعتنقوها وآمنوا بها، وأرادو للنص الدينى أن يكون مصدِّقًا لهذه المبادئ وحجة فى يدهم على خصومهم، ومن هنا سنجد أن القرآن الكريم فُسِّر -وما زال- يُفسر،

وأغلب الظن أنه سيظل كذلك ليدخل طرفًا أصيلًا فى الصراع السياسى والاجتماعى.
ومن وجهة نَظَرِى أعتقد أن النص الدينى لا بُدَّ أن يُحصن ضد هذا التطويع لأمرين؛ الأول هو: الرجوع إلى سياق النزول وإلى واقع البيئة السياسية والاجتماعية التى توجه إليها هذا الخطاب، لا لنقيِّد دلالته بهذه البيئة، وإنما لكى نفهم النص بدرجة أكثر واقعية وارتباطًا بهذه البيئة، وإذا كان علماء الأصول يُلحون على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن السبب يظل مهمًّا لأنه مقيِّد للعقل أو محدد لشَطَطِ العقل، أى أنه يردُّ الإنسان عن الفهم الجامح إلى بيئة فيها أناس يتحركون ويتصارعون ولهم أهداف وغايات وحركة حياة، ومن خلال هذه الأشياء كلها نستطيع أن نجعل للنص معادلًا موضوعيًّا فى حالات البشر، والانطلاق من هذا المعادل الموضوَعْى إلى حد كبير ليس جامحًا، والفِكْرَة الثانية: أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، ومن هنا فإن المحدِّدات اللسانية واللغوية ذات أهمية فى تحديد المراد من النص، والمؤكد أن الله أعلم بمراده، ولكنه خاطَبَنا بهذا الكلام، ولذلك فنحن لسنا طرفًا مستثنى من عملية التواصل أو عملية الإبلاغ التى يقوم بها النص القرآنى؛ بل نحن طرف أصيل فيها.
• إذن هل نستطيع القول إن هذه المحددات اللغوية يمكن أن تحسم هذا الخلاف أو هذا الصراع فى فهم النص؟
حسم القضية بعيد إلى حد ما، ولا نستطيع أن نقول به؛ فنحن نتذكر قول الإمام على بن أبى طالب لعبد الله بن عباس عندما أرسله ليجادل الخوارج وقال له: "لا تجادلهم بالقرآن فإنه حمَّال أوجه"، ولكن جادلهم بالسُّنَّةِ؛ لأن السنة حركة حياة وفعل، أما القرآن فنص نزل وهو حمَّال أوجه، أولًا لأن الله أعلم بمراده من كلامه، ولأنه وإن كان القرآن نزل فى زمان بعينه لكنه نزل مفارقًا للزمان ومهيمنًا عليه، وهذا هو الحل أو نتيجة المفارقة، فالقرآن بما هو متصل خطى محصور بين دفتين، وبما هو متصل لفظى محصور فى آنٍ، لكنه من حيث المعانى والدلالات يمكن أن يَنِدَ عن هذا الحصر، لكن المحددات اللسانية المختلفة -ولا سيما المستوى الدلالى أو أنواع المعنى- يمكن إلى حد ما أن تكون هاديًا إلى الفهم الذى لا يمكن أن يكون عليه خلاف كبير، أما إذا تركنا الأمور وأدخلنا التَّفْسِير الرمزى أو الصوفى أو الأيديولوجى فنحن هنا نحاول أن نطوع النص الدينى لأهواء البشر ومعتقداتهم، وأذكر أنه لعهد قريب فى مصر كان الإسلام قرينًا للاشتراكية، وقبل ذلك كان على لسان البعض مصدقًا لحركة رأس المال الحر وللتنافس الاقتصادىِ اللامحدود، وعلى ما يبدو أن كل زمان يحاول أن يجد فى النص الدينى متكأً لمعتقداته، وتلك هى القضية.
وأعتقد أن الإسلام إسلام، لكن وصفه بأنه إسلام سياسى فى مقابل الإسلام الدينى أو اللاهوتى فأنا لا أتفق مع هذا على الإطلاق؛ لأن الإسلام بما هو

إسلام يمكن أن يضمن للإنسان حركته الحرة فى المجتمع، وفى تصريف أمور دنياه، وقد كان فيما ليس فيه نص قاطع الدلالة، ولحسن الحظ أن الرسول ( ) انتقل إلى الرفيق الأعلى ولم يحدد شكل الدولة، ولم يحدد كذلك إطارًا سياسيًّا معينًا، بل إن خلفاءه فيهم من استَخْلف كأبى بكر، وفيهم من أطلق الشورى كعمر، وعلى يد بعض الصحابة بدأ الملك العضود الوراثى، وبالتالى فمن الواضح أن كل هذه الأشكال قابلة لأن تستظلَّ بمظلة الإسلام، ما دامت لا تعارض نصًّا قَطْعِى الدلالة، ولو أراد الرسول أن يثبت نظامًا معينًا لدلَّنا عليه ولأَمَرَنا به.. فى هذه الحالة لم يكن لدينا أى مفر من اتباعه ولكن أراد الله قصدًا أن يكفل للبشر مساحة واسعة من الحركة. ولا ينبغى الربط بين الإسلام وأى حركة سياسية أو نظام سياسى؛ فالإسلام مظلة كبيرة يمكن أن يتحرك الإنسان فيها مهتديًا بمبادئه وإرشاده.

وهكذا أعطانا القرآن والسنة درسًا مهمًّا؛ فالقرآن الكريم -وهو النص الإلهى الذى نتعبد به- لم يجد حرجًا على الإطلاق فى عرض جميع الآراء المخالفة لعقيدة الإسلام بمنتهى الأمانة والموضوعية والصدق عندما قال بلسان المشركين: مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)22(، وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)23(.

وما أريد أن أؤكده هو أن العقيدة القوية لا تخشى المخالفة والمناقشة والحوار، وعلى مستوى السنة فنحن نعلم أن سهيل بن عمرو الذى كان الطرف الآخر فى صلح الحديبية مع الرسول عندما وقع أسيرًا فى إحدى الغزوات طلب عمر بن الخطاب من الرسول أن يسمح له بنزع سنتيه لكى لا يقوم خطيبًا بعد ذلك فى مقام يهاجم فيه المسلمين، لكن الرسول لم يسمح لعمر بهذا، وقال له: دعه عسى أن يقوم مقامًا تحمده، وكان أن أسلم سهيل وكان سلاحًا ماضيًا فى حروب الردة ضد المرتدين، وكان لسانه فى هذه الحرب لا يقلُّ قوة وحسمًا عن سيف خالد بن الوليد.

وهذه الدروس أو بعضها تحركت بها الحياة الفِكْرية فى الإسلام وهذا يدفعنى للقول بأننا إلى الآن نقرأ رسائل الراوندى ورسائل إخوان الصفا، وكذلك نقرأ كتاب الملل والنحل للشهرستانى الذى يحمل أشد الآراء تطرفًا وغلوًّا وبُعدًا عن السواء، ونعتبر هذا تُرَاثًا نناقشه ونتعامل معه ونأخذ منه ونترك، فتاريخ الإسلام والمسلمين على مستوى الدراسات اللغوية والكلامية والفلسفية -بل على كل المستويات الأخرى- مصداق لهذه الحرية، ومصداق لهذا التحرك، ومن يقرأ رسائل الراوندى يكاد يعجب كيف يمكن أن يصل إلينا هذا الكلام دون أن يُحرق أو يُصادر، مما يؤكد أن العقيدة التى مصدرها إلهى لا يمكن أن تخشى بشرًا أيًّا كانت درجة مخالفة هذا البشر، بل من الإساءة للإسلام أن نجعل العقيدة الإسلامية فى موطن الخائف المرتاب الذى يحسب لأفكار البشر حسابًا، ومن هنا أكاد أقول إننا لم ندرك تاريخنا الفِكْرِىّ والثَّقَافِىّ جيدًا.

• فى فترات التراجع الحضارى يكثر البحث فى القرآن عن أصل كل مستحدَث أنتجه الآخر.. فهل يمثل ذلك جبرًا للذات المتخاذلة عن البحث والاكتشاف تبريرًا للعجز؟
أعتقد أن هذا أحد مظاهر البحث وراء محاولة إثبات الذات عن طريق غير رشيد، وهو نوع من تحميل النص الإلهى مضامين لا صلة له بها، أو على الأقل لا نتوقع أن يتعامل معها من مستحدثات الحضارة والنَّظَرِيَّات الرياضية والطبيعية وغير ذلك. وما أظن القرآن مطالبًا بأن يكون كتابًا فى إحداها؛ فالقرآن دين يحكم السلوك ويحدد غاية ومسير الوجود الإنسانى، ويهدى هذه الحركة فى سبيل استخلاف هذا الجنس فى الأرض واستعماره فيها، ومن هنا أعتقد أن هذا أحد مظاهر التخلف والضعف، وتتجاوزه حركة الإنسان المسلم عندما يعى ذاته وقيمه وعقيدته التى ينتمى إليها.
• هل ترى أن الخطاب الدينى الأصولى الرجعى يمكن أن يسهم بدور فى صناعة التطرف؟
التطرف لا يمكن أن تصنعه فئة، هى قد تغذيه، لكنها لا تصنعه؛ لأن صناعته مرتبطة بالحركة الاجتماعية وبمجمل العلاقة بين السُّلْطَة والبشر بوجه عام، لكن على أى الحالات بعض الذين ينتمون أو الذين يصنفون فى طائفة العلماء ربما تكون لنا ملحوظة على فهمهم للدين، والرسول كان يربِّى الدعاة إلى الله بطريقة معيَّنة فيها قَدْر من التبشير لا التنفير، فيها قدر من السماحة وانفتاح الذهن والبصيرة والوَعْى بالضعف البشرى، لذلك عندما يفتقد الداعية هذه الصفات -مهما يكن إخلاصه للعقيدة التى ينتمى إليها- فإن سلوكه يؤدى دائمًا -على عكس المراد منه- إلى زرع بذور الخلاف وتنفير الناس. إن الدعوة إلى الله أمر ليس هينًا ولا ينبغى أن يتعرض له إلا من يجيده ويحسنه ويخلص الأداء فيه.
• فى عصر الثَّوْرَة المعلوماتية لا تزال المعرفة عند المسلمين ثابتة وغير قابلة للاتساع، فهل يقف ذلك وراء القصور فى فهم النص الدينى؟
لم يكن المسلمون كذلك فى عصورهم الأولى؛ فقد كان الاجتهاد واردًا، بل كانت مخالفة الرسول فى الاجتهاد واردة أيضًا، ولنا عشرات الشواهد على ذلك فى السيرة النبوية، ويكفى أن أقول إن العقل المسلم فى بدايات النهضة الإسلامية استطاع أن يميز تمييزًا واضحًا بين ثوابت العقيدة ومتغيرات المعرفة البشرية، واستطاع أن يتعامل مع هذين المنظورين بكفاءة عالية؛ فثوابت العقيدة هذه لا مجال للقول بتطورها، إذ فيها ما يتعلق بالألوهية والوحدانية وصفات الله والرسالة والأصول الإسلامية وأصول الفقه والعقيدة، هذه كلها أمور اعتُبرت دائمًا من الثوابت، ولم تكن مجالًا للتطوير، لكن هذا لم يمنع العقل الإسلامى من التعامل مع تُرَاث البشرية كله وقراءته والإفادة منه والإضافة إليه وتطويره وتسليمه إلى أوروبا فى العصور الوسطى لتبدأ حضارتها وتنطلق. فالإنسان الذى يؤمن بثوابت العقيدة لا يعنى هذا -على

الإطلاق- أن يكون متحجِّرًا فى ثوابت معرفية غير قابلة للتطور، ومن هنا إذا كانت قد عرضت للإنسان المسلم فترات جمود حضارى وتقاعس عن الإسلام والإسهام فى المَسِيرَة الحضارية فربما كان هذا لبعده عن المفهوم الحقيقى للإسلام، وليس لتمام التمسك بهذه المفاهيم.

• إذن كيف تبلور الدور الحضارى المطلوب إزاء فهم النص الدينى؟

أتصور أن يأخذ هذا الدور خطوات، أولها التمييز الذى يقوم على عدة أسس هى: التمييز بين هذا النص الدينى وفهم البشر لهذا النص، وعدم إضفاء أى قداسة على فهم البشر للنصوص، وإعطاء الجميع -ممن يُخلصون النية ومن يفقهون لغة النص- فرصًا متساوية فى الاجتهاد، وفيما يتعلق بدور النص وفاعليته ثم التمييز بين ما هو قطعى الدلالة فى النصوص وما هو مجال للاجتهاد، ولحسن الحظ أن الأحكام قطعية الدلالة محدودة جدًّا فى الفقه، وأن الاجتهاد يردُّ على تنفيذها وعلى شروطها وعلى الأحكام المتعلقة بها، ويأتى بعد ذلك الأساس الثالث والأخير الذى هو الوَعْى بالدور المطلوب من الإنسان المسلم فى هذه الحياة؛ إذ لا بُدَّ أن يُوجِدَ لنفسه مكانًا فى حوار الحضارات يستعيد به للثَقَافَة والحضارة الإسلامية دورَها الفاعل والمنتج وكيف يمكن أن يتحقق له: هل يتحقق له بقوة السلاح أو بقوة القمع والتسلط والاستعلاء؟ هذه كلها أمور أعتقد أنها لا يمكن أن تكفل للإنسان المسلم مكانًا فى عالم لا يؤمن إلا بالحوار ولا يؤمن إلا بتبادل الخبرات، ونحن لا نقول إن القوة العسكرية غير مطلوبة، ولكنها ليست الوسيلة على الإطلاق لفرض مفاهيم الحضارة الإسلامية على العالم، وإنما هذه الحضارة لا يمكن أن تجد مكانًا إلا باعتناق فِكْرَة الحوار المفتوح الذى لا يتخوف من أى احتمالات؛ فلقد استطاع الإسلام أن يظل كيانًا يتمتع بالوجود والاستمرارية، يتمتع بالفعل ولم تحبطْه التعددات التى بلغت أحيانًا مبلغ التناقض. فإذا أخذنا أنفسنا بالإخلاص فى فهم النص -دون قصد مباشر إلى أن نجعله طوعًا لأفكار سابقة ولمعتقدات آمنا بها- فإننا نستطيع فى كثير من الأحيان أن نصل إلى كلمة سواء فى فهم النص، أو على الأقل سيكون حجم الخلاف ليس مؤديًا للتناقض والتضارب، وأعتقد أن أساس المأساة كلها أننا لا نعالج النص الدينى من منظور أو من منطلق الإخلاص فى فهمه، ومحاولة الاقتراب منه، ولعلنا نتذكر نصيحة والد الفيلسوف والشاعر محمد إقبال لابنه عندما كان يحفظ القرآن؛ حيث كان يقول له: يا بنى اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك!

معنى ذلك أن نتجرد للقرآن، وأن نأخذ عنه ونرد عليه دون إرادة سابقة لفرض مفاهيم البشر على النص. والشىء المؤكد أننا إذا أخذنا أنفسنا بالإخلاص فإن كثيرًا من مظاهر الشقاق والخلاف يمكن أن تزول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

)22((الجاثية: 24)
)23((الفرقان: 5)

حسين مؤنس.. مقدمة إلهية للتاريخ

سلام عليك أيها النبى فى يوم مولدك... تمرُّ الأعوام وتتعاقب الأجيال وتُطوى صفحات من عمر الزمان ويبقى لذكراك الخالدة بريقها وملامحها، رمزًا للحب والصدق والحق والعدل، وقيمًا سامية تشرَّبناها واستلهمناها حتى صرنا أمةً وسطًا؛ الحق دستورها، والعدل شريعتها والصدق منهجها، والخير رسالتها.

إن ذكراك -سيدى- لا تتجدد فينا كل عام، بل كل لحظة، وتُلقى علينا بظلالها القدسية؛ إحياءً لأرواحنا التى قتلتها المادة، وجهادًا يَحُولُ دون ارتدادِ البصيرة، وأملًا تغزوه الحقيقة، وطاقة تعصمُنا من الهوان... كانت هذه هى بعض خواطرى التى استقبلتُ بها كلمات د. حسين مؤنس حين ساقتنى المقادير للقائه... وجدتُه ألوفًا ودودًا كريمَ الخُلُقِ موسوعى الثَّقَافَة، له ذات متصوفة تَجُولُ عالم المثل والفضائل، وذات أخرى عاشقة للإسلام تلتمس إنهاضه فى عقول أصحابه... نعم ابيضت عيناه من الحزن بعد أن أفنى من عمره ثلاثة عقود خط خلالها أطلس تاريخ الإسلام، الذى حدَّثنى بشأنه فى عبارة مريرة قائلًا: "أخذ منى عينًا ونصف عين"، لكنه لم يكمل البُعد الآخر للمأساة، التى تمثلت فى الحسرة القاتلة بين ماضٍ وحاضر ليس بينهما أية وشائج تاريخية أو ثَقَافِيَّة أو اجتماعية.

• المؤكد أن الحديث عن رسول الإسلام ما زال يلهم أى مُفَكِّر إسلامى.. هل يمكن أن نستحضر لحظة ذلك التحول التاريخى الممتد فى الزمن؟

سيظل الرسول الكريم يواصل رسالته ودعوته الإنسانية التى يسعى إليها طلاب الوحدة والعدل والمساواة، وإننا إذ نأخذ فى الحديث عن سيدى رسول الله يواجهنا سؤال: ماذا نعد وماذا نحصى؟ ماذا نذكر وماذا نترك؟ وحياته -كلها- سلسلة من الكمالات وآيات فى العظمة والجلال بما لا يدع لنا حاجة للنظر فى تاريخ حياة الفلاسفة والحكماء... فنبيُّنا مدرسة كبرى يتعلم فيها المسلمون مقومات الخلود من صدقٍ فى القول وإخلاص فى العمل وثبات على المبدأ والعقيدة وتضحية فى سبيلهما وشجاعة وجرأة وحُبٍّ ورحمة وسياسة وحكمة وشرف وحياة فاضلة وإنسانية كاملة لم يمثِّلها أحد قبله، ولن ينالها أحد بعده.

وإذا استنطقنا الحروف ستنطق كلها بأن "محمدًا" كلمة خُلقت لتكون رمزًا للخلود الأبدى... كما أننا إذا نظرنا إلى معضلات البشرية بعد أربعة عشر قرنًا سنجد أن القضايا الكبرى الثلاث هى الوحدة، والعدل الاجتماعى، والإخاء الإنسانى، وسنجد خصوم الإنسانية على الجانب الآخر ما زالوا يعملون على تمزيق البشرية إلى أقليات ووطنيات وقبليات، وهذا ما حسمه الإسلام، ونجد أنهم أيضًا ما زالوا يحولون دون تحقيق العدل وإعطاء الكل حقه، ورفع الطبقات الفقيرة إلى مستوى عادل فى الرزق، وهو ما دعا إليه الإسلام، ولا تزال التفرقة العنصرية تأخذ مداها بمساندة المستعمرين. ورسالة الإسلام

ليست رسالة متقوقعة على ذاتها، بل إنها ذات أثر هائل فى حياتنا المُعَاصِرَة؛ لأنها رسالة الأبُدَّ التى استمدت قدرتها على الالتقاء بالحضارات والأزمنة والأقطار المختلفة. ولا تزال تشقُّ طريقها بقوة. وبغير مؤسسات تبشيرية خاصة، وإنما بالقوة الذاتية المستمدة من القرآن.
ويكفى أن صورة الأسلام للدعوة الإسلامية فى بنائها الأول لا تزال قائمة ترسم أدق صورة للخطوط العامة لمجتمع الإسلام دينًا ومرتبة، فردًا ومجتمعًا، علاقات المسلمين بالله وببعضهم فى قيم عامة شاملة صالحة قادرة على أن تهدى المجتمعات الإنسانية إلى غاية الغايات فى القوة والحركة والتَّقَدُّم والحيوية، فى ظل عدد من المقومات الأساسية. ولو استعرضتُ معك تاريخ كل الحضارات التى ظهرت على وجه الأرض فستجد للإسلام مدنية فريدة فى العالم استطاعت أن تجمع بين الفِكْر والعلم والعمران الرُوحِىّ والمادى، وتقوم على أسس أصيلة من العدل والإيمان وفنون الانتصارات العلمية، وحياة الرسول لم تكن إلا التجربة الحقيقية للنص القرآنى.
إن إنصاف الإنسان من أخيه الإنسان والجانب الأخلاقى هما اللمسة الحضارية فى الرسالة المحمدية، وما أحوجنا -نحن المسلمين- فى ظروفنا الحاضرة إلى استلهام الأخلاق الكريمة والتوجهات النبوية التى هى الأساس القوى للنهوض الاجتماعى وبناء مجتمع إسلامى يستوحى التيار الأخلاقى للرسالة مع متغيرات الزمن.

• على أى نحو يمكن أن ترى فلسفة النبوة؟

من طبيعة النفس أن إنسانية الفرد لا تعظُم ولا تسمو إلا أن تعيش فى محبوب، وبالتالى فإنسانية العالم لا تكون إلا إذا عاشت فى نبيها الطبيعى، نبىٍّ أخلاقها الصحيحة، وآدابها العالية، وعجبت أن يجهل المسلمون حكمة ذِكْرِ النبى عليه الصلاة والسلام خمس مرات فى الآذان، ثم حكمة ذكره فى كل صلاة؛ هل الكلمة من ذلك إلا الفرض عليهم بألَّا ينقطعوا عن نبيهم ولو يومًا واحدًا أو جزءًا من اليوم؟ يمتد الزمن والإسلام غَضٌّ كأيام الوحى، وكأنه فى يومه لا فى زمن بعيد، فما النبوة إلا أن تكون نفس النبى هى أبلغ نفوس قومه، بل ما كانت النبوة إلا لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية فى عالم المادة. ومن هنا فالإسلام فى حقيقته ليس إلا إبداعًا للصيغة العملية التى تنتظم الإنسانية فيها.

• والصورة العامة لمرتبة الاسلام كيف تراها؟

لقد نادت الرسالة المحمدية بمدنية إسلامية بلغت من السمو الرُّوحِىّ الحدَّ الذى مكّنها من أن تضع القيم الأخلاقية فى مواضعها الطبيعية، وأن تحدِّد لك جانبًا فى الحياة الفطرية، وتعين له نوع السُّلْطَة التى يجب أن توجهه وتتحكم فيه، مما رفع شأنها وأثبت بالأدلة القاطعة أن من مبادئها الأساسية أن تكون الصدارة فى كل شىء لصالح الجماعة لا المنفعة الفردية. ويتأتى ضمن المدنية الإسلامية ما تستوجبه هذه المرتبة من استحالة أن ترى الصفوة

الإسلامية أية خطورة فى الاحتكاك بالغرب وتبادُل الإنتاج العلمى والفِكْرِىّ؛ لأن العلم فى ذاتِه مباح فى كل بيئة بل وواجب يمثِّل انعكاسًا نسبيًّا لصور الحقيقة العليا. وفى هذا الإطار لا يكفى الاستعداد لقبول حلول بعض المشكلات حسب طرائق الغرب، لكن هناك ضرورةٍ أن ينظر المسلم إليها على صور المبادئ الإسلامية إذا وجد فيها نصًّا أو عملًا من أعمال الرسول أو إشارة أو قياسًا وجب عليه أن يتخذَه، وإن لم يجد حاول الاسترشاد فيها بالرُّوح الإسلامية العامة، فإذا لم يجد لها أدنى اتصال ظاهرى بتلك الرُّوح اجتهد فيها برأيه الخاص، مستنيرًا بقول الرسول) ("أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُئُونِ دُنْيَاكُمْ".

• يسرد تاريخ الحركة الاستشراقية الكثيرَ من المقولات عن الإسلام ورسوله.. أى هذه المقولات كانت محل وقفة؟

بصفة عامة لسنا بحاجة للتدليل برأى كاتب أوروبى على سمو الأخلاق النبوية إلى أقصى ما تسمح به الطاقة البشرية، لكن الباحث المحايد إذا بذل أدنى عناية فى البحث انكشف له من الحقائق ما يبهر العقل، ومن هؤلاء "ديزيريه بلانشيه" الذى قال)إن النبى محمدًا أبرز وأشهر رجال التاريخ؛ فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة، وهى: أنه أحيا شعبًا، وأنشأ إمبراطورية، وأسَّس دينًا(. والشاعر الفرنسى "لامارتين" قال)إن محمدًا أقل من إله وأعظم من إنسان... إنه نبى(، والمستشرق الفرنسى"ليبون" قال عن القرآن:)حَسْبُ هذا الكتاب جلالًا ومجدًا ان الأربعة عشر قرنًا التى مرَّت عليه لم تستطعْ أن تجفِّف ولو بعض الشىء من أسلوبه الذى لا يزال غضًّا كأن عهده بالوجود أمس(، وهناك مقولة "برنارد شو")لو تولَّى العالمَ الأوروبى رجلٌ عظيم كمحمد لشفاه من عِلَلِهِ كافةً(، وما يظهر لنا الآن على الساحة هو أن بحوث المستشرقين عن الإسلام فى تَقَدُّم يوشك أن يكون مطَّرِدًا نحو الاهتداء إلى حقيقة هذا الدين فى أصوله ومنابعه الجوهرية.

• وعلى صعيد آخر.. ترى ما هو الدور الذى يجب القيام به إزاء محاولات تشويه الفِكْر الإسلامى؟

فى رأيى أن الفِكْر الاسلامى ليس هو الإسلام نفسه، من حيث هو وحى ثابت فى القرآن والسنة الصحيحة. وإنما الفِكْر الذى نقصده لا بُدَّ أن ينطلق من ضوابط الإسلام والمواقف الاجتهادية لعلماء الاسلام ومُفَكِّريه، وعلى كل مسلم أن يعرف أن الدين الإسلامى ليس فِكْرًا أو تصوُرًا أو فلسفة؛ فما هذه إلا إفرازات العقل الإنسانى. لكن من الحقائق الواضحة أن الفِكْر المُفْرز إذا كان فى إطار ضوابط الإسلام وقواعده فإن إمكانية الخطأ فيه تقلُّ عن إمكانية الخطأ فى الفِكْر الذى ليس له حظ من عصمة الوحى الإلهى.

أما محاولات التشويه والإساءة، فهُى حصاد ادعاءات خاطئة وأحقاد موروثة، ولقد سلكتْ فى هذا مسلكين؛ الأول: تشويه معالم الثَّقَافَة العربية ذات الأصول السليمة، وادعاء أنها قد تأثَّرَتْ بالثقافات الأجنبية، والثانى: محاولة

توسيع دائرة الفِكْر الإسلامى حتى يشمل الفلسفات الغربية والتيارات المنحرفة ذات الأصول الهندية والمجوسية، وكل ذلك من أجل أن يصبح الفِكْر الاسلامى متَّهَمًا أمام نفسه! ومن الحقائق التى يغفلها هؤلاء أن حركة الجدال العقلى فى الإسلام نبعت من تطور المجتمع الإسلامى نفسه، وأن الفقه الإسلامى بُنى على أصول الشريعة الإسلامية وقواعدها العامة، وحركة الزهد والتصوف الإسلامى المستقيم كانت ثمرة المبادئ الأخلاقية التى رسمها القرآن. أما اليوم، ونحن نعيش فى خضم الصراع الفِكْرِىّ الذى تتصادم فيه الفلسفات والأفكار، فلا بُدَّ لنا من أن نتعرف عليها ونتغلغل فى أصولها واتجاهاتها؛ حتى نميز الأمور ونحدِّدَ المبادئ. ومهمة المُفَكِّرِين الإسلاميين أن يكشفوا التيارات الجديدة بمقدماتها ومصطلحاتها، فخطورة هذه الاتجاهات كبيرة.

• كيف نجدد هذه المناسبة لنجعلها تمثل صفحة جديدة بين آن وآن فى مُسْتَقْبَل العالم الإسلامى؟

أفضل استثمار هو الجهاد الفِكْرِىّ للتخلص من مركب النقص الذى طالما أزهق النفوس وسَوَّلَ لها أن مُناصرة الدين ضرب من التأخر بل التخلف، فلا نريد أن نهوى كما هوى العالم الغربى؛ بسبب تناسيه للعالم الأعلى شيئًا فشيئًا.

• وماذا أنت قائل للرسول) (؟

سيدى.. أقرأ مسيرتك كل يوم.. وأدرك بعمق أنك أنت المعلم الأول والأخير، ولم تبلغ الإنسانية رشدَها إلا بمولدك وسيرتك ودعوتك هى المقدمة الإلهية للتاريخ وللشخصية الروحانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذكريات مُسْتَقْبَلِيَّة للمعادلة السياسية

بطرس غالى.. إسرائيل كيان مصنوع من حماقات العرب

ساعات رائعة قضيتها مع د. بطرس غالى تجلَّت خلالها المعالم الفعلية لغابات السياسة الدولية وأحراشها، إذ بلغت فيها نَظَرِيَّات الدهاء آخر مشاهد الخيال، واخترقت تكنيكات الخداع مساحاتٍ هائلةً من اللامعقول، وباتت الكرة الأرضية هى كتلة الشر المستطير بفعل سِيَادَة مشاعر الكراهية وتسييد الذات واحتقار الآخر وتفعيل استراتيجية إبادته، من ثَمَّ فقد استحكمت المعضلة وصار البحث عن العدالة والسلام من أكبر عبثيات التاريخ السياسى؛ لأنهما يشكِّلان خطرًا داهمًا على مصالح الكيانات التى تربأ بذاتها عن الاقتراب من دائرة القيم والمُثُل والمبادئ، إلا فى الإطار الدعائى الداعم لمزيد من المصالح على أصعدة أخرى... تُرى أية حلول تقتضيها هذه المعادلة؟ ومن يقدمها؟ ومن يملك إقرارها فى الواقع المُعَاصِر؟

ولقد حاولت المساس بذلك الميراث الأسود الذى خلَّفته أمريكا لديه، حين اتخذت مواقفَ ضِدِّيَّةً منه، وما انعكس من ذلك على نفسه وعقله، وقد أخذتنى لهفة الأمل فطلبت إليه تشرُّفًا أن يخطَّ قلمُه مقدمةَ كتابى)أمريكا أسطورة العدم(... وقد أخذه الحماس بشكل جارف بعد أن استعرض فصول الكتاب، إلا أنه فى اللحظة الأخيرة اعتذر فى ديبلوماسية هادئة راقية؛ نظرًا للعديد من الحساسيات التى تشوب الموقف، وتمنى لو كان الكتاب يختصُّ بقضايا القانون الدولى، لكن مع أسف الأسف.. استفاقت ذاكرتى على كونى من كتيبة علم الاجتماع السياسى!!

• الشرق الأوسط منطقة اللغم الكونى الأكبر.. فى رؤيتك هل تنتظر حربًا وشيكة؟

مبدئيًّا أنا غير متفق على أن هناك احتمالًا لحرب، إنما أستطيع أن أؤكد أن هناك احتمالات كبيرة لحركات هدامة ولمواجهات دامية، لكن دون أن تصل إلى درجة الحرب، وإذا كانت المنطقة -كما يقال- على فوهة بركان، فإن هذا البركان لن يكون حربًا بالمعنى المعروف، وإنما سيأخذ صورة اضطرابات وإرهاب وعدم استقرار بين الحكومات، لكن أيضًا كل هذا لن يسير فى اتجاه الحرب النظامية. وقبل أن نتساءل عن سبيل لحسم الصراع العربى – الإسرائيلى، فهناك حقيقة لا يجب إغفالها بحال؛ وهى أن إسرائيل الآن -وقبل الآن- قد أصبحت تمثِّل كيانًا سياسيًّا صنعته الأخطاء والحماقات العربية، وعلى ذلك لا سبيل إلا لمحاولة التعايش، لكن دون التفريط فى أى من الحقوق العربية.

• تسجل الأدبيات السياسية رؤية عنصرية لـ"هنرى كسينجر" فى وصف "شارون" بأنه أخطر سياسى عرفته منطقة الشرق الأوسط.. لأى مدى يمكن أن تتفق مع هذه الرؤية؟
لا أتفق مطلقًا على أن شخصًا بمفرده يستطيع أن يلعب دورًا أو يؤثِّر تأثيرًا محوريًّا مباشرًا على أمور السياسة وتوجهاتها المتشعبة والمتغيرة أيضًا؛ لأن الشخص مقيَّد بالمؤسسات الدستورية، حتى لو كان رئيس وزراء، فإنه يجب أن يأخذ فى الاعْتِبَار موقف الأحزاب الأخرى. أقول: إننى تفاوضت مع شارون على مدى أشهر وسنوات طويلة، وكان ذلك منذ أكثر من عشرين عامًا، وبالتالى فلا أستطيع أن أطلق حكمًا قاطعًا عليه؛ لأن الإنسان يتغير بحكم التجارب والسن، وبالتالى يصعب علىَّ أن أقدِّمَ رأيًا فى الوقت الحاضر.
• بوصفك أمينًا عامًا سابقًا للأمم المتحدة.. هل تعتقد أنها الآن -وربما بعد الآن- لم تَعُدْ تمثِّل إلا كيانًا سياسيًّا هزيلًا يستوجب إعادة صياغة هيكلها وسياساتها وبلورة شخصيتها وتحريرها من قبضة الدولة المارقة التى هى بالضرورة أمريكا؟
لا شك أن الأمم المتحدة ومنذ نهاية الحرب الباردة، بل منذ الثَّوْرَة التكنولوجية، تمرُّ بمرحلة انتقالية، لكنها لا تزال فى حاجة ماسة إلى أن تتطور وتتطور لكى تتماشى سياسيًّا مع فترة ما بعد الحرب الباردة، وتتماشى أيضًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا مع الثَّوْرَة التكنولوجية. إن الأمم المتحدة تمرُّ بأزمة حقيقية لها بُعدان؛ الأول: هو الأزمة المالية الحادة، والثانية: هو مأزق فقدان ثقة المجتمع الدولى بها لأسباب متعددة، وهذا يُعَدُّ أمرًا خطيرًا لهيئة دولية كان لها كيان سياسى هائل، وبالتالى نحن فى حاجة إلى أمم متحدة جديدة ومتجاوزة لأزماتها؛ حتى تستطيع إطلاق المجتمع الدولى من أزماته.
• الطوفان العولمى أحدث آثارًا بالغة فى توثيق أواصر العلاقات الدولية وتفكيكيها أيضًا.. كيف ترى ذلك؟
لا بُدَّ أن نقرر أن العولمة هى حركة لا مفرَّ منها، بما لها من آليات وميكانيزمات تطرح جوانبها الإيجابية، وعلى المجتمع الدولى ومنظماته كالأمم المتحدة والمنظمة الفرانكفونية والمنظمات الإقليمية، مثل منظمة الوحدة الإفريقية أو جامعة الدول العربية أن تحاول قدر ما تستطيع أن تنخرط داخل تلك العولمة؛ حتى تحقق أقصى استفادة ممكنة منها فى إطار الإيجابيات المطروحة. إذن فالظاهرة الخطيرة هى انسحاب دور واختصاصات الدولة لصالح منظمة دولية أو لحساب ما يسمى بالعولمة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن تلك المنظمات الدولية وتلك الدول الكبرى التى ستتولى إدارة العولمة ووضع قوانينها الصارمة هى ذاتها لا تخضع للنظام الديمقراطى.
فكأن هناك تناقضًا جذريًّا صارخًا بين الاجتهادات الديمقراطية أو الوطنية أو القومية، وعدم وجود ديمقراطية على المستوى العالمى، وبالتالى فالمطلوب كخطوة أولى معالجة الجوانب السلبية للعولمة بمحاولة جادة نحو إيجاد حِد

أدنى من الديمقراطية فى العلاقات الدولية، لكن كيف يكون ذلك؟ أولًا: بضرورة أن تهتمَّ الدول بالشئون الخارجية أكثر مما تهتم فى الوقت الحاضر، أما الحل الثانى فهو ديمقراطية المنظمات الدولية، ونستطيع أن نحقق ذلك من خلال مشاركة مؤسسات المجتمع المدنى أو ما يُسمى المنظمات غير الحكومية؛ لأن المشاركة لم تَعُدْ تقتصر على الدول أو الحكومات، فالمؤكد أنه إذا لم تُوجدْ ديمقراطية على المستوى الدولى فلن نستطيع أن نعزِّزَ الديمقراطية على المستوى الوَطَنِىّ.

• باعْتِبَارك رئيس المنظمة الفرانكفونية، هل هناك استراتيجية ما لمواجهة القيم العولمية التى تسعى إلى سحق الخصوصيات الثَّقَافِيَّة فى سياق رجعى تعمل أمريكا على تعميقه وسيادته؟

للمنظمة الفرانكفونية هدف حضارى هو تشجيع التعددية الثَّقَافِيَّة واللغوية التى تُعَدُّ عنصرًا مهمًّا لإقرار الديمقراطية فى العلاقات الدولية، وهذا فى حدِّ ذاتِه يُعتبر وسيلة مهمة لمواجهة سلبيات العولمة؛ لأن العولمة تتخذ صورة على المستوى الثَّقَافِىّ تتمثل فى إضعاف الثقافات واللغات الأخرى على حساب ثَقَافَة واحدة ولغة واحدة، وتقاليد واحدة، بل أساليب للحياة تكاد تكون واحدة، من الساندويتش إلى ميكى ماوس إلى الملابس، بمعنى آخر؛ كما أن الديمقراطية الوطنية فى حاجة إلى التعددية الحزبية، فإن الديمقراطية فى العلاقات الدولية فى حاجة أيضًا إلى التعددية اللغوية والثَّقَافِيَّة والدينية، وبالتالى نحن نرفض كمبدأ تلك المقولة التى تؤكد على أن هناك ثَقَافَة أهم من كل الثقافات.

• إذن أنت ترى أن هناك ارتباطًا ما بين فِكْرتى الفرانكفونية والديمقراطية؟

نعم.. هناك ارتباط مؤسَّس على أنه لا يمكن تعميق المشروع الفرانكفونى دون حدوث تَقَدُّم ملحوظ على مستوى المَسِيرَة الديمقراطية، ولهذا فإن الفرانكفونية تجعل من الالتزام بالديمقراطية أولويةً. ومن أجل الحفاظ على الديمقراطية، فإن الفرانكفونية تدين الانقلابات كما تدين كل وسائل الاستيلاء على السُّلْطَة عن طريق العنف أو أية وسيلة غير مشروعة.

• رغم الخلفية المعرفية العتيدة ومخاضات التجربة السياسية والثَّقَافِيَّة كانت لديك رغبة عارمة فى محاورة بعض رموز الفِكْر السياسى فى العالم... بينما أنت تُحَاوَر ولا تُحَاوِر، فما هى دوافع هذه الرغبة؟ وما هى طبيعتها.. نفسية ام فِكْرية؟

الحقيقة أننى أتحسس وأترقب دومًا كل الرؤى التى تتشوف عالم الغد، وأتطلع للجديد الذى لا أعرفه، ففى لحظة ما وجدتنى أبحث عن العناصر المشتركة بين الأفكار والأعمال فى فِكْر المستشرق "أنطونيو جروميكو" عن مفهوم العالم الثالث ومُسْتَقْبَل المجتمعات الإنسانية، وكذلك كانت جولتى فى عقل العالم الألمانى "فان بارلو فن"، حول منهجه الذى يجمع بين الفلسفة والمجتمع والسياسة. أما مصدر الرغبة فهو أن تتعلم الأجيال المُقْبِلَة خلفيات

حركة الأحداث العالمية؛ لأنها تظل مكوِّنًا رئيسيًا فى فهم وتطوُّر العلاقات الدولية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لطفى الخولى.. نحن ندخل تاريخًا جديدًا لا مرحلة جديدة من التاريخ

تدنو لحظات القرن العشرين من نهايتها، ويعلن غروبه عن وجهه الشاحب وملامحه الذابلة المنزوية وأيامه المنصرمة وأعماقه المنطوية على أحداث ضخام باتت شاهدًا على عمق تجربة الإنسان فى كهف الزمن! تلك التجربة التى قطعت أوصال التاريخ منذ أن كان، فلا يجتاز بعدها الإنسان مرحلة جديدة؛ وإنما يشقُّ بها منعطفًا آخر هو فوق كل جديد، وغير ذى صلة بما سبقه، ولن تكون له أيضًا صلة بما يتبعه! ولسنا هنا نقيِّم حركة التاريخ، وإنما نكتفى برصد نبض أعاصيره وعواصفه التى أكدت -بكل معنى- أن المُسْتَقْبَل هو كيان مستقل متفرد شاخص نحو الأمام دائمًا، متيَّم بما يطرحه من معادلات شائكة تلتبس على العقول وتختلط على الذكاء والمنطق!

وقبل أية محاولة لفك رموز تلك المعادلات تكون الوقفة خير هادٍ ودليل، وها هى قد كانت مع المُفَكِّر الكبير لطفى الخولى، الذى يُتحفنا دائمًا بتجلياته وإشراقاته الفِكْرية المتألقة، التى يخترق بها ضباب الواقع وما يثيره من تقلباتٍ مرعبة بين آنٍ وآن.

إن لطفى الخولى -بكل تاريخه الفِكْرِىّ والسياسى الحافل- لا يزال الاختلاف قبل الاتفاق حول آرائه يزيدنا ثراءً وخصوبة وانفعالًا حميمًا إزاء قضايا تلاطمت بها الأفكار، واختلفت فيها الرؤى، بل تباينت فيها الاتجاهات حتى تضاربت!

• الشرق أوسطية كمفهوم سياسى اقتصادى مُعَاصِر له أبعاد متعددة شُغل بها المثقفون والمُفَكِّرُون.. ما هى الرؤية التى تُقدِّمها عن هذا المفهوم؟

نحن إزاء منطقتين متداخلتين.. المنطقة العربية من حيث حجمها وعدد سكانها وإمكاناتها وثرواتها، فهى الجزء الأكبر أرضًا وبشرًا وفى إمكانياته، ومنها ما يُسمى منطقة الشرق الأوسط، التى هى فى مفهومى تضم المغرب العربى، خلافًا للمفاهيم الاستعمارية أو الغربية سواء البريطانية أو الفرنسية أو الأمريكية، أقول إن منطقة الشرق الأوسط توجد بها قوى وشعوب وقوميات ليست عربية، منها إيران وتركيا وإثيوبيا وإريتريا، ومنذ نصف قرن دخلت علينا إسرائيل بخطة ومنظور مؤدَّاه كيف تسخر منطقة الشرق الأوسط لخدمتها بما فيها القوة العربية، سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية أو الأمنية أو التكنولوجية، ورغم ما لإيران من خطة ورؤية، وكذلك لتركيا أيضًا، فنحن مع الأسف الشديد ليست لدينا هذه الخطة، رغم أننا نمثِّل الغالبية فى هذه المنطقة، فنحن لا نستطيع أن نقول فقط إننا عرب، وإنما نحن عرب وشرق أوسطيون أيضًا؛ لأننا لا نستطيع أن نخلع أنفسنا من المنطقة الكبيرة وننعزل فى كهف المنطقة الأصغر، فنصبح مفعولًا به من القوى الأخرى ولسنا فاعلين، بالإضافة إلى أنه فى إطار نظام الأسواق القارية الضخمة فلا مفرَّ من أن يكون هناك سوق شرق أوسطى، لكن للأسف

تحكمنا تلك النظرة الضيقة التى يفرضُها منطق انسحابى يخرج من المواجهة إلى التَّقَوْقُعِ، لكن فى النهاية ماذا سيكون الموقف بالنسبة إلينا، هل سننعزل عن هذه السوق؟ هل نتركه لإيران أو تركيا -رغم ما يمكن أن يكون بيننا وبينهم من مصالح ورغم الخلافات السياسية-، هل نترك إسرائيل حتى تصبح لها يد طُولى فى هذا الشرق الأوسط؟ أنا أعتقد أن السؤال هو: هل نحن عرب؟ أقول: نعم.. ولكن شرق أوسطيون أيضًا، وليس هذا بديلًا لذاك، وإذا كان بيريز بعد اتفاقية أوسلو قد أصدر كتابا حول الشرق الأوسط الجديد، فلنُصْدِرْ نحن العديدَ من الدراسات والأبحاث عن هذا الشرق الأوسط، ولكن من زاوية رؤيتنا ومصالحنا، فحتى الآن لم نصل إلى إيجاد صيغة سياسية اقتصادية أمنية تكنولوجية للمنطقة العربية، وبالتالى فأخطر ما فى الأمر انه من الممكن أن يحدث نوع من الصياغات لمنطقة الشرق الأوسط بينما نحن لا نزال على هذا التفرق والتشدد وأحيانًا التضاد.

وفى هذا الإطار أفهم أن تكون لنا خطة تقوم على أن العمود الفقرى لمنطقة الشرق الأوسط أمنيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا هو العمود العربى.. هو السوق العربى.. هو التفاهم العربى.. هو المصالح العربية، وأعتقد أن هناك نوعًا من الوَعْى المبشر داخل العالم العربى نجده فى مصر والسعودية أيضًا، ونجده فى سوريا إلى حدٍّ ما، ونجده فى المغرب كذلك.

• لكن هل بلغ هذا الوَعْى ما يشبه التيار العام؟

لا... ليس بعد، لكن على الأقل هناك إحساس بالحاجة القصوى إلى وجود هذه الكينونة العربية التى تستحضر قواها، خصوصًا مع قيام الغرب بخفض أسعار النفط بدرجة مهولة مع التحالف أو المحور التركى والصلف الإسرائيلى، وبالتالى فعلينا أن نمسك زمامنا بأيدينا ونسوق العلاقات العربية – العربية والعلاقات العربية – الشرق أوسطية.

• ماذا يعنى انفراد قوة واحدة دون غيرها بالسيطرة على مقدَّرات العالم بعد انسحاق قوة أخرى ضاربة.. هل يمثِّل ذلك اعتداليةً لحركة التاريخ أم انحرافية؟

القوة الأخرى التى تعنى بها الاتحاد السوفيتى لم تنسحب بإرادتها، وإنما مع الأسف انهارت من داخلها وتفككت، وأصبحت تعانى أزمات اجتماعية واقتصادية مهولة، وهذا أمر لم يكن متوقَّعًا فى العالم، وبالتالى وجدنا الولايات المتحدة الأمريكية تجلس على عرش ما يُسمى النظام العالمى الجديد، الذى يحاول أن يجدَ له صياغة وملامح بعد سقوط الاتحاد السوفيتى، وسقوط حائط برلين. تحاول أمريكا أن تنفرد بهذا النظام العالمى، بل تستفيد من هذا الانفراط بأقصى سرعة وأقصى قدرة ممكنة؛ لأنها تعرف أن ذلك وضع غير طبيعى ولن يُكتب له الاستمرار، فهناك قوى جديدة تتبلور، وأصبحت فى نفس الوقت -من آن لآخر- تحتج على السطوة الأمريكية! أقول إن هناك قوى جديدة لديها القدرة على أن تُنازع الولايات المتحدة -بقدر أو بآخر- فى هذا

الانفراد القطبى، وهى الاتحاد الأَوروبى، وتكشف الإحصاءات الأخيرة للاقتصاد أن أوروبا مجمل إنتاجها القومى كله قد وصل إلى ستة تريليونات دولار، فى حين أن الولايات المتحدة لم تتعدَّ خمسة تريليونات ونصف تريليون، وأعتقد أن هذا مؤشر له دلالته.

• أى الكيانات يمكن أن تترشح للتواجُه مع المارد الأمريكى؟

طبعًا كانت هناك اليابان مرشحة، والنمور الصغيرة أيضًا، سواء منفردة أو مع الصين، لكن الأزمة المالية الراهنة عرقلت نسبيًّا هذه المحاولات بشكل جدى، لكن لا تزال أوروبا والصين هما الاحتمالين الواردين حتى الآن، بالإضافة إلى ما يمكن أن يُسَمَّى بصحوة العالم الثالث الجديد، الذى انفرد وتحوَّل إلى عوالم ثلاثة، بدأ فى إطار الظروف الدولية الجديدة وظروف أن العالم يتحول إلى قرية صغيرة، إنه يحاول أن يثور، سواء من خلال بعض قواه، مثل قوة الـ 18 التى شاركت فيها مصر، أو قوة أمريكا اللاتينية مع القوة الأفريقية الجديدة التى تقودها جنوب أفريقيا، نجد أن هناك محاولات لكى يكون لها موقع فى القرار السياسى والاقتصادى فى العالم، ولا تصبح مجرد متلقِّية لضربات هذا القرار، أو على الأقل تحاول أن يكون لها خط دفاع يصل أحيانًا إلى حد الصدام مع الولايات المتحدة الأمريكية، هذا مظهر جديد وسيتبلور أكثر فأكثر؛ لأنه الآن هناك ظاهرة على مستوى العالم، والثراء المادى والثَّقَافِىّ والمعنوى والتكنولوجى والاقتصادى والعسكرى يتركز أكثر فأكثر فى الدول السبع الكبار، ومن حولها 14 أو 15 بلدًا أو باقى العالم بما فيه دول أوروبية مثل البرتغال واليونان، يدفع بها إلى مزيد من الفقر والإملاق المادى والمعنوى والتكنولوجى، لدرجة أنها لا تستطيع أن تواكب الحياة الجديدة، وفى هذا الإطار أيضًا هناك خلل بدأ يظهر على مستوى العالم فى ميزان الثروة وتركُّزها حتى على مستوى الأفراد، وقد عبَّر عنه التقرير الإنمائى للأمم المتحدة بوجود 358 بليونيرًا فى العالم مجموع ثرواتهم يصل إلى الدخل القومى لـ 45% من سكان العالم كله! أى أن الـ 358 فى كفة، وحوالى 3 بلايين إنسان فى كفة أخرى، وهذا أمر لا يمكن أن يستمر، فأمريكا والبلاد الأوروبية خصوصًا مع هذه القيادات الشابة ذات البعد الاجتماعى الغربى بدأت ترى أنه مع هذا التداخل فيما بين الشعوب والدول والقرية الصغيرة واقتصاديات السوق، التى رفعت كل الحواجز والحدود، لم تعد بمنأى عن التململ الشعبى للفقر بدرجاته المتفاوتة، سواء داخل بلادها أو فى العالم، وأصبحنا نرى واحدًا مثل كلينتون يقول: إننا لا نستطيع أن نستمرَّ أو نأمل أن نكون واحةَ رخاءٍ آمنة فى وسط بحر من الفقر يزداد غضبًا! وبالتالى أصبح هناك تفكير جديد بدأ من جانب الغرب، وهذا الجديد من جانب الرأسمالية، ففى ندوة عُقِدَتْ فى نيويورك شارك فيها "كلينتون" و"بلير" وعدد كبير من الخبراء وأساتذة الاقتصاد والاجتماع، بدأوا يتحدثون عما يُسمى الطريق الثالث الجديد، مؤكدين أن علينا لإيجاد طريق ثالث غير النظام الاشتراكى،

الذى سقط نتيجةً لأنه لم يحقِّق المساواة الفعلية والنمو الذى كان مطلوبًا كما هو موجود فى النظام الرأسمالى الذى توحَّش وأصبح يدمِّر كل ما حوله مثلما حدث فى جنوب آسيا واليابان، وبالتالى كان السؤال: هل هناك طريق ثالث لكى نستطيع أن نخرج من خطر ثَوْرَة تتجمع فى أفق العالم الذى أصبح قرية صغيرة بين الفقراء والأغنياء على مستوى الدول وعلى مستوى الشعوب بل على مستوى المُفَكِّرين والفنانين والاقتصاديين أيضًا، الثَّوْرَة القادمة لن تكون ثَوْرَة وطنية فى هذا البلد أو ذاك أو ثَوْرَة إقليمية، لكن كل المؤشرات والشواهد تعلن عن إعصار عالمى اجتماعى سياسى فِكْرِىّ.

• فى إطار التنظير السياسى الذى لا تستوقفه الأحداث العابرة أو الاستثنائية بقدر ما يطمح فى الوقوف على الدلالة والمغزى.. هل تعتقد أن "مونيكا جيت" بتَفْسِيرَاتها المتعددة سوف تؤثِّر أو تقلب موازين القوة السياسية فى أمريكا؟!

الذى حدث فى أمريكا بسبب ما يُسمى "مونيكا جيت" هو فى الحقيقة صراع داخلى يزداد عمقًا، منذ الرئيس كنيدى. ولقد كان كلينتون أكثر جرأة حين قال إن الطبقة الوسطى والفقراء والقوى المهمشة فى أمريكا لا تستطيع أن تستمر فى الحياة طالما أن كل الثروة مركزة فى 3%، وتلك نغمة جديدة فى بلد يقوم على الحرية الفردية المطلقة سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، وهذا هو السر وراء تلك الحملة الشرسة ضد كلينتون فيما يسمى بـ"مونيكا جيت".

كلينتون جاء ليقول إن هذا النظام لا يمكن أن يستمرَّ لصالح الاقتصاد الأمريكى والرخاء الأمريكى والانفراد الأمريكى بالسُّلْطَة فى العالم، قوى اليمين تقول لا.. نحن أمام رجل جاء من أفقر ولايات أمريكا -وهى أوركانسو- وغير معروف الأب، واسم كلينتون هو اسم زوج أمه، وأنه لما كان حاكمًا لتلك الولاية شارك فى ارتكاب الفساد والمخالفات. والملاحظ من ذلك أنهم شغلوه منذ البداية بعملية اتِّهَامات مالية وسياسية وجنسية كى يمنعوه من تنفيذ مشروعه نحو تغيير أمريكا، لكنه استطاع بقوى تحالف الشعب الجديد والطبقة الوسطى والقوى المهمشة والفقراء، الذين اتَّحدوا لأول مرة ضد قوة البيض العنصرية المسيطرة على الثروة. ولقد كانت هناك محاولات مضادة، منها أنهم أطلقوا الرصاص على البيت الأبيض لتخويفه بين آنٍ وآخر، ليس أرضًا بل جوًّا، فكل هذه المحاولات كانت لعرقلة تنفيذ برنامج تغيير أمريكا، الذى بدأ بتغيير نظام الضرائب بزيادتها على الأثرياء وتخفيضها على الطبقة المتوسطة لإتاحة الفرص ومحاربة الاحتكار، وإقامة نظام اجتماعى يخدم الطبقة الوسطى، وبالتالى ففضيحة مونيكا جيت نستطيع أن نعتبرها سببًا مباشرًا لضرب المشروع، وسواء انتصر كلينتون أو انهزم، فإن هذه المعركة قد غيَّرت أمريكا وفتحت أبواب الاحتمالات التى لا نظير لها؛ لأن العملية التى أخذها اليمين بهذا التوحش والشراسة كشفت عن تناقضات صارخة فى أحشاء أمريكا كانت غير مرتبة ثم ظهرت للعالم.

• الصدام الحضارى كنَظَرِيَّة شائعة على المستوى العالمى.. هل يتفق أو يختلف معها لطفى الخولى من حيث العموميات أو التفاصيل؟
إنها رؤية مُفَكِّر فى إطار أمريكى، وبمفهوم غربى يحمل بقايا ورواسب نظرة استعمارية عنصرية، أو أنها قضية الهلوسة التى شاعت فى أمريكا والغرب عمومًا، على أساس أنه لم يَعُدْ هناك عدوٌ بعد سقوط الاتحاد السوفيتى، فبدأ تفكير غريب شاذ يحمل بقايا النظرة الاستعلائية والاستغلالية الكامنة فى خلفية العقل الأوروبى والأمريكى، بمعنى أنه لا بُدَّ من البحث عن عدو، وهنا تتبدى نقاطٌ علينا أن نرصدها، أولها أن النظام المُتَقَدِّم تعوَّد بعد الحرب العالمية الثانية أن يكيف أوضاعه الاقتصادية والأمنية والفِكْرية على أساس أنه يواجه عدوًّا، وبالتالى كان له هدف واضح استطاع من خلاله أن يجمِّدَ طاقاته على أساس أن هناك عدوًّا يجب أن ينتصر عليه، وبالتالى أصبح النظام الأمريكى فى حالة انعدام وزن علاجها الوحيد ضرورة فبركة عدو، وهذا يعنى أن الفِكْر لم يصل لديهم إلى أن يكون هناك نوع من التفاعل والتآخى والتعايش مع باقى العالم، بل مع باقى الأفكار والحضارات، إن تصوُّره عن صراع الحضارات سيقوم بين هذه الحضارات وبين تآلُف سيحدث بين الأديان الشرقية غير السماوية، أعتقد أن هذا التفكير أكثر رقيًّا من التفكير المنحطّ الخاص بضرورة إيجاد عدو، فحركة الحياة على مدى القرون الماضية تعطينا دروسًا تؤكِّد أن الحضارات والثقافات فى العالم يوجد بينها حالة أخذ وعطاء مستمر.
• هل هذا مبدأ كونى؟!
الحقيقة.. لا؛ لأن هذا يمكن أن يتغيَّر، ونحن لا ندخل فى الأحداث الخطيرة غير المسبوقة فى تاريخ العالم علميًّا وتكنولوجيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا.. أقول نحن لا ندخل الآن مرحلة جديدة من تاريخ العالم، بل ندخل تاريخًا جديدًا تمامًا، المرئى منه لا يزال محدودًا، وهذا هو الذى يجعل عددًا من المُفَكِّرين يغامرون بهذه الأطروحات وهذه النَّظَرِيَّات عن نهاية التاريخ وصراع الحضارات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنرى لورانس.. الجمهورية الإمبريالية... مهارات تعويق الاستقلال والديمقراطية

الشرق – الغرب... قضية قديمة حديثة مُعَاصِرَة مُسْتَقْبَلِيَّة، قضية لم تترك عقل مُفَكِّر أو فيلسوف أو مؤرخ إلا استحوذت على حيز هائل من مساحة الوَعْى لديه، قضية متجددة تعتصرها الأجيال من حيثيات عدة كالبنية المعرفية وطبيعة الجغرافيا والشَّقَاق التاريخى والمناوشة السياسية والفرقة العقائدية والتباينات الحضارية. قضية لها تحوراتها المتلاحقة ذات التداعيات المريرة.. نهضة وانطلاق حضارى يعقبه تراجع، وانحطاط وتخلف تتبعه قفزات أسطورية، بالطبع إنها علاقة جدلية شائكة أفرزت على مدى أحقاب نقاشات وتحليلات وتَفْسِيرَات وتنظيرات؛ أملًا فى إعلاء النزعة الإنسانية التى تذيب الحماقات وتتسامى على الصغائر وتدفع نحو اللقاء الحميم الذى يجزم الجميع أنه اللقاء المستحيل!! وفى لحظات سراع مع هنرى لورانس)أستاذ تاريخ العالم العربى المُعَاصِر فى الكوليدج دى فرانس، وصاحب الدراسات الضخمة ذات الثقل العلمى والفِكْرِىّ(طافت برأسى العديد من التساؤلات، لأستوقفه قائلًا:

• تمثِّل فلسطين القضية المركزية فى الفِكْر السياسى لدى "هنرى لورانس"، وطبقًا لذلك فقد تصديتَ لها بإنجاز عمل موسوَعْى أشادت به العديد من الأكاديميات ومراكز البحث العالمية... ترى ما هى طبيعة الإضافة الفعلية -فِكْرية كانت أو سياسية أو تاريخية- وهل تمثِّل جديدًا يمكن أن يُحدث تغييرًا كيفيًّا فى معطيات القضية؟

بداية أقرِّر أننى أنتمى لمدرسة ما فى التاريخ الفرنسى، لكن التأريخ للعالم العربى يتطلب منهجًا خاصًّا، لذا فقد اعتمدت فى وضع كتابى "مسألة فلسطين" على منهج الشذرات، الذى يقوم على الرصد الدقيق لتتابع الأحداث بشكل يومى، وتحليلها بشكل مستقل. فمثلًا هذه اليوميات التى سجَّلتها قد مكنتنى وبشكل غير عادى من تحديد سمات الفترة التاريخية التى أدرسها، ولعل الكتاب فى جوهره ومضمونه إنما يقدم معالجات عن نشأة المسألة الفلسطينية مع بدايات الحركة الصهيونية، ثم ينطلق إلى تاريخ الحرب العالمية الأولى وما أعقبها، وصولًا إلى هزيمة يونيو وما آلت إليه الأوضاع مع إشراقات هذا القرن، حيث تغيرت خريطة العالم، وباتت القضية الفلسطينية فى حالة تراجع بلغت فيها أضعف مستويات التأثير العربى والدولى، وهو ما حقق للكيان الصهيونى إمكانية فرض إرادته المطلقة، وعمومًا الصراع العربى الإسرائيلى سوف يستمر طويلًا؛ لأنه صراع هوية.. صراع وجود. وأعتقد أن خطابات "بن جوريون" إنما تكشف عن أن النجاح الأكبر للحركة الصهيونية إنما يكمن ويتمثل فى تحويل المشكلة اليهودية إلى مسألة عربية خالصة، من ثَمَّ فإن الصراع فى الشرق الأوسط لن يتمَّ تحجيمه ما لم تكن هناك أسس

متينة للعلاقة بين العالم العربى ودوائر جواره الحضارى، التى تتعرَّض كليتها إلى خطر التفتيت والطائفية والمذهبية وغيرها من دواعى الانقسام.
• العالم العربى المُعَاصِر بكل ظرفياته وأحواله ومشكلاته ووضعيته المتراجعة حضاريًّا... كيف يمكن أن يتسق وجوده هذا مع الزمن الأمريكى... أو كيف يتراءى لك طرفا المعادلة؟
يبقى المشرق العربى منطقة تتعاقب فيها النزاعات والأزمات الدولية دونما انقطاع حقيقى. ويحدث كل شىء وكأن الهيمنة الأمريكية والرفض العنيف لها مُسَجّلان فى عين طبيعة النظام والثقافات السياسية فى المنطقة، أى فى استمرارية تاريخ مُعَاصِر مرَّ عليه الآن أكثر من قرنين. فالقومية والتدويل هما الحدَّان المتعارضان والمتكاملان فيما بينهما، واللذان يميزان هذه المنطقة. والحال أن الموقع الاستراتيجى ووجود الأماكن المقدسة للديانات التوحيدية الثلاث ووجود أهم الاحتياطات العالمية إنما تجتذب الدول العظمى الموجودة فى هذه اللحظة التاريخية أو تلك، وتجعل من الضرورى عليها القيام بعمل سياسى فى هذا المجال الجغرافى. والفاعلون المحليون يستخدمون -بل يحفِزون- هذه التدخلات، على الرغم من إعلانهم عن عزمهم على التصدى لها.
وما زال يتعين مواجهة تحديين رئيسيين، مرتبطين فيما بينهما: الاستقلال الحقيقى والدمقرطة. فالسُّلْطَات القائمة قد تمكنت من الاحتفاظ باحتكار الساحة الداخلية، مع إذعانها للقواعد الجديدة للُّعبة السياسة الدولية؛ فهى تابعة سياسيًّا للولايات المتحدة وتابعة اقتصاديًّا -بشكل متزايد وباطراد- للاتحاد الأوروبى. وهامش استقلالها الخارجى إنما يرتبط بقدرتها على استخدام مواقعها الجيوستراتيجية فى مساوماتها أو مقدرتها على تكدير نظام دولى مصاب بالهشاشة.
وهكذا فسوف يتوقف تطور المشرق العربى فى القرن الحادى والعشرين على بعض الضغوط، أولهما يعنى تدخلًا دوليًّا قويًّا، لإيجاد تسوية مُرْضِيَةٍ للمسألتين الفلسطينية والعراقية، وثانيهما ضغط داخلى؛ لأجل إقامة نظم سياسية، يَقْبَلُ فيها جميعُ الفاعلين قاعدةً مشتركة للمشاركة السياسية تسمح -فى نهاية الأمر- بتناوبات فى السُّلْطَة، أى لعبة مفاوضات دائمة تسمى فيها الولائية والنزعة الجذرية، وهما ممتزجتان امتزاجًا وثيقًا، تفاديًا للانجرار إلى المواجهة العنيفة.
وخلافًا لممارسات الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة، رفضت "الجمهورية الإمبريالية" تحمُّل مسئولية الاضطلاع بمعالجة مباشرة للمشكلات الإقليمية التى من شأنها أن تعنى انخراطها فى إعادة هيكلة عميقة لدول ولمجتمعات المنطقة. فأهداف هذه "الجمهورية الإمبريالية" إنما تقتصر على أن تؤمِّن لنفسها كل المصالح، وصولًا إلى الموارد البترولية بأسعار منخفضة نسبيًّا، وعلى أن تتمتع بسوق لسِلَعِهَا ولخدماتها. ولكى تتمكن مِن ذلك، فإن الحفاظ

على نظام إقليمى -بفضل وجود عسكرى قوى- إنما يُعد أمرًا لا غنى عنه. وبما أن هذه "الجمهورية الإمبريالية" لا تتطلع إلاَّ إلى أن تكون "شُرْطِىَّ" المنطقة، فإنها تتحرك فى تسوية الأزمات تحت ضغط الظروف، بجانب أن السُّلْطَات القائمة فى المنطقة إنما تعتمد على هذه "الجمهورية الإمبريالية"، كما لو أن هناك "حاجة إلى إمبراطورية".

• باعْتِبَارك مؤرخًا مخضرمًا أنتج العديد من المؤلفات الرائدة حول)أوروبا والعالم الإسلامى.. تاريخ بلا أساطير، الإمبراطورية وأعداؤها، الأصول الفِكْرية للحملة الفرنسية، الحرب والسلام فى الشرق الأوسط، المملكة المستحيلة... فرنسا وتكوين العالم العربى الحديث(... ما هى نظرتك الموضوعية لحالة التأريخ العربى المُعَاصِر من حيث الرؤية القائمة على العناصر المستحدثة والآليات المنهجية ذات الطابع التَّقَدُّمى؟

ما زال المؤرخون العرب يتناولون التاريخ العربى باعْتِبَاره فترة زمنية قائمة بذاتها منفصلة عن التاريخ الإنسانى، تبدأ بهذه الفترة الغامضة التى تُدعى بالعصر الجاهلى، وتنتهى بسقوط بغداد أو سقوط غرناطة، أما الأزمان التى سبقت الجاهلية فيخيم عليها الظلام؛ لأن هناك اعتقادًا خاطئًا بأن التاريخ العربى الإسلامى قد انتهى بسقوط الخلافة، كل ذلك يأتى انطلاقًا من الخضوع لتأثير المؤرخين العرب القدماء فى مناهجهم وطرائق المعالجة وأسلوب التفكير، من ثَمَّ لا تختلف كتب التاريخ الحديثة عما أنجزه الطبرى أو ابن الأثير، وحين يصبح التاريخ الحديث أسيرًا للتاريخ القديم فلا يعنى ذلك سوى نسف فجوة زمنية، وهو ما يمثِّل خللًا خطيرًا فى ديناميكية الفِكْر، يتمثل فى إقصاء المناهج الحديثة والمُعَاصِرَة التى كانت بالضرورة ستكشف عن بعض خبايا التاريخ وأسراره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عصمت عبد المجيد.. تآكل سِيَادَة الدول منهج مُسْتَقْبَلِىّ

كعبة أسرار وألغاز تتَّسم بالبساطة والوضوح، لكنها لا تبوح، عقل يكاشفك بحقائق مذهلة لكنه يدعك تستكشف أغوار هذه الحقائق وبواطنها، ونفس تعشق المغامرة الهادئة التى تظفر منها بمكتسبات قلَّما تحظى بها قامات لها سمتُ الإقدام والمجازفة والشجاعة الجوفاء، صارت لديه ميكانيزمات السياسة والديبلوماسية ممارسات اعتيادية، لكنها ظلت تمثِّل محاولة دائمة نحو إظهار أى جديد يمكن توظيفه فى آلية الفِكْر الاستراتيجى.. نصائح وأفكار وإلهامات عديدة وخبرات قدمها للعديد من الأنظمة السياسية التى اكتفت منها بالاستماع، بينما هناك بعض المنظمات الدولية اتَّخذتها مسارًا حيويًّا تجدد به وضعيتها... هكذا كان الدكتور عصمت عبد المجيد.. الأب الرُوحِىّ للديبلوماسية المصرية والعربية، الذى التقيته فى يوم عاصف ما زالت أستحضر لحظاته.

• فى رؤيتك.. ما هى الحقائق المعوِّقة لسِيَادَة السلام، أو ما هى الثوابت السلبية المحققة لتناقضية منظومة السياسة الدولية؟

لا بُدَّ أن نقرر أن هناك أجندة عالمية تحمل العديد من التحديات والفرص، بعضها جديد وبعضها الآخر متجدد، والتعاون من خلال هياكل إقليمية يعظِّم من قدرة الدول فى التعامل مع هذه التحديات، كما أن هذه الهياكل تشكل سياجًا واقيًا للدول الأعضاء أمام عواصف العولمة.

كما أن هناك بعض القيم والاتجاهات الفِكْرية والسياسية لا تزال فى مرحلة التبلور للتحول نحو قواعد مستقرة لنظام عالمى، وإن كان بعض هذه الأفكار قد دخل حيِّز الممارسة بشكل انتقائى، وهو حق التدخل الإنسانى. لكن ذلك يطرح علينا عددًا من الأسئلة: من يحدد هذا الحق؟ وما هى أدواته؟ وما هى حدوده؟ ذلك بجانب وجود تآكل مستمر للسِّيَادَة الفعلية للدول، خاصة فى الجنوب، وتراجع -إن لم يكن اهتزازًا- لمفهوم السِيَادَة القانونية... فهل نحن أمام مرحلة إضعاف الدولة أم تغيُّر بعض وظائفها، من ثَمَّ هل يكون الرد بالتمسك بالسِّيَادَة فى الشكل؟ أم بالعمل على خلق القاعدة المادية والسياسية لحماية هذه السِّيَادَة؟

إضافة إلى ذلك، فبعد سقوط ثنائية شرق/غرب، القائمة على الجغرافيا السياسية، ظهر فى الأفق هيمنة ثنائية شمال/جنوب القائمة على الجغرافيا الاقتصادية بشكل خاص، لكن الثنائية الجديدة تعيش أقصى درجات الاختلال الممكن بين طرفيها: شمال يملك ثَوْرَة التكنولوجيا التى تزيد من ثروة الإمكانات، كما يمتلك الهياكل التعاونية الراسخة والمتطورة، وجنوب ازداد تهميشه لأسباب خارجية وذاتية، منها استراتيجيات الخارج، ومنها حروب

الداخل أيًّا كان عنوانها أو أشكالها.. جنوب يمتلك إمكاناتٍ وقدراتٍ هائلةً لكنها غير مستثمَرة فى الحاضر.
من هنا فالضرورة الحضارية إنما تقتضى تطوير دور الأمم المتحدة لتتكيف مع المستجدات، ولتكون إطارًا منظمًا وشريكًا فعالًا فى إدارة التحولات العالمية الحادثة كوعاء للشرعيات الدولية، وكمصدر لسياسات تعبِّر عن هذه الشرعيات، بعد ان شاهدنا للأسف محاولات لتهميش دور الأمم المتحدة، وبالأخص فى المجال الأمنى والسياسى، وقد ظهر ذلك واضحًا عند صدور قرار مجلس الأمن رقم 1403، القاضى بانسحاب إسرائيل من الأراضى الفلسطينية المحتلة إثر مذبحة جنين، وظهر أكثر وضوحًا حين عجز الأمين العام للأمم المتحدة عن تنفيذ قرار مجلس الأمن 1405 القاضى بتشكيل بعثة لتقصى الحقائق فى أحداث جنين المأساوية، ويدخل ضمن ما قلت عن الحقائق المعوقة ان إسرائيل تتطلع -بواسطة سياسات التوسع الجغرافى والديمغرافى- للتحول إلى قوة عظمى إقليمية فى شرق أوسط تريد صياغته وفق مفهومها وحسب مصالحها، من ثَمَّ تظل مصدرًا للخطر الرئيسى على الأمن القومى العربى والأمن الوَطَنِىّ لكل دولة.
• فى إطار مغاير.. ما هى الحقائق الدافعة لسِيَادَة السلام وما تنطوى عليه من مفاهيم ومواقف؟
إن السلام ليس هدية أو منحة تُقَدّمها إسرائيل إلى العرب، بل هو ضرورة وجودية.. والسلام لا يمكن أن يقوم على الاحتلال واغتصاب الحقوق الوطنية المشروعة.
حقيقة أخرى، هى أن شمولية السلام تستدعى تحريك كل المسارات التفاوضية، وعدم السماح لإسرائيل باتباع استراتيجية اللعب على المسارات، وهى استراتيجية صارت معروفة ومكشوفة؛ بغية إرباك المواقف العربية. ومحاولة الحصول على تنازلات عربية.. من ثَمَّ فالرد على الاستراتيجية الإسرائيلية لإدارة المفاوضات بهذا الشكل تتطلب بلورة تنسيق عربى يعتمد قوة الدبلوماسية التفاوضية التى تتطلب التمسك بالشرعية الدولية؛ إذ لا يجوز التفريط بالمواقف القانونية والدبلوماسية، من خلال السماح بفك ارتباط بين عملية السلام من جهة وقواعد وقرارات الشرعية الدولية الحاكمة من جهة أخرى، لأن فك الارتباط بين الاثنين يدفع عملية السلام إلى وضع غير متوازن، ويجعلها تدور فى حلقة مفرغة تستفيد منها إسرائيل التى تعمل جاهدة للحفاظ على الوضع القائم.
إن المرونة فى الحركة التفاوضية التى تحكمها تطورات الأحداث والتوازنات المتغيرة ممكنة وضرورية، طالما اندرجت فى إطار الثبات على الأهداف الاستراتيجية وعلى القرارات الصادرة
من الأمم المتحدة. لكن الشرط الضرورى لإنجاح المفاوضات هو منع استمرار الاختلال فى توازن القدرات لمصلحة إسرائيل، والعمل على خلق

توازن ضاغط على إسرائيل لدفعها إلى التفاوض، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال تجميع كل القدرات العربية فى إطار سياسى يمثله توافق عربى فاعل. وبصفة عامة فالمطلوب بلورة ما يُعرف بخريطة طريق، والتى تحدد بشكل واضح لا يقبل التأويل الأهدافَ العربية العليا لعملية السلام، ويمنع بالتالى محاولات إسرائيل امتلاك حق النقض تجاه هذه الأهداف، أو محاولة ربط تحقيقها بالاستراتيجية التفاوضية الإسرائيلية، الأمر الذى يؤدى إلى رهن أهدافنا العربية فى يد المفاوض الإسرائيلى.. ويسقط عملية السلام من خلال نسف مرتكزاتها المبدئية والشرعية، كما أن وضوح هذه الأهداف يسمح للدبلوماسية العربية بالتحرك لصنع موقف دولى موحد وقوى يُترجم إلى سياسات داعمة لعملية السلام.

• فى ظل ممارساتك المتعددة فى المحافل الدولية ألم تتواجه بشىء من الطوفان المعادى للإسلام... ألم تتواجه بتلك الاستعلائية الغربية التى دائمًا ما تضع الشرق العربى الإسلامى فى بوتقة التخلف؟

بالفعل.. حدث ذلك فى المؤتمر الأورومتوسطى بمارسيليا؛ إذ هبَّت نائبة البرلمان الأوروبى الفرنسية "فرانسواز جروستيت" متهمة العقيدة الإسلامية بمعاداة المرأة وربما اضطهادها، فلم يكن منى إلا أن وجهت لها وللمجتمعات الغربية بأسرها كلمة لاذعة، قلت فيها على ما أتذكر: نحن نعتبر أنفسنا أصدقاء للغرب، ولذلك نحرص على فهمه، بينما هو لم يكلف نفسه عناء فهمنا أو الاقتراب من فِكْرنا، والدليل على ذلك هو ارتفاع أصوات بين وقت وآخر، منها صوت النائبة التى تنتقد الإسلام عن غير علم أو بصيرة، وتَصِمُهُ بتُهَمٍ هو منها برىء وعنها بعيد. إن الإسلام الذى تتحدثين عنه يا سيدتى، ليس هو إسلامنا الصحيح، وإنما هو إسلامكم أنتم الذى صنعتموه لأنفسكم من محض افتراءات وأكاذيب لا علاقة لها بواقع الدين ولا بحياة المسلمين.

وأرجو أن تسمعى ما أقولُ لكَىْ تصححى ما برأسك حول الإسلام وأهله، فديننا الحنيف هو دين التسامح والتراحم والرأفة، ولكن المؤسف أنكم عندما تتحدثون عنه تتناسون ذلك، ولا ترونه إلا من منظور الأصولية والتطرف، وهو ما يجعلنى أتساءل: لماذا لم نسمع أحدكم -معشر الباحثين الأوروبيين- يتحدث عن الأصولية والتطرف عند الصرب الذين فتكوا بمسلمى البوسنة واستباحوا لأنفسهم دماءهم وعرضهم، وهو ما لا يقرُّه عقل أو دين أو منطق سوى؟ أم أن الأصولية والتطرف والتعصب هى -فى شريعتكم المغلوطة- ليست إلا من نصيب الإسلام والمسلمين فقط؟

الإسلام الصحيح ليس هو ما تتحدثين عنه، فالمرأة المسلمة تنعم بكل الحقوق التى ينعم بها الرجل، سواء بسواء فهى فى دولة مثل مصر -بلدى- عضوة فى البرلمان، ووزيرة فى الحكومة "توجد وزيرتان؛ الأولى مسيحية، والثانية مسلمة"، والجامعات المصرية تعج بآلاف الطالبات، وقد لا تعلمين أن أكثر من نصف طلاب كلية الطب بجامعة القاهرة مثلًا من البنات المتفوقات، وحفيدتى

أستاذة بنفس الكلية، ولم يمنعها ذلك من أن تواظب على أداء الصلوات الخمس يوميًّا.
ولأننى يا سيدتى النائبة كنت لسنوات وزيرًا لخارجية مصر، فاسمحى لى أن ألفت انتباهك إلى أن هناك نساء سفيرات لمصر فى بلاد كثيرة منها أوغندا فى أفريقيا، واليابان فى آسيا، بل إن منصب القنصل العام المصرى فى مدينة مرسيليا التى تحتضن مؤتمرنا هذا تشغله سيدة مصرية. ثم ألم تسألى نفسك يومًا: إذا كان الدين الإسلامى بهذه الدرجة من التخلف التى تتحدثين عنها، فلماذا توجَّه إليه -طائعًا مختارًا- رجل بحجم الفيلسوف الفرنسى روجيه جارودى، ولماذا قضى رجل آخر بوزن شيخ المستشرقين جاك بيرك أكثر من نصف قرن من عمره باحثًا ومنقِّبًا فى علومه ومعارفه.
لا يا سيدتى النائبة، لقد خانك ذكاؤك العلمى والبحثى؛ فالإسلام الصحيح هو بكل تأكيد شىء آخر لا علاقة له بكل ما يدور فى رأسك عنه.
ومرة أخرى أكرر أن الفرق بيننا وبينكم أننا عندما نتحدث عن أوروبا والفِكْر الأوروبى إنما نتحدث عن معرفة وخبرة وقراءات طويلة بعيدًا عن كل أشكال العُقَدِ والحساسيات.. ولا نخجل من أن نسجل إعجابنا بما نرى، وقديمًا قال الإمام محمد عبده المُفَكِّر الإسلامى المستنير عندما زار باريس فى نهايات القرن التاسع عشر: لقد وجدت فى أوروبا مسلمين ولم أجد إسلامًا، ويقصد بذلك أن سلوكيات الأوروبيين التى لمسها بنفسه لا تكاد تختلف عن السلوكيات التى دعا إليها الدين الإسلامى فى الحياة والتعامل... فكأنه كان يعيش مع مسلمين.
وأخيرًا -سيدتى النائبة- نحن أبناء دين سمح، ينشد السلام مع النفس ومع البشر على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم، ونمد أيدينا إليكم عن فهم ووَعْى كاملين، فليس أقل من أن تمدوا إلينا أيديكم، وتفتحوا لنا قلوبكم بنفس الدرجة من الفهم والوَعْى الصحيحين بديننا وحياتنا.
• لو استحضرتُ معك مشاهد من المَسِيرَة السياسية والديبلوماسية الحافلة، فى رؤيتك ما هى أخطر صدمة قومية واجهتك؟
بالطبع هى هزيمة يونيو، ولن أتحدث عنها فى أى إطار إلا فى حدود الإشارة إلى واقعتين لهما من الدلالة ما يقطع بأشياء كثيرة؛ أولها أنه فى أبريل 1967 جاء المارشال مونتجمرى فى زيارة خاطفة إلى القاهرة، التقى فيها بكبار قادة القوات المسلحة وقدَّموا له المشير عبد الحكيم عامر، فتساءل مونتجمرى: فى أى مسرح عمليات حربية استحق هذه الرتبة؟ إذ المعروف أنها رتبة رفيعة لا يحظى بها قائد إلا بعد قيادة قواته فى مسرح عمليات والانتصار فى معركة رئيسية حاسمة ضد قوات العدو. وقد تفتق ذهن أحد القادة عن إجابة ساذجة غير واقعية أو منطقية... إذ قال إنه مارشال سياسى، فتعجب مونتجمرى وابتسم ساخرًا فى صمت!! أما الأخرى فكان فى نهايات مايو 1967، حين عقد عبد الناصر مؤتمرًا صحفيًّا بدا فيه بالغُ التحدى وعظيم

الثقة بقوة مصر، وأعلن أنها مستعدة لمواجهة أى تحرك عسكرى إسرائيلى، وكان هذا خطأ جسيمًا منه؛ إذ لم تكن القوات المسلحة المصرية على هذا القدر من القوة -أو حتى أقله- لكى تتواجه مع إسرائيل، لا سيما أنها كانت قد تأثرت سلبًا فى منظور المواجهة مع إسرائيل بتجربة الحرب التى خاضتها فى اليمن، بينما كانت إسرائيل -على الجانب الآخر- مسلَّحة ومستعدة تمامًا لخوض معركة خططت لها ودرَّبت عليها قواتها على مدى سنوات طوال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

علاء طاهر.. احْتِرَافِيَّة الإرهاب الأمريكى

للدكتور "علاء طاهر" -الخبير الاستراتيجى بجامعة السوربون- لمساته الخاصة وتدفُّقه الفِكْرِىّ وموهبته التحليلية ورؤيته النقدية الواعية فى ترجمة الواقع السياسى العالمى، فهو ابن بار للمدرسة الاستراتيجية الأوروبية التى يتزعمها المُفَكِّر الاستراتيجى الشهير "جان بول شارنيه".. له أطروحاته الفِكْرية التى تعكس مساحات هائلة من الوَعْى الحاد النافذ بالضرورة إلى مضمونات القضايا والنَّظَرِيَّات خلال ما أثاره حول: الخصوصية الاستراتيجية للعالم العربى، حرب الفضاء ونَظَرِيَّة الأمن الإسرائيلى، العالم الإسلامى فى الاستراتيجيات العالمية المُعَاصِرَة، وغيرها. وحول الحدث التآمرى الذى روَّع أمريكا وهز كيانها ووقارها، بل أطاح إلى حد بعيد بسمعتها العالمية. ولعل كل ذلك قد استلزم وقفة حول دلالة الحدث فى التاريخ الأمريكى، ونضج التقنية التى تمت بها العملية، والدور الخفى للموساد فيها والاتِّهَام الدائم للأصوليات الإسلامية، وأيضًا حول مفهوم ثَقَافَة الكراهية لأمريكا.

• فى رأيك.. هل تعتبر أن الحدث الأمريكى الأخير يُعد نقطة فاصلة يمكن أن تؤثِّر مُسْتَقْبَلًا على مشروع الولايات المتحدة الأمريكية الدائم نحو إقرار السِّيَادَة العالمية المطلقة؟

لن يؤثر هذا الحدث على قوة الولايات المتحدة فى العالم، ولم يؤثر على مشروعها باستمرارية الهيمنة، بل بالعكس سيعطيها حافزًا جديدًا لتأكيد هذه الهيمنة؛ ذلك لأنه لم يؤثر على القوة المادية المتمثلة فى عناصر ثلاثة هى: القوة العسكرية، والقوة الاقتصادية، والقوة التكنولوجية، وإنما أثَّر على الكبرياء الأمريكى الذى سُخِرَتْ هذه العناصر لخدمته وللحفاظ عليه وتأكيده، بالتالى فإن جرح هذا الكبرياء سيجعل الولايات المتحدة تقوم بإعادة بناء الكيان المجرُوح الذى أحدث شرخًا فى القناعة العالمية، وطرح لأول مرة تساؤلًا مهمًّا هو: هل الولايات المتحدة على القوة التى نظنها ونتصورها أم لا؟ هذا التصور أو هذه القناعة التى طُرحت فى العالم ستدافع عنها الولايات المتحدة بمضاعفة قوتها أكثر، لكن لا أستطيع تأكيد أنها بحاجة إلى مضاعفة قوتها المادية؛ لأنها ما زالت قائمة، وإن كانت ستضاعف من القوة التكنولوجية الخاصة بأجهزة الرقابة الأمنية، وهى أجهزة لا يمكن اختراقها من قِبَلِ أى منظومة إلكترونية مُتَقَدِّمة أخرى حتى لدول العالم الأول؛ لأن المنظومة الإلكترونية والتكنولوجية الخاصة بأمن الولايات المتحدة لا يمكن اختراقها بحال إلا من قِبَلِ قوة تضاهى الولايات المتحدة ذاتها، من ثَمَّ فإن العملية الإرهابية التى حدثت لا تتمُّ ولا يمكن أن تتم إلا من خلال الولايات المتحدة نفسها؛ لأن العملية كانت مبرمجة بشكل يختلف تمامًا عن كل عمليات الإرهاب الفردى.

وبصفة عامة فإن هذا الحدث سيحقِّق نوعًا من رد الفعل العكسى، وسيجعل الولايات المتحدة الأمريكية تُعيد النظر فى منظومة الأمن القومى الأمريكى وتدعمها أكثر، إذن القوة المادية ستبقى كما هى وكذلك التأثير العالمى للولايات المتحدة سيبقى كما هو، ولكن أمريكا بحاجة إلى فترة زمنية لكى تطور هذه المنظومة، لسبب واحد؛ وهو أنها بلغت ذروة التقنية، وهذا لا شك يتطلب زمنًا آخر لاكتشاف شيء جديد بعد الذروة!

أما بالنسبة لدلالة الحدث، فأقول إن هذا الحدث قد قسم التاريخ الأمريكى إلى مرحلتين؛ هما: ما قبل الحدث، وما بعده، وهو يتجاوز بأضعاف حدثًا مثل اغتيال جون كينيدى، أو حدثًا مثل إلقاء الولايات المتحدة القنبلة النووية على هيروشيما وناجازاكى، أو حدثًا مثل الحرب الفيتنامية التى تورطت فيها الولايات المتحدة وأنتجت نحو خمسة وثمانين ألف قتيل أمريكى ما زالوا يشكِّلون بالنسبة للتاريخ الأمريكى الحديث ما يُسمى بعقدة فيتنام، إن التاريخ الأمريكى القريب، الذى بدأ منذ مائتى سنة تقريبًا وقطع من المراحل الحضارية ما يعادل نحو خمسة آلاف سنة، هذه القفزة الحضارية خلال قرنين كانت مقترنة دائمًا باستقرار مقترن أيضًا بتطور طردى ولم يخضع نهائيًّا إلى أى مرحلة تراجع، وبالتالى فإن هذا الحدث بعد المائتى سنة من التطور الطردى يجعل للولايات المتحدة والشعب الأمريكى رؤية مُسْتَقْبَلِيَّة، هى عبارة عن تشكيل كامل لتراكمية التطور نحو ذروة أخرى، وقد بلغت هذه الذروة حين كان غزو المريخ عن طريق مركبة)ميرر(لأخذ بعض العينات من تراب المريخ وأصابها عطل، وتم إصلاحها من الأراضى الأمريكية على بعد يبلغ ستة أشهر زمنية بالصاروخ، أى بلايين الكيلومترات، وهذا يجعل الولايات المتحدة تعتقد -ومن حقها أن تعتقد- أنها بلغت ذروة التطور، وما حدث بالنسبة لها هو اختراق للإيمان بتطورها الطردى المتصاعد من قناعة إلى أخرى. وعلى ذلك فهذا الحدث يمثِّل مرحلة انتقالية فى التاريخ الأمريكى وفى الوَعْى الأمريكى أيضًا؛ إذ إن الولايات المتحدة وهى فى غاية القوة لم تُخترق، فكيف الآن وهى فى الذروة تُخترق؟!

إذن التاريخ بحاجة إلى مراجعة، والتساؤل ينقلب نحو صورة أخرى هي: هل صحيح أن التاريخ الأمريكى كان حقًّا فى ذروة التطور؟ إن الرؤية العالمية للتاريخ الأمريكى -ومن خلال منظور شعوب العالم الثالث- هى أن هذا الحدث يُعد مرحلة مهمة نظرًا إلى ما قَبْل الحدث وبعده، لكن النقلة فى هذا الحدث لا تقترن داخل بلدان العالم الثالث بالدهشة الأمريكية، وإنما بدهشة كيف تُخترق أمريكا، وكيف أن السياسات الأمريكية قد تؤدى إلى كوارث داخلية أو خارجية ضد المصالح الأمريكية ذاتها!

• هناك توصيفات سياسية عديدة لهذه العملية الإرهابية باعْتِبَارها تمثِّل درجة ما من النضوج التقنى الذى أدهش العالم، حتى جاز لبعض المحللين وصفها بأنها عبقرية تقنية.. فما رأيك؟

إذا جاز لنا التعبير بأن نطلق بالفعل كلمة "عبقرية" على عملية إرهابية تودى بأرواح الكثير من البشر إضافة إلى التفجير المادى والرعب النفسى الذى أحدثته داخل أمريكا وخارجها. نعم.. إنه عمل إرهابى امتاز تنفيذه بدِقَّة علمية تضاهى الدِّقة العلمية للتكنولوجيا الأمريكية وللأجهزة الإلكترونية التى وُظفت لحماية منظومة الأمن القومى الأمريكى التى تتوزع على ثلاث مؤسسات، هى: وكالة المخابرات الأمريكية -وهى أعلى سلطة أمنية موجودة فى الولايات المتحدة بل فى العالم أجمع-، والمنظومة الثانية هى المنظومة الإلكترونية للبنتاجون، والمنظومة الإلكترونية الثالثة هى مكتب التحقيقات الفيدرالية.
أقول إن هذه المنظومات الثلاثة لا يمكن بحال أن تُخترق من قِبَلِ أى منظومة إلكترونية عالمية، لكن يمكن لهذه المنظومات أن تدخل واحدة على الأخرى لتبادل المعلومات، كما أنها تستطيع أن تراقب سيارتك، فكيف لا تستطيع أن تراقب طائرة فى مطارات داخلية أمريكية؟ وكيف تقلع طائرة وتخترق برجًا شاهقًا وتقوم أخرى باختراق برج آخر وثالثة لاختراق البنتاجون الذى هو بحد ذاته شبكة إلكترونية تسيطر على أمريكا؟! كيف يمكن ألَّا تعلم كل هذه المنظومات الإلكترونية باقتراب الطائرات فى اللحظات الأخيرة لحدوث الانفجار؟!
إذن هذا هو الذى أدهش العالم وجعل الجميع يتناقشون حول عظمة وعبقرية التقنية التى نُفِّذَتْ بها العملية، أى أن هذه التقنية دلَّت ليس على عجز المنظومات الأخرى، وإنما على عملية إبطال لعناصر أساسية فيها أثناء تنفيذ العملية، وليس أدلَّ على ذلك من أن هذه المنظومة الإلكترونية كانت يقظة دائمًا بحيث إنها تستطيع أن تلتقط أى محاولة انقلابية على أمريكا، أو أى تحرك عسكرى داخل الشرق الأوسط، أو عن طريق تشابكها مع الأقمار الصناعية الرقابية خارج مدار الأرض، إذن ليس هناك عجز داخل المنظومة، وإنما هناك إبطال وإيقاف لها يعنى أن هناك أشخاصًا تعاونوا مع منفِّذى العملية، بحيث يهيئون لهم طرقًا فضائية لا تمسها المراقبة. فأساسًا إدراك عبقرية وتشابكات المنظومة الإلكترونية -إدراكها فقط دون القيام بمراوغتها- هو بحدِّ ذاته مرحلة عبقرية، فكيف بإدراكها واستيعاب وظيفتها وتعطيل هذه الوظيفة؟
• شكوك وهواجس وتساؤلات تجتاح الساحة الدولية، مشيرة ومؤكدة أن جهاز الاستخبارات الإسرائيلية الموساد هو وراء ما شهدته الساحة الأمريكية وتلك طبيعة خاصة إزاء العمليات الكبرى التى يقوم بها الموساد؟
الحديث عن الموساد الآن يطرح علينا عدة تساؤلات مهمة... هل الموساد قوى بحيث يستطيع أن يقوم بعمليات صعبة؟ نعم.. لكن هل يستطيع الموساد كمؤسسة استخبارات اسرائيلية لا يوجد لها أذرع فى الولايات المتحدة أن تقوم بهذه العملية داخل الولايات المتحدة؟ لا.. لكن هل يستطيع الموساد أن

يقوم بالتخطيط لهذه العملية لكن بوجود أذرع تنفيذية داخل المنظومات الإلكترونية المعقَّدة والسرية جدًّا داخل الولايات المتحدة؟ نعم.. فى هذه الحالة يستطيع. لكن السؤال الأكثر من ذلك ويمس فحوى وديناميات السؤال الذى تطرحه هو: هل الموساد بحاجة إلى القيام بهذه العمليات فى هذا الظرف فى الولايات المتحدة؟ وهذا يقودنا إلى سؤال آخر، هل نحن كعرب نبالغ بقوة الموساد إلى هذه الدرجة؟ نعم فنحن كعرب نبالغ تمامًا فى ذلك، حتى فى عملية كهذه لها عدة أبعاد، وقد تكون تنظيمات كثيرة مشتركة فيها بما فيها الموساد، ولكن هناك تعظيم كبير لدور الموساد، إضافة إلى أن الظرف السياسى الأمريكى لا يدفع إسرائيل أن تقوم بعملية داخل الولايات المتحدة لكى تجعل الحكومة الأمريكية أكثر تأييدًا لها وأكثر تدخُّلًا لصالحها فى الصراع بين إسرائيل ومعطيات الانتفاضة، وعلى ذلك لا أعتقد أن الموساد يستطيع أن يقوم بهذا العمل أو حتى يساهم فيه، لكن التحليلات السياسية فى العالم العربى يطوف بها الخيال لنسج أساطير حول الموساد.

• طوفان الكراهية الذى يُغرق أمريكا.. من أين تأتى روافده؟ من التوجهات الضِّدِّيَّة للشرعية الدولية أم من عِبَرِ التاريخ الدموى أم المحاباة السياسية؟ أم من تلك الطاقة الاستعلائية التى تخوِّل لها حكم سكان الكوكب الأرضى من الفضاء؟

من منطلق تاريخى، بدأت كراهية أمريكا بعد انهيار القوى الاستعمارية الكلاسيكية فرنسا وبريطانيا التى كانت تمثل العالم الرأسمالى، ثم حلَّت محلها الهيمنة السياسية للمعسكر الرأسمالى الأمريكى، لكن أمريكا خلال وصولها كقوة عالمية قامت بالكثير من الحروب التى يمكن أن نصنِّفها ضمن حروب الإبادة، فمثلًا بدأت حقبة هيمنتها بقنبلتى هيروشيما وناجازاكى على اليابان، بالتالى فبداية ظهورها العالمى اقترن باستعمال أول قنبلة نووية، بعدها كانت الحرب الفيتنامية، بعدها الصراع العربى الإسرائيلى، وبعدها أيضًا كان دخول أمريكا اللاتينية ودعم الديكتاتوريات العسكرية ومذابح المدنيين بدعم أيضًا من الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى ذلك فإن السياسة الأمريكية كانت تكرِّس بحق كراهيةً متراكمة وخاصة داخل الوطن العربى؛ لأن الأخطاء الأمريكية قد بدأت فيه منذ عام 1948، واستمرت حتى اللحظة، ولقد تصاعدت حِدَّة هذه الكراهية منذ بداية التسعينيات، وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى كقوة عالمية. فما بالك وقد انسحب الاتحاد السوفيتى من التأثير العالمى، ومن الساحة العالمية وبقيت قوة واحدة هى هذه القوة العالمية المسماة أمريكا، التى دائمًا تتحيز إلى الظلم، والتى دائمًا أيضًا تسبِّب تدخلاتها مشاكل كبرى؛ لأنها دائمًا مع الظالم وضد المظلوم. ولقد بقيت بعض هذه الشعوب فى ظل حدود الكراهية الصامتة الخالية من أى فعل عسكرى أو سياسى، ولكن ظلت الكراهية باقية. هذا التراكم فى الكراهية كان مبعثه

الحكومة الأمريكية وسياستها، وليس مبعثه الشعب الأمريكى أو الحياة الاجتماعية الأمريكية التى ما زالت بالفعل تجذب المواطن العربى!
• فى رأيك.. لماذا تقترن فى العقل الغربى ظاهرة الإرهاب الدولى المنظم بالأصولية الإسلامية دون غيرها من الأصوليات المُعَاصِرَة؟
باختصار.. لأن التجربة دائمًا تخلق هذا الانطباع؛ فمعظم الأحداث الإرهابية منذ عام 1979 وحتى اللحظة كانت بفعل تنظيمات إرهابية ذات غطاء دينى، لكنها بعيدة بالضرورة عن الإسلام، إضافة إلى ذلك فالاتِّهَام يوجِّه دائمًا إلى منظمات إسلامية داخل مجتمعات إسلامية؛ لأنه عندما تحدث عملية إرهابية يعلن المسلمون أنفسهم أنها صادرة عن تنظيم دينى. والملاحظ أنه بعد الثَّوْرَة الإيرانية نشطت التيارات الإسلامية فى العالم العربى والإسلامى والأوروبى أيضًا لتحويل الفِكْر الإسلامى من فِكْر دينى إلى فِكْر سياسى، ومن فِكْر سياسى إلى ممارسة سياسية، ومن ممارسة دينية سياسية فِكْرية إلى ممارسة عسكرية، ومن ممارسة سياسية فِكْرية عقائدية عسكرية إلى ممارسة عسكرية إرهابية. ولكن إلصاق هذه الجريمة بأعضاء متطرفين فى منظمات إسلامية مستبعد؛ لأن مثل هذه المنظمات قاصرة بحكم طبيعة فِكْرها عن إدراك آليات المنظومة الإلكترونية الأمريكية فضلًا عن مراوغتها... فهذا مستحيل تمامًا، لكن يمكن القول إن هناك شكوكًا حول وجود كوادر إلكترونية أمريكية داخل هذه المنظومة متفقة مع بعض رموز التطرف!
قصة مجهولة تناثرت أحداثها وأشخاصها، حين تبدَّلت عليها أطياف الزمن، لكن أبت الذاكرة الخؤون ألا تغادر لمحةً من مشاهدها وحواراتها وجدلياتها التى امتدت لقرون فى قياسات الزمن النفسى، لكنها داخل وحدات زمنية يعرفها البشر قد بلغت نحو ثلاثين عامًا. نعم أبت الذاكرة الخؤون ألَّا تغادر حتى لحظات الصمت العابرة التى أضمرت روائع يُخشى الحديث عنها... قصة يحصد صاحباها عذاباتٍ كبرى يتلظى بها العقل المغترب الشقى بوحدته بين غثاء السيل.
كم كانت رحلة عاصفة طالتها المِحَنُ والمآزق، ولمستها السعادة واقتحمتها إشكاليات الفكر ومتعة الثقافة ولذة الحوار والائتناس بالآخر، وكم كان عمق الثقة محرابها الذى تداعت خلاله تراتيل المحبة والألفة والاطمئنان. كانت اللحظات والثوانى بينهما أزمنة كثيفة تم خلالها طرح فكرة أو حسم قضية شائكة أو تصدير ابتسامة ساخرة من أشياء وأمور، فكم للغة الشَّذرية من أيادٍ علينا، تلك اللغة التى مكَّنتنا من أن نختزل الكون فى كلمات قلائل.
ظلت الفضائل الأخلاقية على كُلِّيتها عنوانًا لهذه الصداقة، التى كانت الأخوة أولى أبجدياتها... تلك الأخوة التى امتُحِنت فى صدق جوهرها كثيرًا وهزمت كل شائبة تتسلل إليها!!
لم يكن التواصل الفكرى بيننا سوى الجسر الأبدى الذى نتسامى به على ما تسوقه الحياة من معضلات، فى إطار ظرفيات متناقضة لا تسمح حتى بوجود

ومضة من شعاع تفاؤل أو بصيص أمل، كانت المعرفة هى عالمنا الخالد الذى نسكنه ونجوب أعطافه ونتحدى به عالم البشر، بقناعة راسخة تتمثل فى أن المعرفة هى الحياة، وبالفعل هى الحياة، فكان هو "بروميثيوس" بطل الأسطورة اليونانية حامل النار المقدسة التى تلاطف العقول وتَشْحَذ الخيال، عقلية ريادية متوهجة دأبت طويلًا على تحليل الأفكار وتفتيتها والغوص فى طبيعتها وعلاقتها مع غيرها وردّها إلى جذورها ومعطياتها.
يخوض العراك بين النظريات منتهيًا بها إلى حالة من التآلف المنطقى، يحيط بالأسرار والدقائق الخفية للتاريخ الإنسانى، متمثلًا الوقائع والأشخاص والدلالات المتجددة، يعشق الفلاسفة افتتانًا بالرؤى الجبارة بفعل الأداء الذهنى الخلاق والمتجاوز للطاقات غير الاعتيادية، الكتب فى رؤيته كنوز مطمورة لها قداسة لا يعلوها شىء، ولا يتصوَّر الجنة بغير كتب، شأن الأرجنتينى "بورخيس"، يحظى الأدب لديه بمنزلة رفيعة يحلِّق خلالها مشغوفًا بعوالم النفس والروح فى محاولة جادة لتجلية السر الأزلى المسمى بالإنسان.
له ثِقَلٌ فكرى وأكاديمى يتطاول به على الآلاف من كبار المثقفين فى عالمنا العربى، لكن خالفتْه الشهرة بمعناها المبتذل الهابط، وصاحبتْه بمعناها الحقيقى؛ لأنه لم يفرِّط ولم يَرْتَجِ مالًا أو سُلْطَةً أو منصبًا؛ لأن عشق الحقائق كان هو غاية أمانيه وأسمى مآربه، وكل ما سجله من أفكار ورؤى سيظل لها بريقها وأصالتها، ويُحال كثيرًا أن تطمسها سحبُ الزمن.
أخى وصديقى... علاء طاهر...
كم يقتلنى أن أراك وقد ألَمَّ بك ما أَلَمَّ، وقد تجمَّدت طاقتى -التى طالما أشدتَ بها- عن فعل شىء يرفع عنك ما أثقلتكَ به الأقدار... أعلم أنك لن تقرأنى... لكنى أبث رسالتى وأعتقد -يقينًا- أن شَفِيفَ رُوحِك يمسُّها، وأنفاسك تستشعرها، وعقلك يهفو إليها. ولعلَّنى أرضيك ببعض كلمات كنت – حتمًا- تعلم أنى لن أدخرها عنك... لعلها تديم ما انقطع... وتعرّضنا معًا لصفح الأيام!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قدرى حفنى.. التَفْسِير النفسى للسياسة

دائمًا ما تكون المعالجات الفِكْرية المتميزة للدكتور "قدرى حفنى" كاشفة عن الحقيقة تجاه ما يثيره أو يثار حوله من قضايا وإشْكَالِيَّات اجتماعية وثَقَافِيَّة وسياسية، وبحكم تخصصه الأكاديمى فى الدراسات الإسرائيلية فهو دائمًا ما يُترجم لنا بمَلَكَاتِه الخاصة ما يدور فى إطار حلبة الصراع العربى الإسرائيلى من ممارسات طائشة تشف عن جذور العداء والحِقْد والضغينة، إذ عرك الكثير من مخاضات التجربة السياسية المصرية والدولية، فكانت له آليات خلاقة أطلقت عقله نحو معرفة عميقة بمجريات العملية التفاوضية وميكانيزمات وأساليب الإسقاط السياسى وقراءة أدمغة الرؤساء ومغزى التهديدات الصريحة والخفية، وكذلك الطابع السادى للقوى الكونية الكبرى، وترجمة الصراعات المُعَاصِرَة تأسيسًا على خلفيتها التاريخية وطبيعة الصدام الاستراتيجى بين الكيانات السباقة للاستحواذ على حكم العالم، انطلاقًا من فِكْرَة التمركز حول الذات، ومُسْتَقْبَل العلاقات الدولية وتَفْسِير خطابات التصعيد نحو الحروب ومن أى مركز نفسى شعورى تنطلق الثورات.

• الدور المُعَاصِر لعلم النفس السياسى فى إطار ما يعيشه العالم من تَأَزُّمات سياسية ودبلوماسية... كيف ترى هذا الدور؟

الحقيقة أن علم النفس السياسى له دور قديم تزايدت أهميته فى العصر الحاضر؛ نظرًا لاختلاف ظروف عالم الأمس عن عالم اليوم الذى تزايدت فيه احتمالات الصراعات الداخلية وضرورة إدارة الأزمات الدولية والآليات التفاوضية الجديدة، فأصبح الدور الدبلوماسى يتطور من إطار نشأة مفهوم جديد يتحدث عنه الناس هو الدبلوماسية الوقائية، أى أن العمل الدبلوماسى لا ينبغى أن ينتظر حدوث أزمة ليتعامل معها، ولكن ينبغى أن يتوقع الأزمات لكى يتلافاها، ولقد أكد وزير خارجية السويد فى المؤتمر الدولى لعلم النفس أن الدبلوماسى فى حاجة إلى عيون وآذان ترى وترصد الصراعات وتطوُّرها، كما ينبغى أن تكون مهيأة من الناحية النفسية للتنبؤ بالصراع. أما بالنسبة للمنطقة العربية فمثلًا تجدر الإشارة إلى أنه فى مؤتمر مدريد تم تشكيل الوفد المصرى بطريقة غير مألوفة، وكانت مصر قد أخذت طريقًا مختلفًا؛ فقد شُكِّلَ الوفد مناصفة بين الدبلوماسيين وخبرات متنوعة، كان منها أساتذة جامعة، وقد شرفتُ بهذا التمثيل، ولقد أثارت هذه المسألة تساؤلات كثيرة، إلا أنها كانت فى تقديرى نوعًا من استشراف المُسْتَقْبَل، وكذلك عكست فِكْرَة أن علاقة علم النفس بالسياسات الداخلية هى علاقة قديمة، ولكن فى علاقته بالسياسة الخارجية فقد كان مجهلًا.

• من منظور نفسى.. كيف يمكن ترجمة مشاعر النفور الأوروبى والكراهية عميقة الجذور للعولمة؟

النفور هنا يكون على مستويين: مستوى الأنظمة السياسية، ومستوى الشعوب، وعلى قدر ما أتيح لى من متابعة، فالرفض أساسه التهديد الاقتصادى، فالتظاهرات التى قامت بعنف كانت تظاهرات مزارعين تعنى العولمة بالنسبة لهم انخفاض مستواهم الاقتصادى، والحكومات يمكن أن تخضع للضغوط وتنتظر إلى أى حد يمكن احتمالها فى إطار مجموعة من التوازنات السياسية، لكن الشعوب تمثِّل اتجاهًا رافضًا للعولمة؛ لأن العولمة تُفهم فى الشارع الأوروبى على أنها أمريكا، وهذا لا يبعد عن الحقيقة كثيرًا، ففى منتصف التسعينيات حين مثلت مصر فى مؤتمر الحوار العربى الأوروبى كان الحديث يدور فى ردهات المؤتمر حول)الأمركة(، وكيف أن أوروبا تتأمرك، وأن الهويات الأوروبية مهددة، إن العولمة توقظ مشاعر عديدة فى أوروبا وفى عالمنا العربى أيضًا حول الحدود القومية والهوية، وهناك ردود حول ذلك تؤكد أن العولمة لا تهدد الهويات القومية، لكن يظل الهاجس الاقتصادى واردًا وستظل أعلام الدول متنوعة والمشاعر أيضًا.

• لقد مثلت شخصية "شارون" نوعًا خاصًّا من الحيرة لدى الكثير من أبرز المحللين السياسيين عربيًّا وعالميًّا... لو أردنا توصيفًا نفسيًّا دقيقًا لهذه الشخصية فماذا تقول؟

بداية، الممارسة السياسية لا تعكس بالضرورة الخريطة النفسية للقادة أو الزعماء، وشارون فى ذاته ليس مختلًّا، وإنما هو عقلانى إلى حد بعيد، وحين أعلن أنه قد جاء ليقضى على الفلسطينيين صدَّقه العرب، وقالوا سوف نسقطه أمنيًّا، ولم يستطع أحد القراءة الواعية للأحداث أو الأشخاص أو الوقوف على الأسباب الحقيقية لمجيئه، ففى برنامجه الانتخابى أعلن أنه أتى للقضاء على الانتفاضة بعد فشل باراك وبيريز ورابين فى ذلك، وإن كانوا ضد الفلسطينيين من حيث المبدأ ومع السلام أيضًا!! لكن الشعار الذى رفعه شارون ووعد بتحقيقه هو الوحدة الوطنية بين قوميات متعددة.

• تحمل مذكرات شامير كثيرًا من الأسرار والطرائف.. فما الذى يمكن التركيز عليه من هذه الأسرار؟

شامير فى مذكراته يعترف بأن هناك يومين بالغى السواد فى حياته؛ هما: يوم التصويت على اتفاقية كامب ديفيد، حيث قال: أحسست بذراعى يتثاقل بحيث لم أستطع أن أرفعه، فامتنعت عن التصويت رغم وجود تكليف بتصويت الليكود عليها. أما اليوم الثانى فحين قررت إسرائيل عدم الذهاب لمؤتمر مدريد، فظل شامير يقاوم الحضور إلى أن قال جورج بوش)الأب(: لن نعطى أية أموال لإسرائيل، فاضطر على الفور أن يخضع لأمريكا مرغمًا!

• فى رأيك.. لماذا فشلت كل المشاريع السياسية فى القرن العشرين باستثناء المشروع الصهيونى الذى حقَّق من غاياته الاستراتيجية ما يفوق حلمه؟

نعم المشروع الصهيونى نجح لأسباب تاريخية كثيرة، فهو قد بلغ قمته فى يونيو 1967، ومنذ ذلك التاريخ وهو يتراجع، وعلى العرب أن يعرفوا كيف؟ فهذا المشروع له أهداف معلنة مثل "من النيل إلى الفرات".. فهل تحقق ذلك؟ وهل تضم إسرائيل أراضىَ جديدة أم تنسحب من أراضٍ محتلة؟ سيناء وجنوب لبنان والأردن مثلًا، إذن المشروع يتقلَّص؛ لأنه ضدً حركة التاريخ، والهدف الثانى لهذا المشروع هو صَهْيَنَة يهود العالم، وهذا لم يحدث، فالذى حدث هو العكس؛ لأن يهود إسرائيل تتنامى داخلهم اتجاهات معادية للصهيونية، ومنها حركة "المؤرخون الجدد" التى ليست بالضرورة أن تكون مساندة للقومية العربية، إضافة إلى أن هذا المشروع قد أخفق فى جذب يهود العالم إليه، لكن وبصفة عامة، فإن تمدد هذا المشروع وانطلاقاته إنما يتوقف على قوة الرادع العربى.

• هناك رؤية خاصة للدكتور بطرس غالى يؤكد فيها أن الحماقات العربية هى التى أسهمت بشكل كبير فى صنع الكيان الصهيونى... هل تتفق مع هذه الرؤية؟

بداية أتفق مع تلك الرؤية من حيث الجوهر، وإن كنت لا أعرف حيثيات الدكتور بطرس، لكن مبدئيًّا أنا أزعم أننا بذلنا جهدًا شديدًا لنساعد على إقامة إسرائيل، ليس جهدًا فِكْريًّا فقط، ولكنه مادى أيضًا؛ فمثلًا دولة إسرائيل فى بداياتها كان ينقصها شىء مهم هو الناس أو الشعب، وهم أقلية، من ثَمَّ فلا بُدَّ من طرد العرب، ثانيًا اليهود القادمون من أين سيأتون؟ من أوروبا الشرقية أم من دول عربية؟ وكيف يتحقق بينهم الاندماج؟ فماذا فعلنا؟ أرسلنا الجيوش العربية رفضًا لقرار التقسيم، إضافة إلى أن القيادة العربية أخطأت حين أشاعت أن الصهاينة يذبحون الفلسطينيين المسالمين بهدف إثارة الرأى العام العالمى، فأدى ذلك إلى فرار الفلسطينيين المسالمين، من ثَمَّ فرغت فلسطين من جزء كبير من الفلسطينيين، ورحل اليهود العرب إلى إسرائيل، بذلك أعطيناهم الناس، أضف إلى ذلك أننا أشعْنا أن الصهيونية تمثِّل يهود العالم، بينما بعض اليهود يرون أنها لا تمثلهم، وهذا يُعَدُّ إسهامًا بارزًا فى تضخيم الكيان الصهيونى!

• كتاب "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية"، للمُفَكِّر الفرنسى "جارودى".. والذى أثار العديد من العواصف فى الأوساط الثَّقَافِيَّة السياسية العالمية.. ماذا يمثِّل بالنسبة لك؟

لى تحفُّظ مهم -ليس على سؤالك؛ وإنما على القضية ذاتها- وهو: لماذا تركت إسرائيل كل الأساطير التى ذكرها "جارودى" وأمسكت فى أسطورة الهولوكوست؟ لأن القضية لا تتوقف على أعداد القتلى كما ذكر "جارودى"، وإنما تتوقف على مبدأ القتل والإبادة... هل كان موجودًا أم لا؟ ونحن كمسلمين ومسيحيين نرفض بشدة مبدأ إبادة أى جنس بشرى من منطلق دينى وأخلاقى، ولعل ذلك يدفعنا أن نسأل إسرائيل وقادتها إذا كانت تؤيد

التشهير بالنازية، فلماذا ترفض التشهير من جانب العرب بدورها الدموى فى إقامة المذابح المروعة للفلسطينيين؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحمد صدقى الدجانى.. الانبعاث الحضارى للعرب.. ضرورة وجودية

كان حماسه فائقًا وشغفه واضحًا بآراء شاب له تطلعات ثَقَافِيَّة كبرى لا ترتبط بالطبع بأحلام تغيير العالم؛ لأنها يوتوبيا ملائكية يَحُولُ وجود الإنسان دون حدوثها، وإنما ارتبطت دومًا بفِكْرَة التغيير الطفيف للأحداث والأفكار، كرهًا فى القالبية والنمطية التى تطمس معنى الحياة ذاتها. وفى لحظة من اللحظات الممتدة عبر علاقة عقود هاتفنى مُصِرًّا على ضرورة حضورى لأطرح رؤيتى حول القصيدة التى هزت جنبات العالم العربى سياسيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا، والتى نسجها "نزار قبانى" تحت عنوان)متى يعلنون وفاة العرب(، وقد تفجَّر النقاش حول مضمونها الخفى والصريح، لكننى كنت عاتبًا على نزار لأنه أعلنها متأخرة، وكان ذلك مبعث لضحكات من "د. الدجانى" الذى لم يتكلم أبدًا إلا الفصحى التى يتلطف كلماتها. وكان يحمل بين جوانبه رؤية تفاؤلية عميقة للشرق العربى، حِرْثٌ كثيرًا فى استقصاء جذورها، تَقَدُّمت إليه لإبداء رأيه فى كتابى)أمتنا وجوائز نوبل(نظرًا لحساسات كنت أتوجس من نشرها، لكنه حرَّضنى على نشره بعد قراءته، واعتبره منجزًا ثَقَافِيًّا مهمًّا ولا بُدَّ لمثله من الكتب من تَبِعَات، كما لا بُدَّ دون الشهد من إبر النحل، وقد توالت الوخزات طيلة عشر سنوات، لكن النصيحة أثمرت وأثمرت حين منحت قوة ذاتية لشاب يستقبل العواصف وكأنها لا شىء!!

ولعل الموسوعية كانت وراء الارتباط الحميم مع "د. الدجانى"، بما له من غرام واهتمام بعلوم المُسْتَقْبَليات، رغم كونه أكاديميًّا محترفًا فى حقل الدراسات التاريخية، تلك التى رسَّخت لديه من المشاعر ما يفوق الكراهية للكيان الصهيونى الآثم، ومن ذلك فقد دارت أغلب كتاباته حول قضايا الأمة العربية وطبيعة العصر ومشكلاته وتحدياته وكيفية تحقيق الاستجابة لهذه التحديات، بجانب كونه أول من تبنَّى توجهًا فِكْرِيًّا خاصًّا عن الحوار العربى الأوروبى. إلى غير ذلك من الإسهامات البارزة التى تمثلها قضايا التعايش الدينى وتجديد الفِكْر، والتى تبلورت فى ثناياها حلول يجهل العالم العربى طريقها؛ لأنه ما زال لا يقرأ!!

• النظام العالمى الجديد يوتوبيا إمبريالية أمريكية.. على أى نحو ستكون اشتباكاتها مع الكتلة العربية؟

ليس هناك نظام عالمى جديد -فى رأيى-؛ بل أن الولايات المتحدة نفسها تحدثت عنه بلغة التوجه نحو إقامته، هناك أطراف فى عالمنا تسلم بأن نظامًا عالميًّا جديدًا قد قام، وحتى أوروبا الغربية التى هى ضمن دائرة التحالف مع الولايات المتحدة لديها الكثير لتطرحه حول هذا المصطلح وإن كان واضحًا خلال هذه الأزمة محاولة فرنسا لاتخاذ طريق فيه شىء من التميز وإن لم تنجح فى ذلك.

النقطة المهمة التى يثيرها سؤالك هى محاولة فرض هذا النظام على المنطقة العربية، وفى رأيى أن الوضع القائم يشير إلى وجود إمكانيتين بالنسبة لنا كأمة؛ وهما: إما أن يحدث شىء من التخاذل فيتم فرض شىء علينا بدون رضانا، وهذا ما نرفضه بل ما ينبغى أن نقاومه، وإما أن نسهم فى عملية إيجاد النظام الخاص بعالمنا ككل، على أن يكون لنا اليد الطولى فيه، وإذا كنت أنتمى لمدرسة تؤمن بأن دراسة المُسْتَقْبَل لا بُدَّ أن يدخل فيها عنصر إرادة الفعل وعنصر الحلم، فإن لدى أمتنا أحلامًا تسعى لتحقيقها كما أن لديها إرادة... ولذلك فإننى أقول إن الأمة العربية لن يكون لها وجود حقيقى إلا إذا كانت أمة فاعلة. وإنه إذا كان النظام الدولى القائم يعانى من خلل أصيل -بل يعانى من أزمة حقيقية-، فإن نشوب أزمة الخليج وبروزها بسرعة كأزمة عالمية كان إرهاصًا بانتهاء هذا النظام القائم كى يبرز بعده نظام دولى جديد، وإذا كانت الحرب القائمة قد دلَّلت على وجود الخلل فلا تزال الفرصة أمامنا بصورة لم تحدث من قبل أكثر من مائة وخمسين عامًا، كى نسهم بطرح أفكارنا فيما ينبغى أن يكون عليه النظام الدولى الجديد... إننا نريد عالمًا لا تنصرف فيه كلمة "الدولية" نحو دائرة بعينها، ولهذا يجب أن يكون توجهنا أصيلًا لنسهم إسهامًا حقيقيًّا فى هذا النظام.

• إذا كان الأمر كذلك.. فكيف ترى المُسْتَقْبَل السياسى العربى فى ظل هذا النظام؟

أزمة الخليج أكدت حاجتنا الماسة لوجود نظام يحكم هذه المنطقة لخيرها ولأمن العالم وسلامه، ثم جاءت الحرب لتؤكد أنه لا بديل أمامنا من أن نصوغ نظامنا بأنفسنا، فالفرصة سانحة لذلك، ونحن فى فترة يجب أن نطرح فيها أفكارنا الإبداعية، ولا بُدَّ لكل دولة عربية أن ترسم سياستها انطلاقًا من انتمائها لهذه المنطقة، وأريد أن أشير إلى أن أى نظام يحكمها يجب أن يأخذ بعين الاعْتِبَار الروابط القوية التى تربط بيننا كأمة عربية وبين أشقائنا فى الدائرة الإسلامية. لقد آن الأوان لأن نبادر بطرح أفكارنا، حيث ترتبط كل الدول العربية بنظام أمنى نابع منها ومن انتمائها، وفى الوقت نفسه يكون منسجمًا مع الدول المجاورة التى تدخل فى دائرتنا.

• إلى أى حد -فى رأيك- كشفت أزمة الخليج عن وجود نمط خاص من الفراغ السياسى أدى لشعور الجماهير بالإحباط والهزيمة النفسية بل الحضارية؟

بقدر ما تعانى أمتنا العربية، فإنها تعيش لحظات ممتدة لم تشهدها منذ فترة طويلة. والأزمة -بالفعل- كشفت عن فراغ سياسى، كما سببت إحباطًا للجماهير، وإن كانت لم تصل بهم للهزيمة الحضارية بل العكس، فإن المحصلة هى شعور قوى بإمكانية أن تبلغ الصحوة الحضارية مداها، وتَفْسِير ذلك سببان: الأول هو أن الأزمة أبرزت أن المنطقة ليست كمًّا مهملًا، وأن بعض ما كان يُعتبر مسلَّمات هو ليس كذلك على صعيد الصراع العربى الصهيونى وعلى أصعدة أخرى. وقد ركزت دائمًا هذه الأزمة على رؤية كيف

ينظر الآخر إلينا كعرب مجتمعين وسط الصراع الحاد الناشب فى أوساطنا، فوجدت كم هو قلق من هذه الإمكانية العربية لو تم توظيف الأزمة لصالح قضايانا، وهذا ما تتميز به هذه الأمة من إيمان يجعلها تنظر للأزمات كأحداث عارضة.

• إذا كان هناك العديد من الأسباب والعوامل المعوّقة لسياسة الوفاق الدولى، ومنها استحالة تحقيق الأهداف الإيديولوجية وبروز العديد من المشكلات، فهل هناك ما يدعو للخوف من سياسة الوفاق العربى؟

أنا غير مطمئن لما يسمى بالوفاق الدولى؛ لأنه محل اختبار، فالشروط التى قبلت بها قيادة الاتحاد السوفيتى الوضع الجديد تبدو أمام الكثير شروطًا قاسية، لذلك فإننى من الذين يرون أن هذا الوفاق هش وغير قائم على أساس من تحكيم القيم. والشق الآخر من السؤال يدعونى للقول بأن المبررات والدوافع كثيرة لإقامة علاقات عربية قوية. وحلول مشكلاتنا تنبع من ذاتنا مع التأكيد على أن الحاجة ماسَّة إلى سِيَادَة الشورى والديمقراطية فى مجتمعاتنا إذا أردنا أن نتجنب وَيْلات الانفراد.

• لو تحدثنا عن صورة الإنسان العربى فى الإعلام الغربى.. هل تمثِّل شكلًا من أشكال العنصرية الفاعلة فى إعلاء الذات واحتقار الآخر؟

الحديث عن الإعلام الغربى ذو شجون، وقد بلغ مداه، ولعل أبرز ما تبدَّى بعد اندلاع حرب الخليج، ذلك الضعف الأصيل الذى يحكم هذا الإعلام، ومع ذلك فإننى أتطلع إلى أن يتحصَّن إنساننا العربى من هذا الإعلام الذى عانى منه كثيرًا؛ ليصبح قادرًا على تمييز وتقييم كل ما يتضمنه، وأن يحدد الجرعة الإعلامية اللازمة له بحيث تكون دافعًا له للعمل والإنتاج، حتى لا تنفذ له دعايات إعلام الأزمة فتقعده، فيبدأ هذا الإعلام فى تشويه الصورة معتمدًا على الإثارة وجذب المستمع بأى شكل.

ولعل أكثر ما تعانى منه الحضارة الغربية هو هذه النظرة العنصرية، ويكفى أن كل ما يصدر عن قياداتها يبدأ بجملة نحن الغرب المتحضر، وهى جملة تنفى الحضارة عن غيرهم من الناس، وحيث تبحث فى أصول ذلك تجد أن النظرة الإغريقية قسمت العالم إلى إغريق وبرابرة، فكل ما ليس إغريقى فهو بربرى متوحش، وقد سقطت هذه النظرة سقوطًا حقيقيًّا، فشَتَّان بين هذا ونظرتنا الحضارية فى دائرتنا العربية الإسلامية.

وكل ذلك لا يمنع أن يقدِّم العرب الصورة الأفضل والأرقى والأمثل حتى عند أعدائهم؛ فالانتفاضة الفلسطينية قد وفَّرت هذا الإعلام فى رسم صورة جديدة للعربى، من ذلك كانت المشاركة ضرورية لقيامنا بواجباتنا على مختلف الصور، ودعوتنا للسلام القائم على العدل، ولا شك أن هذا ينتهى بفرض احترامنا فى كل مكان.

• الأزمات دائمًا ما تطرح مواقف جديدة للقوى العالمية فى المنطقة العربية.. كيف ترى هذه المواقف على الصعيد المُسْتَقْبَلِىّ؟

لك أن تقول هذا، ولكن ماذا عن الصين واليابان والهند ودول العالم الثالث؟ كل هذه القوى تعيد النظر فى سياستها، وحيث أكدت الحديث على التداعيات والمضاعفات كان فى اعْتِبَارى دومًا عملية إعادة النظر هذه؛ فدول المجموعة الأوروبية تحاول توحيد مواقفها، ولكن يبقى أن تكون لكل دولة خصوصيتها ومصالحها. ونحن مدعوون حين نتعامل مع كل هذه القوى أن نلاحظ ذلك كله، ولعل أبرز ما علّمتنا إياه أزمة الخليج هو أن نتعمق فى فهم الأوضاع الداخلية لكل قوة فى عالمنا بما تحتويه من جوانب قوة وجوانب ضعف، ثم النظر للعلاقات القائمة بين هذه القوى وبعضها البعض، والأمر يقتضينا أن نبدأ بأنفسنا وننجح فى اتصال الحوار بين أطرافنا العربية لإيقاف الحرب المدمرة.

• تردِّى الأوضاع الثَّقَافِيَّة فى ظل الأزمة.. هل هو نتيجة أم مقدمة؟

لقد أشرت إلى أن الأزمة فتحت ملف الشورى والديمقراطية، وهذا مرتبط تمامًا بطبيعة أوضاعنا الثَّقَافِيَّة، فإنا من الذين يرون أمتنا فى طور انبعاث حضارى، فيها قوى منطلقة لتحقيق هذا الانبعاث، كما أن هناك قوى أخرى تحاول الحيلولة دونه، وطبيعى أن يحدث صراع بين هذين النوعين من القوى، بل طبيعى أيضًا أن ينتج عن تحرك القوى المعوقة ضغطٌ على النمو الثَّقَافِىّ يتمثل فى فرض الرقابة وعدم احترام الكلمة وعدم وجود حرية التعبير، ولكنك فى الوقت نفسه ترى جهدًا متصلًا فى الأمة للتغلب على كل هذا، ولعل معاناتنا للأزمة تمكّن من الانتصار على تلك القوى المعوقة، وتحل قضية الشورى والديمقراطية، حتى تنتعش هذه الثَّقَافَة وتبلغ صداها؛ لأن دورًا إنسانيًّا ينتظرها فى عالم يتوقُ للخلاص من أزمة القيم التى تحكم الحضارة الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..

مقدمة

ذكريات مُسْتَقْبَلِيَّة لدولة الفِكْر
محمود أمين.. العالم إهدار رُوح العقل رَجْعِيَّة مُعَاصِرَة
لويس عوض.. عبد الناصر قتل أمى
نجيب محفوظ.. الزمن بطل أعمالى
رجاء النقاش.. حق الخطأ مبدأ فِكْرِىّ
بيير جارتون.. محفوظ إشعاع رُوحِىّ إنسانى
ثروت عكاشة.. الثَّقَافَة ملتقى علوم الحياة
يحيى حقى.. ثقافتنا تخلو من المشروع الوَطَنِىّ للصعود
أليكس هيلى.. الكاتب ليس إلهًا
سهير القلماوى.. العميد سيظل ضمير مصر الأدبى
نُخبة المستشرقين.. العميد فولتير الثَّقَافَة العربية
ثروت أباظة.. لم يخطُّ قلمى اسمَ عبد الناصر فى حياته
د. ميلاد حنا.. ثَقَافَة الموزاييك.. أبجدية الوَعْى المُسْتَقْبَلِىّ
نادين جورديمر.. نعيش عصر الجنون المنظَّم
خوان غوتسيللو.. الإصلاح البراجماتى.. إجابة عن سؤال الديمقراطية
أدونيس.. البحث عن الوَعْى البديل
كارمن ريبرا.. تمنيت أن أكون شهرزاد
فالتر جروند.. صدام الحضارات أخطر النَّظَرِيَّات التآمريَّة فى التاريخ
هيلموت آرتسن.. حرب الكل ضـد الكل
كريستيسان باروش.. أسس قانون الفوضى العالمية
روبرت بانج.. قصة الغدر التاريخى
طارق حجى.. لغة الفراغ وثالوث دمار الواقع المصرى
إبراهيم بيومى مدكور.. تُرَاثنا سر الحِقْد المتفجر علينا
مصطفى إبراهيم فهمى.. الإحباط المُسْتَقْبَلِىّ لنَظَرِيَّة كل شىء
ذكريات مُسْتَقْبَلِيَّة للمشروع الإسلامي
سلمى الفاروقى.. أنا سبب إسلام جارودى
أنا مارى شميل.. أنا سفيرة الإسلام فى الغرب
جورج قنواتى.. الأديان قوة جبارة تُستخدم للتدمير
أوليفيه كاريه.. القراءة الثَّوْرِيَّة للقرآن
يوأنا فرونتسكا.. أسرار البصمة الرُّوحِيَّة للإسلام
رشدى فكَّار.. العالم الآن يعيش لحظات من التَّأَزُّم الكونى

مصطفى محمود.. نكون أو لا نكون.. سؤال الماضى والحاضر والمُسْتَقْبَل
كمال أبو المجد.. الإسلام هو الحل.. ولكن كيف؟
محمد الغزالى.. لماذا نعيش عصر انهزام القيم الإسلامية
نصر أبو زيد.. فهم النص بالحياة لا فهم الحياة بالنص
فرج فودة.. العقيدة والواقع.. إِشْكَالِيَّة مُسْتَقْبَلِيَّة
سعيد العشماوى.. أريد للإسلام أن يكون دينًا وأرادوا أن يكون سياسة
سعد مصلوح.. كارثيات الفهم المغلوط للنص
حسين مؤنس.. مقدمة إلهية للتاريخ
ذكريات مُسْتَقْبَلِيَّة للمعادلة السياسية
لطفى الخولى.. نحن ندخل تاريخًا جديدًا لا مرحلة جديدة من التاريخ
هنرى لورانس.. الجمهورية الإمبريالية... مهارات تعويق الاستقلال والديمقراطية
عصمت عبد المجيد.. تآكل سِيَادَة الدول منهج مُسْتَقْبَلِىّ
علاء طاهر.. احْتِرَافِيَّة الإرهاب الأمريكى
قدرى حفنى.. التَفْسِير النفسى للسياسة
أحمد صدقى الدجانى.. الانبعاث الحضارى للعرب.. ضرورة وجودية